

الشهيد سيد قطب (رحمه الله)

القرآن في ظلال

مختصر تفسير في ظلال القرآن حسب النزول
قام بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعة

الجزء الثاني (2)

وكالة القيس للنشر الالكتروني
ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)
الهاتف: 78 . 73 . 20 . 0662

الطبعة الرقمية الأولى (1) PDF

بومرداس الجزائر، مارس 2025

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (البقرة {286}

سورة الواقعة مكية ، و آياتها 96

الواقعة . . اسم للسورة وبيان لموضوعها معا . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة ، ردا على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن (أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون ؟ أو أبأؤنا الأولون ؟) ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهي كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم في هذا الأمر (الواقعة) إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة (وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، في ظل الهول الذي يبذل الأرض غير الأرض ، كما يبذل القيم غير القيم سواء: خافضة رافعة . . إذا رجحت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة . . الخ. ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة: السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوفى تفصيل ، يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون: أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون ؟ أو أبأؤنا الأولون) وكان العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب ! وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخيا توكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأول ؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان ، أيا كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته . يعرض نشأتهم الأولى من منى يمى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم في مجال التدليل على النشأة الآخرة ، التي لا تخرج في طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى ، التي يعرفونها جميعا . ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشأها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم توت ثمارها . ويعرض صورة الماء العذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدره الله ينزله من السحاب . ولو شاء جعله ملحا أجاجا ، لا ينبت حياة ، ولا يصلح لحياة . وصورة النار التي يوقدون ، وأصلها الذي تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها . وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم فيها إلا البقطة ليد الله وهي تنشأ وتعمل فيها . كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن "الواقعة" فيشكون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على خافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئا ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولا أن يشير ! ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق: (إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) . . فيلتمن المطلع والختام أكمل التتام . .

(إذا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ {1} لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ {2} خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ {3} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا {4} وَسَبَّتِ الْجِبَالُ بَسًا {5} فَكَانَتْ هِبَاءً مُنْبَثًا {6} وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً {7} فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ {8} وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ {9} وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ {10} أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ {11} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {12} ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَئِينَ {13} وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ {14} عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ {15} مُتَّكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ {16} يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ ولدَانٌ مَخْلُودُونَ {17} بأكوابٍ وأباريقٍ وكأسٍ من معينٍ {18} لا يصدعون عنها ولا ينزفون {19} وفاكهة مما يتخيرون {20} وكحم طير مما يستهون {21} وجورٍ عينٍ {22} كما مثال اللؤلؤ المكنون {23} جزاء بما كانوا يعملون {24} لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما {25} إلا قبيلا سلاما سلاما {26} وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين {27} في سدرٍ مخضودٍ {28} وطلحٍ منضودٍ {29} وظلٍ ممدودٍ {30} وماءٍ مسكوبٍ {31}

وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ {32} لَّا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْبُوعَةٌ {33} وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ {34} إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ
 إِنْسِيَاءً {35} فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا {36} عَرَبًا آثَرَابًا {37} لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ {38} ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ {39}
 وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ {40} وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ {41} فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ {42} وَظِلٍّ مِّنَ
 الْجَنَّةِ الْعَظِيمِ {43} لَّا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ {44} إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ {45} وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى
 الْجَنبِ الْعَظِيمِ {46} وَكَانُوا يَقُولُونَ أَنَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ {47} أَوْ آبِلُونَ
 الْأُولَىٰ {48} قُلْ إِنَّ الْأُولَىٰ وَالْآخِرِينَ {49} لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ {50} ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا
 الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ {51} لَأَكْلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ {52} فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ {53} فَشَارِبُونَ
 عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ {54} فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ {55} هَذَا نَزَلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ {56} نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
 تَصْدَقُونَ {57} أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ {58} أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ {59} نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ
 الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ {60} عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَمْ تَعْلَمُونَ {61} وَلَقَدْ
 عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَتَذَكَّرُونَ {62} أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ {63} أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الزَّارِعُونَ {64} لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حِطَامًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ {65} إِنَّا لَمَغْرُمُونَ {66} بَلْ نَحْنُ
 مَحْرُومُونَ {67} أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ {68} أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ {69}
 لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ آجَاًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ {70} أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ {71} أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
 نَحْنُ الْمُنشِئُونَ {72} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرًا وَرِمَاقًا لِلْمُقْمِينَ {73} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ {74} فَلَا
 أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ {75} وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ {76} إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ {77} فِي كِتَابٍ
 مَّكْنُونٍ {78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ {79} تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ {80} أَفَهَذَا الْحَدِيثُ أَنْتُمْ
 مُدْهِنُونَ {81} وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ {82} فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ {83} وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ
 تَنْظُرُونَ {84} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَّا تُبْصِرُونَ {85} فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ {86}
 تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {87} فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ {88} فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَّعِيمٌ {89}
 وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ {90} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ {91} وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
 الْمُكذِّبِينَ الضَّالِّينَ {92} فَنُزُلٌ مِّن حَمِيمٍ {93} وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ {94} إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ {95}
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } {96}

(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة) هذا المطلع واضح فيه التحويل في عرض
 هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة .
 فمرتبتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها . (خافضة رافعة) . . . وأنها لتخفص أقدارا
 كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقدارا كانت خفيضة في دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم
 ؛ ثم تستقيم في ميزان الله ، ولا يقول:ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ،
 وهي خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثا جديدا (إذا رجعت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت
 هباء منبثا) ومرة أخرى لا يقول:ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . . فكانما هذا الهول كله
 مقدمة ، لا يذكر نتائجها ، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة ! هذا
 الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروعة المفزعة التي يرسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة
 بمعناها وبجرس اللفظ ذاته - بما فيه من مد ثم سكون - تلقى في الحس كأنما هي ثقل ضخ
 ينقض من عل ثم يستقر ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال . ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ،
 كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجحة يحدثها حين يقع . ويلبى السياق هذا التوقع ، ثم يتبدى
 الهول في كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج رجا - وهي
 حقيقة تذكر في التعبير الذي يتسق في الحس مع وقع الواقعة - ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول
 - تحت وقع الواقعة - إلى فتات يتطاير كالهباء (وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا) فما أهول
 هذا الهول الذي يرج الأرض رجا ، ويبس الجبال بسا ، ويتركها هباء منبثا . وما أجهل الذين
 يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال ! (وكنتم
 أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشأمة . ما أصحاب المشأمة ؟
 والسابقون السابقون . . .) وتجد الناس هنا أصنافا ثلاثة - لا صنفين اثنين كما هو السائد في مشاهد
 الاستعراض القرآنية - ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة - أو أصحاب اليمين - ولكنه لا يفصل
 عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتحويل والتضخيم (فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة
) وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث ، فريق السابقين ،

يذكرهم فيصنفهم بوصفهم (والسابقون السابقون) كأنما ليقول إنهم هم هم . وكفى . فهو مقام لا يزيده الوصف شيئاً ! ومن ثم يأخذ في بيان قهرهم عند ربهم ، وتقصيل ما أعده من النعيم لهم ، وتعدد أنواعه التي يمكن أن يدركها حسى المخاطبين ، وتتناوله معارفهم وتجاربهم إنه يبدأ في بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم (أولئك المقربون في جنات النعيم) وجنات النعيم كلها لا تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصب . ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها إنهم (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) . فهم عند محدود . وفريق منقى . كثرتهم في الأولين وقلبتهم في الآخرين . واختلقت الروايات في من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول: إن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وإن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . . والقول الثاني: إن الأولين والآخرين هم من أمة محمد ﷺ فالأولون من صدرها ، والآخرين من متأخريها . وهذا القول الثاني رجحه ابن كثير . وروى في ترجيحه للحسن وابن سيرين ، وبعد بيان من هم . يأخذ في تقصيل مناعم الجنة التي أعدت لهم . وهي بطبيعة الحال المناعم التي في طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهايون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر ! (على سرر موضونة) مشبكة بالمعادن الثمينة (متكئين عليها متقابلين) في راحة وخلو بال من الهموم والمشاكل ، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاذه وفي إقبال بعضهم على بعض يتسامرون (يطوف عليهم ولدان مخلدون) لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تؤثر في شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم في الأرض (يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين) من خمر صافية سائغة (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) فلا هم يفرقون عنها ولا هي تنفذ من بين أيديهم . فكل شيء هنا للدوام والأمان (وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون) فهنا لا شيء ممنوع ، ولا شيء على غير ما يشتهي السعداء الخالدون (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون ، الذي لم يتعرض للمس والظن ، فلم تقبه يد ولم تحدشه عين ! وفي هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله (جزاء بما كانوا يعملون) فهو مكافأة على عمل كان في دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذي كان ينقص كل المناعم في دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون في هدوء وسكون ، وفي ترفيع وتنزيه عن كل لغو في الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذه (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قِيلًا: سلاماً سلاماً) حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة في ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمن . فالجو كله سلام سلام . فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذي يليه: فريق أصحاب اليمين (وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ؟) وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملية في أول السورة . ثم آخر تقصيل نعيمهم ، إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التي تفيد التفخيم والتهويل: (ما أصحاب اليمين ؟) ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادي محسوس ، يبدو في أوصافه شيء من خشونة البداوة ، ويلبى هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم ! إنهم (في سدر مخضود) والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكة ومنزوع (وطلح منضود) والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوكة . ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة (وظل ممدود ، وماء مسكوب) وتلك جميعاً من مراتع البدوي ومناعمه ، كما بطمح إليها خياله وتهفت بها أشواقه ! (وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة) تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين (وفرش مرفوعة) وهي هنا لا موضونة ولا ناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة . وللرفع في الحس معنيان . مادي ومعنوي يستدعي أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع في المكان والطهارة من الدنس . فالمرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . والمرفوع في المعنى أبعد عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج (إنا أنشأناهن إنشاء) إما ابتداء وهن الحور . وإما استئنافاً وهن الزوجات المبعوثات شواب (فجعلناهن أبكاراً) لم يمسن (عرباً) متحبات إلى أزواجهن (أتراباً) متوافيات السن والشباب (لأصحاب اليمين) مخصصات لهم . فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) فهم أكثر عدداً من السابقين المقربين . وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) هم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم في مطلع السورة (في سموم وحميم . وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم) فالهواء شواظ ساخن ينقذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يبرد ولا يروي . وهناك ظل ! ولكنه (ظل من يحموم) ظل الدخان اللاص الخانق . . . إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل (لا بارد ولا كريم) فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا برد ؛ وهو كذلك كز لا يمنح وراثة راحة ولا إنعاشاً ! . . هذا الشظف كله جزاء وفاق (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) وما ألم الشظف للمترفين ! (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) والحنث هو الذنب . وهو هنا الشرك بالله . وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذي أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحده . (وكانوا يقولون: إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو أبأؤنا الأولون) كانوا . . . هكنا يعبر القرآن ، كأنما الدنيا

التي فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هي ماض . والحاضر هو هذا المشهد وهذا العذاب ! ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبى والماب . وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا في أنسب الأوقات لهذه اللقطة ليرد على سؤالهم ذلك (قل: إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) هو هذا اليوم الحاضر المعروض المشهود ! ثم يعود إلى ما ينتظر المكذبين . فيتم صورة العذاب الذي يلقاه المترفون (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم) ولا يدري أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به في سورة أخرى من أن طلعتها كرؤوس الشياطين . ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقي في الحس ما تلقيه ! على أن لفظ (الزقوم) نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مديبا يشوك الأكف - بله الحلق - وذلك في مقابل السدر المخضود والطلح المنضود - ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لآكلون منها (فمالئون منها البطون) فالجوع طاغ والمحنة غالبية . وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلق وري البطون ! وإنهم لشاربون (فشاربون عليه من الحميم) الساخن الذي لا يبرد غله ولا يروي ظمأ (فشاربون شرب الهيم) وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء ! (هذا نزلهم يوم الدين) والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . بهذا ينتهي استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة . الخافضة الرافعة . وينتهي كذلك الشوط الأول من السورة .

فأما الشوط الثاني في السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية ، وفي تناول الدلائل الإيمانية ، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورتها القريبة الميسورة . .

من المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة . . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية - بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم - فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان: مواقع النجوم تعني هندسة الكون . نشأة الحياة الإنسانية . . وهي سر الأسرار . نشأة الحياة النباتية . . وهي كالحيات الحيوانية معجزة المعجزات . والماء . . أصل الحياة . والنار . . المعجزة التي صنعت الحضارة الإنسانية (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه (أفأريتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمني رحم امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين . تعمل وحدها في خلقه وتبنيته ، وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفي كل لحظة تالية تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله . والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لا يعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها ! هذه هي البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة (نحن قرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين) هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأي سلطان له لا يقاوم ؟ إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد . وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل (على أن تبدل أمثالكم) لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذي قدر الموت هو الذي قدر الحياة . قدر الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون ، حتى يأتي الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . . فإذا انتهت عند الأجل الذي سماه كانت النشأة الأخرى (وننشئكم فيما لا تعلمون) في ذلك العالم المغيب المجهول ، الذي لا يدري عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها ، وتصل القافلة إلى مقراها . هذه هي النشأة الآخرة (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون !) . . فهي قريب من قريب . وليس فيها من غريب (بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذي تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بيدهاتها هي ، ومن مشاهدات البشر في حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان . ومرة أخرى في بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر في مشاهداتهم ، ليريههم يد الله فيه ؛ ويطلعهم على المعجزة التي تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم ، وهم عنها غافلون: (أفأريتم ما تحرثون ؟ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلمتم تفكهن: إنا لمغرمون . بل نحن محرومون) هذا الزرع الذي ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتي ثماره . ما دورهم فيه ؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التي صنعها الله . ثم ينتهي دورهم وتأخذ يد القدرة في عملها المعجز الخارق العجيب . تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل

العارف الخبير بمراحل الطريق ! أي عقلٍ كان يمكن أن يتناول به الخيال إلى تصور هذه العجبية . لولا أنه يراها تقع بين يديه صباح مساء ؟ ولولا أن هذه القصة تتكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ وأي إنسان يمكنه أن يدعي أنه صنع شيئاً في هذه العجبية سوى الحرث والقاء البذور التي صنعها الله ؟ (أفرايتم الماء الذي تشرّبون ؟ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً . فلولا تشكرون !) وهذا الماء أصل الحياة ، وعصرها الذي لا تتشأ إلا به كما قدر الله . ما دور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أما الذي أنشأه من عناصره ، وأما الذي أنزله من سحائبه ، فهو الله سبحانه . وهو الذي قبر أن يكون عندي فكان (لو نشاء جعلناه أجاجاً) مالحة لا يستساغ ، ولا ينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان (أفرايتم النار التي تورون ؟ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثاً عظيماً في حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصححت أمراً مألوفاً لا يثير الاهتمام . . والإنسان يوري النار: أي يوقدها . ولكن من الذي أنشأ وقودها ؟ من الذي أنشأ الشجر الذي توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع . . على أن هناك لفظة أخرى في ذكر (شجرتها) . فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم . على الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة (نحن جعلناها تذكرة) تذكر بالنار الأخرى . . كما جعلناها (متاعاً للمقوين) أي للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق في نفوس المخاطبين ، لما تمثله في واقع حياتهم من مدلول حي حاضر في تجاربهم وواقعهم . وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . المبسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهي حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهب بالرسول ﷺ أن يحيي هذه الحقيقة ويؤدي حقها ؛ ويلمس القلوب بها في حينها (فسبح باسم ربك العظيم) ثم يلتفت للتفاته أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الكون في قسم عظيم من رب العالمين (فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسيم لو تعلمون عظيم - إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل ، الذي يدركونه بعيونهم المجردة . ومن ثم قال لهم (وإنه لقسيم - لو تعلمون - عظيم) فأما نحن اليوم فنذكر من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به ، نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضاً لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير ، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدوداً . مجموعة واحدة - هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية - تبلغ ألف مليون نجم ! ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بأخر في المحيط الهادي ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً . إن لم يكن مستحيلاً وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق في آثاره وتأثيراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها في هذا الفضاء الهائل (فلا أقسم بمواقع النجوم) فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم (وإنه لقسيم لو تعلمون عظيم) وهذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ! . . . إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته (في كتاب مكنون) مصون . وتفسير ذلك في قوله تعالى بعدها (لا يمسه إلا المطهرون) فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفي لهذا الزعم . فالشياطين لا يمس هذا الكتاب المكنون في علم الله وحفظه . إنما تنزل به الملائكة المطهرون . . وهذا الوجه هو أظهر الوجوه في معنى (لا يمسه إلا المطهرون) ف (لا) هنا نافية لوقوع الفعل . وليست ناهية . وفي الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والكافر ، فلا يتحقق النفي على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابس . ملابس قولهم: تنزلت به الشياطين . ونفي هذا الزعم إذ لا يمس في كتابه السماوي المكنون إلا المطهرون . ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا (تنزيل من رب العالمين) لا تنزيل من الشياطين ! وقد روي حديثان يقرران معنى آخر وهو أن لا يمس القرآن إلا طاهر . . ولكن ابن كثير قال عنهما: "وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره . ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به . وقد أسنده البارقطني عن عمرو ابن حزم وعبدالله بن عمر وعثمان بن أبي العاص . وفي إسناد كل منهما نظر والله أعلم" . ثم يأتي الإيقاع الأخير في السورة . .

لحظة الموت . . اللمسة التي ترجف لها الأوصال . واللحظة التي تنهي كل جدال . واللحظة التي يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق . حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص (أهبذا الحديث أنتم مدهنون ؟ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) أفأنتم شاكون في هذا الحديث الذي يقال لكم عن النشأة الآخرة ؛ مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون). . فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لأخريكم ؟ وما أسوأه من رزق ! فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون في مفرق الطريق المجهول ؟ ثم يصور الموقف التصوير القرآني الموحى ، الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه ، وبكل ما وراءه ، وبكل ما يوحيه (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) لنكاد نسمع صوت الحشرة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق ، كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين . هنا . في هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل عالما لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئا إلا ما أدرخت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر . هنا وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئا . هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهي مجال البشر . هنا يعرفون - ولا يجادلون - أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون . هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة . هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون)! وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره - سبحانه وتعالى - وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع . وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الأسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال (فلولا إن كنتم غير مدينين: ترجعونها إن كنتم صادقين!) فلو كان الأمر كما تقولون:إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين . فدونكم إذن فلترجعوا - وقد بلغت الحلقوم - لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء . وأنتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون ! هنا تسقط كل تعلقة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال . ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل ! ثم يمضي السياق في بيان مصير هذه الروح الذي يتراءى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم ، وتستدبر الحياة القانية ، وتستقبل الحياة الباقية . وتمضي إلى الدينونة التي يكذب بها المكذبون (فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم) وقد مرت بنا في أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذي ينتظرها:روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقى ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين والانس الكريم (وأما إن كان من أصحاب اليمين) فيلتفت بالخطاب إليه . . يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين . وما أئدى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن بالله ويشعر بالانس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين (وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية حميم) وما أسوأه نزلا ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذابا ذلك الحميم ، يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين ! والآن وقد بلغ الموقف ذروته تجيء الخاتمة في إيقاع عميق رزين (إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) فلتلقى رجاحة اليقين وثقله في ميزان الحق ، بالواقعة التي بدأت بها السورة . وتختم بما يوحيه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم . .

سورة الشعراء

مكية و آياتها 227

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا . . العقيدة . . ملخصة في عناصرها الاساسية: توحيد الله (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) والخوف من الآخرة (ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ (وانه لتنزيل رب العالمين ؛ نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين) ثم التخويف من عاقبة التكذيب ، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين ؛ وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين (فقد كذبوا فسيأتتهم آباء ما كانوا به يستهزؤون !) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وإلى طمأننة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ؛ وثببتهم على العقيدة مهما أودوا في سبيلها من الظالمين ؛ كما ثبت من قبلهم من المؤمنين . وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها . والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب . والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة ، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة ، تلتقي عند هدف واحد . . ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض . ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب ، والعذاب الذي يتبع التكذيب . ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله ﷺ واستهزاءهم بالنذر ، وإعراضهم عن آيات الله ، واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به ؛ مع التقول على الوحي والقرآن ؛ والادعاء بأنه سحر أو شعر تنزل به الشياطين ! والسورة كلها شوط واحد - مقدمتها وقصصها وتعقيبها - في هذا المضمار . لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها . ونبدأ بالمقدمة قبل القصص المختار:

{1} {طسم} {1} {تلك آيات الكتاب المبين} {2} {لعلك باخع نفسك إلا يكونوا مؤمنين} {3} {إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين} {4} {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين} {5} {فقد كذبوا فسيأتيهم آباء ما كانوا به يستهزئون} {6} {ولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم} {7} {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} {8} {وإن ربك لهُو العزيز الرحيم} {9} {واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين} {10} {قوم فرعون إلا يتقون} {11} {قال رب ائني أخاف أن يكذبون} {12} {ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون} {13} {ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون} {14} {قال كلا فإذهب باياتنا إننا معكم مستمعون} {15} {فأتيا فرعون فقولا إننا رسول رب العالمين} {16} {أن أرسل معنا بني إسرائيل} {17} {قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين} {18} {وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين} {19} {قال فعلتها إذا وأنا من الصالحين} {20} {ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين} {21} {وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل} {22} {قال فرعون وما رب العالمين} {23} {قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين} {24} {قال لمن حوله ألا تستمعون} {25} {قال ربكم ورب آبائكم الأولين} {26} {قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} {27} {قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون} {28} {قال لئن اتخذت لها غيري لأجعلنك من المسجونين} {29} {قال أولو جنك شيء مبين} {30} {قال فات به إن كنت من الصادقين} {31} {فالقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين} {32} {ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين} {33} {قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم} {34} {يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} {35} {قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين} {36} {يأتوك بكل سحار عليم} {37} {فجمع السحرة لميقات يوم معلوم} {38} {وقيل للناس هل أنتم مجتمعون} {39} {لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} {40} {فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين} {41} {قال نعم}

وَأَنجُمَ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {42} قَالَ لَهُم مُوسَى ائْتُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ {43} فَالْقَوْمَ جِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فَرَعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ {44} فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ {45} فَالْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ {46} قَالُوا أَمِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ {47} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ {48} قَالَ أَمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنِيَ لَكُمْ إِلَهَ لِكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خِلَافَ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ {49} قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ {50} إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ {51} وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ {52} فَأَرْسَلْنَا فَرَعُونَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ {53} إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشُرِيْمَةٌ قَلِيلُونَ {54} وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ {55} وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ {56} فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوُنٍ {57} وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ {58} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ {59}

(طسم . تلك آيات الكتاب المبين) ط . سين . ميم . . الأحرف المقطعة للتنبية إلى أن آيات الكتاب المبين - ومنها هذه السورة - مؤلفة من مثل هذه الأحرف ؛ وهي في تناول المكذبين بالوحي ؛ وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب المبين . والحدث عن هذا الكتاب متداول في السورة . في مقدمتها ونهايتها . كما هو الشأن في السور المبدوءة بالأحرف المقطعة في القرآن . وبعد هذا التنبيه يبدأ في مخاطبة رسول الله ﷺ الذي يهيم أمر المشركين ويؤذيه تكذيبهم له وللقرآن الكريم ؛ فيسليه ويهون عليه الأمر ؛ ويستكثر ما يعاينه من أجلهم ؛ وقد كان الله قادرا على أن يلوي أعناقهم كرها إلى الإيمان ، بأية قاهرة تقسرهم عليه قسرا (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ! إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) وفي التعبير ما يشبه العتب على شدة ضيق ﷺ وهمه بعدم إيمانهم (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وبخع النفس قتلها . وهذا يصور مدى ما كان رسول الله ﷺ يعاني من تكذيبهم ، وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب ، فتذوب نفسه عليهم - وهم أهله وعشيرته وقومه - ويضيق صدره . فربه يرأف به ، وينهه عن هذا الهم القاتل ، ويهون عليه الأمر ، ويقول له: إن إيمانهم ليس مما كلفت ؛ ولو شئنا أن نكرهم عليه لأكرهناهم ، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا ، ولا إنصافا عن الإيمان . ويصور خضوعهم لهذه الآية صورة حسية (فظلت أعناقهم لها خاضعين) ملوية محنية حتى لكان هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون ! ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزا في كل ناحية (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) ويذكر اسم الرحمن هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر ، فيبدو إعراضهم عنه مستقبحا كريها ؛ وهم يعرضون عن الرحمة التي تنزل عليهم ، ويرفضونها ، ويحرمون أنفسهم منها ، وهم أحوج ما يكونون إليها ! ويعقب على هذا الإعراض عن ذكر الله ورحمته بالتهديد بعقابه وعذابه: (فقد كذبوا فسياتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وهو تهديد مضمحل مهول . وفي التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد (فسياتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) ستأتيهم أخبار العذاب الذي يستهزئون به ! وهم لن يتلقوا أخبارا . إنما سيدوقون العذاب ذاته ، ويصبحون هم أخبارا فيه ، يتناقل الناس ما حل بهم منه . ولكنهم يستهزئون فيستهزأ بهم مع التهديد المرهوب ! وإنهم يطلبون آية خارقة ؛ ويغفلون عن آيات الله الباهرة فيما حولهم ؛ وفيها الكفاية للقلب المفتوح والحس البصير ؛ وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب (أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين) ومعجزة إخراج النبات الحي من الأرض ، وجعله زوجا ذكرا وأنثى ، إما منفصلين كما في بعض فصائل النبات ، وإما مجتمعين كما هو الغالب في عالم النبات ، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في عود واحد . . هذه المعجزة تتكرر في الأرض حولهم في كل لحظة (أو لم يروا !) والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية ؟ والمنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون ؛ وبينه الحس الخامد ، والذهن البليد ، والقلب المغلق ، إلى بدائع صنع الله المبتوثة حول الإنسان في كل مكان ؛ كي يرتاد هذا الكون الحي بقلب حي ؛ يشاهد الله في بدائع صنعه ، ويشعر به كلما وقعت عينه على بدائعه ؛ ويتصل به في كل مخلوقاته ؛ ويراقبه وهو شاعر بوجوده في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ويشعر أنه هو واحد من عباده ، متصل بمخلوقاته ، مرتبط بالنواميس التي تحكمهم جميعا . وله دوره الخاص في هذا الكون ، وبخاصة هذه الأرض التي استخلف فيها (إن في ذلك لآية) وهم يطلبون الآيات . ولكن أكثرهم لا يؤمن بهذه الآية (وما كان أكثرهم مؤمنين) ! وتنتهي مقدمة السورة بالتعقيب الذي يتكرر في السورة بعد استعراض كل آية (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) (العزيز) القوي القادر على إبداع الآيات ، وأخذ المكذبين بالعذاب (الرحيم) الذي يكشف عن آياته ، فيؤمن بها من يهتدي قلبه ؛ ويمهل المكذبين ؛ فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير . وفي آيات الكون غنى ووفرة ، ولكن رحمته تقتضي أن يبعث بالرسول للتبصير والتنوير . والتبشير والتحذير .

{60} فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ {61} قَالَ كَلَّا إِنَّ
مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ {62} فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
الْعَظِيمِ {63} وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ {64} وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ {65} ثُمَّ أَغْرَقْنَا
الْآخِرِينَ {66} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {67} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
{68}

هذه الحلقة من قصة موسى - عليه السلام - تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة ، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة ؛ وإلى طمأننة الرسول ﷺ وتعزيبته عما يلقيه من إعراض المشركين وتكذيبهم، وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتكذيب - وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة - وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم . والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملته جزاء على هذا التكذيب ، وعقابا على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين . ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين . وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وقوله (فقد كذبوا فسأيتهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون)

وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية ، بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد ، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه . وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة . وهنا سبعة مشاهد: أولها مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى - عليه السلام - وربّه . وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملته برسالته وأبتي العصا واليد البيضاء . وثالثها مشهد التأمير وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى . ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمثنون على الأجر والجزاء ! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وسادسها مشهد ذو شقين: الشق الأول مشهد إحياء الله لموسى أن يسري بعباده ليلا ، والثاني مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل . وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين . وكذلك لا نجد تكرارا في عرض القصة أبنا على كثرة ما عرضت في سور القرآن . لأن هذا التنوع في اختيار الحلقات التي تعرض ، ومشاهد كل حلقة ، والجانب الذي يختار من كل مشهد ، وطريقة عرضه . . كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع . متناسقة مع هذا الموضع) وإذ نادى ربك موسى أن أنت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ قال: رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ، فأرسل إلى هارون . ولهم علي ، ذنب فأخاف أن يقتلون . قال: كلا فأذهب باياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولاً: إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل .) الخطاب لرسول الله ﷺ بهذا القصص ، بعدما قال له في مطلع السورة: لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسأيتهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون . ثم أخذ يقص عليه أبناء المكذبين المعرضين المستهزئين ، وما جاق بهم من العذاب الأليم (وإذ نادى ربك موسى أن أنت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟) . وهذا هو المشهد الأول مشهد التكليف بالرسالة لموسى - عليه السلام - وهو يبدأ بإعلان صفة القوم (القوم الظالمين) فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال ، وظلموا بني إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسحرة والنكال . . لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم "قوم فرعون" ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان: ألا يتقون ؟ ألا يخشون ربهم ؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم ؟ ألا يرجعون عن غيهم ؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجب ! وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين ! ولم يكن أمر فرعون وملته جديدا على موسى - عليه السلام - فهو يعرفه ، ويعرف ظلم فرعون وعتوه وجبروته ، ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم . ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتصل أو يعتذر عن التكليف ، ولكن ليطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير . (قال: رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون . ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) والظاهر من حكاية قوله - عليه السلام - أن خوفه ليس من مجرد التكذيب ، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده . إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) ومن شأن هذه الحبسة أن تنشيء حالة من ضيق الصدر ، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام . وتزداد كلما زاد الانفعال ، فيزداد الصدر ضيقا . . وهكذا . . وهي حالة معروفة . فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون . فشكا إلى ربه

ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته ، وطلب إليه أن يوحى إلى هارون أخيه ، ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف ، لا نكوصا ولا اعتذارا عن التكليف . فهارون أفصح لسانا ومن ثم هو أهدأ انفعالا ؛ فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان . ولقد دعا موسى ربه - كما ورد في سورة طه - ليحل هذه العقدة من لسانه ، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيرا ومعينا . وكذلك الشأن في قوله (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة ، والتخلي عن التكليف . ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون . حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده قام هارون من بعده بالرسالة ، وأتم الواجب كما أمره ربه دون تعويق . ولما علمه ربه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل ، وطمأنه مما يخاف . والتعبير هنا يختصر مرحلة الاستجابة ، ومرحلة الإرسال إلى هارون ، ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه لهارون ؛ ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم ، في نفس اللحظة التي يطمئن الله فيها موسى ، وينفي مخاوفه نفيا شديدا ، في لفظه تستخدم أصلا للردع وهي كلمة (كلا) ! (قال: كلا فاذها بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا: إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل) كلا . لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك . وكلا لن يقتلوك . فأبعد هذا كله عن بالك بشدة . واذهب أنت وأخوك (فاذها بآياتنا) وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء - والسياق يختصرهما هنا لأن التركيز في هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة وموقف السحرة وموقف الغرق والنجاة . اذها (إنا معكم مستمعون) فآية قوة ؟ وأي سلطان ؟ وأي حماية ورعاية وأمان ؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان . ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد . فهو يرسمها في صورة الاستماع ، الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه . وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة . وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير (اذها) فأتيا فرعون فأخبراه بمهمتهما في غير حذر ولا تلجلج (فقولا: إنا رسول رب العالمين) وهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول . رسول رب العالمين . في وجه فرعون الذي يدعي الألوهية (إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل) وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى - عليه السلام - في القرآن ، أنه لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون . وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل - وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام - فبهت هذا الدين على نفوسهم ، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد . وإلى هنا نحن أمام مشهد البعثة والوحي والتكليف . ولكن الستار يسدل . لنجدنا أمام مشهد المواجهة . وقد اختصر ما هو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية (قال ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟ قال: فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففرت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين . وتلك نعمه تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة (إنا رسول رب العالمين) ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم ! (أن أرسل معنا بني إسرائيل) فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا في قصره منذ أن التقطوا تابوته . وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع الإسرائيلي . وقيل: إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون . فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهمكا مستهزئا مستعجبا (قال: ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت ، وأنت من الكافرين) فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقبيتها عندنا وأنت وليد ؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته ، وتدعو إلى إله غيره ! وما بالك - وقد لبثت فينا من عمرك سنين - لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم ؛ ولم تخطرننا بمقدمات هذا الأمر العظيم ؟! ويذكره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم (وفعلت فعلتك التي فعلت) فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها (وأنت من الكافرين) برب العالمين الذي تقول به اليوم ، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين ! وهكذا جمع فرعون كل ما حبسه ردا قاتلا لا يملك موسى - عليه السلام - معه جوابا ، ولا يستطيع مقاومة . وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من قصاص ، يتهده به من وراء الكلمات ! ولكن موسى وقد استجاب الله دعائه فأزال حبسة لسانه انطلق يجيب (قال: فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففرت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل !) فعلت تلك الضلعة وأنا بعد جاهل ، أندفع اندفاع العصبية لقومي ، لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة (ففرت منكم لما خفتكم) على نفسي . فقسم الله لي الخير: ووهب لي الحكمة (وجعلني من المرسلين) فلست بدعا من الأمر ، إنما أنا واحد من الرعيل (من المرسلين) ثم يجيبه تهكما بتهكم . ولكن بالحق (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) فما كانت تربيتي في بيتك وليدا إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل ، وقتلك أبناءهم ، مما اضطر أمي أن تلقيني في التابوت ، فتقذف بالتابوت في الماء ، فتلتقطونني ، فأربنى في بيتك ، لا في بيت أبوي . فهل هذا هو ما تمنه علي ، وهل هذا هو

فضلك العظيم؟! عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة ، وراح يسأله عن صميم دعواه . ولكن في تجاهل وهزاء وسوء أدب في حق الله الكريم (قال فرعون: وما رب العالمين؟) إنه - قبحه الله - يسأل أي شيء يكون رب العالمين الذي تقول إنك من عنده رسول؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه ، المتهكم على القول والقائل! المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور ، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث! فيجيبه موسى - عليه السلام - بالصفة المشتملة على ربوبيته - تعالى - للكون المنظور كله وما فيه (قال: رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين) وهو جواب يكافئ ذلك التجاهل ويغطيه . . إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك - يا فرعون - ولا علمك . وقصاري ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادي النيل . وهو ملك صغير ضئيل ، كالذرة أو الهباءة في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما . وكذلك كان جواب موسى - عليه السلام - يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه ، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل ، والتفكير فيمن يكون ربه . . فهو رب العالمين! . . ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته (إن كنتم موقنين) فهذا وحده هو الذي يحسن اليقين به والتصديق . وانتقت فرعون إلى من حوله ، يعجبهم من هذا القول ، أو لعله يصرفهم عن التأثر به ، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب (قال لمن حوله: ألا تستمعون؟) ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب ، الذي لا عهد لنا به ، ولا قاله أحد نعرفه! ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين (قال: ربكم ورب آبائكم الأولين) وهذه أشد مساسا بفرعون ودعواه وأوضاعه ، فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه ، فما هو إلا واحد من عبيده . لا إله كما يدعي بين قومه! وهو رب قومه ، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم! وهو رب آباؤهم الأولين . فالوراثة التي تقوم عليها الوهية فرعون دعوى باطلة . فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين! وإنها للقاصمة لفرعون . فما يطبق عليها سكوها والملا حولها يستمعون . ومن ثم يرمي قائلها في تهكم بالجنون (قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) إن رسولكم الذي أرسل إليكم . . يريد أن يتهمك على مسألة الرسالة في ذاتها ، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم ، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها . ويتهم موسى - عليه السلام - بالجنون ، ليذهب أثر مقاله التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم . وترد الناس إلى الله ربهم ورب آباؤهم الأولين . ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى ، فيمضي في طريقه يصعد بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين (قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما . إن كنتم تعقلون) والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم! ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما ، وشدة ألفتها . واللفظ يدل على الشروق والغروب . كما يدل على مكاني الشروق والغروب . وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما . فمن يصرفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الإطراد الذي لا يتخلف مرة ولا يبطل عن أجله المرسوم؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هنا ، ويوقظ العقول الغافية إيقاظا . وموسى - عليه السلام - يثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير (إن كنتم تعقلون) والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ؛ ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة ؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمانر الغافية . ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور ، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب . فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين (قال: لنن اتخذ إلها غيري لأجعلنك من المسجونين) هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين . فليس السجن عليه ببعيد . وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع . وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جاشه . . وكيف وهو رسول الله! والله معه ومع أخيه! فإذا هو يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يغلقتها ويستريح . يفتحها بقول جديد ، وبرهان جديد (قال: أولو جنتك بشيء مبين؟) وحتى لو جنتك ببرهان واضح على صدق رسالتك فإنك تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملا الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ؛ ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته ، وهو يدعي أنه مجنون . ومن ثم وجد نفسه مضطرا أن يطلب منه الدليل (قال: فأت به إن كنت من الصادقين) إن كنت من الصادقين في دعواك؟ أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئا مبينا . فهو ما يزال يشكك في موسى ، خيفة أن تترك حجته في نفوس القوم شيئا . هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . وترع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلا إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا يدل على هذا بقوله (فإذا هي) فلم يكن الأمر تخبيلا ، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة . ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر ، معجزة تقع في كل لحظة ، ولكن الناس لا يلقون لها بالا ، لطول الألفه والتكرار ، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي فاما في مثل هذا المشهد . وموسى - عليه السلام - يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويهرب . وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ؛ فأسرع يقاومها

ويدفعها ؛ وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله ؛ ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ، ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون .) . وفي قوله فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحرا ؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر (عليم) ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يرغبهم به (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) ويبدو تضعفه وتهاوليه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إله ، فيطلب أمرهم ومشورتهم (فماذا تأمرون ؟) ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون ! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلبثون في القول بعد التجبر . ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يوسونها بالأقدام ، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى . ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون ! وأشار عليه الملأ ؛ وقد خدعتهم مكيدته ، وهم شركاء فرعون في باطله ، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير ، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول . . أشاروا عليه أن يلقي سحره بسحر مثله ، بعد التهيئة والاستعداد (قالوا: أرحه وأخاه . وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحر عليم) أي أمهله وأخاه إلى أجل ؛ وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى ، يجمعون السحرة المهرة ، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه . وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون ، والناس يجمعون للمباراة ، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ؛ وتهايا أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والظلم (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ؟) وتظهر من التعبير حركة الإهابة والتحميس للجماهير (هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة) هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد ، ليقرب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي ! والجماهير دائما تتجمع لمثل هذه الأمور ، دون أن تظن إلى أن حكماها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات ، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس . وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام ! ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة ؛ يطمنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم ! (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أتئن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين ؟ قال: نعم ، وإنكم لمن المقربين) وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة ماجورة يستعين بها فرعون الطاغية ؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره ؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما في كل مكان وفي كل زمان . وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبه ولعبهم وبراعتهم في الخداع . وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر . يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه . وهو بزعمه الملك والإله ! ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام أجمعين الناس و السحرة المحشودين من المدائن ، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة ، ووراءهم فرعون وملؤه ، وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة . . يتجلى هنا الاطمئنان في تركه إياهم يبدؤون (قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون) وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة (ألقوا ما أنتم ملقون) بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام . وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته (فألقوا حبالهم وعصيتهم وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيتهم ، كما فصله في سورة الأعراف وطه ، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق ، وينتهي مسارعا إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل ؛ لأن هذا هو هدف السورة الأصيل (فألقى موسى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون) ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة ؛ فلقد بذلوا غاية الجهد في فهمهم الذي عاشوا به وأتقنوه ؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه . وهم جمع كثير . محشود من كل مكان . وموسى وحده وليس معه إلا عصاه . ثم إذا هي تلقف ما يأفكون ؛ واللطف أسرع حركة للأكل . وعهدهم بالسحر أن يكون تخيلا ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيتهم حقا . فلا تبقى لها أثرا . ولو كان ما جاء به موسى سحرا ، لبقيت حبالهم وعصيتهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعها . ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلا ! عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلا . وهم أعرف الناس بأنه الحق (فألقى السحرة ساجدين . قالوا: أمانا برب العالمين . رب موسى وهارون) وهم قد كانوا منذ لحظة ماجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية . ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولهم تحويلا . لقد كانت هزة رجتهم رجا ، وخضتهم خضا ؛ ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافية حيه خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، في لحظات قصار . فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجدا ، بغير إرادة منهم ، تتحرك أسنتهم ، فتنتلق بكلمة الإيمان ، في نصاعة وبيان (أمانا برب العالمين . رب موسى وهارون) وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا . وصدق رسول الله ﷺ ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن . إن شاء أقامه وإن شاء آزاعه " . وهكذا انقلب السحرة الماجورون ،

مؤمنين من خيار المؤمنين . على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه . لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج ، ولا يعينهم ماذا يفعل أو ماذا يقول . ولا يد أن كان لهذا الانقلاب المفاجيء وقع الصاعقة على فرعون وملئه . فالجماهير حاشدة . وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة . عبأوهم باكذوبة أن موسى الإسرائيلي ، ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ، ويريد أن يجعل الحكم لقومه ؛ وأن السحرة سيغلبونه ويفضحونه . ثم ها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته . ثم يغلبون حتى ليقرنوا بالغلب ؛ ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله ، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله ، ويخلعون عنهم عبادة فرعون ، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته ، وانتظروا أجره ، واستفتحوا بعزته ! وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون ، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش . أسطورة الألوهية ، أو بنوته للآلهة - كما كان شائعا في بعض العصور - وهؤلاء هم السحرة . والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها . ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين ، رب موسى وهارون ، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهونهم بها . فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة ، والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشا ولا تحمي حكما . إن لنا أن نقدر زعر فرعون لهذه المفاجأة ، وذعر الملأ من حوله ، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة ؛ وهي إيمان السحرة الكهنة هنا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سحبا معترفين منيبين . عندئذ جن جنون فرعون ، فلقأ إلى التهديد الغيظ بالعذاب والنكال . بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى ! (قال : أنتم له قبل أن أذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين) (أنتم له قبل أن أذن لكم) لم يقل أنتم به . إنما عده استسلاما له قبل إذنه . على طريقة المناورات التي يديرها صاحبها وهو مالك لإرادته ، عارف بهدفه ، مقدر لعاقبته . ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم . ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللامسات الوضيئة ؛ ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة - وهم من الكهنة - كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تنبأ ، أو كان يختلف إليهم في المعابد . فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر فبدلا من أن يقول : إنه لتلمذكم قال : إنه لكبيركم . ليزيد الأمر ضخامة وتهويلا في أعين الجماهير ! ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين : (فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية ، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه ، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة ، بلا تحرج من قلب أو ضمير . . وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول . . فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور ! إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان . القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير (قالوا : لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) لا ضير . لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف . لا ضير في التصليب والعذاب . لا ضير في الموت والاستشهاد . . لا ضير .. إنا إلى ربنا منقلبون . وليكن في هذه الأرض ما يكون فالطمع الذي تتعلق به ونرجوه (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) جزاء (أن كنا أول المؤمنين) وأن كنا نحن السابقين . يا لله ! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر . وإذ يفيض على الأرواح . وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس . وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر ، فإذا كل ما في الأرض تأفه حقير زهيد . هنا يسدل الستار على هذه الروعة الغامرة . لا يزيد شيئا . ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإبقاعه العميق . وهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب . فأما بعد ذلك فالله يتولى عبادة المؤمنين . وفرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشردمة قليلون . وإنهم لنا لغاظلون . وإنا لجميع حائرون) وهنا فجوة في الوقائع والزمن لا تذكر في هذا الموضوع . فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة ، وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة في سورة الأعراف قبل أن يوحى الله لموسى بالرحيل بقومه . ولكن السياق هنا يطويها ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة واتجاهها الأصيل . لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يسري بعباده . وأن يرحل بهم ليلا ، بعد تدبير وتنظيم . ونبأه أن فرعون سيبتهم بجنده ؛ وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر [وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات] وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة ، فأمر بما يسمى "التعبئة العامة" وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ، ليدرك موسى وقومه ؛ ويفسد عليهم تدبيرهم ؛ وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير ! وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند . . ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون ، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم ، حتى ليحتاج الملك الإله - بزعمه ! - إلى التعبئة العامة . ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين (إن هؤلاء لشردمة قليلون) ! ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم ، والاحتشاد

لهم وهم شردمة قليلون ! (وإنهم لنا لغائظون) فهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يغيظ ويغضب ويثير ! وإذن فلهم شأن وخطر على كل حال ! فليقل العملاء: إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد (وأنا لجميع حاذرون) مستيقظون لمكائدهم ، محتاطون لأمرهم ، ممسكون بزمام الأمور ! إنها حيرة الباطل المتحير دائما في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين ! وقبل أن يعرض المشهد الأخير ، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع . وورثة بني إسرائيل المستضعفين: (فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك ، وأورثناها بني إسرائيل) لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم . فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة . وكانت إخراجا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين . تعجيبا بالجزاء على الظلم والبطر والبغي الوخيم (وأورثناها بني إسرائيل) ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ؛ وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه . لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم . وبعد هذا الاعتراض يجيء المشهد الحاسم الأخير (فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون . قال: كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين) لقد أسرى موسى بعباد الله ، بوحي من الله وتدبير . فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر . ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته . والمعركة تصل إلى ذروتها . . إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون حوضه وما هم بمسلحين . وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكى السلاح يطلبونهم ولا يرحمون ! وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم (قال أصحاب موسى: إنا لمدركون) وبلغ الكرب مداه ، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين ! ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه ، لا يشك لحظة وملاء قلبه الثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة ، وإن كان لا يدري كيف تكون . فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه (قال: كلا إن معي ربي سيهدين) كلا . في شدة وتوكيد . كلا لن نكون مدركين . كلا لن نكون هالكين . كلا لن نكون مفتونين . كلا لن نكون ضائعين (كلا إن معي ربي سيهدين) بهذا الجزم والتأكيد واليقين . وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر) ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم . إنما يعجل بالنتيجة (فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم) ووقعت المعجزة ، وتحقق الذي يقول عنه الناس: مستحيل . لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور . والله الذي خلق السنن قادر على أن يجربها وفق مشيئته عندما يريد . وقعت المعجزة وانكشف بين فرقي آلاء طريق . ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم . واقتحم بنو إسرائيل . ووقف فرعون من جنوده مبعوثا مشدوها بذلك المشهد الخارق ، وذلك الحادث العجيب . ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتا فأطال الوقوف - وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف - قبل أن يأمر جنوده بالافتحاح وراءهم في ذلك الطريق العجيب . وتم تدبير الله . فخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر ، بينما كان فرعون وجنوده بين فرقي الماء أجمعين . وقد قربهم الله لمصيرهم المحتوم (وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) (ثم أغرقنا الآخرين)!!! ومضت آية في الزمان ، تتحدث عنها القرون . فهل آمن بها الكثيرون ؟ (إن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين) فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما . وإن خضع لها الناس قسرا . إنما الإيمان هدي في القلوب (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) التعقيب المعهود في السورة بعد عرض الآيات والتكذيب . . .

(وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ {69} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ {70} قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْ لَهَا عَاقِبِينَ {71} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ {72} أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ {73} قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {74} قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ {75} أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ {76} فَاتَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ {77} الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {78} وَالَّذِي هُوَ بِطَعْمِنِي وَيَسْقِينِي {79} وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي {80} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي {81} وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ {82} رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ {83} وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ {84} وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ {85} وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ {86} وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ {87} يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ {88} إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ {89} وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ {90} وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ {91} وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ {92} مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ {93} فَكَبَّكُوا فِيهَا هَمًّا وَالْغَاوُونَ {94} وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ {95}

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ {96} تَاللَّهِ إِنَّ كُفْرًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {97} إِذْ نَسُواكُمْ بَرِيءَ
 الْعَالَمِينَ {98} وَمَا أَوْلَانَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ {99} فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ {100} وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ {101}
 فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {102} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {103}
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {104}

مضت قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ؛ وانتهت بتلك النهاية ، وفيها البشري للمؤمنين
 المستضعفين المضطهدين - كما كانت القلة المؤمنة يومذاك في مكة - وفيها الدمار للظالمين
 المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين . فالآن تتبعها قصة إبراهيم - عليه السلام - وقومه
 . ويؤمر الرسول ﷺ أن يتلوها على المشركين . ذلك أنهم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم ، وأنهم على
 دينه القديم ؛ وهم يشركون بالله ، وقيمون الأصنام لعبادتها في بيته الحرام ، الذي بناه إبراهيم
 خالصا لله . . قاتل عليهم نبي إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون . والقصص في هذه السورة لا
 يتبع الخط التاريخي ، لأن العبرة وحدها هي المقصودة . فأما في سورة الاعراف مثلا فقد كان الخط
 التاريخي مقصودا ، لعرض خط وراثة الأرض ، وتتابع الرسل من عهد آدم - عليه السلام - فمضى
 القصص فيها يتبع خط التاريخ ، منذ الهبوط من الجنة ، وبدء الحياة البشرية . والحلقة التي تعرض
 هنا من قصة إبراهيم - عليه السلام - هي حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ،
 وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله . والتذكير باليوم الآخر . يعقب هذا مشهد كامل
 من مشاهد القيامة ، ينتكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذي انتهى بهم إلى ما هم فيه .
 كأنهم قد صاروا فعلا إلى ما هم فيه ! وهنا عبرة القصة للمشركين . . ومن ثم يتوسع في الحديث
 عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ؛ ومصير المشركين في يوم الدين . لأن
 التركيز متجه إليها . ويختصر ما عدا ذلك مما يفصله في سور أخرى . وقد وردت حلقات من قصة
 إبراهيم - عليه السلام في البقرة ، والأنعام ، وهود ، وإبراهيم ، والحجر ، ومريم ، والأنبياء ، والحج
 . وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها العام . وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها
 وظلها (وائل عليهم نبي إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه: ما تعبدون ؟) اتل عليهم نبي إبراهيم الذي
 يزعمون أنهم ورثته ، وأنهم يتبعون ديانتَه . اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من
 أصنام كهذه الأصنام التي يعبدها المشركون في مكة ؛ وهو يخالف أباه وقومه في شركهم ،
 وينكر عليهم ما هم عليه من ضلال ، ويسألهم في عجب واستنكار (ما تعبدون ؟) (قالوا: نعبد
 أصناما فننظر لها عاكفين !) وهم كانوا يسمون أصنامهم الهة . فحكاية قولهم: إنها أصنام . تنبئ
 بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك يعكفون لها ،
 ويدابون على عبادتها . وهذه نهاية السخف . ولكن العقيدة متى زاغت لم يقطن أصحابها إلى ما
 تحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم ! وبأخذ إبراهيم - عليه السلام - بوقظ قلوبهم الغافية ،
 وينبه عقولهم المتبلدة ، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير (قال هل يسمعونكم إذ
 تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟) فأقل ما يتوفر لإله بعيد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه
 إليه بالعبادة والابتهال ! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع
 والضر . فإن كانت صماء لا تسمع فهل هي تملك النفع والضر ؟ لا هذا ولا ذلك يمكن أن يدعوه !
 ولم يجب القوم بشيء عن هذا فهم لا يشكون في أن إبراهيم إنما يتهمكم ويستنكر ؛ وهم لا
 يملكون حجة لدفع ما يقول . فإذا تكلموا كشفوا عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي ولا
 تفكير (قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) إن هذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع . ولكننا
 وجدنا آباءنا يعكفون عليها ، فعكفنا عليها وعبدناها ! وهو جواب مخجل . ولكن المشركين لم
 يخجلوا أن يقولوه ، كما لم يخجل المشركون في مكة أن يفعلوه . فقد كان فعل الآباء لآمر
 كفيلا باعتباره دون بحث ؛ بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آباؤهم
 ، فيخلوا باعتبار أولئك الآباء ، ويقرروا أنهم كانوا على ضلال . وهذا مالا يجوز في حق الذاهبين !
 وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق ، فيؤثرونها على الحق ، في فترات التحجر
 العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس ، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر
 والانطلاق والتفكير . وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم - على حلمه وأناته - إلا أن يهزم بعنف ،
 ويعلم عداوته للأصنام ، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات ! (قال: أفرأيتم ما
 كنتم تعبدون أنتم وأبؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن
 قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدايته لآلهتهم وعقيدتهم ، هم وأبؤهم -
 وهم أبأوه - الأقدمون ! وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم ؛ وأن
 الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع له يكون
 حيث يكون . واستثنى إبراهيم (رب العالمين) من عدايته لما يعبدون هم وأبؤهم الأقدمون (فإنهم
 عدو لي إلا رب العالمين) فقد يكون من آباؤهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم
 وتتحرف ؛ وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أخرى مدعاة . فهو الاحتياط إذن في القول

، والدقة الواعية في التعبير ، الجديران بإبراهيم - عليه السلام - في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق . ثم يأخذ إبراهيم - عليه السلام - في صفة ربه . رب العالمين . وصلته به في كل حال وفي كل حين . فنحس القربى الوثيقة ، والصلة الندية ، والشعور بيد الله في كل حركة ونأمة ، وفي كل حاجة وغاية (الذي خلقتني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقيني . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميّنتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله في تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه . وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حب ؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . . . والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل ، بالإيقاع العذب الرخي اللين المنيد (الذي خلقتني فهو يهدين) الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم ؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني ، ووظائفي ومشاعري ، وحالي ومالي: (فهو يهدين) إليه ، وإلى طريقه الذي أسلكه ، وإلى نهجي الذي أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم - عليه السلام - أنه عجينة طيبة في يد الصانع المبدع ؛ يصوغها كيف شاء ، على أي صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين (والذي هو يطعمني ويسقيني . وإذا مرضت فهو يشفين) فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه - وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح - إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه . ويشفيه . ولا ينكره في مقام الابتلاء حين يبتليه (والذي يميّنتني ثم يحيين) فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم - عليه السلام - النبي الرسول ، الذي يعرف ربه هذه المعرفة ، ويشعر بربه هذا الشعور ، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى . . . أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين . فهو لا يبرئ نفسه ، وهو يخشى أن تكون له خطيئة ، وهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع في فضل ربه ، ويرجو في رحمته ، وهذا وحده هو الذي يطعمه في العفو والمغفرة . إنه شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج ؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل . ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد ، يتوجه به إلى ربه في إيمان . والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض ؛ ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى ؛ تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذي عرف الله فاصبح يحتقر ما عداه . والذي ذاق فهو يطلب المزيد ؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد (رب هب لي حكماً) أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة ، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى (وألحقني بالصالحين) يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم . فبالتواضع ! وبالتحرج ! وبالإشفاق من التقصير ! وبالإلحاح من تقبل القلوب ! وبالإصرار على مجرد اللحاق بالصالحين ! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين ! واجعل لي لسان صدق في الآخرين (دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد ، لا بالنسب ولكن بالعقيدة ؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق ، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم (واجعلني من ورثة جنة النعيم) وقد دعا ربه - من قبل - أن يلحقه بالصالحين ، بتوقيفه إلى العمل الصالح ، الذي يسلكه في صفوفهم . وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون) واغفر لأبي إنه كان من الضالين (ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم - عليه السلام - من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربي ؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه(فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة . . . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ؛ وكانت العدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة (ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) ونستشف من قوله إبراهيم - عليه السلام (ولا تخزني يوم يبعثون) مدى شعوره بهول اليوم الآخر ؛ ومدى حياته من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره . وهو النبي الكريم . كما نستشف من قوله (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ، ومن كل غرض . وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض ؛ وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير ! وهنا يرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذي يتقيه إبراهيم ؛ فكانما هو حاضر ، ينظر إليه ويراه ، وهو يتوجه لربه بذلك الدعاء الخاشع المنيب (وأزلت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم: أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؛ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؛ فككبوا فيها هم والغاوين ، وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون: تالله

إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ! لقد قربت الجنة وعرضت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين . ولقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين ، وإنهم لعلی مشهد من الجحيم يقفون . حيث يسمعون التقرير والتأنيب ، قبل أن يكذبوا في الجحيم . . إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله - وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون - إنهم ليسألون اليوم (أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟) أين هم (هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟) ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقرير والتأنيب (فكذبوا فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعون) كذبوا . . وإنا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشئ من الكيكة ، كما ينهار الجرف فتبعه الجروف . فهو لفظ مصور بحرسه لمعناه . وإنهم لغاؤون ضالون ، وقد كذب معهم جميع الغاؤون هم (وجنود إبليس أجمعون) والجميع جنود إبليس . فهو تعميم شامل بعد تخصيص . ثم نستمع إليهم في الجحيم . . إنهم يقولون لألهتهم من الأصنام (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) فنعبدكم عبادته . إما معه وإما من دونه . الآن يقولونها بعد فوات الأوان ! وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم ، الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) فلا الهة تشفع ، ولا صداقات تنفع . . وإذا لم تكن شفاعاة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها ؟ (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) ! وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعاة فهذا يوم الدين ! ثم يجيء التعقيب المعهود (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وهو نفس التعقيب الذي جاء في السورة بعد عرض مصارع عاد وثمود وقوم لوط إذ يصور نهاية قوم إبراهيم . ونهاية الشرك كافة . وهو موضع العبرة في قصص السورة جميعا .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ {105} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ {106} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {107} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {108} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {109} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {110} قَالُوا أَنْزَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعُوا الْأَزْدَانِ {111} قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {112} إِنْ حَسِبْتُمْ أَنَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ {113} وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ {114} إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ {115} قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِي نُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ {116} قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ {117} فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {118} فَانجِبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ {119} ثُمَّ اغْرَمْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ {120} إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {121} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } {122}

كما رجع السياق القهقري في التاريخ من قصة موسى إلى قصة إبراهيم ، كذلك يرجع القهقري من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . إن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا ، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب وقصة نوح تعرض في سور شتى من القرآن (كذبت قوم نوح المرسلين) تلك هي النهاية . نهاية القصة . يبدأ بها لإبرازها منذ البداية . ثم يأخذ في التفصيل . وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحا . ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين . فالرسالة في أصلها واحدة ، وهي دعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبودية له . فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين ، فهذه دعوتهم أجمعين (كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح: ألا تتقون ؟) إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعوا . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعوا (هذه هي دعوة نوح التي كذب فيها قومه - وهو أخوهم - وكان الألبق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق . ولكن قومه لم يابها لهذه الصلة ، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم (ألا تتقون ؟) وتخافون عاقبة ما أنتم فيه ؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته ؟ وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد في هذه السورة . فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم . وهكذا قال نوح لقومه . وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح (إني لكم رسول أمين) لا يخون ولا يخذل ولا يغش ، ولا يزيد شيئا أو ينقص شيئا مما كلفه من التبليغ . (فاتقوا الله وأطيعوا) وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله ، ويحددها في هذه المرة ، وينسبها إلى الله تعالى ، ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم . ثم يطمئنه من ناحية الدنيا وأعراضها ، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله ، وما يطلب منهم اجرا جزاء هدايتهم إليه ، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس . وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائما ضروريا للدعوة الصحيحة ، تميزا لها مما عهدته الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد . وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائما مصدر ابتزاز للأموال بشتى

الأساليب . فأما دعوة الله الحقّة فكان دعائها دائماً متجردين ، لا يطلبون أجراً على الهدى . فأجرهم على رب العالمين . وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستقلال (فاتقوا الله وأطيعوا) ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب . وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول (قالوا:أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؟)

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء . وهم السابقون إلى الرسل والرسالات ، وإلى الإيمان والاستسلام . لا يصددهم عن الهدى كبرياء فارغة ، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة . ومن ثم فهم الملبون السابقون . فأما الملام من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم ، وتقعد بهم مصالحهم ، القائمة على الأوضاع المزيفة ، المستمدة من الأوهام والأساطير ، التي تلبس ثوب الدين . ثم هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة . قيمة الإيمان والعمل الصالح . قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين . بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم . ومن ثم يجيبهم نوح الجواب الذي يقرر القيم الثابتة ؛ ويحدد اختصاص الرسول ، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون (قال:وما علمي بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين) والكبراء يقولون دائماً عن الفقراء:إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضي العلية ، ولا تطاق في أوساط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف ! فنوح يقول لهم:إنه لا يطلب إلى الناس شيئاً سوى الإيمان . وقد آمنوا . فأما عملهم قبله فموكول إلى الله ، وهو الذي يزنه ويقدره . ويجزيهم على الحسنات والسيئات . وتقدير الله هو الصحيح (لو تشعرون) بالقيم الحقّة التي ترجح في ميزان الله . وما وظيفتي إلا الإنذار والإفصاح (إن أنا إلا نذير مبين) فلما أن واجههم نوح - عليه السلام - بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم ؛ وعجزوا عن المضى في الجدل بالحجة والبرهان ، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان . لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان ، عندما تعوزهم الحجة ، ويججزهم البرهان (قالوا:لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح ، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة ، وعرف نوح أن القلوب الجاسية لن تلين هنا توجه نوح إلى الولي الوحيد ، والناصر الفريد ، الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين (قال:رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحة ، ونجني ومن معي من المؤمنين) وربّه يعلم أن قومه كذبوه . ولكنه البث والشكوى إلى الناصر المعين ، وطلب النصفة ، ورد الأمر إلى صاحب الأمر (فافتح بيني وبينهم فتحة) يضع الحد الأخير للبغي والتكذيب: (ونجني ومن معي من المؤمنين) واستجاب الله لنبيه الذي يتهدده الطغيان بالرحم ، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله ، وطاعة رسوله ، لا يطلب على ذلك أجراً ، ولا يتبغى جاهاً ولا مالا (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقيين) هكنا في إجمال سريع . يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان في فجر البشرية . ويقرر مصير كل معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل . ثم يجيء التعقيب المكرور في السورة عقب كل آية من آيات الله العزيز الرحيم (إن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

{كذبت عاد المرسلين} {123} إذ قال لهم أخوهم هودٌ ألا تتقون {124} {إني لكم رسول أمين} {125} فاتقوا الله وأطيعون {126} {وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين} {127} أتبنون بكل ريع آية تعبثون {128} {وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون} {129} وإذا بطشتم بطشتم جبارين {130} فاتقوا الله وأطيعون {131} واتقوا الذي أمركم بما تعلمون {132} أمركم بأنعام وينين {133} وجنات وعيون {134} {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} {135} قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين {136} {إن هنا إلا خلق الأولين} {137} وما نحن بمعدنين {138} فكذبوه فاهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين {139} {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} {140}

وقوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن . وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة (كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود:ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرينى إلا على رب العالمين) فهي الكلمة الواحدة يقولها كل رسول:دعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله . وإعلان للزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة ، وترفع عن قيم الأرض الزائلة ، وتطلع إلى ما عند الله من أجر كريم . ثم يزيد ما هو خاص بحال القوم وتصرفاتهم ، فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة ، والإعلان عن الثراء ، والتكاثر والاستطالة في البناء ؛ كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا ، وما

يسخرونه فيها من القوى ، وغفلتهم عن تقوى الله ورقابته (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟) والريع هو المرتفع من الأرض . والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة . ومن ثم سماه عبثاً . ولو كان لهداية المارة ، ومعرفة الإتيان ما قال لهم: "تعبثون" . . فهو توجيهه إلى أن ينفق الجهد ، وينفق البراعة ، ويبدو كذلك من قوله (وتتخذون مصانع لعلكم الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة . ويبدو كذلك من قوله (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يذكر ؛ حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور ، وتشبيد العلامات على المرتفعات ؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت ، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء . ويمضي هود في استنكار ما عليه قومه (وإذا بطشتم ببطشتم جبارين) فهم عتاة غلاظ ، يتجبرون حين يبطشون ؛ ولا يتخرجون من القسوة في البطش . شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون . وهنا يردهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله ، لينهه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة (فاتقوا الله وأطيعون) ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتناولون ويتجبرون . وكان الأجدر بهم أن يذكروا فيشكروا ، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم ، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش والبطر الذميم ! (واتقوا الذي أمركم بما تعلمون . بالمعنى والنعم على وجه الإجمال أولا (أمركم بما تعلمون) وهو حاضر بين أيديهم ، يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه ، ثم يفصل بعض التفاصيل (أمركم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون) وهي النعم المعهودة في ذلك العهد ؛ وهي نعمة في كل عهد . . ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم . في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب . فهو أخوهم ، وهو واحد منهم ، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه . ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف ، لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة . فإذا الأصرار والعناد والاستهتار (قالوا:سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين فما يعنينا أن تعظ أو ألا تكون أصلا من الواعظين ! وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة . يتبعه ما يشي بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد ! (إن هذا إلا خلق الأولين . . وما نحن بمعذبين) فحجتهم فيما هم عليه ، وفيما يستنكره عليهم هود ، أنه خلق الأولين ونهجهم . وهم يسرون على الأولين ! ثم إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأولين ! (وما نحن بمعذبين)! ولا يستطرد السياق هنا في تفصيل ما تار بينهم وبين رسولهم من جدل ؛ فيمضي قدما إلى النهاية: (فكذبوه فأهلكناهم) وفي كلمتين اثنتين ينتهي الأمر ؛ ويطوى قوم عاد الجبارون ؛ وتطوى مصانعهم التي يتخذون ؛ ويطوى ما كانوا فيه من نعيم ، من أنعام وبنين وجنات وعيون .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ {141} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ {142} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {143} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {144} وَمَا أَسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {145} أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ {146} فِي جَنَاتٍ وَعَيْونَ {147} وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ {148} وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ {149} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {150} وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ {151} الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ {152} قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ {153} مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ {154} قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ {155} وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ {156} فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ {157} فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {158} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) {159}

إنها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول . ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التي يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهرًا ومنهجًا ، في أصلها الواحد الذي تقوم عليه ، وهو الإيمان بالله وتقواه ، وطاعة الرسول الآتي من عند الله . ثم يزيد ما هو من شأن ثمود خاصة ، وما تقتضيه طبيعة الموقف وطبيعة الظروف . إذ يذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة - [وقد كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبي ﷺ بدورهم المدمرة مع صحابته في غزوة تبوك] - ويخوفهم سلب هذه النعمة ، كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه (أتركون فيما ها هنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلوعها هضيم . وتحتون من الجبال بيوتا فارهين ؟) وإنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح . ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ؛ ولا يتدبرون منشأه ومآته ، ولا

يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذ النعيم . فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته ، ويخافوا زواله . وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية ، وتنبه فيها الحرص والخوف (أتتركون في ما هاهنا آمنين ؟) أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة . . وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . . أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت ، ولا يزعجكم سلب ، ولا يفزعكم تغيير ؟ أتتركون في هذا كله من جنات وعيون ، وزروع متنوعات ، ونخل جيدة الطلع ، سهلة الهضم حتى كان جناها مهضوم لا يحتاج إلي جهد في البلون ! وتتركون في البيوت تحتونها في الصخور بمهارة وبراعة ، وفي أناقاة وفراهة ؟ وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى ، وإلى الطاعة ، وإلى مخالفة الملائجائرين البعيدين عن الحق والقصد ، الميالين إلى الفساد والشر (فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) ولكن هذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الحاقية ، فلا تصغي لها ولا تلتين: (قالوا:إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) إنما أنت ممن سحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعرفون ! كأنما الدعوة إلى الله لا يدعوها إلا مجنون ! (ما أنت إلا بشر مثنا) وتلك هي الشبهة التي ظلت تخاليل للبشرية كلما جاءها رسول . فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيبا دائما ؛ وما كانت تدرك حكمة الله في أن يكون الرسول بشرا ، وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشري باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور . وكانت البشرية تتصور الرسول خلقا آخر غير البشر . أو هكذا ينبغي أن يكون ؛ ما دام يأتي إليها بخبر السماء ، وخبر الغيب ، وخبر العالم المحجوب عن البشر . . ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذي كرمه الله به ، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال بالملائ الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم . يأكل وينام ويتزوج ويمشي في الأسواق . ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع ، وهو متصل بذلك السر العظيم (قال:هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) لقد جاءهم بالناقة ، على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوما للناقة ويوما لهم ، لا يجورون عليها في يومها ، ولا تجور عليهم في يومهم ، ولا يختلط شرابها بشرابهم ، كما لا يختلط يومها بيومهم . ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم . فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين ؟ إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة ؛ ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة . على الرغم من قهرها لهم وتحديدهم بها . وإتهم لم يحفظوا عهدهم ، ولم يوفوا بشرطهم (فعقروها فأصبحوا نادمين) والعقر هو النحر . والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ولقد حذرهم منهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير . ومن ثم كتبت خطيبتها على الجميع ، وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم . ولقد ندم القوم على الفعلية ، ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير (فأخذهم العذاب) ولا يفصل نوعه هنا للمسارعة والتعجيل ! ثم يجيء التعقيب (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

(كَتَبْتُ قَوْمَ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ {160} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ {161} إِيَّيْكُمْ رَسُولٌ آمِينَ {162} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {163} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {164} أَنَاتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ {165} ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ {166} قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ {167} قَالَ إِيَّيْكُمْ لَعْمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ {168} رَبِّ بَنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ {169} فَنجيناه وأهله أجمعين {170} إنا عجزوا في الغابرين {171} ثم دمّرنا الآخرين {172} وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين {173} إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين {174} وإن ربك لهو العزيز الرحيم {175})

تجيء قصة لوط هنا . ومكانها التاريخي كان مع قصة إبراهيم . ولكن السياق التاريخي ليس ملحوظا في هذه السورة - كما أسلفنا - إنما الملحوظ وحدة الرسالة والمنهج ، وعاقبة التكذيب: من نجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح . يستنكر استهتارهم ؛ ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى ، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة ، ويطمئنهم إلى أنه لن يفضعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى . ثم يواجههم باستنكار خطيبتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ (أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط [وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن] هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور ، وترك النساء . وهو انحراف في الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى ؛ وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيبته في امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى . فكان هذا الميل طرفا من

الناموس الكوني العام ، الذي يجعل كل من في الكون وكل ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود . فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمى إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة . واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة . فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط . ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ، لخروجهم من ركب الحياة ، ومن موكب الفطرة ، ولتعريضهم من حكمة وجودهم ، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق النزواج والتوالد . فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها . تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة ، وإلى سنة الفطرة: (قالوا:لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) وقد كان فيهم غريبا . وقد عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه ، وترك وطنه وأرضه ، وعبر الأردن مع إبراهيم والقلة التي آمنت معه . ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم ، ليردهم عما هم فيه ، فإذا بهم يهدونه بالإخراج من بينهم ، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم ! عندئذ لم يبق إلا أن يعالنتهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ ؛ في تفرزوا واستبشعوا (قال:إني لعملكم من القالين) والقلبي هو :الكراهة البالغ . يقذف به لوط في وجوههم في اشمزاز . ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله (رب نجني وأهلي مما يعملون) وهو لا يعمل عملهم ؛ ولكنه يحس بفطرته الصادقة أنه عمل مرد مهلك . وهو فيهم . فهو يتوجه إلى ربه أن ينجيه وأهله مما سيأخذ به قومه من التدمير . واستجاب الله دعوة نبيه (فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين) هذه العجوز هي امرأته - كما يذكر في سور أخرى - وقد كانت عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة ، وتعينهم عليها ! (ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا ، فساء مطر المنذرين) قبل خسفت قراهم وغطاها الماء . ومنها قرية سدوم . ويظن أنها ثابوية تحت البحر الميت في الأردن . وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدنا كانت أهلة بالسكان . وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين . وعلى أية حال فقد قص القرآن نبأ قري لوط - على هذا النحو - وقوله الفصل في الموضوع . ثم يعقب على مصرعهم بالتعقيب المكرور: إن في ذلك لآية:وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . .

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ {176} إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ {177} إِيَّايَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {178} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {179} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {180} أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ {181} وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ {182} وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْبَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ {183} وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحَبْلَةَ الْأُولَى {184} قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ {185} وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ {186} فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ {187} قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ {188} فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ {189} إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ {190} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) {191}

وهذه قصة شعيب - ومكانها التاريخي قبل قصة موسى - تجيء هنا في مساق العبرة كبقية القصص في هذه السورة . وأصحاب الأيكة هم - غالبا - أهل مدين . والأيكة الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت تجاورها هذه الغيضة الوريضة من الأشجار . وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة . وقد بدأهم شعيب بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر ، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين) وقد كان شأنهم - كما ذكر في سورتي الأعراف وهود - أن يطففوا في الميزان والمكيال ، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقهم ، ويعطوا أقل من حق الناس ، ويشترروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدو أنهم كانوا في ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها . وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله ، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة . ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات الناس . ثم استجاش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم ، وهو يذكرهم بخالفهم الواحد . خالق الأجيال كلها والسابقين جميعا (واتقوا الذي خلقكم والحبلة الأولى) فما كان منهم إلا أن يطلقوا عليه الاتهام بأنه مسحور ، فهو يخلط ويهذي بما يقول (قالوا:إنما أنت من المسحورين) وإلا أن يستنكروا رسالته . فهو بشر مثلهم ، وما هكذا - في زعمهم - يكون الرسول . ويرمونه بالكذب فيما يقول (وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين) وإلا أن يتحدوه أن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقا فيما يدعيه ؛ وأن يسقط عليهم رجوما من السماء ، أو يحطمها

عليهم ويسقطها قطعاً (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وهو تحدي المستهتر الهازي ء المستهين ! وهو شبهه بتحدي المشركين للرسول الكريم (قال:ربي أعلم بما تعملون) ويعجل السياق بالنهاية دون تفصيل ولا تطويل (فكذبوه . فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم) قيل:أخذهم حر خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور . ثم تراءت لهم سحابة ، فاستظلوا بها ؛ فوجدوا لها برداً ، ثم إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفرعهم وتدمرهم تدميراً . وكان ذلك " يوم الظلة " فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم ! ثم يجيء التعقيب المكرور (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) ويختم القصص في السورة ليجيء على إثره التعقيب الأخير . .

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ {193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ {195} وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولَئِينَ {196} أُولِمَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ {197} وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ {198} فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ {199} كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ {200} لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ {201} فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {202} فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ {203} أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ {204} أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ {205} ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ {206} مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ {207} وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ {208} ذَكَرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ {209} وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ {210} وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ {211} إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمُعْزَلُونَ {212} فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعْذَبِينَ {213} وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ {214} وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {215} فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ {216} وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ {217} الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ {218} وَتَقَلِّبُ فِي السَّاجِدِينَ {219} إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {220} هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مِنَ تَنْزَلِ الشَّيَاطِينِ {221} تَنْزِيلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ {222} يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ {223} وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ {224} أَلَمْ تَرِ أَنََّّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ {225} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ {226} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) {227}

انتهى القصص وكله يعرض قصة الرسل والرسالات . وقصة التكنيب والإعراض . وقصة التحدي والعقاب . وقد بدأ هذا القصص بعد مقدمة السورة . والحديث فيها خاص برسول الله ﷺ ومشركي قريش(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتتهم آيات ما كانوا به يستهزؤون) ثم سيق القصص ، وكله نماذج للقوم يأتيهم آباء ما كانوا به يستهزؤون ! فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذي تضمنته المقدمة ؛ فجاء هذا التعقيب الأخير ، يتحدث عن القرآن ، فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين - ومنه هذا القصص الذي مضت به القرون ، فإذا القرآن ينزل به من رب العالمين - ويشير إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن ، لأنه مذكور في كتب الأولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ؛ ويزعمون أنه سحر أو شعر ؛ ولو أن أعجمياً لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين . لأن العناد هو الذي يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد ﷺ كما تنزل بالأخبار على الكهان . وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتاً والشعراء يهيمون في كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيراً للمشركين ، قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن يأتيهم آباء ما كانوا به يستهزؤون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين) وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . نزل به الروح الأمين جبريل - عليه السلام - نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله ﷺ وهو أمين على ما نزل به ، حفيظ عليه ، نزل به على قلبه فتلقاه تلقياً مباشراً ، ووعاه وعياً مباشراً . نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين . هو لسان قومه الذي يدعوهم به ، ويتلو عليهم القرآن . وهم يعرفون مدى ما يملك البشر أن يقولوا ؛ ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وإن كان بلغتهم ؛ وأنه بنظمه ، وبمعانيه ، وبمنهجه ، وبتناسقه . يشي بأنه أت من مصدر غير بشري بيقين . وينتقل من هذا الدليل الذاتي إلى دليل آخر خارجي(وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التي جاء

بها في كتب الأولين . ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلمهم ؛ ويحدث بعضهم بعضا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي ، ولسان عبد الله بن سلام - رضي الله عنهما - والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين . إنما يكابر المشركون ويعاندون لمجرد المكابرة والعدا ، لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل ؛ فلو جاءهم به أعجمي لا ينطق العربية فتلاه عليهم قرانا عربيا ما آمنوا به ، ولا صدقوه ، ولا اعترفوا أنه موحي به إليه ، حتى مع هذا الدليل الذي يجبهه المكابرين (ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) وفي هذا تسريه عن رسول الله ﷺ وتصوير لعنادهم ومكابرتهم في كل دليل . ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم . فهكذا قضى الأمر أن يتلقوه بالتكذيب ، كأنه طبع في قلوبهم لا يحول . حتى يأتيهم العذاب وهم في غفلة لا يشعرون (كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب لهم . فيقول: إنه على هذه الهيئة . هيئة عدم الإيمان والتكذيب بالقرآن . على هذه الهيئة نظمناه في قلوبهم وأجريناه . فهو لا يجري فيها إلا مكذبا به . ويظل على هيئته هذه في قلوبهم (حتى يروا العذاب الأليم) (فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) وقد بقي بعضهم فعلا على هذا الوضع حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم إلى العذاب الأليم . . وفي هذه اللحظة فقط يفيقون (فيقولوا: هل نحن منظرون ؟) هل نحن مؤجلون إلى فرصة أخرى ، نصلح بها ما فات . وهيهات هيهات ! ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله ، على سبيل الاستهزاء والاستهتار ، واغترارا بما هم فيه من متاع ، يبلد حسهم ، ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب والنكال . شأنهم شأن ذوي النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ؛ وقلما يتصورون أن تحول . فهو يوظفهم هنا من هذه الغفلة ، ويرسم لهم صورتهم حين يحل بهم ما يستعجلون (أفيعدابنا يستعجلون ؟ أفأريت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) فيضع صورة الاستعجال بالعذاب في جانب . وفي الجانب الآخر تحقق الوعيد . وإذا سنون المتاع ساقطة كأنها لم تكن ، لا تغني عنهم شيئا ، ولا تخفف من عذابهم . وفي الحديث الصحيح: " يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له: هل رأيت خيرا قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول: لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول: لا والله يا رب " . . ثم يخوفهم بأن الإنذار مقدمة الهلاك . وأن رحمة الله ألا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولا ، يذكرها بدلائل الإيمان (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين) ولقد أخذ الله على البشر عهد الفطرة أن يوحدوه ويعبدوه . والفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد ما لم تضسد وتنحرف . وبث دلائل الإيمان في الكون ، كلها يوحى بوجود الخالق الواحد . فإذا نسي الناس عهد الفطرة ؛ وأغفلوا دلائل الإيمان ، جاءهم نذير يذكرهم ما نسوا ، ويوظفهم إلى ما أغفلوا . فالرسالة ذكرى تذكر الناسين وتوقظ الغافلين . زيادة في العدل والرحمة (وما كنا ظالمين) في أخذ القرى بعد ذلك بالعذاب والهلاك . فإنما هو جزاء النكسة عن خط الهدى ومنهج اليقين . ثم يبدأ معهم جولة جديدة عن القرآن الكريم (وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) لقد قرر في الجولة الماضية أنه تنزير رب العالمين نزل به الروح الأمين ؛ واستطرد مع تكذبيهم به ، واستعجالهم ما يتوعدهم من عذاب فيه . . وها هو ذا ينفي دعوهم أنه من وحي الشياطين على طريقة الكهان ، الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب ، وبالسمع الذي يتكهنون فيه بالأخبار . وما يليق هذا القرآن بالشياطين . وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان . والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر . وما هم بمستطيعين أن يأتوا به . فهم معزولون عن سماع الوحي به من الله . إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين . وليس هذا بميسور للشياطين . وهنا يلتفت بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يحذره من الشرك - وهو أبعد من يكون عنه - ليكون غيره أولى بالحنز . ويكلفه إنذار عشيرته الأقربين . ويأمره بالتوكل على الله ، الذي يلحظه دائما ويرعاه (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل: إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم) (وحين يكون الرسول ﷺ متوعدا بالعذاب مع المعذبين ، لو دعا مع الله إلها آخر . وهذا محال ولكنه فرض للتقريب . فكيف يكون غيره ؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين ؟! وليس هنالك محاباة ، والعذاب لا يتخلف حتى عن الرسول ، لو ارتكب هذا الإثم العظيم ! وبعد إنذار شخصه ﷺ يكلف إنذار أهله . لتكون لمن سواهم عبرة ، أن هؤلاء يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون (وأنذر عشيرتك الأقربين) روى البخاري ومسلم أنه لما نزلت هذه الآية أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه ! فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله ﷺ يا بني عبد المطلب . يا بني فهر . يا بني لؤي . أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ " قالوا: نعم . قال: " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله (تبت يدا أبي لهب وتب . . .) كذلك بين الله لرسوله كيف يعامل المؤمنين الذين يستجيبون لدعوة الله على يديه (واخفض جناحك لمن اتبعك من

(المؤمنين) فهو اللين والتواضع والرفق في صورة حسية مجسمة . صورة خفض الجناح ، كما يخفض الطائر جناحيه حين يهبط بالهبوط . وكذلك كان رسول الله ﷺ مع المؤمنين طوال حياته فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم . وكذلك بين الله له كيف يعامل العصاة فيكلهم إلى ربهم ، ويبرأ مما يعملون (فإن عصوكم فقل:إني بريء مما تعملون) وكان هذا في مكة ، قبل أن يؤمر الرسول ﷺ بقتال المشركين . ثم يتوجه به ﷺ إلى ربه ، يصله به صلة الرعاية الدائمة القريبة (وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم) دعهم وعصيانهم ، متبرئاً من أعمالهم ، وتوجه إلى ربك معتمداً عليه ، مستعينا في أمرك كله به . ويصفه - سبحانه - بالصفتين المكررتين في هذه السورة:العزة والرحمة . ثم يشعر قلب الرسول ﷺ بالأنس والقربى . فربه يراه في قيامه وحده للصلاة ، ويراه في صفوف الجماعة الساجدة . يراه في وحدته ويراه في جماعة المصلين يتعهدهم وينظمهم ويؤمهم وينقل بينهم . يرى حركاته وسكناته ، ويسمع خطراته ودعواته (إنه هو السميع العليم) وفي التعبير على هذا النحو إنباس بالرعاية والقرب والملاحظة والعناية . وهكذا كان رسول الله ﷺ يشعر أنه في كنف ربه ، وفي جواره وقربه . وفي جو هذا الأنس العلوي كان يعيش . . . والجولة الأخيرة في السورة حول القرآن أيضا . ففي المرة الأولى أكد أنه تنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . وفي المرة الثانية نفى أن تنزل به الشياطين . أما في هذه المرة فيقرر أن الشياطين لا تنزل على مثل محمد ﷺ في أمانته وصدقه وصلاح منهجه ؛ إنما تنزل على كل كذاب أثم ضال من الكهان الذي يتلقون إحياءات الشياطين وبذيعونها مع التضخيم والتهويل (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؛ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) وكان في العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار ، وكان الناس يلجأون إليهم ويركنون إلى نبوءاتهم . وأكثرهم كاذبون . والتصديق بهم جري وراء الأوهام والأكاذيب . وهم على أية حال لا يدعون إلى هدى ، ولا يأمرن بتقوى ، ولا يقودون إلى إيمان . وما هكذا كان رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم . ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحيانا:إنه شعر ، ويقولون عن النبي ﷺ:إنه شاعر . وهم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لا يعرفون له نظيرا ، والذي يدخل إلى قلوب الناس ، ويهز مشاعرهم ، ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له ردا . فجاء القرآن يبين لهم في هذه السورة أن منهج محمد ﷺ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلا . فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح ، ويدعو إلى غاية محددة ، ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية . والرسول ﷺ لا يقول اليوم قولا ينقضه غدا ، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة ؛ إنما يصير على دعوة ، ويثبت على عقيدة ، و يداب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة . تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت . ويرون الأمر الواحد في لحظة أسود . وفي لحظة أبيض . يرضون فيقولون قولا ، ويسخطون فيقولون قولا آخر . ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال ! هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها ، ويتخيلون أفعالا ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها . فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء ، لأنهم يخلقون هم في خيالهم واقعا آخر يعيشون عليه ! وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة ، الذي يريد تحقيقها في عالم الواقع ودنيا الناس . فلصاحب الدعوة هدف ، وله منهج ، وله طريق . وهو يمضي في طريقه على منهجه إلى هدفه مفتوح العين ، مفتوح القلب ، يقظ العقل ؛ لا يرضى بالوهم ، ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام ، حتى تصبح واقعا في عالم الناس فمنهج الرسول ﷺ ومنهج الشعراء مختلفان ، ولا شبهة هناك ، فالأمر واضح صريح (والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون)فهم يتبعون المزاج والهوى ومن ثم يتبعهم الغاؤون الهائمون مع الهوى ، الذين لا منهج لهم ولا هدف . وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول ، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات . وهم يقولون ما لا يفعلون . لأنهم يعيشون في عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ، يؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم ! ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها ، لأنهم عاشوها في تلك العوالم الموهومة ، وليس لها واقع ولا حقيقة في دنيا الناس المنظورة ! ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا) هؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام . هؤلاء آمنوا فامتلت قلوبهم بعقيدة ، واستقامت حياتهم على منهج . وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل ، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام . وانتصروا من بعد ما ظلموا فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصره الحق الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها في إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله ﷺ حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم - من شعراء الأنصار ، ومنهم عبد الله بن الزبير ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد كانا يهجون رسول الله ﷺ في جاهليتهما ، فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول الله ونافحا عن الإسلام . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: " اهجهم - أو قال هاجهم - وجبريل معك " . .

وعن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله ﷺ : " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل " [رواه الإمام أحمد] والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها . وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ، ليكون شعرا أو فنا يرضاه الإسلام . وليس من الضروري أن يكون دفاعاً ولا دعواً ؛ ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيدها له أو لأيام الإسلام ورجاله . . ليس من الضروري أن يكون في هذه الموضوعات ليكون شعرا إسلاميا . وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصباح ، ممزوجة بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد بالله في حسه لهي الشعر الإسلامي في صميمه . وإن لحظة إشراق واتصال بالله ، أو بهذا الوجود الذي أبدعه الله ، لكفيلة أن تنشئ شعرا يرضاه الإسلام . ومفروق الطريق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها ، وللعلاقات والروابط فيها . فأبما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام . وتختتم السورة بهذا التهديد الخفي المجمل (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب . كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون . تنتهي بهذا التهديد المخيف . الذي يلخص موضوع السورة . وكأنه الإيقاع الأخير المرهوب ، يتمثل في صور شتى ، يتمثلها الخيال ويتوقعها . وتزلزل كيان الظالمين زلزالا شديدا .

سورة النمل

مكية و آياتها 93

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ؛ وهي تمضي على نسقها في الأداء: مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ؛ وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكد ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات . وموضوع السورة الرئيسي - كسائر السور المكية - هو العقيدة ... الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله ، لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ؛ وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله . ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني ؛ وتصوير عاقبة المكذبين بها ، وعاقبة دوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وكذلك شأن المشركين في مكة كان مع آيات القرآن المبين . وتليها إشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان - عليهما السلام - ثم قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهي نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان - وهو عبد من عباد الله - واستقبال قريش لكتاب الله . هؤلاء يكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو الذي وهب سليمان ما وهب ، وسخر له ما سخر . وهو الذي يملك كل شيء ، وهو الذي يعلم كل شيء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذي لا يغيض . وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تأمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله ، وتببيتهم قتله ؛ ثم مكر الله بالقوم ، ونجاة صالح والمؤمنين معه ، وتدمير ثمود مع المتأمرين (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وقد كانت قريش تتأمر على رسول الله ﷺ وتبيت له ، كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين . ويختتم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم باخراجه من قريتهم هو والمؤمنون معه ، بحجة أنهم أناس يطهرون ! وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم ، وتركهم للدمار: (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين). . ولقد همت قريش بإخراج الرسول ﷺ وتأمرت في ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل . فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله (قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . الله خير أما يشركون ؟). . ثم أخذ يطوف معهم في مشاهد الكون ، وفي أغوار النفس . يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق ، الذي يعلم الغيب وحده ، وهم إليه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة ، وما ينتظر المكذبين بالساعة في ذلك اليوم العظيم . ويختتم السورة بإيقاع يناسب موضوعها وجوها (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين . وقل: الحمد لله . سيريكم آياته فاعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون) والتركيز في هذه السورة

على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويحه بهذا التعليم . . ومن ثم يجيء في مقدمة السورة) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (ويجيء في التعقيب (قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . بل أدرك علمهم في الآخرة) وأن ربك لتعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين (ويجيء في الختام (سيريكم آياته فتعرفونها) ويجيء في قصة سليمان (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالنا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) وفي قول سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) وفي قول الهدد (ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وعندما يريد سليمان استحضر عرش الملكة ، لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفرت من الجن ، إنما يقدر على هذه (الذي عنده علم من الكتاب) وهكذا تبرز صفة العلم في جو السورة نظللها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام . ويمضي سياق السورة كله في هذا الظل ، حسب تتابعه الذي أسلفنا . فنأخذ في استعراضها تفصيلا .

(طِسْ تَلِكْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ {1} هُدًى وَبِشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ {2} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {3} إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَمَهُمْ يَعْمَهُونَ {4} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ {5} وَإِنَّكَ تَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ {6}

(طا . سين) الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة والقرآن كله . وهي متاحة لجميع الناطقين بالعربية . وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتابا كهذا القرآن ، بعد التحدي والإفحام . ويلى ذلك التنبيه ذكر القرآن (تلك آيات القرآن وكتاب مبين) والكتاب هو نفسه القرآن . وذكره بهذه الصفة هنا يبدو لنا أنه للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ؛ واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذي أرسله إليهم سليمان . وهو عبد من عبد الله . ثم يصف القرآن أو يصف الكتاب بأنه (هدى وبشرى للمؤمنين) وهذه أبلغ مما لو قيل: فيه هدى وبشرى للمؤمنين . فالتعبير القرآني على هذا النحو يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين . والقرآن يمنح المؤمنين هدى في كل فج ، وهدى في كل طريق . كما يطلع عليهم بالبشرى في الحياتين الأولى والآخرة . وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة . . إن القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه . إنما القرآن كتاب يخاطب القلب ، أول ما يخاطب ؛ ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح ، الذي يتلقاه بالإيمان واليقين . وكلما كان القلب نديا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ؛ وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف ؛ واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادف . وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المطموس ! والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى . . إنهم هم (الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون) يقيمون الصلاة . . فيؤدونها حق أدائها ، يقظة قلوبهم لموقفهم بين يدي الله ، شاعرة أرواحهم بانهم في حضرة ذي الجلال والإكرام ، مرتفعة مشاعرهم إلى ذلك الأفق الوضيء ، مشغولة خواطرهم بنجاء الله ودعائه والتوجه إليه في محضره العظيم . ويؤتون الزكاة . . فيظهرون نفوسهم من رذيلة الشح ؛ ويستعلون بارواحهم على فتنة المال ؛ ويصلون إخوانهم في الله ببعض ما رزقهم الله ؛ ويقومون بحق الجماعة المسلمة التي هم فيها أعضاء . وهم بالآخرة هم يوقنون . . فإذا حساب الآخرة يشغل بالهم ، ويصدهم عن جموح الشهوات ، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة . وعند ذكر الآخرة يركز عليها ويؤكد في صورة التهديد والوعيد لمن لا يؤمنون بها ، فيسدرون في غيهم ، حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فيهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب ، وهم في الآخرة هم الأخسرون) والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة . والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب ، وهي قصيرة مهما طال . وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيتها التي لا تنال ! ثم ما الذي يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته ، وتحقيق لذاته ورغباته ؛ وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي الله ؛ ولا يتوقع ثوابا ولا عقابا يوم يقوم الأشهاد ؛ ومن ثم يقول القرآن عن الذين لا يؤمنون بالآخرة (زينا لهم أعمالهم فيهم يعمهون) فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنفذت سنة الله في أن تصيح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم . . وهذا هو معنى التزيين في هذا المقام . فهم يعمهون لا يرون ما فيها من شر وسوء . أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب . والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء (أولئك الذين لهم سوء العذاب . وهم في الآخرة هم الأخسرون) . سواء كان سوء العذاب لهم في الدنيا أو في الآخرة ، فالخسارة المطلقة في الآخرة ، محققة جزاء وفاقا على الاندفاع في سوء الأعمال .

وتنتهي مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهي الذي يتنزل منه هذا القرآن على رسول الله ﷺ (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ولفظ (تلقي) يلقي ظل الهدية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم . يصنع كل شيء بحكمة ، ويدبر كل أمر بعلم . . وتتجلى حكمته وعلمه في هذا القرآن . في منهجه ، وتكليفه ، وتوجيهاته ، وطريقته . وفي تنزيله في إبانته . وفي توالي أجزائه . وتناسق موضوعاته . ثم يأخذ في القصص . وهو معرض لحكمة الله وعلمه وتدبيره الخفي اللطيف .

(إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخبرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ }7{
فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسَبَّحَانَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ }8{ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }9{ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ }10{ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ }11{ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ }12{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ }13{ وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين }14{

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى - عليه السلام - بعد قوله تعالى في هذه السورة (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) وكأنما ليقول لرسول الله ﷺ إنك لست بدعا في هذا التلقي . فيها هو ذا موسى يتلقى التكليف ، وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه . وليس ما تلقاه من قومك بدعا في التكذيب . فيها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم آيات الله ، ولكنهم يجحدون بها ظلما وعلواً (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ولينظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين (إذ قال موسى لأهله:إني آنست نارا . ساتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون)

وقد ذكر هذ الموقف في سورة طه . وهو في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر ، ومعه زوجه بنت شيعب عليه السلام . وقد ضل طريقه في ليلة مظلمة باردة . يدل على هذا قوله لأهله (ساتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) وكان ذلك إلى جانب الطور . وكانت النيران توفد في البرية فوق المرتفعات لهداية السالكين بالليل ؛ فإذا جاءوها وجدوا القرى والدفاع ، أو وجدوا الدليل على الطريق (إني آنست نارا) فقد رآها على بعد ، فشعر لها بالطمأنينة والأنس . وتوقع أن يجد عندها خبر الطريق ، أو أن يقبس منها ما يستدفي به أهله في قر الليل في الصحراء . ومضى موسى - عليه السلام - إلى النار التي أنسها ، ينشد خيرا ، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها . وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله ، وتتصل به العوالم والأفلاك ؛ ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح . النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض ، وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير ، ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله (فلما جاءها نودي) بهذا البناء للمجهول - وهو معلوم - ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم (نودي أن بورك من في النار ومن حولها) فمن ذا كان في النار ؟ ومن ذا كان حولها ؟ إنها على الأرجح لم تكن نارا من هذه النار التي نوقدها . إنما كانت نارا مصدرها الملام الأعلى . نارا أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى . وترأت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها . ومن ثم كان النداء (أن بورك من في النار) إيذانا بفيض من البركة العلوية على من في النار من الملائكة ومن حولها . . وفي من حولها موسى . . وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا . ومضت هذه البقعة في سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلي ذي الجلال عليها ، وإذنه لها بالبركة الكبرى (وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء: (وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين ، وكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم . وارتفعت البشرية كلها في شخص موسى - عليه السلام - إلى ذلك الأفق الوضي الكريم . ووجد موسى الخبر عند النار التي أنسها ، ولكنه كان الخبر الهائل العظيم ؛ ووجد القبس الدافئ ، ولكنه كان القبس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم . وكان النداء للأصطفاء ؛ ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض في ذلك الحين . ومن ثم جعل ربه يعده ويجهزه ويقويه (وألق عصاك) باختصار هنا ، حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذي في سورة طه . لأن العبرة المطلوبة هي عبرة النداء والتكليف (فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبرا ولم يعقب) فقد ألقى عصاه كما أمر ؛ فإذا هي تدب وتسعى ، وتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير السريع من الحيات " الجان " . وأدركت موسى - عليه السلام - طبيعته الانفعالية ، وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له ببال ، وجرى بعيدا عن الحية دون أن يفكر في الرجوع ! وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال (ثم نودي موسى بالنداء العلوي المطمئن ؛ وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه) يا موسى لاتخف إني لا يخاف لدي

(المرسلون) لا تخف . فأنت مكلف بالرسالة . والرسل لا يخافون في حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء . فإني غفور رحيم) إنما يخاف الذين ظلموا . ذلك إلا أن يبدلوا حسنا بعد سوء ، ويدعوا الظلم إلى العدل ؛ ويدعوا الشرك إلى الإيمان ، ويدعوا الشر إلى الخير . فإن رحمتي واسعة وغفرائي عظيم . والآن وقد اطمأن موسى وفر ، يجهزه ربه بالمعجزة الثانية ، قبل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) وكان هذا . وأدخل موسى يده في فتحة ثوبه - وهي جيبه - فخرجت بيضاء مشرقة لا عن مرض ، ولكن عن معجزة . ووعده ربه أن يؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذي شاهد منه اثنتين ؛ وكشف له حينئذ عن وجهته التي من أجلها دعاه وجهزه ورعاه ! (في تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوما فاسقين) ولم يعد هنا بقية هذه الآيات التسع ، التي كشف عنها في سورة الأعراف . وهي سنون الجذب ، ونقص الثمرات ، الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها . وعلى وضوحها وجود القوم لها (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا: هذا سحر مبين . وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) هذه الآيات الكثيرة العدد ، الكاشفة عن الحق ، حتى ليبصره كل من له عينان . ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة ، فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى . ومع هذا فقد قالوا عنها: إنها سحر مبين ! قالوا ذلك لا عن اقتناع به ، ولا عن شبهة فيه . إنما قالوه (ظلما وعلوا) وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه: (واستيقنتها أنفسهم) قالوا جحودا ومكابرة ، لأنهم لا يريدون الإيمان ، ولا يطلبون البرهان . استلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستلاء الذميمة . وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن ، ويستيقنون أنه الحق ، ولكنهم يجحدونه ، ويجحدون دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الله الواحد . ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم ، لما وراءها من أوضاع تسندهم ، ومغانم تتوافد عليهم (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وعاقبة فرعون وقومه معروفة ، كشف عنها القرآن في مواضع أخرى . إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة ، لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه ، إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ {15})
 وورث سليمان داوود وقال يا أيها الأساس علمنا منطبق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين {16} وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون {17} حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون {18} فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين {19} وتقدم الطير فقال مالي لا أرى الهدى أم كان من الغائبين {20} لأعذبت عذابا شديدا أو لأذبحته أو ليأتيني بسلطان مبين {21} فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبيا يقين {22} إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم {23} وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون {24} ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون {25} الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم {26} قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين {27} اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون {28} قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم {29} إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم {30} ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين {31} قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون {32} قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين {33} قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون {34} وإني مرسله إليهم بهديّة فناظرة بما يرجع المرسلون {35} فلما جاء سليمان قال أمبؤون بمال فما آتاني الله خيّر ممّا آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون {36} ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنود لا قبيل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون {37} قال يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعرضها قبيل أن يأتوني مسلمين {38} قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبيل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين {39} قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبيل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم {40} قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا

يَهْتَدُونَ {41} فَلَمَّا جَاءَتْ قَبِيلَ أَهْكَدَا عَرْشِكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ {42} وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ {43} قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مَمْرُودٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {44}

قصة سليمان - عليه السلام - في هذه السورة مبسوسة بتوسع أكثر منها في أية سورة أخرى . وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته . حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ . يمهدها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير وإعطائه من كل شيء . وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكب من الجن والإنس والطير ، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب ، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله ، وإدراكه أن النعمة ابتلاء ، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء . ومناسبة ورود هذا القصص إجمالاً في هذه السورة ما سبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن ، وتقرير أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات في تاريخ بني إسرائيل . أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو في عدة مواضع منها ومن السورة التركيز في جو السورة وظلالها على العلم - كما أسلفنا في أوائلها - والإشارة الأولى في قصة داود وسليمان هي (ولقد آتينا داود وسليمان علماً) وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإشارة إلى تعليمه منطق الطير (وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير). وعذر الهدهد عن غيبته في ثنايا القصة يبدأ بقوله (أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبياً يقين) والذي عنده (علم) من الكتاب هو الذي يأتي بعرش الملكة في غمضة عين . وافتتاح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين . وهم يتلقونه بالكذب . وفي القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ ، فما تلبث طويلاً حتى تأتي هي وقومها مسلمين . لما رآته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير . والله هو الذي سخر لسليمان ما سخر ، وهو القاهر فوق عباده وهو رب العرش العظيم . وفي السورة استعراض لنعم الله على العباد ، وآياته في الكون ، واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ، ولا يشكرونه . وفي القصة نموذج للعبد الشاكر ، الذي يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه ؛ المتبهر بآيات الله الذي لا يغفل عنها ، ولا تبطره النعمة ، ولا تطفئ القوة . . فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها . وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة في القرآن ، ولطريقة الأداء الفني كذلك . فهي قصة حافلة بالحركة ، وبالمشاعر ، وبالمشاهد ، وبتقطيع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها !

فلنأخذ في عرضها بالتفصيل (ولقد آتينا داود وسليمان علماً . وقالوا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) هذه هي إشارة البدء في القصة وإعلان الافتتاح . خبر تقريره عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان - عليهما السلام نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم في سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلاً يتحارب به الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه في مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التي تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطوير الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء . ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان . وأما سليمان ففي هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ؛ بالإضافة إلى ما ذكر في سور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله . تبدأ القصة بتلك الإشارة (ولقد آتينا داود وسليمان علماً) وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد لله الذي فضلها بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين . ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار . وللايحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ، ولا منسياً له إياه . وهو بعض منته وعطاياه . والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه . لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله . ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها . ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؛ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قبيلتي "هيروشيما" . و"ناجازاكي" وغير الخوف والقلق الذي يورق جفون الشرق والغرب ويتهدهما بالتحطيم والدمار والفناء ؛ وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانتهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث (وورث سليمان داود . وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير ،

وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين) وداود أوتي الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر في صد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان . إنما يذكر العلم . لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال ! (وورث سليمان داود) والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التي تستاهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس (قال:يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء) فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل ببقية النعم من إسنادها إلى المصدر الذي علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيته من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) ينديعها سليمان - عليه السلام - في الناس تحدثا بنعمة الله ، وإظهارا لفضله ، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليها (إن هذا لهو الفضل المبين) فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله . وكذلك لا يوتي أحدا من كل شيء - بهذا التعميم - إلا الله . وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم - هي لغاتها ومنطقها - فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . و ذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فاما ما وهبه الله لسليمان - عليه السلام - فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم . أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان - عليه السلام - في هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ! وإنه لايسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لذنبة مئة ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع . و هو خالق هذه الأنواع ! أعلى من هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التي أتاحتها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطيور لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء . والطائفة التي سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير . يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه عقل الناس وأذكارهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز . . حقيقة إن سنة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ؛ وإن خلقه الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام . وإنها خاضعة - كحلقة مفردة - للناموس العام ، الذي يقتضي وجودها على النحو الذي وجدت به . وحقيقة إن الهدهد الذي يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذي وجد منذ ألف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وإن هناك عوامل وراثية خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقي إلى نوع آخر . . وإن هذا - كما يبدو - طرف من سنة الله في الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون . ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريد الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذي لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر في موعده الذي لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدده سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التي سخرت له في ذلك الزمان . ونعود من هنا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور فهم يوزعون) فهذا هو موكب سليمان محشود محشور . يتألف من الجن والإنس والطيور . والإنس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أي من لهيب متموج من النار و أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والبنائيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويعوضون له في البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطيور . ونقول:إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان - إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور . وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره (فهم يوزعون) حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكري منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة الحشد والتنظيم (حتى إذا أتوا على وادي النمل . قالت نملة:يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال:رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني

برحمتك في عبادك الصالحين) لقد سار موكب سليمان من الجن والإنس والطير . في ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتألم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه (وادي النمل) قالت نملة . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي - ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف ، وتؤدي كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال - قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم - كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم . فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت . هش لما قالت كما بهش الكبير للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه . وانشرح صدره لإدراكه . فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغراق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطبع ! أدرك سليمان هذا (فتبسم ضاحكاً من قولها) وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة ؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ؛ واتجه إلى ربه في إنابة يتوسل إليه (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) (رب) بهذا النداء القريب المباشر المتصل (أوزعني) اجمعني كلي . اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخالجاتي ، وكلماتي وعباراتي ، وأعمالي وتوجهاتي . اجمعني كلي . اجمع طاقاتك كلها . أولها على آخرها وأخرها على أولها [وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني] لتكون كلها في شكر نعمتك علي وعلى والدي . وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان - عليه السلام - في تلك اللحظة ويصور نوع تأثيره ، وقوة توجهه ، وارتعاشه وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتباع وابتهاج (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) (وأن أعمل صالحاً ترضاه) فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق وبنعمة أخرى من الله (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) أدخلني برحمتك . فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك في عداد الصالحين . يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين في هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله - حتى بعد أن اصطفاه . خائفاً أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره . وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه . ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهي مما علمه الله لسليمان . وسليمان إنسان ونبي ، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة . فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ؛ وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن هذه الشخصوص هي سليمان وجنوده ، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المؤلف . وتحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال . والان تأتي إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهي مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفني في القصة ، وتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجداني المقصود بعرضها في السورة ؛ وتحقق العبرة التي من أجلها يساق القصص في القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعاً ، من الناحيتين: الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية . ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوي دوراً لكل من الجن والإنس والطير . وبرز فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية في القصة . وهذه سمة فنية دقيقة في القصص القرآني . كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة: شخصية سليمان ، وشخصية الملكة ، وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات في شتى مشاهد القصة ومواقفها .

يبدأ المشهد الأول في مشهد العرض العسكري العام لسليمان وجنوده ، بعدما أتوا على وادي النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة (وتفقذ الطير فقال: مالي لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين) فهذا هو ذا الملك النبي . سليمان . في موكبه الفخم الضخم . ها هو ذا يتفقذ الطير فلا يجد الهدهد . وفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين في نوبته في هذا العرض . وليس هدهداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات

شخصيته: سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير ، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق وينتكت . وهو يسأل عنه في صيغة مترفة مرنة جامعة: (ما لي لا أرى الهدد ؟ أم كان من الغائبين ؟) ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم ينهدد الجندي الغائب المخالف (لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه) ولكن سليمان ليس ملكا جبارا في الأرض ، إنما هو نبي . وهو لم يسمع بعد حجة الهدد الغائب ، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عنده . . ومن ثم تبرز سمة النبي العادل أو ليأتييني بسطان مبين . أي حجة قوية توضح عنده ، وتنفي المؤاخذه عنه . ويسدل الستار على هذا المشهد الأول في القصة [أو لعله كان ما يزال قائما] ويحضر الهدد . ومعه نبا عظيم ، بل مفاجأة ضخمة لسليمان ، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن ! (فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجنتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له (أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين) فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له: (أحطت بما لم تحط به)؟! فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ - ومملكة سبأ تقع في جنوب الجزيرة باليمن - فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة (أوتيت من كل شيء) وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع ولها عرش عظيم) أي سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة أو قصر عظيم . وذكر أنه وجد الملكة وقومها (يسجدون للشمس من دون الله) وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير (الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض) والخبء: هو المخبوء إجمالا سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السماوات والأرض . وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض . (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وهي مقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في أطواء النفس . ما ظهر منه وما بطن . والهدد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذي لم يقض الملك في أمره بعد ؛ فهو يلح في ختام النبأ الذي يقصه ، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذي لا تقاس إليه عروش البشر . ذلك كي يطمأن الملك من عظمتة الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) فيلمس قلب سليمان - في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها - بهذه الإشارة الخفية ! ونجد أنفسنا أمام هدهد عجب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة في عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب . . فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم . . وما هكنا نترك الهداهد . إنما هو هدهد خاض أوتي هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف . ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ؛ ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به . إنما يأخذ في تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبي العادل والملك الحازم) قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون) ولا يعلن في هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك . وتعرض المفاجأة الفنية في موعدها المناسب ! ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب ، وهي تستشير الملائكة من قومها في هذا الأمر الخطير) قالت: يا أيها الملا إني ألقى إلي كتاب كريم . إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلموا علي وأتوني مسلمين) فهي تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدد هو الذي جاء به - كما تقول التفسير - لأعلنت هذه العجبية التي لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها ولا من ألقاه . وهي تصف الكتاب بأنه (كريم) وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملائكة: إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلموا علي وأتوني مسلمين . . وهي كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا في هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته . وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه . ألقى الملكة إلى الملا من قومها فحوى الكتاب ؛ ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم) قالت: يا أيها الملا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) وفي هذا تبدو سمة الملكة

الأربية ؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذي ألقى إليها من حيث لا تعلم ، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه (كريم) وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة ! وعلى عادة رجال الحاشية أندوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأي (قالوا: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) وهنا تظهر شخصية "المرأة" من وراء شخصية الملكة . المرأة التي تكره الحروب والتدمير ، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة (قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسله إليهم بهدية فناظره بم يرجع المرسلون !) فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية [والقرية تطلق على المدينة الكبيرة] أشاعوا فيها الفساد ، وأباحوا ذمارها ، وانتهكوا حرمانها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ؛ وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه . والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح في دفع القتال . وهي تجربة . فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدي . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذي لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض . ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرانه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير (فلما جاء سليمان قال: أتمدون بمال ؟ فما أتاني الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وفي الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة (أتمدون بمال ؟) أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص ؟ (فما أتاني الله خير مما آتاكم) لقد أتاني من المال خيرا مما لديكم . ولقد أتاني ما هو خير من المال على الإطلاق: العلم والنبوة . وتسخير الجن والطير ، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني (بل أنتم بهديتكم تفرحون) وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض ، الذين لا يتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه ! ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد ارجع إليهم بالهدية وانتظروا المصير المرهوب (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) جنود لم تسخر للبشر في أي مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نضال (ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) مدحورون مهزومون . ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قضى الأمر ، وانتهى الكلام في هذا الشأن . ثم إذا سليمان - عليه السلام - يدرك أن هذا الرد سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء - كما يبدو من طريقتها في مقابلة رسالته القوية بهدية ! - ويرجح أنها ستجيب دعوته . أو يؤكد . وقد كان . ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت بعدها . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة ، وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده في استحضر عرشها ، الذي خلفته في بلادها محروساً مصوناً (قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفرية من الجن: أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإنى عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) ترى ما الذي قصد إليه سليمان - عليه السلام - من استحضر عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده ، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته . وقد عرض عفرية من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه . وكان يجلس للحكم والقضاء من الصباح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها - فيما يبدو - فإذا (الذي عنده علم من الكتاب) يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذي عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سرا من الله يستمد به من القوة الكبرى التي لا تقف لها الجواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدي بعض المتصلين ، ولم يكشف سره ولا تعليبه ، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية . وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات ! ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله (عنده علم من الكتاب) فقال بعضهم: إنه التوراة . وقال بعضهم: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليق مستيقن . والأمر أيسر من هنا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدي إليها . فحيثما أراد الله هدي من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجربها على يديه أن يجربها . وهذا الذي عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهياة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده ، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه - عليه السلام - ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال: إن اسمه أصف ابن برخيا ولا دليل عليه (فلما راه مستقرا عنده قال: هذا من فضل ربي ، لبيولني أشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم) لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان - عليه السلام - وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز ؛ واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف ؛ يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه . والله غني عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله (غني) عن الشكر (كريم) يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء . وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضي سليمان - عليه السلام - في تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل (قال: نكروا لها عرشها . تنظر أتتهدي أم تكون من الذين لا يهتدون) غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدي إليه بعد هذا التكرير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير . ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، في أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور (فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك ؟ قالت: كأنه هو) إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها في مملكتها ، وعليها أقالها وحراسها . . أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جاء به ؟ ومن ذا الذي جاء به ؟ ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتكرير ! تراها تنفي أنه هو بناء على تلك الملابس ؟ أم تراها تقول: إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات ؟ وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب (قالت: كأنه هو) لا تنفي ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة . وهنا فجوة في السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت: إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل أي منذ اعترمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد منعه قبل ذلك من الإيمان بالله وصددها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ؛ فقد نشأت في قوم كافرين ، فصددها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهي الشمس كما جاء في أول القصة (وصددها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين) وكان سليمان - عليه السلام - قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها - وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى (قيل لها: ادخلي الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ! قال: إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت: رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها: ادخلي الصرح ، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة . فكشفت عن ساقها ؛ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها (قال: إنه صرح ممرد من قوارير) ! ووقفت الملكة مفعوذة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها (مع سليمان) لا لسليمان ولكن (لله رب العالمين) لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وسجل السياق القرآني هذه اللقطة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التي يصح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غلاب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله . رب العالمين . . على قدم المساواة . ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول ﷺ إياهم إلى الإسلام . وفي نفوسهم الكبر أن يتفادوا إلى محمد بن عبدالله ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هي ذي امرأة في التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوي بين الداعي والمدعويين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين !

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ {45} قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْحِسْبَةِ قَبْلَ الْحِسْبَةِ لَوْلَا تَسْتَعْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {46} قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ {47} وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ {48} قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {49} وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ {50} فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتُلْنَاهُمْ وَاقْتُلُوا قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ {51} فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {52} وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {53}

في القرآن ترد قصة صالح و ثمود في سياق قصص عام مع نوح وهود ، ولوط وشعيب . وأحيانا تجيء قصة إبراهيم في هذا السياق أو لا تجيء . أما في هذه السورة والتركيز فيها على قصص بني إسرائيل ، فقد جاءت قصة موسى وقصة داود وسليمان . واختصرت قصة هود وقصة شعيب من السلسلة ولم تجيء قصة إبراهيم . وفي هذه السورة لا تذكر حلقة الناقة في قصة صالح - عليه السلام - إنما يذكر تبييت رهط التسعة المفسدين لصالح وأهله ، ومكرهم به وهو لا يشعر ، فمكر الله بالمفسدين وهم لا يشعرون ، ودمرهم وقومهم أجمعين . وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وترك بيوت المفسدين خاوية وجعلها لمن بعدهم آية . والمشركون في مكة يَمرون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله ، فإذا هم فريقان يختصمون) يلخص رسالة صالح - عليه السلام - في حقيقة واحدة (أن اعبدوا الله فهذه هي القاعدة التي تركز عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل ، ومع كل رسول . ومع أن كل ما حول البشر في هذا الكون ، وكل ما يكمن فيهم أنفسهم ، يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة الواحدة ، فقد أمضت البشرية أجيالا وأزمانا لا يعلمها إلا الله ، وهي تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنكار والجحود ، أو وقفة الهزء والتكذيب . وما تزال إلى اليوم تروغ عن هذه الحقيقة الخالدة ، وتجنح إلى شتى السبل ، التي تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم . فأما قوم صالح - ثمود - فيحكي القرآن خلاصة موقفهم بعد دعوته إياهم ، وجهده معهم بأنهم أصبحوا فريقين يختصمون . فريقا يستجيب له ، وفريقا يخالف عنه . وكان الفريق المعارض هو الكثرة ، كما نعرف من المواضع الأخرى في القرآن عن هذه القصة . وهنا فجوة في السورة على طريقة القصص القرآني نذكر منها أن المكذبين المعرضين استعجلوا عذاب الله الذي أنزهرهم به صالح ، بدلا من أن يطلبوا هدى الله ورحمته - شأنهم في هذا شأن مشركي قريش مع الرسول الكريم - فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية ، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدرهم برحمته (قال:يا قوم لم تستعجلون بالسئنة قبل الحسنة ؟ لو لا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !) ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) بدلا من أن يقولوا:اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق ! وكذلك كان قوم صالح يقولون . ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار . ويعتدرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنهم يرونهم شؤما عليهم ، ويتوقعون الشر من ورائهم (قالوا:اطيرنا بك وبمن معك) والتطير هو التشاؤم . مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان . فقد كان الواحد منهم إذا هم بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطاردا . فإن مر سانحا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر . وإن مر بارحا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر ! فلما قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة ، الضالة في تيه الوهم والخرافة ، ردهم صالح إلى نور اليقين ، وإلى حقيقته الواضحة ، البعيدة عن الضباب والظلام (قال:طائركم عند الله) حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله . والله قد سن سننا وأمر الناس بأمور ، وبين لهم الطريق المستنير . فمن اتبع سنة الله ، وسار على هده ، فهناك الخير ، بدون حاجة إلى زجر الطير . ومن انحرف عن السنة ، وحاد عن السواء ، فهناك الشر ، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير (بل أنتم قوم تفتنون) تفتنون بنعمة الله ، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر . فاليقظة وتدبر السنن ، وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية . لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء . ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التي لم تفسد ، ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه . وكان من قوم صالح ، من كبرائهم ، تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للإصلاح والإصلاح . فراحوا يأترون به ، ويدبرون له ولأهله في الظلام (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا:تقاسموا بالله لنبيئته وأهله ، ثم لنقولن لوليه:ما شهدنا مهلك أهله . وإنا لصادقون) هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد ، لم يعد بها متسع للإصلاح والإصلاح ، فضاعت نفوسهم بدعوة صالح وحقته ، وبيتوا فيما بينهم أمرا . ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا الشر المنكر الذي يبيتونه ، وهو قتل صالح وأهله بياتا ، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة الله ! وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا (تقاسموا بالله لنبيئته وأهله ثم لنقولن لوليه:ما شهدنا مهلك أهله) ولا حضرنا مقتله (وإنا لصادقون) فقد قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي لم يروه بسبب الظلام ! كذلك دبوا . وكذلك مكروا . . ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه ، ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكرهم وهم لا يشعرون (ومكروا مكرًا ، ومكرونا مكرًا . وهم لا يشعرون) واين مكر من مكر ؟ واين تدبير من تدبير ؟ واين قوة من قوة ؟ وكم ذا يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة ، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل ، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم . أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية . وقد كانوا منذ لحظة واحدة ، في الآية السابقة من السورة ، يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون ! وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة

بعد هذه مقصودة في السياق . لتظهر المباغطة الحاسمة القاضية . مباغطة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ؛ ومباغطة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم (إن في ذلك لآية لقوم يعلمون) والعلم هو الذي عليه التركيز في السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث وبعد مشهد المباغطة يجيء ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) والذي يخاف الله يقيه سبحانه من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين . كما جاء في حديث قدسي جليل .

(وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ {54} أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ {55} فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ {56} فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ {57} وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ) {58}

هذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجيء مختصرة ، تبرز هم قوم لوط بإخراجه ، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفق وتعارف وعلانية . فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال ، وترك النساء ، على غير الفطرة التي فطر الله الناس عليها . بل عامة الأحياء . وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية . فقد يشذ أفراد ، لأسباب مرضية نفسية أو لملازمات وقتية ؛ فيميل الذكور لإتيان الذكور ؛ وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء ، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي ، محرومين من الاتصال بالنساء . . أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره ، مع وجود النساء وتيسر الزواج ، فهذا هو الحادث الغريب حقا في تاريخ الجماعات البشرية !

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر ، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة التزاوج ؛ فقال (سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) فجعل الأحياء كلها أزواجا سواء نبات الأرض والآنفس وما لا يعلمه الناس في شتى المخلوقات وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب مما يفعلون ! (ولوطا إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؛ أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؛ بل أنتم قوم تجهلون) عجب في عبارته الأولى من إتيانهم هذه الفاحشة ، وهم يبصرون الحياة في جميع أنواعها وأجناسها تجري على نسق الفطرة ، وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والأحياء . . وصرح في عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة . ومجرد الكشف عنها يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية ، ولمألوف الفطرة جميعا . ثم دمغهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمعنى فقدان العلم . والجهل بمعنى السفه والحمق فماذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف ، وهذا التوجيه إلى وحي الفطرة السليمة ؛ كان جوابهم في اختصار أن هموا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته - إلا امرأته - بحجة أنهم أناس يتطهرون ! (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) لقد هموا بهمهم ، وحزموا أمرهم . وأراد الله غير ما كانوا يريدون (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين .) ولا يذكر تفصيلات هنا عن هذا المطر المهلك كما وردت تفصيلاته في السور الأخرى . فنكتفي نحن بهذا مجازة للسياق . ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيي المنتبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له وهو أن يكون مادة حياة وخصب . . والله أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره . وإن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير .

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ {59} أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبَثُونَ {60} أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {61} أَمْنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ {62} أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ {63} أَمْنَ نَبَأَ الْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبُدُ مِنْ بَعْدِهِ وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {64} قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ {65} بَلْ إِدْرَاكَ عِلْمِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ {66} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَذَا كُنَّا تَرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَنْتُمْ لَمَخْرَجُونَ {67} لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْوَالِدِينَ {68} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ {69} وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا
 تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ {70} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {71} قُلْ عَسَى أَنْ
 يَكُونَ رَيْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ {72} وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
 يَشْكُرُونَ {73} وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صِبْؤُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ {74} وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ {75} إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَقِصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ {76} وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ {77} إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْعَلِيمُ {78} فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ {79} إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَمَ
 الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ {80} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
 مُسْلِمُونَ {81} وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا
 يُوقِنُونَ {82} وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْتُمُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ {83} حَتَّى إِذَا جَاؤُوا
 قَالَ أَكُنْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَدًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {84} وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا
 فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ {85} أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ {86} وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ
 أَتَوْهُ دَاخِرِينَ {87} وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادٍ وَهِيَ تَمْرٌ مِّنَ السَّحَابِ صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ
 إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {88} مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ {89} وَمَنْ جَاءَ
 بِالسَّيِّئَةِ فَكَتَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {90} إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعِيدَ رَبُّ هَذِهِ
 الْبِلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {91} وَإِنْ أَتَلَوْ الْقُرْآنَ فَمِنْ أُمَّةٍ
 فَاِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ {92} وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ
 فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {93}

هذا الدرس ختام سورة النمل ، بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط
 - عليهم السلام - وهذا الختام متصل بمطلع السورة في الموضوع . والقصص بينهما متناسق مع
 المطلع والختام . كل قصة تؤدي جانباً من جوانب الغرض الذي يعالجه سياق السورة كلها . وهو
 يبدأ بالحمد لله ، وبالسلام على من اصطفاهم من عباده ، من الأنبياء والرسل ، ومنهم الذين ورد
 قصصهم من قبل . يفتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة . جولة في مشاهد الكون وأغوار
 النفس ، وأطواء الغيب ؛ وفي أشراط الساعة ومشاهد القيامة ، وأحوال الحشر ، التي يفزع لها من في
 السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . في هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون
 وفي أطواء النفس ، لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق
 الواحد المدبر القدير ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ،
 وأقطار المشاعر ؛ وهو يسألهم أسئلة متلاحقة: من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء
 فأنبأنا به حقائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل
 بين البحرين حاجزاً ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من
 يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرايين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده
 من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم: إله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا
 هذه الدعوى . لا يملكون أن يقولوا: إن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً ؛ وهم مع هذا يعبدون
 أرباباً من دون الله ! وعقب هذه الإيقاعات القوية التي تقترح القلوب ، لأنها إيقاعات كونية تملأ
 صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم . . يستعرض تكذيبهم بالأخرة ،
 وتخبطهم في أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا متاهلهم يكذبون
 ويتخبطون . ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع بهم في
 ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكانما يهز قلوبهم هزاً ويرجها رجاً . . .
 وفي نهاية الجولة يجيء الختام أشبه بالإيقاع الأخير عميقاً رهيباً . . بنفض رسول الله ﷺ يده من أمر
 المشركين المستهزئين بالوعد ، المكذبين بالأخرة ، وقد وجه قلوبهم إلى مشاهد الكون وأحوال
 الحشر ، وعواقب الطائعين والعصاة - ويتركهم إلى مصيرهم الذي يختارون ؛ ويحدد منهجه
 ووسيلته ولمن شاء أن يختار: (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء ، وأمرت
 أن أكون من المسلمين . و أن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلّ فقل: إنما أنا
 من المنذرين) ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذي يستاهل الحمد وحده ؛ ويكلهم إلى الله
 يريهم آياته ؛ ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن (وقل: الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها
 . وما ربك بغافل عما تعملون) (قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . الله خير أم ما

يشركون ؟) يأمر الله رسوله ﷺ أن يقول الكلمة التي تليق أن يفتح بها المؤمن حديثه ودعوته وجداله ، وأن يختمه كذلك (قل: الحمد لله) المستحق للحمد من عباده على آلائه ، وفي أولها هدايتهم إليه ، وإلى طريقه الذي يختاره ، ومنهجه الذي يرضاه (وسلام على عباده الذين اصطفى) لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، وبيان منهجه . وبعد هذا الإفتتاح يأخذ في توقيعاته على القلوب المنكرة لآيات الله ، مبتدئا بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة (الله خير أم ما يشركون ؟) وما يشركون أصنام وأوثان ، أو ملائكة وجن ، أو خلق من خلق الله على أية حال ، لا يرتقي أن يكون شبيها بالله - سبحانه - فضلا على أن يكون خيرا منه . ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنة أو موازنة . ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد ، أو أن يطلب عنه جواب ! ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر ، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ، ومن مشاهدته التي يرونها بأعينهم (أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنتبوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ، ولا يملك كذلك أن يدعي أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها . . وهي أصنام أو أوثان ، أو ملائكة وشياطين ، أو شمس أو قمر . . فالبداهة تصرخ في وجه هذا الادعاء . ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه ، مخلوق بذاته ، كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهاافت في القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض ، والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها ، كفيلا بالزام الحجة ، ودحض الشرك ، وإفحام المشركين . وما يزال هذا السؤال قائما فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذي يبدو فيه القصد ، ويتضح فيه التدبير ، ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ، ملجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد ، الذي تتضح وحدانيته بآثاره . ناطق بأن هناك تصميمًا واحدًا متناسقا لهذا الكون لا تعدد في طبيعته ولا تعدد في اتجاهه . فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة . إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير (أم من خلق السماوات والأرض) (وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنتبوا شجرها ؟) والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر ، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذي يسمح بنزول المطر ، بهذا القدر ، الذي توجد به الحياة على النحو الذي وجدت به ، فما يمكن أن يقع هنا كله مصادفة ، وأن تتوافق المصادفات بهذا الترتيب الدقيق ، وبهذا التقدير المضبوط . المتطور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان . هذا التخصص الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله: (وأنزل لكم . . .) والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس وفق حاجة حياتهم ، منظورًا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضرورتهم . يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون(فأنبأنا به حدائق ذات بهجة) حدائق بهجة ناضرة حية جميلة مفرحة . . ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية . وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بأحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب . وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث . فضلا على معجزة الحياة النامية في الشجر - وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر - : (ما كان لكم أن تنتبوا شجرها) وسر الحياة كان وما يزال مستقلا على الناس . سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان . فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول: كيف جاءت هذه الحياة ، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان . ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور . وعندما يصل في هذه الوقفة أمام الحياة النامية في الحدائق البهيجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفكير ، يهجم عليهم بسؤال (إله مع الله ؟) ولا مجال لمثل هذا الادعاء ؛ ولا مفر من الإقرار والاذعان . . وعندئذ يبدو موقف القوم عجيبا ، وهم يسوون الهتهم المدعاة بالله ، فيعبدها عبادته الله (بل هم قوم يعدلون) ويعبدون . إما أن يكون معناها يسوون . أي يسوون الهتهم بالله في العبادة . وإما أن يكون معناها: يحيدون . أي يحيدون عن الحق الواضح المبين . يشارك أحد مع الله في العبادة ؛ وهو وحده الخالق الذي لم يشاركه أحد في الخلق . وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق ! ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى ، يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى (أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ؟) لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السماوات والأرض . أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض . لقد جعلها قرارا للحياة ، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر . ولو تغير وضعها من الشمس والقمر ؛ أو تغير شكلها ، أو تغير حجمها ، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة في الجو بها ، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها ، أو سرعة دورتها حول الشمس ، أو سرعة دورة القمر حولها . . إلى آخر هذه الملابس الكثيرة التي لا يمكن أن تتم مصادفة ، وأن تتناسق كلها هذا التناسق . . لو تغير شيء من هذا كله أدنى تغيير ، لما كانت الأرض قرارا صالحا للحياة . وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم

يكونوا يدركون من قوله تعالى (أم من جعل الأرض قرارا) كل هذه العجائب . ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرا صالحا للحياة على وجه الإجمال ؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحدا من آلهتهم كان له شرك في خلق الأرض على هذا المنوال . وهذا يكفي . ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحا للأجيال وكما أتسع علم البشر أدركوا شيئا من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال . وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول ، على توالي الأزمان ! (أم من جعل الأرض قرارا . وجعل خلالها أنهارا ؟) والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة ، وهي تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب ، وإلى الشمال وإلى الجنوب ، تحمل معها الخصب والحياة والنماء (وجعل لها رواسي) والرواسي هي الجبال . وهي ثابتة مستقرة على الأرض . وهي في الغالب منابع الأنهار ، حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان ؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة . والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار (وجعل بين البحرين حاجزا) البحر الملح الاجاج ، والنهر العذب الفرات . سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهي الماء . والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي ، الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده . إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر . وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار ، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلا لا يطغى عليه البحر . وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائما من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر . إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميزا لا يمتزجان ولا يبغي أحدهما على الآخر . وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون ، وتصميمه على هذا النحو الدقيق . فمن فعل هذا كله ؟ من ؟ (إله مع الله ؟) وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى . ووحدته التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدته الخالق (بل أكثرهم لا يعلمون) ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتلمي الصنعة فيها والتنسيق ، وتدبر السنة فيها والناموس . ولأن التركيز في السورة كلها على العلم ، ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم (أم من يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ إله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم ، وواقع أحوالهم . فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعو له ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة ، وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى ، وتتهوى الأسناد ؛ وينظر الإنسان حوالياه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصر وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة في الأرض تنجده . والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم ، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل . ويمضي في لمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم (ويجعلكم خلفاء الأرض) فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولا . ثم جعلهم قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، يخلف بعضهم بعضا في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء ؟ أليس هو الله الذي فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض ، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها ، وتعددهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى . النواميس التي تجعل الأرض لهم قرارا ؛ والتي تنظم الكون كله متناسقا بعضه مع بعض بحيث تنتهي للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة . ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلا . وأخيرا أليس هو الله الذي قدر الموت والحياة ، واستخلف جيلا بعد جيل ؛ ولو عاش الأولون لضاعت الأرض بهم وبالآخرين ؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير ، لأن تجدد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات ، وتجدد أنماط الحياة ، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا في عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض ! ولتعتل موكب الحياة المندفع إلى الأمام ! إنها كلها حقائق في الأنفس كتلك الحقائق في الأفاق . فمن الذي حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟ (إله مع الله ؟) إنهم لنبنسون ويغفلون هذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس ، مشهودة في واقع الحياة (قليلا ما تذكرون)! ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولا بالله صلة القطرة الأولى . ولما غفل عن ربه ، ولا أشرك به أحدا . ثم يمضي السياق إلى بعض الحقائق الأخرى الممثلة في حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب ، ومشاهداتهم التي لا تنبكر (أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون !) والناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم ؛ ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم . . ويهتدون . . فمن يهديهم من أودع كيانهم تلك القوى المدركة ؟ من أفرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات والمعالم ؟ من وصل فطرتهم بقطرة هذا الكون ، وطاقتهم بأسراره ؟ من جعل لأذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للإنتفاع بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟ من ؟ إله مع الله ؟ (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟) والرياح مهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية ، تابعة للتصميم الكوني الأول ، الذي يسمح

جبريائها على النحو الذي تجري به ، حاملة السحب من مكان إلى مكان ، مباشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة . فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته ، فأرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من ؟ (إله مع الله ؟) (تعالى الله عما يشركون !) ويختم هذه الإيقاعات بسؤال عن خلقتهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض ، مع التحدي والإفحام (أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ إله مع الله ؟ قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن أحدا تعليلها بغير وجود الله ووحديته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجىء للإقرار بوجوده ؛ وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله . ووحديته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحديته ؛ فعليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد ؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد . ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدئ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال: أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ (إله مع الله ؟) والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء . ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان ، والماء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق ؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وقلزات ؛ وكنوز البحر من طعام وزينة . ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء ، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله ؛ ويكشف عن شيء منها لعباده أنا بعد أن . والبدء والإعادة حقيقة والرزق من السماء والأرض حقيقة . ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق ، فيردهم القرآن إليها في تحد وإفحام (إله مع الله ؟) (قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وإنهم ليعجزون عن البرهان ، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن . وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة . يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس ؛ فيجعل الكون كله إطارا للمنطق الذي يأخذ به القلوب ؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتحكم منطقتها الواضح الواصل البسيط ؛ ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركز فيها من الحقائق التي تغشها الغفلة والنسيان ، ويحجبها الجحود والكفران . . ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس ؛ والتي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد ، الذي أتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي ، وفشا فيما يسمى علم التوحيد ، أو علم الكلام ! وبعد هذه الجولة في الأفاق وفي أنفسهم لإثبات الوجدانية ونفي الشرك . يأخذ معهم في جولة أخرى عن الغيب المستور الذي لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر ، وعن الآخرة وهي غيب من غيب الله ، يشهد المنطق والبداهة والفطرة بضرورته ؛ ويعجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد مواعده ، والإيمان بالبعث والحشر ، وبال حساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة ، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقوم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك . ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفا عجيبا من قضية البعث والدار الآخرة ، وعلى بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثا بعد الموت وحياء بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة ، وتستمرىء الجحود والمعصية ، وتستطرد في الكفر والتكذيب . والآخرة غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله . وهم كانوا يطلبون تحديد مواعدها أو يكتبوا بالنذر ، ويحسبونها أساطير ، سبق تكرارها ولم تحقق أبدا ! فهنا يقرر أن الغيب من أمر الله ، وأن علمهم عن الآخرة منته محدود (قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادرك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون) ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ إليه علمه ، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وكان الخير في هذا الذي أراده الله ، فلو علم الله أن في كشف هذا الستر المسبل خيرا لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه ! وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ، ولكن كل من في السماوات والأرض من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمر لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم ، فيبقي سره عند الله دون سواه (قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) وهو نص قاطع لا تبقى بعده دعوى لمدع ، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة . وبعد هذا التعميم في أمر الغيب يخصص في أمر الآخرة لأنها القضية التي عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد (وما يشعرون أيان يبعثون) ينفي عنهم العلم بموعد البعث في أعمض صورته وهو الشعور . فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقينا ، ولا يشعرون به حين يقترب شعورا . فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحد يعلمه في السماوات ولا في الأرض . . ثم يضرب عن هذا ليتحدث في موقفهم هم من الآخرة ، ومدى علمهم بحقيقتها (بل ادرك علمهم في الآخرة) فأنتهى إلى حدوده ، وقصر عن الوصول إليها ، ووقف دونها لا يبلغها (بل هم في شك منها) لا يستيقنون بمجيئها ، بله أن يعرفوا مواعدها ، وينتظروا وقوعها (بل هم منها عمون) بل هم منها في عمي ، لا يبصرون من أمرها شيئا ، ولا يدركون من طبيعتها شيئا . . وهذه أشد بعدا عن الثانية وعن الأولى (وقال الذين كفروا: إذا كنا ترابا وأبائنا إنا لمخرجون ؟) وهذه كانت العقدة التي يقف أمامها الذين كفروا دائما: إذا فارقتنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت

في القبور ، وصارت ترابا . . إذا وقع هذا كله - وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا في حالات نادرة شاذة - إذا وقع هذا لنا ولأبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحياء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض التي اختلط ترابنا بترابها فصار ترابا ؛ ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الاختلاف ! هكذا كانوا يقولون . ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المظموسة بالتهكم والاستنكار (لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين) فهم كانوا يعرفون أن الرسل من قبل قد أنذروا آباءهم بالبعث والنشور . مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة ، ولا غفلا من معانيها . إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد ؛ فيبنون على هذا استهتارهم بالوعد الحديد قائلين:إنها أساطير الأولين يروونها محمد ﷺ غافلين أن للساعة موعدها الذي لا يتقدم لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم ، إنما يجيء في الوقت المعلوم لله ، المجهول للعباد في السماوات والأرض سواء . ولقد قال رسول الله ﷺ لجبريل - عليه السلام - وهو يسأله عن الساعة: " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " وهنا يلمس قلوبهم بتوجيهها إلى مصارع الذين كذبوا قبلهم بالوعد ويسميه المجرمين (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) وفي هذا التوجيه توسيع لآفاق تفكيرهم ، فالحيل من البشر ليس مقطوعا من شجرة البشرية ؛ وهو محكوم بالسنن المتحكمة فيها ؛ وما حدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد ؛ فإن السنن لا تحيد ولا تحابي . والسير في الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال فيها عبرة ، وفيها تفتيح لنواذ مضيئة . وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحببها . والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة ، وتدبر خطواتها وحلقاتها ، ليعيشوا حياة متصلة الأوشاح متسعة الآفاق ، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة . وبعد أن يوجههم هذا التوجيه يأمر رسوله ﷺ أن ينفذ يديه من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم ، الذي وجههم إلى نظائره ، وألا يضيق صدره بمكرهم ، فإنهم لن يضروه شيئا ، وألا يحزن عليهم فقد أدى واجبه تجاههم وأبلغهم وبصرهم (ولا تحزن عليهم . ولا تكن في ضيق مما يمكرون) وهذا النص يصور حساسية قلبه ﷺ وحزنه على مصير قومه الذي يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم ، ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالبدعوة وبالمسلمين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير . ثم يمضي في سرد مقولاتهم عن قضية البعث ، واستهانتهم بالوعد بالعباب في الدنيا أو في الآخرة (ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) كانوا يقولون هذا كلما خوفوا بمصائر المجرمين قبلهم ، ومصارعهم التي يرون عليها مصبحين كقري لوط ، وأثار ثمود في الحجر ، وأثار عاد في الأحقاف ، ومساكن سبأ بعد سيل العرم . . كانوا يقولون مستهزئين: (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به ؟ إن كنتم صادقين فهاتوه ، أو خبرونا بموعده على التحديد ! وهنا يجيء الرد يلقي ظلال الهول المتربص ، وظلال التهكم المنذر في كلمات قصار (قل:عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) الخوف والقلق من شبح العذاب . فقد يكون وراءهم - رديفا لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة - وهم لا يشعرون . وهم في غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ! فيألفها من مفاجأة ترتعش لها الأوصال . وهم يستهزئون ويستهترون ! ومن يدرى . إن الغيب لمحجوب . وإن الستار لمسبل . فما يدرى أحد ما وراءه . وقد يكون على قيد خطوات ما ينهل وما يهول ! إنما العاقل من يحذر ، ومن يتهيا ويستعد في كل لحظة لما وراء الستر المسدول ! (وإن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) وإن فضله ليتجلى في إمهالهم وتأخير العذاب عنهم وهم مذنبون أو مقصرون ، عسى أن يتوبوا إليه ويتوبوا إلى الطريق المستقيم . (ولكن أكثرهم لا يشكرون) على هذا الفضل ، إنما يستهزئون ويستعجلون ، أو يسدرون في غيهم ولا يتدبرون (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) وهو يمهلهم ويؤخر العذاب عنهم ، مع علمه بما تكنه صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم . فهو الإمهال عن علم ، والإمهال عن فضل . وهم بعد ذلك محاسبون عما تكن صدورهم وما يعلنون ويختم هذه الجولة بتقرير علم الله الشامل الكامل ، الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) ويجول الفكر والخيال في السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شيء ، ومن سر ، ومن قوة ، ومن خبر ، وهي مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . والتركيز في السورة كلها على العلم . والإشارات إليه كثيرة ، وهذه واحدة منها تختم بها هذه الجولة . وبمناسبة الحديث عن علم الله المطلق يذكر ما ورد في القرآن من فضل الخطاب فيما اختلف عليه بنو إسرائيل ، بوصفه طرفا من علم الله المستيقن ، ونموذجا من فضل الله وقضائه بين المختلفين . ليكون هنا تعزية لرسوله ﷺ وليدعهم لله يفصل بينه وبينهم بقضائه الأخير (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ولقد اختلف النصارى في المسيح - عليه السلام - وفي أمه مريم . قالت جماعة:إن المسيح إنسان محض ، وقالت جماعة:إن الأب والإبن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فإله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس [والإبن هو عيسى] فانحدر الله

الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنسانا وولد منها في صورة يسوع ! وجماعة قالت: إن الابن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما ! وقرر مجمع نيقية سنة 325 ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة 381 بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت ، وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة 589 بأن روح القدس منبثق من الابن أيضا . فاختلقت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين . . . فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا . وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل) وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون . واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبياهم ، مجردا من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرا من الأقدار التي الصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكذبني من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفا ! وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم - عليه السلام (وأنه لهدى ورحمة للمؤمنين) (هدى) يفهم من الاختلاف والضلال ، ويوحد المنهج ، ويعين الطريق ، ويصلهم بالسنة الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد (ورحمة) يرحمهم من الشك والقلق والحيرة ، والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال ؛ ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه ، ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس حولهم ، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل . وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة . . . يقرر لرسول الله ﷺ أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه ، ويحكم بينهم حكمه الذي لا مرد له . حكمه القوي المبني على العلم اليقين (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار . سنة لا تتخلف . . . قد تبطل . تبطل لحكمة يعلمها الله ، وتحقق بها غايات بقدرها الله . ولكن السنة ماضية . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه . ولو عد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر . ويمضي في تسليية الرسول ﷺ وتأسيسه على جموح القوم ولحاجهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان ، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن . . . يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله ؛ فهو لم يقصر في دعوته . ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعي أذانهم فتتحرك قلوبهم ، فيقبلون على الناصح الأمين . فأما الذين ماتت قلوبهم ، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان ، فما له فيهم حيلة ، وليس له إلى قلوبهم سبيل ؛ ولاضير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الدعاء إذا ولوا مديرين ، وما أنت بهادي العمي عن ضلالته إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حياة متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور . فيخرجهم مرة في صورة الموتى ، والرسول ﷺ يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مديرين عن الداعي ، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة في صورة العمي يمشون في عماهم ؛ لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون ! وتترأى هذه الصور المجسمة المتحركة ، فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور ! وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بالحياة والسمع والبصر . وآية الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم . وعمل الرسول ﷺ هو أن يسمعهم ، فيدلهم على آيات الله ، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم (فهم مسلمون) إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه ، حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه . وهكذا يصور القرآن تلك القلوب ، القابلة للهدى ، المستعدة للاستماع ، التي لا تجادل ولا تماري بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله ، فتؤمن لها وتستجيب . بعد ذلك يجول بهم جولة أخرى في أشرط الساعة ، وبعض مشاهدا ، قبل الإيقاع الأخير الذي يختم به السورة . . . جولة يذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية . ويرسم مشهدا للحشر والتبكي للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون . ويعود بهم من هذا المشهد إلى آيتي الليل والنهار المعروضتين للأبصار وهم عنها غافلون . ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ في الصور ، ويوم تسير الجبال وتمر مر السحاب ؛ ويعرض عليهم مشهد المحسنين آمنين من ذلك الفزع ، والمسيئين كبت وجوههم في النار (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال: أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) (ويوم ينفخ في الصور ففزع

من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟! وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح ؛ وليس في هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحا عن أوصافها ، فما يعني شيئا أن يكون طولها ستين ذراعا ، وأن تكون ذات زغب وريش وحافر ، وأن يكون لها لحية ؛ وأن يكون رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل . وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير . . . الخ هذه الأوصاف التي افتن فيها المفسرون ! وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة . وحق القول على الباقيين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك وإنما يقضى عليهم بما هم عليه . . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . والدواب لا تتكلم ، أو لا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود . ومما يلاحظ أن المشاهد في سورة النمل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام . فجاء ذكر (الدابة) وتكليمها الناس متناسقا مع مشاهد السورة وجوها ، محققا لتناسق التصوير في القرآن ، وتوحيد الجزئيات التي يتألف منها المشهد العام . ويعبر السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة ، إلى مشهد الحشر ! (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) والناس كلهم يحشرون . إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين (فهم يوزعون) يساقون أولهم على آخرهم ، حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار (حتى إذا جاءوا قال: أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟) والسؤال الأول للتخجيل والتأنيب ، فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله . أما السؤال الثاني فملؤه التهكم ، وله في لغة التخاطب نظائر: أكذبتكم ؟ أم كنتم تعملون ماذا ؟ فما لكم عمل ظاهر يقال: إنكم قضيتم حياتكم فيه ، إلا هذا التكنيب المستنكر الذي ما كان ينبغي أن يكون . . . ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم ، كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم في الدنيا ، وهم واجمون صامتون ! ذلك على حين نطقت البداية قبيل ذلك . وهما هم الناس لا ينطقون ! وذلك من بدائع التقابل في التعبير القرآني ، وفي آيات الله التي يعبر عنها هذا القرآن . ونسق العرض في هذه الجولة ذو طابع خاص ، هو المزوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، والا نتقال من هذه إلى تلك في اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار . وهو هنا ينتقل من مشهد المكذبين بآيات الله ، المبهوتين في ساحة الحشر إلى مشهد من مشاهد الدنيا ، كان جديرا أن يوقظ وجدانهم ، ويدعوهم إلى التدبر في نظام الكون وظواهره ، ويلقي في روعهم أن هناك إلها يرعاهم ، ويهييء لهم أسباب الحياة والراحة ، ويخلق الكون مناسبا لحياتهم لا مقاوما لها ولا حربا عليها ولا معارضا لوجودها أو استمرارها (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ومشهد الليل الساكن ، ومشهد النهار المبصر ، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجدانا دينيا يجنح إلى الاتصال بالله ، الذي يقبض الليل والنهار ، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان ، ولكنهم لا يؤمنون . ولو لم يكن هناك ليل فكان الدهر كله نهارا لانعدمت الحياة على وجه الأرض ؛ وكذلك لو كان الدهر كله ليلا . لا بل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس في النهار كل نبات ، ولتجمد في الليل كل نبات . وعندئذ تستحيل الحياة . ففي الليل والنهار بحالتهم الموافقة للحياة آيات . ولكنهم لا يؤمنون . ومن آيتي الليل والنهار في الأرض ، وحياتهم الآمنة المكفولة في ظل هذا النظام الكوني الدقيق يعبر بهم في ومضة إلى يوم النفخ في الصور ، وما فيه من فزع يشمل السماوات والأرض ومن فيهن من الخلائق إلا من شاء الله . وما فيه من تسيير للجبال الرواسي التي كانت علامة الاستقرار ؛ وما ينتهي إليه هذا اليوم من ثواب بالأمن والخير ، ومن عقاب بالفزع والكب في النار (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ؛ وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) والصور هو البوق ينفخ فيه . وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض - إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . . . قيل هم الشهداء . . . وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله . ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميع (وكل أتوه داخرين) أدلاء مستسلمين . ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ؛ وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار ! (صنع الله الذي أتقن كل شيء) سبحانه ! يتجلى إتيان صنعه في

كل شيء في هذا الوجود . فلا فلتة ولا مصادفة ولا ثغرة ولا نقص ، ولا تفاوت ولا نسيان . ويتدبر المتدبر كل آثار الصنعة المعجزة ، فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب . في الصغير والكبير ، والجليل والحقير . فكل شيء بتدبير وتقدير ، يدبر الرؤوس التي تتابعه وتتملاه (إنه خبير بما تفعلون) وهذا يوم الحساب عما تفعلون . قدره الله الذي اتقن كل شيء . وجاء به في مواعده لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؛ ليؤدي دوره في سنة الخلق عن حكمة وتدبير ؛ وليحقق التناسق بين العمل والجزاء في الحياتين المتصلتين المتكاملتين (صنع الله الذي أتقن كل شيء . إنه خبير بما تفعلون) في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمانينة من الفرع جزء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا ، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر (من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون) والأمن من هذا الفرع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنة . ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفرع الآخرة . بل أمنهم يوم يفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله (ومن جاء بالسئنة فكبت وجوههم في النار) وهو مشهد مفزع . وهم يكبون في النار على وجوههم . ويزيد عليهم التكبيت والتوبيخ ؛ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ . . فقد تنكبوا الهدى ، وأشاحوا عنه بوجوههم ؛ فهم يجزون به كبا لهذه الوجوه في النار وقد عرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار . وفي النهاية تجيء الإيقاعات الأخيرة: حيث يلخص الرسول ﷺ دعوته ومنهجه في الدعوة ؛ ويكلهم إلى مصيرهم الذي يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان ؛ ويختتم بحمد الله كما بدأ ، ويدعهم إلى الله يكشف لهم آياته ، ويحاسبهم على ما يعملون (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين . وقل: الحمد لله ، سيربكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون) وهم كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ؛ وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ؛ ثم لا يوحدون الله الذي حرّمه وأقام حياتهم كلها عليه . فالرسول ﷺ يقوم العقيدة كما ينبغي أن تقوم ، فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها ، لا شريك له ؛ ويكمل التصور الإسلامي للألوهية الواحدة ، قرب هذه البلدة هو رب كل شيء في الوجود (وله كل شيء) ويعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين . المسلمين كل ما فيهم له . لا شركة فيهم لسواه . وهم الرعي الممتد في الزمن المتطاوّل من الموحدين المستسلمين . هذا قوام دعوته . أما وسيلة هذه الدعوة فهي تلاوة القرآن (وأن أتلو القرآن) فالقرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك . وقد أمر أن يجاهد به الكفار . وفيه وحده الغناء في جهاد الأرواح والعقول . وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها ، وعلى المشاعر طرقها ؛ وفيه ما يزلزل القلوب الجاسية ويهزها هذا لا تبقى معه على قرار . وما شرع القتال بعد ذلك إلا لحماية المؤمنين من الفتنة ، وضمان حرية الدعوة بهذا القرآن ، والقيام على تنفيذ الشرائع بقوة السلطان . أما الدعوة ذاتها فحسبها كتابها (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه . ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين) وفي هنا تتمثل فردية التبعة في ميزان الله ، فيما يختص بالهدى والضلال . وفي فردية التبعة تتمثل كرامة هذا الإنسان ، التي يضمنها الإسلام ، فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان . إنما هي تلاوة القرآن ، وتركه يعمل عمله في النفوس ، وفق منهجه الدقيق العميق ، الذي يخاطب الفطرة في أعماقها ، وفق ناموسها المتسق مع منهج القرآن (وقل: الحمد لله) مقدمة لما يتحدث عنه من صنع الله (سيربكم آياته فتعرفونها) وصدق الله . ففي كل يوم يري عباده بعض آياته في الأنفس والأفاق . ويكشف لهم عن بعض أسرار هذا الكون الحافل بالأسرار (وما ربك بغافل عما تعملون) هكذا يلقي إليهم في الختام هذا الإيقاع الأخير ، في هذا التعبير الملفوف . اللطيف . المخيف . . ثم يدعهم يعملون ما يعملون ، وفي أنفسهم أثر الإيقاع العميق (وما ربك بغافل عما تعملون)

سورة القصص مكية وآياتها 88

هذه السورة مكية ، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ، هي قوة الله ؛ وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون ، هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا . ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء ، وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ؛ وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة ، ولا ملجأ له ولا وقاية . وقد علا فرعون في الأرض ، واتخذ أهلها شيعا ، واستضعف بني إسرائيل ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قابض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته ، وحذره ويقظته ، لا تغني عنه شيئا ؛ بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير ، المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية ، وتدفع عنه السوء ، وتعمي عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره وبخشاه ! والقصة الثانية تعرض قيمة المال ، ومعها قيمة العلم . المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته ، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفتاحه لتعبي العصابة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتر به قارون ، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه ، ولا تستخفهم زينته ؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله ، ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض ، لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه ؛ وتتدخل تدخلًا مباشرًا كما تدخلت في أمر فرعون ، فألقته في اليم هو وجنوده ، وبين القصصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص - في سورة القصص - ويفتح أبصارهم على آيات الله المبتوتة في مشاهد الكون تارة ، وفي مصارع الغابرين تارة ، وفي مشاهد القيامة تارة . . وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص ، وتساقطها وتتناسق معها ؛ وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون ، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله ، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ؛ وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها . وعقب على مقالتهم (أو لم يمكن لهم حرما أمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون) يذكرهم بأنه هو الذي أمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الأمن ؛ وهو الذي يديم عليهم أمنهم ، أو يسلبهم إياه ؛ ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين) ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ؛ فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ؛ وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان . وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه ، لا بد راده إلى بلده ، ناصره على الشرك وأهله . وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ؛ وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون . سيعود أمنا ظافرا مؤيدا . وفي قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكد . فقد عاد موسى - عليه السلام - إلى البلد الذي خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم ، وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين . ويختم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير (ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون) هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة ، فلنأخذ في تفصيل أشواطها الأربعة: قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير

(جِئِم {1} تَلِكْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {2} نَتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمِ يُؤْمِنُونَ {3} إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ {4} وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ {5} وَنَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) {6}

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة طا . سين . ميم . . تلك آيات الكتاب المبين . . تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، في لغة البشر الفانين (تلك آيات الكتاب المبين) فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر ، وهم لا يستطيعونه ؛ إنما هو الوحي الذي يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة في الكبير والصغير (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) فالقوم المؤمنون يوجه هنا الكتاب ؛ يربهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق . وهذا القصص المتلو في السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به ينتفعون . وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ؛ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ؛ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؛ بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة (لقوم يؤمنون) وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى ، والظروف القاسية التي ولد فيها ؛ وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ؛ وضعف قومه واستذلالهم في يد فرعون . . ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي ؛ ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ؛ وتضرب الظلم والظغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر ؛ وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ؛ وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره ونثبتيته ؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيقانه . وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث ، والظرف الذي يجري فيه القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتي من أجلها يسوق هذا القصص . . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة . تساوق موضوعها وأهدافها في هذا الموضع من القرآن ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده ، فالتحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية ؛ ولا يزيد في دلالتها شيئا . ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف - عليه السلام - الذي استقدم أباه وإخوته . وأبوه يعقوب هو "إسرائيل" وهؤلاء كانوا ذريته . وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرا . فلما كان ذلك الفرعون الطاغية (علا في الأرض) وتكبر وتجبر ، وجعل أهل مصر شيعا ، كل طائفة في شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ؛ ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف ، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بالله واحد ؛ وإنكار الوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا . وروي أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوايل مولدات بخبرته بمواليد بني إسرائيل ، لبيادر بذبح الذكور ، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة ، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة . هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى - عليه السلام - عند ولادته ، كما وردت في هذه السورة (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين) ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ؛ ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، فينسبون إرادة الله وتقديره ؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرين . والله يعلن هنا إرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما ، بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتىلا (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير ، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والنكال . وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه ؛ فيبت عليهم العيون والأرصاد ، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار ! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد ؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدا ولا تابعين ؛ وأن يورثهم الأرض المباركة التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما ، وما

ثم تبدأ القصة . ويبدأ التحدي وتنكشف يد القدرة تعمل بلا ستار: لقد ولد موسى في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رسمها قبل البدء في القصة ؛ ولد والخطر محقق به ، والموت يتلقت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تجتز رأسه . . . وها هي ذي أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلايين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه ؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة . . . ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة . هنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقى في روعها كيف تعمل ، وتوحي إليها بالتصرف: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني) يا لله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو في حضنك . وهو في رعايتك . إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه (فألقيه في اليم)!! (ولا تخافي ولا تحزني) إنه هنا . في اليم . . . في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها ، اليد التي لا خوف معها . اليد التي لا تقرب المخاوف من حماها . اليد التي تجعل النار بردا وسلاما ، وتجعل البحر ملجأ ومناماً . اليد التي لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنوا من حماها الأمن العزيز الجناح (إنا رادوه إليك) فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده (وجاعلوه من المرسلين) وتلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين . هذا هو المشهد الأول في القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردا وسلاماً . ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ، ولا كيف نفذته . إنما يسدل الستار عليها ، ليرفعه فإذا نحن أمام المشهد الثاني (فالتقطه آل فرعون) أهذا هو الأمن ؛ أهذا هو الوعد ؛ أهذه هي البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون ؟ نعم ! ولكنها القدرة تتحدى تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدى فرعون وهامان وجنودهما . إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفاً على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر . . . فيها هي ذي يد القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين ! ها هي ذي تلقيه في أيديهم مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستجد ! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهم الوالدات ! ثم ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية (ليكون لهم عدواً وحزناً) ليكون لهم عدواً يتحداهم ، وحزناً يدخل الهم على قلوبهم (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) ولكن كيف ؛ كيف وها هو ذا بين أيديهم ، مجرداً من كل قوة ، مجرداً من كل حيلة ؛ لندع السياق يجيب (وقالت امرأة فرعون: قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ؛ وهم لا يشعرون) لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاء ولا بالمال . حمته بالحب الحاني في قلب امرأة . وتحدثت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحزره . . . وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف ! (قرة عين لي ولك) وهو الذي تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم - فيما عدا المرأة - عدواً وحزناً ! لا تقتلوه) وهو الذي على يده مصرع فرعون وجنده ! (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) وهو الذي تخبئ لهم الأقدار من ورأته ما حنروا منه طويلاً ! (وهم لا يشعرون) فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون ! وينتهي المشهد الثاني ويسدل الستار عليه إلى حين . ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالدة وقلبها الملهوف ؟ (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً . إن كادت لتبدي به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته: قصيه) لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو يا ترى وماذا فعلت به الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها: كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف بها في اليم ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أم ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟ والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية (فارغاً) لا عقل فيه ولا وعي ولا قبرة على نظر أو تصريف ! (إن كادت لتبدي به) وتدفع أمرها في الناس ، وتهتف كالمجنونة: أنا أضعت طفلي . أنا ألقيت به في اليم أتباعاً لهاتف غريب ! (لولا أن ربطنا على قلبها) وشدنا عليه وثبتناها ، وأمسكنا بها من الهيام والشroud (لتكون من المؤمنين) المؤمنين بوعد الله ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه . ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة ! (وقالت لأخته: قصيه) أتبعي أثره ، واعرفي خبره ، إن كان حياً ، أو أكلته نواب البحر أو وحوش البر . . . أو أين مقره ومرساه ؟ وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية ، وتتمسك خبره في الطرق والأسواق . فإذا بها تعرف أين ساقته القدرة التي ترعاه ؛ وتبصر به عن بعد في أيدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع (فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمتنا عليه المراضع من قبل . فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟) إن القدرة

التي ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؛ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع ، لتدعهم يحтарون به ؛ وهو يرفض الثدي كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع ، فتقول لهم (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)؟ فيلتقفون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب ! وينتهي المشهد الرابع ؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة . معافى في بدنه ، مرموقا في مكانته ، بحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب (فردناه إلى أمه ، كي تفرعينا ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى - عليه السلام - والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكماله . فلا نعلم ماذا كان بعد زده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى في قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذي يصنع على عين الله ، ويعد لوظيفته ، في وسط عباد فرعون وكهنته . يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى ، فقد آتاه الله الحكمة والعلم ، وحزاه جزاء المحسنين (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين) وبلوغ الأشد هو اكتمال القوى الجسمية . والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي . وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين . فهل ظل موسى في قصر فرعون ، ربيبا ومتبني لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن ؟ أم إنه افترق عنهما ، واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الأسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتابة كنفس موسى - عليه السلام - ؟ وبخاصة أن أمه لا بد أن تكون قد عرفته من هو ومن قومه وما ديانتهم . وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ، والبغي اللئيم ؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا كما سيجيء ؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم (وكذلك نجزي المحسنين) يشي كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان: هذا من شيعته وهذا من عدوه ؛ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ؛ فوكزه موسى فقضى عليه . قال: هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال: رب إنني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال: رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) ودخل المدينة . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . فمن أي مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر في عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، في وقت الظهيرة مثلا حين تغفو العيون ؟ لقد دخل المدينة على كل حال (فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) وقد كان أحدهما قبطيا - يقال إنه من حاشية فرعون ، ويقال إنه طباطبا القصر . والأخر إسرائيلي . وكانا يقتتلان . فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجدا به على عدوهما القبطي . فكيف وقع هذا ؟ كيف استغاث الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر ، متبني ، أو من الحاشية . إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بني إسرائيل . وأنه ناظم على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى - عليه السلام - فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد (فوكزه موسى فقضى عليه) والوكزه هو الضرب بجمع اليد . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حنف القبطي . مما يشي بقوة موسى وفتوته ، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به . ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي ، ولم يعمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ؛ فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان (قال: هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين) ثم استطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالبا مغفرته وعفوه (قال: رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي) واستجاب الله إلى ضراعتة ، وحساسيته ، واستغفاره (فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم) وكانما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز في حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له . والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء ، فور الدعاء ، حين يصل إرهابه وحساسيته إلى ذلك المستوى ؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . . وارتعش وجدان موسى - عليه السلام - وهو يستشعر الاستجابة من ربه ، فإذا هو يقطع على نفسه عهدا ، يعده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه (قال: رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) فهو عهد مطلق لا يقف في صف المجرمين ظهيرا ومعينا . وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها . حتى ولو كانت اندفاعا تحت تأثير الغيظ ، ومرارة الظلم والبغي . ذلك بحق نعمة الله عليه

في قبول دعائه ؛ ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل . وهذه الإرعاشة العنيفة ، وقبلها الإندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى - عليه السلام - شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع . وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع أخرى كثيرة . بل نحن نلتقي بها في المشهد الثاني في هذه الحلقة مباشرة (فأصبح في المدينة خائفاً بترقب ؛ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى: إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين) لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطي ، وتدم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيراً للمجرمين . ومر يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره ، بترقب الافتضاح والأذى . ولفظ (بترقب) يصور هيئة القلق الذي يتلقت ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة . . وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك . والتعبير بجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمتي (في المدينة) فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا كان خائفاً بترقب في المدينة ، فأعظم الخوف ما كان في مأمّن ومستقر . وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهد الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً على أن يصبح (خائفاً بترقب) لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره . وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع (فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه) ! إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطي . إنه هو مشتبكا مع قبطي آخر ؛ وهو يستصرخ موسى لينصره ؛ ولعله يريد منه أن يقضي على عدوهما المشترك بوكزة أخرى ! ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذي يتوقع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه ، ويصفه بالغوابة والضلال (قال له موسى: إنك لغوي مبين) غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكاتة التي لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل . وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تفيد . ولكن الذي حدث أن موسى - بعد ذلك - انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي ، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالاته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها ، ولكن له دلالاته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى - عليه السلام - بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغي ، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل ، والتوفز لرد العدوان الطاغى ، الطويل الأمد ، الذي يحقر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخايد . (فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ، قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين) وأنه ليقع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه ؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ؛ ولقد طال الظلم ببني إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى - عليه السلام - حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ويهم أن يبطش بالذي هو عدو له ولقومه . ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملته ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سرا بين قومه ، ثم تفشى بعد ذلك خارج بني إسرائيل . فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة ، لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة ، وهو يراه يهم أن يبطش به ، وقال له تلك المقالة: (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟) أما بقية عبارته (إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكاً يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغي والتجبر . فهذا القبطي يذكره بهذا ويوري به ؛ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جباراً لا مصلحاً ، يقتل الناس بدلاً من إصلاح ذات البين ، وتهدئة ثائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوباً من رجال فرعون . وإلا ما جرّو المصري على خطابه بهذه اللمحة ، ولما كان هذا موضوع خطابه . ولقد قال بعض المفسرين: إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي ، لأنه لما قال له موسى (إنك لغوي مبين) ثم تقدم نحوه وهو غاضب لبيطش بالذي هو عدو لهما ، حسب الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو ، وأنه يتقدم لبيطش به هو ، فقال مقالته ، وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك الأسر كان مجهولاً عند المصريين . ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال . وقد عللنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فراسة أو حدسا من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع . والظاهر أن موسى لم يقدم بعد إذ ذكره الرجل بفعلة الأمس ، وأن الرجل أفلت لينتهي إلى الملام من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق . ثم إذا مشهد جديد . رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة ، يحذره انتمار الملام من قوم فرعون به ، وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته (وجاء رجل من أقصى

المدينة يسعى . قال: يا موسى إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك . فأخرج إني لك من الناصحين) إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة ، لتتم مشيئتها ! لقد عرف الملائكة من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلت موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها شبح الخطر . فهي فعلت طابعها الثورة والتمرد ، والانتصار لبني إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحققت أن يشتغل بها فرعون والملائكة والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من الملائكة . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتفئ بإيمانه ، والذي جاء ذكره في سورة [غافر] انتدبت له ليعسى إلى موسى (من أقصى المدينة) في جد واهتمام ومسارة ، ليلبغه قبل أن يلبغه رجال الملك (إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك ، فأخرج إني لك من الناصحين) (فخرج منها خائفا يترقب . قال: رب نجني من القوم الظالمين) ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية . التوفز والتفت . ونلمح معها ، التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته ، والالتجاء إلى حماه في المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة (رب نجني من القوم الظالمين) ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة ، خائفا يترقب ، وحيدا فريدا ، غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالبا عونه وهده (ولما توجه تلقاء مدين قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) ونلمح شخصية موسى - عليه السلام - فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالى الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لا زاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، وخرج منزعا بنذارة الرجل الناصح ، لم يتلبث ، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا . ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلمة له ، متطلعة إلى هده (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) ومرة أخرى نجد موسى - عليه السلام - في قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراة والنعمة . ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه في كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا . ولكن اليد التي رعت وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبدا . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء (ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال: ما خطبكما ؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكود . وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى - عليه السلام - وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقى المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولا ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب (قال: ما خطبكما ؟) (قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) فأطلعتاه على سبب انزواتهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ! وثاربت نخوة موسى - عليه السلام - وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر في تصابه . تقدم ليسقي للمرأتين أولا ، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهو غريب في أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة و النجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس (فسقى لهما) مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله . كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبة أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب (ثم تولى إلى الظل) مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفارة كانت في ذلك القيظ والحر (فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العريض الممود . ظل الله الكريم المنان . بروحه وقلبه: (رب . إني لما أنزلت إلي من خير فقير) . رب إني في الهاجرة . رب إني فقير . رب إني وحيد . رب إني ضعيف . رب إني إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محووج . ونسمع من خلال التعبير رفرقة هذا القلب والتجاء إلى الحمى الأمن ، والركن الركين ، والظل والظليل . نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) وما نكاد نستغرق مع موسى - عليه السلام - في مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج ، معقبا في التعبير بالفاء ، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء . قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجرا سقيت لنا) يا فرج الله: ويا لقربه ويا لنداء ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها (إحداهما) وقد جاءت (تمشي على استحياء) مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال (على استحياء) في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء .

جاءته لتنتهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) فمع الحياء الإيابة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إحياء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثققتها بظهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذي يطعم ويفري ويهيج ؛ إنما تحدث في وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد . وينتهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذي لم ينص على اسمه . وقيل: إنه ابن أخي شعيب النبي المعروف . وإن اسمه يثرون (فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال: لا تخف . نجوت من القوم الظالمين) فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور (لا تخف) فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة ، ويشعره بالأمان . ثم بين وعلل (نجوت من القوم الظالمين) فلا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار . ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة (قالت إحداهما ؛ يا ابت استأجره . إن خير من استأجرت القوي الأمين) إنها وأختها تعانين من رعي الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاوّل أعمال الرجال . وهي تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت ؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة . وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورات من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوي على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهي لا تتلعثم في هذه الإشارة ولا تضطرب ، ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهي بريئة النفس ، نظيفة الحس ؛ ومن ثم لا تخشى شيئاً ، ولا تتمتم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلاً فطرياً سليماً ، صالحاً لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به (قال: إنني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثماني حجج . فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدني إن شاء الله من الصالحين) وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد - ولعله كان يشعر كما أسلفنا - أنها محددة ، وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها في غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفائته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح . فاما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإيابة ! ولقد كان الأبناء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ﷺ بل كانت النساء تعرضن أنفسهن على النبي ﷺ أو من يرغب في تزويجهن منهم . كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدم معه كرامة ولا حياء . عرض عمر - رضي الله عن - ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبي ﷺ بهذا طيب خاطره ، عسى أن يجعل الله لها نصيباً فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها ﷺ وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها بزواجها ممن يشاء . فزوجها رجلاً لا يملك إلا سورتين من القرآن ، علمها إياهما فكان هذا صداقها . وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقوم كيانه . في غير ما تعلم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء . وهكذا صنع الشيخ الكبير - صاحب موسى - فعرض على موسى ذلك العرض واعد إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل ؛ راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه . وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله . فهو لا يزكي نفسه ، ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر في هذا لمشئته الله . وقيل موسى العرض وأمضى العقد ؛ في وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله (قال ذلك بيني وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على . والله علي ما نقول وكيل) إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا للغمظة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويبرم العقد ، على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي) سواء

قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشرا ، فلا عدوان في تكاليف العمل ، ولا عدوان في تحميم العشر ؛ فالزيادة على الثمانية اختيار (والله على ما نقول وكيل) فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيفا . بين موسى - عليه السلام - هذا البيان تمشيا مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روي أن رسول الله ﷺ أخبر أنه: " قضى أكثرهما وأطيهما " . وهكذا اطمأن بموسى - عليه السلام - المقام في بيت حميه ؛ وقد أمن من فرعون وكيد . ولحكمة مقدره في علم الله كان هذا الذي كان . فلندع الآن هذه الحلقة تمضي في طريقها حتى تنقضي . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار

وتمضي السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى - عليه السلام - لا يذكر عنها شيء في سياق السورة ؛ ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله ، عاندا من مدين إلى مصر ، يسلك إليها الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات وحيدا طريدا . ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . إنه عائد ليتلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال . ليناديه ربه ويكلمه ، ويكلفه النهوض بالمهمة التي من أجلها وقاه ورعاه ، وعلمه ورياه . مهمة الرسالة إلى فرعون وملته ، ليطلق له بني إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحدا ويرثون الأرض التي وعدهم ليملكهم فيها ثم ليكون فرعون وهامان وجنودهما عدوا وحزنا ، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقا (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله أنس من جانب الطور نارا . قال لاهله: امكثوا إني أنست نارا ، لعلي أتكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) ترى أي خاطر راود موسى ، فعاد به إلى مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها خائفا يترقب ؛ وأنساه الخطر الذي ينتظره بها ، وقد قتل فيها نفسا ؟ وهناك فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ؛ إنها اليد التي تنقل خطاه كلها ، لعلها قادته هذه المرة بالميل الفطري إلى الأهل والعشيرة ، وإلى الوطن والبيئة ، وأنسته الخطر الذي خرج هاربا منه وحيدا طريدا . ليؤدي المهمة التي خلق لها ورعي منذ اللحظة الأولى . على أية حال ها هو ذا عائد في طريقه ، ومعهم أهله ، والوقت ليل ، والجو ظلمة ؛ وقد ضل الطريق ، والليل شاتية ، كما يبدو من أنسه بالنار التي شاهدها ، ليأتي منها بخبر أو جذوة . . هذا هو المشهد الأول في هذه الحلقة . فأما المشهد الثاني فهو المفاجأة الكبرى (فلما أتاه نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة) فما هو ذا يقصد إلى النار التي أنساها ، وما هو ذا في شاطئ الوادي إلى جوار جبل الطور ، الوادي إلى يمينه (في البقعة المباركة) المباركة ، منذ هذه اللحظة . . ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوي الآتي لموسى من الشجرة (ولعلها كانت الوحيدة في هذا المكان ، وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيدا في ذلك الوادي العميق ، في ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله ، وتمتلئ به السماوات والأرضون . تلقاه لا تبرى كيف وبأية جراحة وعن أي طريق . تلقاه ملء الكون من حوله ، وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقاه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى . وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوي ؛ وبوركت البقعة التي تجلى عليها ذو الجلال ؛ وتميز الوادي الذي كرم بهذا التجلي ، ووقف موسى في أكرم موقف يلقاه إنسان . واستطرد النداء العلوي يلقي إلى عبده التكليف (وأن ألق عصاك) وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ؛ ولكن ماذا ؛ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلا ، والتي يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب في سرعة ، وتتحرك في خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مديرا ولم يعقب) إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ؛ مع الطبيعة الانفعالية ، التي تأخذها الوهلة الأولى (ولى مديرا ولم يعقب) ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ؛ وليتأمل هذه العجيبة الضخمة . وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلي في موعدها ! ثم يستمع إلى ربه الأعلى (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين) إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعا على هذه النفس ، ويتعاورانها في مراحل حياتها جميعا . إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها ؛ وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس ، مقدر في هذه الحياة ، لأنه الصفة المقابلة لتبدل بني إسرائيل ، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل . وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق (أقبل ولا تخف إنك من الأمنين) وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله ؛ (أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها . فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة . إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهد لها أدماء تضرب إلى السمرة . إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل . وأدركت موسى طبيعته . فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة . ومرة أخرى تبركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة . ذلك أن يضم يده على قلبه ، فتخفف من دقاته ، وتطمئن الطائر فيطبق جناحه . والرغبة أشبه بالخفقان ، والقبض أشبه بالإطمئنان . والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن . والآن وقد تلقى موسى ما تلقى ، وقد شاهد كذلك ما شاهد ، وقد رأى الآيتين الخارقتين ، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن . . الآن يعرف ما وراء الآيات ، والآن يتلقى التكليف الذي كان يعد من طفولته الباكرة ليتلقاه (فذالك برهانان من

ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوما فاسقين) وإذن فهي الرسالة إلى فرعون وملئه . وإذن فهو الوعد الذي تلقته أم موسى وهو طفل رضيع (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) الوعد اليقين الذي انقضت عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين . هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفساً ، وأنه خرج من بينهم طريداً ، وأنهم تأمروا على قتله فهرب منهم بعيداً . وهو في حضرة ربه . وربّه يكرمه بلقائه ، ويكرمه بنجائه ، ويكرمه بآياته ، ويكرمه برعايته . فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتقطع رسالته (قال:رب اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) يقولها لا ليعتذر ، ولا ليتعاس ، ولا لينكسر ؛ ولكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى مضيها في طريقها ، لو لقي ما يخاف . وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي رداً يصدقني ، إنى أخاف أن يكذبون) إن هارون أفصح لساناً فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة . وهو رداً له معين ، يقوي دعواه ، ويخلفه إن قتله . وهنا يتلقى موسى الإستجابة والتطمين (قال:سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما . آياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لقد استجاب ربه رجاءه ؛ وشد عضده بأخيه . وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين (ونجعل لكما سلطاناً) فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان ؛ ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار (فلا يصلون إليكما) وحولكما من سلطان الله سراج ، ولكما منه حصن وملاذ . ولا تقف البشارة عند هذا الحد . ولكنها الغلبة للحق . الغلبة لآيات الله التي يجبهان بها الطغاة . فإذا هي وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والغلبة (آياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ؛ وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس ، في دنيا الناس ، وليقوم في النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله . وينتهي هذا المشهد الرائع الجليل ؛ ويطوى الزمان ويطوى المكان ، فإذا موسى وهارون في مواجهة فرعون ، آيات الله البيّنات ؛ وإذا الحوار بين الهدى والضلال ؛ وإذا النهاية الحاسمة في هذه الدنيا بالغرق ، وفي الحياة الأخرى باللعنة . في سرعة واختصار إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ؛ ويختصر حلقة السحرة التي تذكر في سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ في الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة . . وهذا الإسراع في هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع اتجاه القصة في السورة:وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل في المواجهة أو تطويل (فلما جاءهم موسى آياتنا بينات قالوا:ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين) وكأنما هي ذات القولة التي يقولها المشركون لمحمد ﷺ في مكة يومذاك (ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين) فهي الممارسة في

الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه . الممارسة المكرورة حيثما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب . إنهم يدعون أنه سحر ، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم ، لم يسمعوا به في آياتهم الأولين ! (وقال موسى:ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون) وهو رد مؤدب مهذب ، يلمح فيه ولا يصرح . وفي الوقت ذاته ناصع واضح ، مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل . فربه أعلم بصدقه وهداه ، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى ، والظالمون في النهاية لا يفلحون . سنة الله التي لا تتبدل . وإن بدت ظواهر الأمور أحياناً في غير هذا الإتجاه . سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبي قومه . وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولاً ، ولعباً ومداورة ، وتهكماً وسخرية (وقال فرعون:يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري . فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه من الكاذبين) يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري . . كلمة فاجرة كافرة ، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم . ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة . ثم على القهر ، الذي لا يدع لرأس أن يفكر ، ولا للسان أن يعبر . وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت ، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب ! ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة ، والبحث عن إله موسى ، وهو يلهو ويسخر: (فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى) . في السماء كما يقول ! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق موسى ، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة: (وإني لأظنه من الكاذبين)! وفي هذا الموضوع كانت حلقة المباراة مع السحرة . وهي محذوفة هنا للتعجيل بالنهاية: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر [التي جاء ذكرها في مطلع هذه الحلقة ، ووردت بالتفصيل في سور أخرى] (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) هكذا في اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ في اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر . اليم الذي ألقى في مثله موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمناً وملجأ . وهو ذاته الذي ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون في جناب الله ، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجناب (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) فهي عاقبة مشهودة معروضة

للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للمكذبين . وفيها يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين في مثل لمح البصر ، وفي أقل من نصف سطر ! وفي لمحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ؛ ويقف بفرعون وجنوده في مشهد عجيب . . يدعون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) فبا بنسائها دعوة ! ويا بنسائها إمامة ! (ويوم القيامة لا ينصرون) فهي الهزيمة في الدنيا ، وهي الهزيمة في الآخرة ، جزاء البغي والاستطالة . وليست الهزيمة وحدها ، إنما هي اللعنة في هذه الأرض ، والتقيح في يوم القيامة (وأبتعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين) ولفظة (المقبوحين) ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو مضت قصة موسى - عليه السلام - بدلالاتها التي وضحت في الدرس الماضي . فأما في هذا الدرس فتبدأ التعقيبات عليها ؛ ثم يمضي السياق في طريقه على محور السورة الأصيل ، يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ ويجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير . يجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون ، وفي مشاهد الحشر ، وفيما هم فيه من الأمر ؛ بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺ وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون . والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحي . فرسول الله ﷺ يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان ؛ وما كان حاضر أحداثها ، ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير ، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك (فيقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جعله الله ميقاتا مع موسى - عليه السلام - بعد أجل محدد . . ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر . فكانت أربعين ليلة [على ما ذكر في سورة الأعراف] وفي هذا الميقات قضى الأمر لموسى في الألواح ، لتكون شريعته في بني إسرائيل . وما كان رسول الله ﷺ شاهدا لهذا الميقات ، حتى يعلم نبأ المفصل ، كما ورد في القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقرونا من الناس - أي أجيالا متطاولة) ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) فتلك دلالة على أن الذي نبأه به هو العليم الخبير ، الذي يوحي إليه بالقرآن الكريم . ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين ، ومقام موسى - عليه السلام - بها وتلاها رسول الله ﷺ وما كان مقيما في أهل مدين ، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذي جاءت فيه (ولكننا كنا مرسلين) بهذا القرآن وما فيه من أبناء السابقين . كذلك صور القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) وما سمع رسول الله ﷺ النداء ، وما سجل في وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء ، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ﷺ فيما يدعوهم إليه ، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله - فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم ، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل ، منذ أبيهم إسماعيل (لعلمهم يتذكرون) فهي رحمة الله بالقوم . وهي حجته كذلك عليهم ، كي لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم يتدنوا قبل أخذهم بالعذاب - وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب - فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأن يعذر إليهم ، وأن يقضهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين !) . كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعهم الحق الذي لا مربة فيه لم يتبعوه: فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: لولا أوتى مثلما أوتى موسى ! أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا: سحران تظاهرا ، وقالوا: إن بكل كافرون . . وهكذا لم يدعوا للحق ، وأستمسكوا بالتعلات الباطلة: قالوا: لولا أوتى مثلما أوتى موسى إما من الخوارق المادية ، وإما من الألواح التي نزلت عليه جملة ، وفيها التوراة كاملة . ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم ، ولا مخلصين في اعتراضهم (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟) ولقد كان في الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد ﷺ مكتوبة في التوراة ، وأستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فافتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؛ فلم يدعوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر (قالوا: سحران تظاهرا . وقالوا: إنا بكل كافرون)! فهو المراء إذن واللجاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل . ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى في الإفحام والإجراج . يقول لهم: إن لم يكن يعجبكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؛ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه (قل: فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين)! وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر ، الذي لا يستند إلى دليل (فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؛ إن الله لا يهدي القوم الظالمين) إن الحق في هذا القرآن لبين ؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصدده . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما: إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما مماراة في الحق واتباع للهوى فهو

التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض في العقيدة ، أو ضعف في الحجة ، أو نقص في الدليل . كما يدعى أصحاب الهوى المغرضون (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها . . إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين مغرضون غير معذورين . متجنون لا حجة لهم ولا معذرة ، متبعون للهوى ، مغرضون عن الحق للوهدى (ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وهم في هذا ظالمون باغون (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتدلين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ، ولم يحيطوا علما بهذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم ، ويعرض عليهم ، حتى تقوم الحجة ، وينقطع الجدل ، وتسقط المعذرة . فهو بذاته واضح واضح ، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يكذب به إلا متجنن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله) إن الله لا يهدي القوم الظالمين (ولقد انقطع عندهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) وحين تنتهي هذه الجولة ، فببين منها التواؤم ومرآؤهم ، يأخذ معهم في جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلص النية . تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، وطريقة استقبالهم للقران المصدق لما بين أيديهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ؛ وإذا يتلى عليهم قالوا:أمانا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ؛ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا:لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغي الجاهلين) فالقران يرد المشركين إلى حادث وقع ، يعلمونه ولا ينكرونه . كي يفقههم وجها لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن ، وتطمئن إليه ، وترى فيه الحق ، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ؛ وتحتمل في سبيل الحق الذي أمنت به ما يصيبها من أذى وتناول من الجهلاء ، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق ، ومن أوتي أوله عرف الحق في آخره ، فاطمان له ، وآمن به ، وعلم أنه من عند الله الذي نزل الكتاب كله . (وإذا يتلى عليهم قالوا:أمانا به . إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين) فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل أنه من ذلك المعين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب (إنه الحق من ربنا) (إنا كنا من قبله مسلمين) والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين . هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ، ثم صدقوا بالقران بمجرد سماعه (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومغالبة الهوى والشهوة . والاسقامة على الدين في الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعا ، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية ، وكما يقع دائما للمستقيمين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان (ويدرأون بالحسنة السيئة) وهذا هو الصبر كذلك . وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية . إنه الاستعلاء على كبرياء النفس ، ورغبتها في دفع السخرية ، ورد الأذى ، والشفاء من الغيظ ، والبرد بالانتقام ! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السماحة الراضية . التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه ، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين (ومما رزقناهم ينفقون) وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال ، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد:منبع الاستعلاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض . الأولى في النفس ، والثانية في المال . وكثيرا ما يردان متلازمين في القرآن . وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا:لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لانبغى الجاهلين) واللغو هو فارغ الحديث ، الذي لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه . وهو الهذر الذي يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زادا جديدا ، ولا معرفة مفيدة . وهو البذيء من القول الذي يفسد الحس واللسان ، سواء:أوجه إلى مخاطب أم حكى عن غائب . والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذلك الهذر ، ولا تعنى بهذا البذاء . فهي مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتقعة بأشواقه ، متطهرة بنوره (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) ولكنهم لا يحتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم في جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ؛ إنما يتركونهم في موادعة وسلام (وقالوا:لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم) هكذا في أدب ، وفي دعاء بالخير ، وفي رغبة في الهداية . . مع عدم الرغبة في المشاركة (لا نبتغي الجاهلين) ولا نريد أن ننق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم في لغوهم أو نسمع إليه صامتين ! . إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها . تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالسماحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحا لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة

عليهم ، ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء . هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول ﷺ في جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ؛ ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لآمر يعلمه من نفسه . وما كان النبي ﷺ ليهدي من يحب . إنما يهدي الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان (إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين)

وروي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة أنها نزلت في أبي طالب . وكان آخر ما قاله: هو على ملة عبد المطلب . وأن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته . فهذا عم رسول الله ﷺ وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله ﷺ وشدة حب رسول الله له أن يؤمن . ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة . وقد علم الله هذا منه ، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله ﷺ ويرجوه . فأخرج هذا الأمر - أمر الهداية - من حصة رسول الله ﷺ وجعله خاصاً بإرادته سبحانه وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ . وما على الداعين بعده إلا النصيحة . والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال . والآن يجيء السياق إلى قولتهم التي قالوها للرسول ﷺ معترزين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التي تعظم الكعبة ، وتدين لسدنتها ، وتعظم أصنامها ، فتتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل . فبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخي ، ومن حاضرهم الذي يشهدونه ، بعدما أبان لهم في هذه السورة عن ذلك في قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة في مصارع الغابرين تكشف لهم كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة في البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسول والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضالة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله ... إنها النظرة السطحية القريبة ، والتصور الأرضي المحدود ، هو الذي أوحى لقريش وهو الذي يوحى للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويغري بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار (وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامي ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمي الله ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداية . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ؛ وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداية . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان . وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم . فمن الذي وهبهم الأمن ؛ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام ؛ ومن الذي جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعاً ؛ تتجمع في الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا) ؟ فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟ ! (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله . فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا ، وأن يأمّنوا التخطف حقا ، فما هي ذي علة الهلاك فليتقوها (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين) إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ؛ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الدائرين خاوية خالية (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ، وتروي قصة البطر بالنعمة ؛ وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدا ، ولم يرثها بعدهم أحد (وكنا نحن الوارثين) على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وحكمة إرسال الرسول في أم القرى - أي كبرها أو عاصمتها - أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي ﷺ في مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين ! على أن متاع الحياة الدنيا بكامله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من الأرض ،

وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة ، إن هو إلا شيء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله (وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون ؟) وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ؛ ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ؛ ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكتها بالتطير فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساع وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله (متاع الحياة الدنيا وزينتها) (وما عند الله خير وأبقى) (خير في طبيعته وأبقى في مدته) (أفلا تعقلون ؟) والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار ! وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة ، ولمن شاء أن يختار (أقمن وعدناه وعدنا حسنا فهو لاقبه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟)

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقبه . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد ، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارا للحساب . والتعبير يوحي بالإكراه (من المحضرين) الذين يجاء بهم مكرهين خائفين بودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد ! وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم: (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين ، ومع العطاء في الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا العاقلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون . ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار . وعندما يصل بهم إلى الشاطئ الآخر يجول بهم جولة أخرى في مشهد من مشاهد القيامة ، يصور مغيبة ما هم فيه من الشرك والغواية (ويوم يناديهم فيقول: أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول: ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويانهم كما أغويانا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل: ادعوا شركاءكم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورواوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون . فأما من تاب وأمن وعمل صالحا ، فغسي أن يكون من المفلحين . والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب (أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) . والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئا ، ولا يستطيعون إليهم سبيلا . ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد . ومن ثم لا يجب المسؤولون عن السؤال ، فليس المقصود به هو الجواب ! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم ، وصددهم عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم ، فيقولون: (ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويانهم كما أغويانا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ! ربنا أننا لم نغوهم قسرا ، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ؛ إنما هم وقعوا في الغواية عن رضی منهم واختيار ، كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار (تبرأنا إليك) من جريمة إغوائهم (ما كانوا إيانا يعبدون) إنما كانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخلقنا من خلقك ، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة ! عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها . مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله (وقيل: ادعوا شركاءكم) ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم ! والبايسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ، ولكنهم يطبعون الأمر مقهورين (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) ولم يكن منتظرا غير ذلك ، ولكنه الإذلال والإعنات ! (ورواوا العذاب) رأوه في هذا الحوار . ورأوه ماثلا وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب . وهنا في اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه ، وهو أمنية المتمني في ذلك الموقف المكروب: وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون (لو أنهم كانوا يهتدون) ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب (ويوم يناديهم فيقول ، ماذا أجبتم المرسلين ؟) وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصلمت ذهول المكروب وصلمت الذي لا يجد ما يقول (فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون) والتعبير يلقي ظل العمى على المشهد والحركة . وكأنما الأنبياء عمياء لا تصل إليهم ، وهم لا يعلمون شيئا عن أي شيء ! ولا يملكون سؤالا ولا جوابا . وهم في ذهولهم صامتون ساكتون ! (فأما من تاب وأمن وعمل صالحا فغسي أن يكون من المفلحين) وهذه هي الصفحة المقابلة . ففي الوقت الذي يبلغ الكرب ذروته بالمشركين ، يتحدث عن تاب وأمن وعمل صالحا ، وما ينتظره من الرجاء في الفلاح . ولمن شاء أن يختار . وفي الوقت فسحة للاختيار ! ثم يرد أمرهم وأمر كل شيء إلى إرادة الله واختياره ، فهو الذي يخلق كل شيء ، ويعلم كل شيء ، وإليه مرد الأمر كله في الأولى والآخرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم في الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لغيرهم ، فالله يخلق ما يشاء ويختار (وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون) وهذا التعقيب يجيء بعد

حكاية قولهم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) وبعد استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والغواية . . . يجيء لتقرير أنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه في النهاية (وربك يخلق ما يشاء ويختار . ما كان لهم الخيرة) إنها الحقيقة التي كثيرا ما ينساها الناس ، أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق ما يشاء ؛ لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئا ، ولا أن يعدل أو يبدل في خلقه شيئا . وإنه هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ؛ ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا حادثا ولا حركة ولا قولاً ولا فعلاً (ما كان لهم الخيرة) لا في شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم ، ومرد الأمر كله إلى الله في الصغير والكبير . . . هذه الحقيقة لو استقرت في الأخلاق والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم ، ولا استخفهم شيء ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شيء يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذي يختار . وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يقبلوا ما يقع - بعد أن يبذلوا ما في وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار - بالرضى والتسليم والقبول . فإن عليهم ما في وسعهم والأمر بعد ذلك لله . ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له في خلقه ولا في اختياره (سبحان الله وتعالى عما يشركون) (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) فهو مجازيهم بما يعلم من أمرهم ، مختار لهم ما هم له أهل ، من هدى أو ضلال (وهو الله لا إله إلا هو) فلا شريك له في خلق ولا اختيار (له الحمد في الأولى والآخرة) على اختياره ، وعلى نعمائه ، وعلى حكمته وتدبيره ، وعلى عدله ورحمته ، وهو وحده المختص بالحمد والثناء (وله الحكم) يقضي في عبادته بقضائه ، لا راد له ولا مبدل لحكمه (وإليه ترجعون) فيقضي بينكم قضاءه الأخير . وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في هذا الوجود وإطلاعه على سرهم وعلاقتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ؛ وإليه مرجعهم فلا تشرد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم في قبضته لا يفلتون ؟ ثم يجول بهم جولة في مشاهد الكون الذي يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم ؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتي الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار . والناس لطول ما اغتادوا من كسر الجبدين ينسون جدتهما المتكررة التي لا تبلى . ولا يروعهن مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا . ولا بهزيم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادرا . ولا يتدبرون ما في تواليهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار ، أو التعتل والبوار ، أو الملل والهمود . والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويفتتهم إلى تملّي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا ، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك . وما يشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان (قل:أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . ومن إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون) والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا في أيام الشتاء ، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم لو فقدوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؛ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار ، لو لم يطلع عليها النهار ! (قل:أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟) والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف . ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار . فكيف بالناس لو ظل النهار سرمدا إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار ! ألا إن كل شيء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون بتدبير . وكل شيء عنده بمقدار (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فالليل سكونية وقرار ، والنهار نشاط وعمل ، والمتج به إلى فضل الله . فما يعطي الناس شيئا إلا من فضله (ولعلكم تشكرون) ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة ، وما دبره لكم واختاره من توالي الليل والنهار ، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها ، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار . ويختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما زعموا من شركاء . ويقفهم وجها لوجه أمام أباطيلهم المدعاة ، حيث تتداوب وتتهادى في موقف السؤال والحساب: (ويوم يناديهم فيقول:أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا:هاتوا برهانكم . فاعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) وتصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، قد سبق في جولة ماضية . فهو يعاد هنا لتوكيده وتبنيته بمناسبة المشهد الجديد الذي يعرض هنا . مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيا الذي يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة ، والمقصود إقامته وإبرازه وإفراذه من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا . وفي مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا . وليس لديهم برهان ؛ ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة (فاعلموا أن الحق لله) الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبية (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من

شرك ومن شركاء ، فما هو بواجدهم وما هم بواجديه ! في وقت حاجتهم إليه في موقف الجدل والبرهان ! بهذا تنتهي التعقيبات على قصة موسى وفرعون . وقد طوفت بالنفوس والقلوب في تلك الأفاق والعوالم والأحداث والمشاهد وردتها من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوقت بها في جنبات الكون وفي أغوار النفس ، وفي مصارع الغابرين ، وفي سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين في السورة: قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات .

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ {76} . وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِسِينَ {77}) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ {78}) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَنَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ {79}) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ {80}) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ {81}) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكُنُّ اللَّهُ يُنْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَآ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَآئِبُ لِمَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ {82}) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {83}) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {84})

والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر ، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد . ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ؛ إنما يكتفي بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج في حياة موسى ؟ أم وقعت في بني إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول: إنه كان ابن عم لموسى - عليه السلام - وأن الحادث وقع في زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون أذى موسى ، ودبر له مكيده ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة في مقابل رشوة من المال ، فبأمر الله موسى وأذن له في قارون ، فخسفت به الأرض . ولسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات ، ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت في القرآن كافية لاداء الغرض منها في سياق السورة ، ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقريرها . ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملاساتها يزيد في دلالتها شيئاً ما ترك تحديدها . فلنستعرضها إذن في صورتها القرآنية ، بعيدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراءها (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ؛ وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة . إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال: إنما أوتيته على علم عندي) هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها "قارون" وتحدد قومه "قوم موسى" وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البغي (فبغى عليهم) وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء (وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبته في النفوس . لقد كان قارون من قوم موسى ، فأناه الله مالا كثيرا ، يصور كثرته بأنه كنوز - والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول - وبن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقباء الرجال . . من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر قيم كان البغي ، ليدعه مجهلا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم - كما يصنع طباعة المال في كثير من الأحيان - وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال . حق الفقراء في أموال الأغنياء ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاولين إلى شيء منه ، ففسد القلوب ، وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب . وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغي ، ورجعه إلى النهج القويم ، الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ؛ وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ؛ ولا يحرمهم المتعادل بما وهبهم الله من مال ؛ ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب (إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة وما فيها من نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض . إن الله لا يحب المفسدين

(وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة) لا تقترح (فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ . لا تقترح فرح البطر الذي ينسى المنعم بالمال ؛ وينسى نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تقترح فرح الذي يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير به لبه ، ويتناول به على العباد (إن الله لا يحب الفرحين) فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذي لا يحب الفرحين المأخوذيين بالمال ، المتباهين ، المتناولين بسلطانه على الناس (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم . المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا ، كي لا يتزهّد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها . لقد خلق الله طبيبات الحياة ليستمتع بها الناس ؛ وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض . ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تكليفها . والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم ، وتقبل لعطاياه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسن . وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التي لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة (وأحسن كما أحسن الله إليك) فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران (ولا تبغ الفساد في الأرض) الفساد بالبغى والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرص والحسد والبغضاء والفساد بانفاق المال في غير وجه أو إمساكه عن وجهه على كل حال (إن الله لا يحب المفسدين) كما أنه لا يحب الفرحين . كذلك قال له قومه: فكان رده جملة واحدة ، تحمل شتى معاني الفساد والإفساد (قال: إنما أوتيته على علم عندي)! إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله . فما لكم تملون على طريقة خاصة في التصرف فيه ، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهد الخاص ، واستحقاقته بعلمي الخاص ؟ إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميها الثراء .

وهو نموذج مكرر في البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمكس ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه ! والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها ؛ ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه . ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهاجا معيناً للتصرف في الملكية الفردية ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع لمنهجه القويم . وأعرض عن هذا كله في استكبار لنيم وفي بطر ذميم . ومن ثم جاء التهديد قبل تمام الآية ، ردا على قولته الفاجرة المغرورة (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجي . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد ! (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)! ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغي والتناول ، والإعراض عن النصح ، والتعالي على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاعتزاز بالمال ، والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران . ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ، وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون ، ويحسون أنه أوتي حظا عظيما يتشاهه المحرومون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون ، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذيين ، في ثقة وفي يقين (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون) وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت ، ووقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان (قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم) وفي كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ؛ فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها . فاما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ،

وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا ، وأكبر قلبا من أن يتهاوا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم (الذين أوتوا العلم) العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم (وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون) ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم . الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون . وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان . وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطما . ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا (فحسبنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين) هكذا في جملة قصيرة ، وفي لمحة خاطفة (فحسبنا به وبداره الأرض) فابتلعت وابتلعت داره ، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال . وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس ؛ وردتهم الضربة القاضية إلى الله ؛ وكشفت عن قلوبهم فتاع الغفلة والضلال . وكان هذا المشهد الأخير (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون: وي ! كأنه لا يفلح الكافرون) وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس ، ولم يؤتهم ما أتى قارون . وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال ، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين ، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين . ويسدل الستار على هذا المشهد . وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة ، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان . . ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين) تلك الآخرة التي تحدث عنها الذين أوتوا العلم . العلم الحق الذي يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الأفاق . تلك الدار الآخرة (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا) فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ؛ ولا يهجم في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملاها الشعور بالله ، ومنهجه في الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشائنها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ولا يبعون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية (والعاقبة للمتقين) الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويتبعون رضاه . وفي تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسيرا (من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) .

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {85}) وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين {86} ولا يصبتك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وأدع إلى ربك ولا تكونن من المشركين {87} ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون {88}

والآن وقد انتهى القصاص ، وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصاص . الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن خلفه القلة المسلمة التي كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو مخرج من بلده ، مطارداً من قومه ، وهو في طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة ، قريبا من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه ، والذي يعز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) فما هو بتارك للمشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ما هو بتارك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويقتنون المؤمنين من حولك . إنا فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدره ، وفي الوقت الذي فرضه ؛ وإنك اليوم لمخرج منه مطارداً ، ولكنك غدا منصور إليه عائد . وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف المكروب

، ليمضي ﷺ في طريقه أمانا واثقا ، مطمئنا إلى وعد الله الذي يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه . وإن وعد الله لقائم لكل السالكين في الطريق ؛ وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله في وجه الطغيان في النهاية ، وتولى عنه المعركة حين يبذل ما في وسعه ، ويخلي عاتقه ، ويؤدي واجبه (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التي خرج منها هاربا مطاردا . رده فأنقذ به المستضعفين من قومه ، ودمر به فرعون وملاه ، وكانت العاقبة للمهتدين . . فامض إذن في طريقك ، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن (قل:ربي أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو في ضلال مبين) ودع الأمر لله بجازي المهتدين والضالين . وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يجول في خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقي هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه (وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وهو تقرير قاطع عن عدم تطوع الرسول ﷺ إلى الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله . والله يخلق ما يشاء ويختار ، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبال بشرية التي اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون في العرب وفي بني إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة في آخر الزمان . ولكن الله - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وقد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين المتطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقي ذلك الفيض العظيم . ومن ثم يأمره ربه - بما أنعم عليه بهذا الكتاب - ألا يكون ظهيرا للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ويمحض له عقيدة التوحيد خالصة في وجه الشرك والمشركين (فلا تكونن ظهيرا للكافرين ؛ ولا يصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ؛ وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون) إنه الإيقاع الأخير في السورة ، يفصل ما بين رسول الله ﷺ وطريقه وما بين الكفر والشرك وطريقه . ويبين لأتباع رسول الله ﷺ طريقهم إلى يوم القيامة . . الإيقاع الأخير ورسول الله ﷺ في طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من عهود التاريخ (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما مختلفان ، ومنهجاهما مختلفان . أولئك حزب الله ، وهؤلاء حزب الشيطان . فعلام يتعاونان ؟ وفيم يتعاونان ؟ (ولا يصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) فطريق الكفار دائما أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل . وطريق المؤمنين أن يمضوا في طريقهم لا يلوبهم عنها المعوقون ، ولا يصدهم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله ، وهم عليها مؤتمنون (وادع إلى ربك) دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية ، ولا لأرض ولا لراية . ولا لمصلحة ولا لمغنم ، ولا لتمليق هوى ، ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعتها ، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق (ولا تكونن من المشركين) (ولا تدع مع الله إلها آخر) يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهي عن الشرك والنهي عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق في العقيدة بين النصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها ، وأدابها وأخلاقها وتكاليدها وتشريعاتها جميعا . وهي المحور الذي يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن ثم هي تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع . ثم يمضي في التوكيد والتقرير (لا إله إلا هو) (كل شيء هالك إلا وجهه) (له الحكم) (وإليه ترجعون) فلا إسلام إلا لله ، ولا عبودية - إلا له ، ولا قوة إلا قوته ، ولا ملاذ إلا حماه . فكل شيء زائل . وكل شيء ذاهب . المال والجاه . والسلطان والقوة . والحياة والمتاع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله . . كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي . متفردا بالبقاء . له الحكم . . يقضي بما يشاء ويحكم كما يشاء ، لا يشركه في حكمه أحد ، ولا يرد قضاءه أحد ، ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواه (وإليه ترجعون) فلا مناص من حكمه ، ولا مفر من قضائه ، ولا ملجأ دونه ولا مهرب . وهكذا تختم السورة التي تتجلى فيها يد القدرة ، تحرس الدعوة إلى الله وتحميها ، وتدمر القوى الطاغية والباغية وتمحوها . تختم بتقرير قاعدة الدعوة: وحدانية الله سبحانه وتفرده بالالوهية والبقاء والحكم والقضاء . ليمضي أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى ، وعلى ثقة ، وعلى طمأنينة ، وفي يقين . .

سورة الإسراء

و آياتها 111

سورة الإسراء مكية ، وهي تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده ؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة ؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وأدابه القائمة على العقيدة ؛ إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان . ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول ﷺ وموقف القوم منه في مكة . وهو القرآن الذي جاء به ، وطبيعة هذا القرآن ، وما يهدي إليه ، واستقبال القوم له . واستطرادا بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسول ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي ، والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع . . كل ذلك بعد أن يعذر الله - سبحانه - إلى الناس ، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل ، ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر الآله . ففي مطلعها (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . .) وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح (إنه كان عبدا شكورا) وعند ذكر دعاوي المشركين عن الآلهة يعقب بقوله (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن (ويقولون:سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وتختتم السورة بالآية (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدل ، وكبره تكبيرا) في تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذي بينا ، يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة .

يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) مع الكشف عن حكمة الإسراء (لنريه من آياتنا) وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قضى فيه لبني إسرائيل ، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة (وإن عدتم عدنا) ثم يقرر أن الكتاب الأخير - القرآن - يهدي للتي هي أقوم ، بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية في الهدى والضلال ، وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات والسلوك .

ويبدأ الشوط الثاني بقاعدة التوحيد ، ليقيم عليها البناء الاجتماعي كله وآداب العمل والسلوك فيه ، ويشدها إلى هذا المحور الذي لا يقوم ببناء الحياة إلا مستندا إليه .

ويتحدث في الشوط الثالث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول ﷺ ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولا آخر ، ويتكلموا بالتي هي أحسن .

وفي الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمدا ﷺ بالخوارق فقد كذب بها الأولون ، فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله ؛ كما يتناول موقف المشركين من إنذارهم لله في رؤيا الرسول ﷺ وتكذيبهم وطغيانهم . ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس ، وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم . يجيء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان ، وما ينتظر الطائعين والعصاة (يوم ندعو كل أناس بإمامهم: فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتىلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول ﷺ ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجهم من مكة . ولو أخرجوه قسرا - ولم يخرج هو مهاجرا بأمر الله - لحل بهم الهلاك الذي حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم . ويأمر الرسول ﷺ أن يمضي في طريقه يقرأ قرآنه ويصلي صلاته ، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل ، ويعقب بأن هذا القرآن الذي أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين ، بينما الإنسان قليل العلم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

ويستمر في الحديث عن القرآن وإعجازه . بينما هم يطلبون خوارق مادية ، ويطلبون نزول الملائكة ، ويقترحون أن يكون للرسول ﷺ بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعب ، يفجر الأنهار خلالها تضحيرا ! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا . أو أن يرقى هو في السماء ثم يأتيهم بكتاب مادي معه يقرأونه . . . إلى آخر هذه المقترحات التي يملئها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والافتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول ﷺ وطبيعة الرسالة ، ويكل الأمر إلى الله . ويتكلم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله - على سعتها وعدم نفادها - لأمسكوها خوفا من الإنفاق ! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله ، وأن الآيات الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلا إيمان المتعنتين الذين استفزوه من الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب والنكال . وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه . القرآن الذي نزل مفرقا ليقراه الرسول على القوم زمنا طويلا بمناسباته ومقتضياته ، وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية . والذي يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود . ويختم السورة بحمد الله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل . كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {1}) وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا {2} ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا {3} وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا {4} فَإِذَا جَاء وَعْدُ آوَالِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الثِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرْسِيَّ عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {6} إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوُّوْا وَجُوهَكُمْ وَيُدْخِلُوا الْمُسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَبْتَلُوا مَلَّ عُلُوًّا تَبِيرًا {7} عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرْحَمَكُمُ وَإِنْ يُرْحَمَكُمُ وَإِنْ عَدْتُمُ عَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا {8} إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا {9} وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {10} وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاةَ الْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا {11} وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوِنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عِذَّ السَّعِيرِينَ وَالْحَسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضْلَانَا تَفْصِيلًا {12} وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَقِبِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا {13} أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا {14} مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا {15} وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا {16} وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {17} مَن كَانَ يَرِيدَ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نَّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا {18} وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا {19} كَلَّا تِمَدُّ هَؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا {20} انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا {21}

وقصة الإسراء - ومعها قصة المعراج - إذ كانتا في ليلة واحدة - الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس . والمعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى ، وذلك العالم الغيبي المجهول لنا . . هذه القصة جاءت فيها روايات شتى ؛ وثار حولها جدل كثير . ولا يزال إلى اليوم يتور . وقد اختلف في المكان الذي أسرى منه ، فقيل هو المسجد الحرام بعينه - وهو الظاهر - وروى عن النبي ﷺ " بينا أنا في المسجد في الحجر عند البيت بين الأنائم والبقطان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق " . وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب . والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسة به . وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد . وروى أنه ﷺ كان نائما في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانئ ، وقال: " مثل لي النبيون فصليت بهم " ثم قام ليخرج إلى المسجد ، فتشبتت أم هانئ ، فخرج فجلس إليه أبو مالك ؟ " قالت أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال: " وإن كذبوني " . فخرج فجلس إليه أبو جهل ، فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب ابن لؤي هلم . فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا ؛ وارثد ناس ممن كان آمن به ؛ وسعى رجال إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال أوقال ذلك ؟ قالوا نعم . قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك

لقد صدق . قالوا: فتصدقته في أن يأتي في الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال: نعم أنا أصدقته بأبعد من ذلك . أصدقته بخبر السماء ! فسمى الصديق . وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد ، فجلى له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا أما النعت فقد أصاب . فقالوا أخبرنا عن عبرنا . فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ؛ وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورك . فخرجوا يشدون ذلك اليوم نحو الثانية - لمراقبة مقدم العير - فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد شرقت . فقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورك ، كما قال محمد . . ثم لم يؤمنوا ! . . وفي الليلة ذاتها كان العروج به إلى السماء من بيت المقدس .

واختلف في أن الإسراء كان في اليقظة أم في المنام . فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه . وعن الحسن كان في المنام رؤيا رآها . وفي أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه ، وأن قرأه - عليه الصلاة والسلام - لم يبرد حتى عاد إليه . والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله ﷺ ترك فراشه في بيت أم هانئ إلى المسجد فلما كان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسرى به وعرج . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد . على أننا لا نرى محلا لذلك الحدل الطويل الذي ثار قديما والذي يثور حديثا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسول ﷺ والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم ، وبين أن تكون رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة . . المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة ؛ ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئا وكونها كشفا وتجليا للرسول ﷺ عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة قصيرة . . والذين يدركون شيئا من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون في الواقعية شيئا . فإمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة ، حسب ما اعتاده وما رآه . والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله . أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملأ الأعلى - على غير قياس أو عادة لبقية البشر - وهذه التجلية لمكان بعيد ، أو عالم بعيد ؛ والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقي عنه . وقد صدق أبو بكر - رضي الله عنه - وهو يرد المسألة المستعربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول: إني لأصدقته بأبعد من ذلك . أصدقته بخير السماء ! ومما يلاحظ - بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادي الذي طلبوه يومئذ في قصة العير وصفتها أن الرسول ﷺ لم يسمع لتخوف أم هانئ - رضي الله عنها - من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة . فإن ثقة الرسول بالحق الذي جاء به ، والحق الذي وقع له ، جعلته يصارح القوم بما رأى كأننا ما كان رأيهم فيه . وقد ارتد بعضهم فعلا ، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك . ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول ﷺ عن الجهر بالحق الذي آمن به . . وفي هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه في نفوس الناس ، ولا يتملقون به القوم ، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان ، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال . كذلك يلاحظ أن الرسول ﷺ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق - وقد قامت البيئة عندهم على صدق الإسراء على الأقل - ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق ، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمية ، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها . فلم يكن جهر الرسول ﷺ بالواقعة ناشئا عن اعتماده عليها في شيء من رسالته . إنما كان جهرا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة:

والآن نأخذ في الدرس الأول على وجه التفصيل:

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) تبدأ السورة بتسبيح الله ، أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضئ . وتذكر صفة العبودية (أسرى بعبده) لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر ؛ وذلك كي لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية ، كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام ، بسبب ما لايس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سببا للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية . . وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتزنيها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد . والإسراء من السرى أي السير ليلا . فكلمة (أسرى) تحمل معها زمانها . ولا تحتاج إلى ذكره . ولكن السياق ينص على الليل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) للتظليل والتصوير - على طريقة القرآن الكريم - فيلقي ظل الليل الساكن ، ويخيم جوه الساجي على النفس ، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها . والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إلى محمد خاتم النبيين □ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا . وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتغال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها

جميعا . فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ؛ وتشمل أمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان ؛ وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى . ووصف المسجد الأقصى بأنه (الذي باركنا حوله) ووصف يرسم البركة حافة بالمسجد ، فائضة عليه . وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل:باركناه . أو باركنا فيه . وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب . والإسراء آية صاحبها آيات (لنريه من آياتنا) والنقلة العجيبه بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش الرسول ﷺ أيا كانت صورتها وكيفيةها . آية من آيات الله ، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود ؛ وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري ، والاستعدادات اللدنية التي يتهاى بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس ، الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة (إنه هو السميع البصير) يسمع ويرى كل ما لطف ودق ، وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار .

والسياق ينتقل في آية الافتتاح من صبغة التسبيح لله سبحانه الذي أسرى بعده ليلا إلى صبغة التقرير من الله (لنريه من آياتنا) إلى صبغة الوصف لله (إنه هو السميع البصير) وفقا لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس . فالتسبيح يرتفع موجها إلى ذات الله سبحانه . وتقرير القصد من الإسراء يجيء منه تعالى نضا . والوصف بالسمع والبصر يجيء في صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية . وتجتمع هذه الصيغ المختلفة في الآية الواحدة لتؤدي دلالاتها بدقة كاملة ... هذ الإسراء آية من آيات الله . وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر . والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة . والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ثم أخرجها منها . فسيرة موسى وبني إسرائيل تجيء هنا في مكانها المناسب من سياق السورة في الآيات التالية (و آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا ؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأممدناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها . فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في هذه السورة . وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها ؛ ودالت دولتهم بها . وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفسو الفساد فيها ، وفاقا لسنة الله التي ستذكر بعد قليل في السورة ذاتها . وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها . وبيدأ الحديث في هذه الحلقة بذكر كتاب موسى - التوراة - وما اشتمل عليه من إنذار لبني إسرائيل وتذكير لهم بجدهم الأكبر - نوح - العبد الشكور ، وآبائهم الأولين الذين حملوا معه في السفينة ، ولم يحمل معه إلا المؤمنون (و آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا ؛ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) ذلك الإنذار وهذا التذكير مصداق لوعد الله الذي يتضمنه سياق السورة كذلك بعد قليل . وذلك ألا يعذب الله قوما حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويذكرهم . وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الكتاب (هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا) فلا يعتمدوا إلا على الله وحده ، ولا ليتجهوا إلا إلى الله وحده . فهذا هو الهدى ، وهذا هو الإيمان . فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلا . ولقد خاطبهم باسم آبائهم الذين حملهم مع نوح ، وهم خلاصة البشرية على عهد الرسول الأول في الأرض . خاطبهم بهذا النسب ليذكرهم باستخلاص الله لآبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق . ووصف نوحا بالعبودية لهذا المعنى ولمعنى آخر ، هو تنسيق صفة الرسل المختارين وإبرازها . وقد وصف بها محمدا ﷺ من قبل . على طريقة التناسق القرآنية في جو السورة وسياقها . في ذلك الكتاب الذي آتاه الله لموسى ليكون هدى لبني إسرائيل ، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض . وتكرار هذا التدمير مرتين لتكرر أسبابه من أفعالهم . وأنذرهم بمثله كما عادوا إلى الإفساد في الأرض ، تصديقا لسنة الله الجارية التي لا تتخلف (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا) وهذا القضاء إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم ، حسب ما وقع في علمه الإلهي من مآلهم ؛ لا أنه قضاء قهري عليهم ، تنشأ عنه أفعالهم . فالله سبحانه لا يقضي بالإفساد على أحد (قل:إن الله لا يأمر بالفحشاء)إنما يعلم الله ما سيكون علمه بما هو كائن . فما سيكون - بالقياس إلى علم الله - كائن ، وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد ، ولم يكشف عنه الستار . ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة وسيسيطرون . وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرمتهم ويدمرهم تدميرا (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا)

فهذه هي الأولى: يعلون في الأرض المقدسة ، ويصح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها . فبيعت الله عليهم عبادة من عبادة أولى بأس شديد ، وأولى بطش وقوة ، يستبيحون الديار ، ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويظاؤون ما فيها ومن فيها بلا تهيّب (وكان وعدا مفعولا) لا يخلف ولا يكذب . حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والنذل ؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم . وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرّتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكّن للمستضعفين من المستكبرين (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا)

ثم تتكرر القصة من جديد !

وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول بقرر قاعدة العمل والجزاء (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه . وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء . فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا) ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض ، اكتفاءً بذكره من قبل (لتفسدن في الأرض مرتين) ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة: فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم بما يرتكبونه معهم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه ، أو بما يجبهون به وجوههم من مساةة وإذلال . ويستبيحون المقدسات ويستهيئون بها (وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة) ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار (وليتبروا ما علوا تتبيرا) وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء ، والذي لا يبقى على شيء . ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد ، فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ، ودمر مملكتهم فيها تدميرا . ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل ، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئا . والعبرة هي المطلوبة هنا . وبيان سنة الله في الخلق هو المقصود . ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقا للرحمة (عسى ربكم أن يرحمكم) إن أفدتم منه عبرة . فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى فساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية (وإن عدتم عدنا) ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عبادا آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم "هتلر" ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة "إسرائيل" التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، تصديقا لوعد الله القاطع ، وفاقا لسنته التي لا تتخلف . . وإن غدا لناظره قريب ! ويختم السياق الآية بمصير الكافرين في الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) تحصرهم فلا يفلت منهم أحد ؛ وتتسع لهم فلا يند عنها أحد .

ومن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل ، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا ؛ بل ضلوا فهلكوا . . ينتقل السياق إلى القرآن . القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان . يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق . ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فأذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة . ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وترخص حتى تشبع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال . ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادا وازواجا ، وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا ، ويقوم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ، ولا تميل مع المودة والشتان ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان . ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمانها فإذا البشرية كلها

والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحاتها . والآية تقرر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك . وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك . إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسننا لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فنفذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء . لكن وجود المترفين في ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا . وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة . فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشيء السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب . الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به . والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق . وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشيء آثارها التي لا مفر منها . وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا . هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح ، قرنا بعد قرن ، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير ، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق . فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلذذون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا) مذموما بما ارتكب ، مدحورا بما انتهى إليه من عذاب (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها ، فيؤدي تكاليفها ، وينهض بتبعاتها ، ويقوم سعيه لها على الإيمان . وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائد الدنيا الطيبة ، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك إنسان نفسه ، فلا يكون عبدا لهذا المتاع . وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموما مدحورا ، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورا يتلقى التكريم في المآل الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضوء . إن الحياة للأرض حياة تليق بالديان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام . فاما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسواه ، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماء . على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله . سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاه ومن يطلب الآخرة فيلقاها . وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . وما كان عطاء ربك محظورا) والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة . فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاوّل . كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟ (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) فمن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والامداد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل . . .

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا {22} . وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْيَادِينَ إِحْسَانًا-إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهِمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنَهِّرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا {23}) وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا {24} رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا {25}) وَأَبْذُرْ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا {26}) إِنَّ الْمُبْتَدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {27}) وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ إِنْغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا {28}) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا {29})

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {30} وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً
أَمْلَاقٍ تَحَنَّنْ رَبُّكُمْ وَأَيُّكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا {31} وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاجِشَةً
وَسَاءَ سَبِيلًا {32} وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا
فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا {33} وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا {34} وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ مَنَ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {35} وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولًا {36} وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا {37} كُلُّ ذَلِكَ
كَانَ سَيِّئًا عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا {38} ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا {39}

يبدأ هذا الدرس بالنهي عن الشرك ، وبعلان قضاء الله بعبادته وحده . ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف: بر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، في غير إسراف ولا تبذير . وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل . ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والتثبت من الحق ، والنهي عن الخيلاء والكبر . . . وينتهي بالتحذير من الشرك . فإذا الأوامر والنواهي والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه ، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة (لا تجعل مع الله إلهًا آخر فتقع مذمومًا مخذولًا) إنه النهي عن الشرك والتحذير من عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وجه إلى المفرد ليجس كل أحد أنه أمر خاص به ، صادر إلى شخصه . فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحدد عن التوحيد أن "يقعد" (مذمومًا) بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها (مخذولًا) لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه . ولفظ (فتقع) يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد ، ويلقى ظل الضعف فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا ، وهو يلقي كذلك ظل الاستمرار في حالة النذب والخذلان ، لأن القعود لا يوحى بالحركة ولا تغير الوضع ، فهو لفظ مقصود في هذا المكان (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) فه أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك . أمر في صورة قضاء . فهو أمر حتمي حتمية القضاء . ولفظة (قضى) تخلع على الأمر معنى التوكيد ، إلى جانب القصر الذي يفيد النفي والاستثناء (ألا تعبدوا إلا إياه) فتبدو في جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد . فإذا وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس ، جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية ، ولها في النفس ركيزة من العقيدة في الله الواحد ، توحى البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال . والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة ، هي رابطة الأسرة ، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله ، إعلانا لقيمة هذا البر عند الله (وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) بهذه العبارات الندية ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء . ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام . إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة . إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المولية . إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات . إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات . وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ؛ كذلك تمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلها الأجل - وهما مع ذلك سعيدان ! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون بدروهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . وهكذا تندفع الحياة . ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف ! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) والكبر له جلالة ، وضعف الكبر له إيجاؤه ؛ وكلمة (عندك) تصور معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما) وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضييق ، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب . . (وقل لهما قولا كريما) وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما بشي بالإكرام والاحترام (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) وهنا يشف التعبير ويلطف ، وبيبلغ شغاف القلب وحنانا الوجدان . فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكانها الذل الذي لا يرفع عينا ، ولا يرفض أمرا . وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والإستسلام (وقل: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) فهي الذكرى الحانية . ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الولدان ، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى

الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل ، وجناب الله أرحب . وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء . قال الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن بريدة عن أبيه: أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ هل آتيت حقا؟ قال: لا . ولا بزفرة واحدة . ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة في السياق ، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر كله لله الذي يعلم النوايا ، ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال (ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) وجاء هذا النص قبل أن يمضي في بقية التكليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل ؛ وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطيء أو يقصر ، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير . وما دام القلب صالحا ، فإن باب المغفرة مفتوح . والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين . ثم يمضي السياق بعد الوالدين إلى ذوي القربى أجمعين ؛ ويصل بهم المساكين وابن السبيل ، متوسعا في القرابات حتى تشمل الروابط الإنسانية بمعناها الكبير (وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا) ؛ وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا) والقرآن يجعل لذي القربى والمسكين وابن السبيل حقا في الإنفاق . فليس هو تفضيلا من أحد على أحد ؛ إنما هو الحق الذي فرضه الله ، ووصله بعبادته وتوحيده . الحق الذي يؤديه المكلف فيبريء ذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه ، وإن هو إلا مؤد ما عليه لله . وينتهي القرآن عن التبذير . والتبذير - كما يفسره ابن مسعود وابن عباس - الإنفاق في غير حق . وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا ، ولو أنفق مدا في غير حق كان مبذرا . فليست هي الكثرة والقلة في الإنفاق . إنما هو موضع الإنفاق . ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين ، لأنهم ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية . فهم رفقاء الشياطين وصحابهم (وكان الشيطان لربه كفورا) لا يؤدي حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقا أن ينفقوها في الطاعات والحقوق ، غير متجاوزين ولا مبذرين . فإذا لم يجد إنسان ما يؤدي به حق ذوي القربى والمساكين وابن السبيل واستحيا أن يواجههم ، وتوجه إلى الله يرجو أن يرزقه ويرزقهم ، فليعدهم إلى ميسرة ، وليقل لهم قولا لينا ، فلا يضيق بهم صدره ، ولا يسكت ويدعهم فيحسوا بالضيق في سكوته ، في القول الميسور عوض وأمل وتحمل . وبمناسبة التبذير والنهي عنه يأمر بالتوسط في الإنفاق كافة (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) والتوازن هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي ، والغلو كالنفرط يخل بالتوازن . والتعبير هنا يجري على طريقة التصوير ؛ فيرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئا ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة المملوم المحسور . والحسير في اللغة الدابة تعجز عن السير فتقف ضعفا وعجزا . فكذلك البخل يحسره بخله فيقف . وكذلك المسرف ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير . ملوما في الحاليتين على البخل وعلى السرف ، وخير الأمور الوسط . ثم يعقب على الأمر بالتوسط بأن الرزاق هو الله . هو الذي يبسط في الرزق ويوسع ، وهو الذي يقدر في الرزق ويضيق . ومعطي الرزق هو الأمر بالتوسط في الإنفاق (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر ، ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر . ويأمر بالقصد والاعتدال ، وينهى عن البخل والسرف ، وهو الخبير البصير بالأقوم في جميع الأحوال ؛ وقد أنزل هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في جميع الأحوال ... وكان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق ؛ فلما قرر في الآية السابقة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أتبعه بالنهي عن قتل الأولاد خشية الإملاق في المكان المناسب من السياق . فما دام الرزق بيد الله ، فلا علاقة إذن بين الإملاق وكثرة النسل أو نوع النسل ؛ إنما الأمر كله إلى الله . ومتى أنتفت العلاقة بين الفقر والنسل من تفكير الناس ، وصححت عقيدتهم من هذه الناحية فقد انتفى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المنافية لفطرة الأحياء وسنة الحياة (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيرا) إن انحراف العقيدة وفسادها ينشئ آثاره في حياة الجماعة الواقعية ، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد والطقوس التعبدي . وتصحيح العقيدة ينشئ آثاره في صحة المشاعر وسلامتها ، وفي سلامة الحياة الاجتماعية واستقامتها . وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة في واقع الجماعة الإنسانية . وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش في معزل عن الحياة . ثم نقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآني العجيبة . ففي هذا الموضع قدم رزق الأبناء على رزق الأباء: نحن نرزقهم وإياكم وفي سورة الأنعام قدم رزق الأباء على رزق الأبناء (نحن نرزقكم وإياهم) وذلك بسبب اختلاف آخر في مدلول النصين . فهذا النص: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم : والنص الآخر (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) هنا قتل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد . وفي الأنعام قتلهم بسبب فقر الأباء فعلا . فقدم رزق الأباء . فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك . ومن النهي عن قتل الأولاد إلى النهي عن الزنا (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة - وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس - لذات

الصلة وذات المناسبة. إن في الزنا قتل من نواحي شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها ، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب حياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهي حياة مضية على المجتمع على نحو من الأنحاء . . وهو قتل في صورة أخرى . قتل الجماعة التي يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة في العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات . وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافذة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها ، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه . والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا . وهي مبالغة في التحرز . لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ، فالتحرز من المقاربة أضمن . فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان . ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقياً للوقوع فيه . . يكره الاختلاط في غير ضرورة . ويحرم الخلوة . وينهى عن التبرج بالزينة . ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع . ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغلاة في المهور . وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد . ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم . ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمي المحصنات الغافلات دون برهان . . إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال . ويختم النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا بالنهي عن قتل النفس إلا بالحق (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل ، إنه كان منصوراً) والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها . وكل نفس هي حرم لا يمس ، وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه ، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى . وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " . فأما الأولى فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس (ولكم في القصاص حياة) حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأَنْفُس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء . وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيتأروا ولا يقضوا عند القاتل ، بل يمضوا في الثأر ، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذلك حتى تسيل دماء ودماء . وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينتقل أماناً يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة . وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة ، وهي لون من القتل على النحو الذي بيناه . وأما الثالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها ، ويسلمها إلى الفرقة القائلة . والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل في جسم الجماعة المسلمة ، وأطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها . ولو بقي خارجاً ما أكرهه أحد على الإسلام . بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمناً إن كان من المشركين . وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل ، إنه كان منصوراً) تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه - وهو أقرب عاصب إليه - سلطاناً على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية . فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل ، لأن دمه له . وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهيه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه . والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم - كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والأخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل - ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ، والولي مسلط على دمه بلا مثله . فالله يكره المثلة والرسول قد نهى عنها (فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً) يقضي له الله ، ويؤيده الشرع ، وينصره الحاكم . فليكن عادلاً في قصاصه ، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه . وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرتة لتبعية للفطرة البشرية ، وتهدة للغليان الذي تستشعره نفس الولي . الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالاً في حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل ، وأن الحاكم مجند لنصرتة على القصاص ، فإن ثأرتة تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادي . والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب في فطرتة من الرغبة العميقة في القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبئها في الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضاً . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ويحبب فيه ، ويأجر عليه . ولكن بعد أن يعطي الحق . فلولي الدم أن يقتص أو يصفح . وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح . وبعد أن ينتهي السياق من حرمة العرض وحرمة النفس ، يتحدث عن حرمة مال اليتيم ، وحرمة العهد (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده

وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً) والإسلام يحفظ على المسلم دمه وعرضه وماله ، لقول الرسول ﷺ " كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله " ولكنه يشد في مال اليتيم ويبرز النهي عن مجرد قربه إلا بالتي هي أحسن . ذلك أن اليتيم ضعيف عن تدبير ماله ، ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدفع عنه . ومن ثم جاء النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن في صيغة الجمع ، لتكون الجماعة كلها مسؤولة عن اليتيم وماله ، فهذا عهد عليها بوصفها جماعة . ولأن رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقاً (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً) . يسأل الله جل جلاله عن الوفاء به ، ويحاسب من ينكث به وينقضه . وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة في ضمير الفرد وفي حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد في صور شتى في القرآن والحديث ؛ سواء في ذلك عهد الله وعهد الناس . عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة . عهد الحاكم وعهد المحكوم . وبلغ الإسلام في واقعه التاريخي شأوا بعيدا في الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا في ظل الإسلام . ومن الوفاء بالعهد إلى إيفاء الكيل والميزان (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلاً) والمناسبة بين الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان ظاهرة في المعنى واللفظ ، فالانتقال في السياق ملحوظ التناسق . وإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن ، أمانة في التعامل ، ونظافة في القلب ، يستقيم بهما التعامل في الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة في النفوس ، وتتم بهما البركة في الحياة (ذلك خير وأحسن تأويلاً) . . خير في الدنيا وأحسن مآلا في الآخرة . والرسول ﷺ يقول: " لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ، ليس به إلا مخافة الله ، إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك " والطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس ، وغش وخيانة في التعامل تتزعزع بهما الثقة ، ويتبعها الكساد ، وتقل بهما البركة في محيط الجماعة ، فيرتد هذا على الأفراد ؛ وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف . وهو كسب ظاهري ووقتي ، لأن الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين . وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر في عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقي ، أو الحافز الديني هو الباعث عليها ؛ بل مجرد إدراكها في واقع السوق بالتجربة العملية . والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ، ومن يلتزمه اعتقادا . . أن هذا يحقق أهداف ذلك ؛ ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع في نشاطه العملي إلى آفاق أعلى من الأرض ، وأوسع في تصور الحياة وتدوقها . وهكذا يحقق الإسلام دائما أهداف الحياة العملية وهو ماض في طريقه إلى آفاقه الوضيئة وأمامه البعيدة ، ومجالاته الرحبية . والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة (ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد . . كل أولئك كان عنه مسؤولاً) وهذه الكلمات القليلة تقيم منهاجا كاملا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثا جدا ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة ! فالنتيجه من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة . ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم . والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعثها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد . .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا . أمانة يرتعش الوجدان لصدقها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة (ولا تقف ما ليس لك به علم) ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تثبت من صحته: من قول يقال ورواية تروى . من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلق . ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية . وفي الحديث " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " وتختتم هذه الأوامر والنواهي المرتبطة بعقيدة التوحيد بالنهي عن الكبر الفارغ والخيلاء الكاذبة (ولا تمش في الأرض مرحا . إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان ، أو قوة أو جمال . لو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هونا لا تهبها ولا مرحا . والقرآن يحبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضالته (إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئا من الأجسام الضخمة التي خلقها الله . إنما هو قوي بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه ، ليتصل به ويراقبه ولا ينساه . ذلك التلطف والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بتزئيل المرح والخيلاء ، أدب مع الله ، وأدب مع الناس . أدب نفسي وأدب اجتماعي . وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغ صغير القلب صغير

الاهتمامات . يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته ، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعالیه . وتنتهي تلك الأوامر والنواهي والغالب فيها هو النهي عن ذميم الفعال والصفات بإعلان كراهية الله للسيء منها) كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً (فيكون هذا تلخيصاً وتذكيراً بمرجع الأمر والنهي وهو كراهية الله للسيء من تلك الأمور . ويسكت عن الحسن المأمور به ، لأن النهي عن السيء هو الغالب فيها كما ذكرنا . ويختم الأوامر والنواهي كما بدأها بربطها بالله وعقيدة التوحيد والتحذير من الشرك . وبيان أنها بعض الحكمة التي يهدي إليها القرآن الذي أوحاه الله إلى الرسول (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) وهو ختام يشبهه الابتداء . فتجيء محبوكة الطرفين ، موصولة بالقاعدة الكبرى التي يقيم عليها الإسلام بناء الحياة ، قاعدة توحيد الله وعبادته دون سواه . .

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا {40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا {41} قَلِيلٌ مَّا يَشْكُرُونَ وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا لِيُذَكَّرُوا {42} سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا يَدْرَأُونَ {43} تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا {44} ، وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ جِبَابًا مَّسْتُورًا {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذِ ابْتَدَأُوا الْقُرْآنَ يَسْمَعُونَ نَجْوَىٰ مَنْ يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ يَخِفُوا مِنْهُ لَخِفُوا مِنْهُ لَئِن كَانُوا يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ لَأَخَفُوا مِنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ {46} تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا {47} انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا {48} وَقَالُوا أَبَدًا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَافًا إِنَّا لَمَجُوثُونَ خَلَقْنَا جَبَدًا {49} قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا {50} أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُعِيدُنَا إِلَيْكُمْ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا {51} يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا {52} وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا {53} رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ بَعْدُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا {54} وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا {55} قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {57}

يبدأ هذا الدرس وينتهي باستنكار فكرة الولد والشريك ، وبيان ما فيها من اضطراب وتهافت ، وتقرير وحدة الاتجاه الكوني إلى الخالق الواحد (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ووحدة المصير والرجعة إلى الله في الآخرة ، ووحدة علم الله الشامل بمن في السماوات ومن في الأرض ، ووحدة التصرف في شؤون الخلائق بلا معقب (إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) ومن خلال السياق تتهافت عقائد الشرك وتهاوى ، وتنفرد الذات الإلهية بالعبادة والاتجاه والقدرة والتصرف والحكم في هذا الوجود ، ظاهره وخافيه ، دنياه وآخرته ؛ ويبدو الوجود كله متجهاً إلى خالقه في تسيحة مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والأشياء) أفصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولا عظيماً ؟ استفهام للاستنكار والتهكم . استنكار لما يقولون من أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن الولد والصاحبة كما تعالى عن الشبيه والشريك . وتهكم على نسبة البنات لله وهم يعدون البنات أدنى من البنين ويقتلون البنات خوف الفقر أو العار ؛ ومع هذا يجعلون الملائكة إناثاً ، وينسبون هؤلاء الإناث إلى الله ! فإذا كان الله هو واهب البنين والبنات ، فهل أصفاهم بالبنين المفضلين واتخذ لنفسه الإناث المفضولات ؟! وهذا كله على سبيل مجاراتهم في ادعاءاتهم لبيان ما فيها من تفكك وتهافت . وإلا فالقضية كلها مستنكرة من الأساس (إنكم لتقولون قولا عظيماً) عظيماً في شناعته وبشاعته ، عظيماً في جرأته ووقاحته ، عظيماً في ضخامة الافتراء فيه ، عظيماً في خروجه عن التصور والتصديق (ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدذكروا ، وما يزيدهم إلا نفوراً) فقد جاء القرآن بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقاً شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل متعددة (ليذكروا) فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلائلها ؛ ولكنهم يزيدون نفوراً كلما سمعوا هذا القرآن . نفوراً من العقيدة التي جاء بها ، ونفوراً من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التي يستمسكون بها . عقائد الشرك والوهم والترهات . وكما جاراهم في ادعاءاتهم في حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو يجاريهم في حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله ، وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلاً (قل: لو كان مع آلهة

كما يقولون ، إذن لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلا) ولو - كما يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله - كما يقولون - والآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجما أو كوكبا ، إنسانا أو حيوانا ، نباتا أو جمادا . وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها ؛ وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته إذن لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلا . . وذكر العرش هنا يوحي بالارتقاء والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة (مع) الله . وهي تحت عرشه وليست معه . . ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه (سبحان وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهدا فريدا ، تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله ، يسبح له ويجد الوسيلة إليه (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا) وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتتفرض روحا حية تسبح الله . فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رحية ، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال . وإنه لمشهد كوني فريد ، حين يتصور القلب . كل حصاة وكل حجر . كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل ثمرة . كل نبتة وكل شجرة . كل حشرة وكل زاحفة . كل حيوان وكل إنسان . كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء . . ومعها سكان السماء . . كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئا ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا . . سمعه يسبح لله ، وينبض بالحياة (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) يسبح بطريقته ولغته (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين ، ولأنكم لم تسمعوا بقلوبكم ، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية ، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتتوجه بها إلى خالق النواميس ، ومدبر هذا الكون الكبير . وحين تشف الروح وتصفو فتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ، ويتوجه بالتسبيح ، فإنها تنهيا للاتصال بالملا الأعلى ، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود ، النابضة في كل متحرك وساكن ، وفي كل شيء في هذا الوجود (إنه كان حليما غفورا) وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله ، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله ، ومن ينسب له البنات ، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه . والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد . ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويذجرهم (إنه كان حليما غفورا) ولقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به ؛ فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا ، حجابا خفيا ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل في آذانهم كالأصم فلا تعي ما فيه من توجيه (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا . نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى . إذ يقول الظالمون: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقد روى ابن اسحاق في السيرة عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ؛ فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا ، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس: وأنا ، والذي حلفت به . قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ؛ فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال: ماذا سمعت ؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال فقام عنه الأخنس وتركه . فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن فطرتهم فيصنونها ، وتجانبهم إليه قلوبهم فيمانعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا

يهتدون بالقرآن الذي يتلوه . وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتأمرّون على عدم الاستماع إليه ؛ ثم يغلبهم التأثر به فيعودون ، ثم يتناجون من جديد ، حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذي يخلب القلوب والألباب ! ذلك أن عقيدة التوحيد التي يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم في مكانتهم وفي امتيازاتهم وفي كبرياتهم فينفرون منها (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أديبارهم نفورا) نفورا من كلمة التوحيد ، التي تهدد وضعهم الاجتماعي ، القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية ، وإلا فقد كان كبراء قريش أذكي من أن يخفى عليهم ما في عقائدهم من تهافت ، وما في الإسلام من تماسك ، وأعرف بالقول من أن يغيب عنهم ما في القرآن من سمو وارتفاع وامتياز . وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستماع إليه والتأثر به ، على شدة ما يمانعون قلوبهم ويدافعونها ! ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ؛ والكبراء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتدرون بها عن المكابرة والعناد (إذ يقول الظالمون:إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)

وهذه الكلمة ذاتها تحمل في ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ؛ فهم يستكثرون في دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر ؛ لأنهم يحسون فيه شيئا غير بشري . ويحسون دبيبه الخفي في مشاعرهم فينبسون قائله إلى السحر ، يرجعون إليه هذه الغرابة في قوله ، وهذا التميز في حديثه ، وهذا التفوق في نظمه . فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر ! ولو أنصفوا لقالوا:إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ، ولا خلق آخر من خلق الله (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ضربوا لك الأمثال بالمسحورين ولست بمسحور ، إنما أنت رسول ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحاروا فلم يجدوا طريقا يسلكونه . لا إلى الهدى ، ولا إلى تحليل موقفهم المريب ! ذلك قولهم عن القرآن ، وعن الرسول ﷺ وهو يتلو عليهم القرآن . كذلك كذبوا بالبعث ، وكفروا بالآخرة . وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل . مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر . ولقد عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات . ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة ؛ فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام (وقالوا:أأنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا) ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلا ثم كانوا ، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى . وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أعسر من شيء ، وأداة الخلق واحدة في كل شيء: (كن فيكون) فيستوي إذن أن يكون الشيء سهلا وأن يكون صعبا في نظر الناس ، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه . وكان الرد على ذلك التعجب (قل:كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم) والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ؛ والحديد والحجارة أبعد عن الحياة . فيقال لهم كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر أو غل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة . . فسيعيثكم الله . وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدي . وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع ، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيحاء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر ! (فسيقولون:من يعيدنا ؟) من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما ، أو خلقا آخر أشد إغلا في الموت والخمود (قل:الذي فطركم أول مرة) وهو رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذي أنشأهم إنشاء قادر على أن يردهم أحياء . ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون (فسينغضون إليك رؤوسهم) ينغضونها علوا أو سفلا ، استنكارا و استهزاء (ويقولون:متى هو ؟) استبعادا لهذا الحادث واستنكارا (قل:عسى أن يكون قريبا) فالرسول لا يعلم مواعده تحديدا . ولكن لعلة أقرب مما يظنون . وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون ! ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا يلبنون دعوة الداعي ، وألسنتهم تلهج بحمد الله . ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب ! وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا:الحمد لله . الحمد لله ! ويومئذ تنطوي الحياة الدنيا كما ينطوي الظل (وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها في نفوس المخاطبين ، فإذا هي قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها في النفس وصورها في الحس ، إلا أنها لمحة مرت وعهد زال وظل تحول ، ومتاع قليل . ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور ، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول ، المنغضين رؤوسهم المتهمكين المتهمجين . . يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول ﷺ أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائما بالحسنى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) على وجه الإطلاق وفي كل مجال . فيختاروا أحسن ما يقال لبقوله . . بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالرد السيء يتلوهما فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف

ثم بالحفوة ثم بالعداء . والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندي جفافها ، وتجمعها على الود الكريم (إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه ، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه . والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة أمانا من نزغاته ونفثاته . وبعد هذه اللقطة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده ، فإذا المصير كله بيد الله وحده ، إن شاء رحم ، وإن شاء عذب ، وهم متروكون لقضاء الله ، وما الرسول عليهم بوكيل ، إن هو إلا رسول (ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيل . وربك أعلم بمن في السماوات والأرض) فالعلم المطلق لله . وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم . وعند البلاغ تنتهي وظيفة الرسول . وعلم الله الكامل يشمل من في السماوات والأرض من ملائكة ورسول وإنس وجن ، وكائنات لا يعلم إلا الله ما هي ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها . وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وهو تفضيل يعلم الله أسبابه . أما مظاهر هذا التفضيل فقد سبق الحديث عنها في الجزء الثالث من هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) فراجع في موضعه هناك (وأتينا داود زبوراً) وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضا . إذ كانت الكتب أبقى من الخوارق المادية التي يراها بعض الناس في ظرف معين من الزمان . وينتهي هذا الدرس الذي بدأ بنفي فكرة الأبناء والشركاء ، واستطرد إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد . . ينتهي بتحدي الذين يزعمون الشركاء ، أن يدعوا الآلهة المدعاة إلى كشف الضر عنهم لو شاء الله أن يعذبهم ، أو تحويل العذاب إلى سواهم (قل:ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) فليس أحد بقادر على أن يكشف الضر أو يحوله إلا الله وحده ، المتصرف في أقدار عباده . ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الإنس . . إن هم إلا خلق من خلق الله ، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه ، ويخافون عذابه الذي يحذر من يعلم حقيقته ويخشاه (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمة ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا) وقد كان بعضهم يدعو عبدا ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده . وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء . . فالله يقول لهم جميعا:إن هؤلاء الذين تدعونهم ، أقربهم إلى الله يبتغي إليه الوسيلة ، ويتقرب إليه بالعبادة ، ويرجو رحمته ، ويخشى عذابه - وعذاب الله شديد يحذر ويخاف - فما أجركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد لله ، يبتغون رضاه . وهكذا يبدأ الدرس ويختم ببيان تهافت عقائد الشرك في كل صورها . وتفرد الله سبحانه بالالوهية والعبادة والاتجاه .

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا {58}) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمِمَّا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا {59} وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَبْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَخَوْفَهُمْ مِمَّا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طِغْيَانًا كَبِيرًا {60} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا {61} قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ يَأْتِيَنَّكَ جَزَاءُ مَوْفُورًا {62} قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا {63} وَأَسْتَفْرَزُ مِنْ اسْتِطْعَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمِمَّا بَعْدَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا {64} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكفى برئكَ وكيلا {65} رَبِّيَكُمُ الَّذِي يَزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْمُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً {68} أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا {69} وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا {70} يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا {71} وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا {72}

يستطرد السياق إلى بيان المصير النهائي للبشر جميعا - كما قدره الله في علمه وقضائه - وهو انتهاء القرى جميعها إلى الموت والهلاك قبل يوم القيامة ، أو وقوع العذاب ببعضها إن ارتكبت ما يستحق العذاب . فلا يبقى حي إلا ويلاقي نهايته على أي الوجهين:الهلاك حنق أنفه أو الهلاك بالعذاب .

وبمناسبة ذكر العذاب الذي يحل ببعض القرى يشير السياق إلى ما كان يسبقه من الخوارق على أيدي الرسل - قبل رسالة محمد ﷺ هذه الخوارق التي امتنعت في هذه الرسالة ، لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك . والهلاك لم يقدر على أمة محمد لذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفا للامم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها . وقد كف الله الناس عن الرسول ﷺ وعصمه منهم فلا يصلون إليه . وأراه الرؤيا الصادقة في الإسراء لتكون ابتلاء للناس ، ولم يتخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل ، وخوفهم الشجرة الملعونة في القرآن - شجرة الزقوم - التي رآها في أصل الجحيم ، فلم يزدتهم التخويف إلا طغيانا . وإذن فما كانت الخوارق إلا لتزيدهم طغيانا . وفي هذا الموضع من السياق تجيء قصة إبليس مع آدم ، وإذن الله لإبليس في ذرية آدم إلا الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه . فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصلية التي تقود الناس إلى الكفر والظلم ، وتبعدهم عن تدبر الآيات . ويلمس السياق في هذا الموضع وجدان الإنسان بذكر فضل الله على بني آدم ، ومقابلتهم هذا الفضل بالبطر والجحود ، فلا يذكر الله إلا في ساعات الشدة . فإذا مسهم الضر في البحر لجأوا إليه . فإذا أنجاهم إلى البر أعرضوا . والله قادر على أن يأخذهم في البر وفي البحر سواء ! ولقد كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلقه ، ولكنهم لا يشكرون ولا يذكرون . ويختم هذا الدرس بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يوم يلقون جزاءهم على ما قدمت أيديهم ، فلا مجال للنجاة لأحد إلا بما قدمت يداه (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا . كان ذلك في الكتاب مسطورا) فقد قدر الله أن يجيء يوم القيامة ووجه هذه الأرض خال من الحياة ، فالهلاك ينتظر كل حي قبل ذلك اليوم الموعود . كذلك قدر العذاب لبعض هذه القرى بما ترتكب من ذنوب . ذلك ما ركز في علم الله . والله يعلم ما سيكون علمه بما هو كائن . فالذي كان والذي سيكون كله بالقياس إلى علم الله سواء . وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهي الهلاك بالعذاب . ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان ؛ أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم . ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق (وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) إن معجزة الإسلام هي القرآن . وهو كتاب يرسم منها كاملا للحياة . ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبى الفطرة القويمة . ويبقى مفتوحا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة . أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلا واحدا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل . على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها . وقد ضرب السياق المثل بثمود ، الذين جاءتهم الناقة وفق ما طلبوا واقتروا آية واضحة . فظلموا بها أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة تصديقا لوعد الله بإهلاك المكذبين بالآية الخارقة . وما كانت الآيات إلا إنذارا أو تخويفا بحتمية الهلاك بعد مجيء الآيات . هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق . لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها . ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلا بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه . أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة . إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء (وإذ قلنا لك: إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) ولقد آرتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينا . ومن ثم كانت الرؤيا التي أراها الله لعبده في تلك الليلة "فتنة للناس" وابتلاء لإيمانهم . أما إحاطة الله بالناس فقد كانت وعدا من الله لرسوله بالنصر ، وعصمة له من أن تمتد أيديهم إليه . ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما أطلعه الله عليه في رؤياه الكاشفة الصادقة . ومنه شجرة الزقوم التي يخوف الله بها المكذبين . فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهمكا: هاتوا لنا تمرا وزيدا ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا ! فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين ؟ وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغيانا كبيرا ؟ إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده . ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق . أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . . . ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين . وظل القرآن - معجزة الإسلام - كتابا مفتوحا لجيل محمد ﷺ وللأجيال بعده ، فأمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته . إنما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه . وسبق في القرآن كتابا مفتوحا للأجيال ، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب ، وقد يكون منهم من هو أشد إيمانا وأصلح عملا ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه . وفي ظل الرؤيا التي رآها الرسول ﷺ واطلع فيها على ما اطلع من عوالم ، والشجرة الملعونة التي يطعم منها أتباع الشياطين . . . يجيء مشهد إبليس الملعون ، بهد ويتوعد بأغواء الضالين (وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس . قال: أسجد لمن خلقت طينا ؛ قال: أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكّن

ذريته إلا قليلا . قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا) إن السياق يكشف عن الأسباب الأصلية لضلال الضالين ، فيعرض هذا المشهد هنا ، ليحذر الناس وهم يطلعون على أسباب الغواية ، ويرون إبليس عدوهم وعدو أبيهم يتهددهم بها ، عن إصرار سابق قديم ! (وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال: أسجد لمن خلقت طينا) ! إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين ! ويعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية ، فيقول في تبجح (رأيتك هذا الذي كرمت علي) أتري هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك ؟ (لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتك نزيته إلا قليلا) فلاستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم . ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعدادا للشر والغواية . عن حالته التي يكون فيها متصلا بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية ، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقا واحدا تسلكه بلا إرادة . فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب . وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بني الإنسان (قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) اذهب فحاول محاولتك . اذهب مأذونا في إغوائهم . فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك (فمن تبعك منهم) مغلبا جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية ، معرضا عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان ، غافلا عن آيات الله في الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ، (فإن جهنم جزاؤكم) أنت وتابعوك (جزاء موفورا) (واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول . فهي المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات . يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يسترجعهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة . فإذا استرجعوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال ! (وشاركهم في الأموال والأولاد) وهذه الشركة تتمثل في أولادهم الوثنية الجاهلية ، إذ كانوا يجعلون في أموالهم نصيبا للآلهة المدعاة - فهي للشيطان - وفي أولادهم نورا للآلهة أو عبدا لها - فهي للشيطان - كعبد اللات وعبد مناة . وأحيانا كانوا يجعلونها للشيطان رأسا كعبد الحارث ! كما تتمثل في كل مال يجبي من حرام ، أو يتصرف فيه بغير حق أو ينفق في إثم . وفي كل ولد يجيء من حرام . ففيه شركة للشيطان . والتعبير يصور في عمومته شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة ! وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية المخادعة (وعدهم وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا) كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص . والوعد بالغنى من الأسباب الحرام . والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل الفذرة والأساليب الخسيسة . . . ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعضو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ؛ وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة . فيتألف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة ! اذهب مأذونا في إغواء من يجنحون إليك . ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك ! (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا) فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها . متى أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرفت وأثارت . . فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان (وكفى بربك وكيلا) يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان . وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستدل عبده ، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان . ذلك ما يبيته الشيطان للناس من شر وأذى ؛ ثم يوجد في الناس من يتبعون هذا الشيطان ، ويستمعون إليه ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته . والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم ويسر لهم المعاش ، وينجيهم من الضر والكرب ، ويستجيب لهم في موقف الشدة والضيق . . ثم إذا هم يعرضون ويكفرون (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيمًا وإذا مسك الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا) والسياق يعرض هذا المشهد ، مشهد الفلك في البحر ، نموذجا للحظات الشدة والترحال . لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية ، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن . إنه مشهد يحس به من كايده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواحفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيرا كان أو كبيرا حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبح الموج الجبار ! والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه لبيتغوا من فضله (إنه كان بكم رحيمًا) فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان . ثم ينتقل بهم من الإجزاء الرخي للاضطراب العتي . حين ينسى الراكب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر

لا يدعون أحدا سواه (ضل من تدعون إلا إياه) ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما إن تنجلي الغمرة ، وتحس قدماء ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار . وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر ، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماة ، لا في البحر ولا في البر ؛ لا في الموجة الرخبة والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيفا أم أمنتم أن يبعث عليكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتهم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟) . إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة . إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر . فكيف يأمنون ؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيفا يحميهم ويدفع عنهم ؟ أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة ، تقصف الصواري وتحطم السفين ، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم ، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم ؟ ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا . ثم يأمنوا أخذه وكيد . وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسون بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن ياخذهم بها الله ! تلك وقد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه . كرمه بخلقته على تلك الهبة ، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان ! وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته ؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشيء ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة . وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك . وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان ! وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض . . القرآن (ولقد كرما بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (وحملناهم في البر والبحر) والحمل في البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات ، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية ، وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية في البر والبحر . ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها ، ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها . وكله من فضل الله (ورزقناهم من الطيبات) والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التي رزقها إلا حين يحرمها . فعندئذ يعرف قيمة ما يستمتع به ، ولكنه سرعان ما يعود فينسى . . هذه الشمس . هذا الهواء . هذا الماء . هذه الصحة . هذه القدرة على الحركة . هذه الحواس . هذا العقل . . . هذه المطاعم والمشارب والمشاهد . . . هنا الكون الطويل العريض الذي استخلف فيه ، وفيه من الطيبات ما لا يحصيه (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . . فضلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض . وبما ركب في فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فنا بين الخلائق في ملك الله . ومن التكريم أن يكون الإنسان قيما على نفسه ، محتملا تبعة أتجاهه وعمله . فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا . حرية الاتجاه وفردية التبعة . وبها استخلف في دار العمل . فمن العدل أن يلقي جزاء أتجاهه وثمره عمله في دار الحساب (يوم ندعو كل أناس بإمامهم . فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون شيئا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وهو مشهد يصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادي بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتتت به ، أو الإمام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادي ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة . . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئا ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمى في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشد ضلالا . وجزاؤه معروف . ولكن السياق يرسمه في المشهد المزدهم الهائل ، أعمى ضلالا يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمرا ، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ؛ يؤثر في القلوب !

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَإِنَّا لَنَنصِرُكَ لِنَفْسِكَ لِيُغَيِّرَ وَإِنَّا لَنَنصِرُكَ لِنَفْسِكَ لِيُغَيِّرَ وَإِنَّا لَنَنصِرُكَ لِنَفْسِكَ لِيُغَيِّرَ } 73 { وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئِكَ لَقَدْ كَرِهْتَ لِرُكْنِ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا } 74 { إِذَا لَدُنْكَ ضَعْفُ الْحَيَاةِ وَضَعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } 75 { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِنَّا لَا نَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا

قَلِيلًا {76} سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا {77} أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا {78} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَجْمُودًا {79} وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا {80} وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا {81} وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا {82} وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا {83} قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرِيقٌ يَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا {84} وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا {85} وَلَتَن نَّسْنُنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا لَدِينِ اللَّهِ وَإِنَّا بِمَا تَعْمَلُونَ وَكَيْلًا {86} إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّا فَضَّلْنَاكَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {87} قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {88} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا {89} وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ سَائِدًا كَمَا نَزَّلْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سَائِدٍ فَذُنُوبُهُمْ أَلْهَتُهُمْ عَنِ الذِّكْرِ شَدِيدًا فَاعْتَدُوا لِلْعَذَابِ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهِمْ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَإِنَّمَا هُمْ ظَالِمُونَ لِنَفْسِهِمْ إِنَّهُم عَلَىٰ آلَاتِهِمْ مُشْرِكُونَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {90} أَوْ تَكُونُ لَكَ حِجَّةٌ مِّن تَحِيلٍ وَعَنبُ فَتَفْجُرَ الْإِنهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْلَ بَخْسٍ أَوْ تَأْتِي بَالِغَةً وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا {92} أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زَخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفْعِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا {94} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا {95} قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {96} وَمِن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُم أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ يُخسِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عَمِيَاءٌ وَبِكَمَا وَصَمَّا مَا وَاهُم جَهَنَّمَ كَلِمًا خَبِتَ زَنَاهُمْ سَعِيرًا {97} ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا {98} أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا {99} قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا {100} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا {102} فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا {103} وَقَلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدَ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا {104} وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَا وَإِنَّا لَهُ لَنَاقِرٌ أُوقَاتٍ {105} وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا {106} قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا {108} وَيَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ يَسْجُدُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا {109} قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا {110} وَقُلِ الْجَمَدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا {111}

هذا الدرس الأخير في سورة الإسراء يقوم على المحور الرئيسي للسورة . وهو شخص الرسول ﷺ وموقف القوم منه . والقرآن الذي جاء به وخصائص هذا القرآن . و يبدأ بالإشارة إلى محاولات المشركين مع الرسول ليفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ، وما هموا به من إخراجهم من مكة وعصمة الله له من فتنتهم ومن استفزازهم ، لما سبق في علمه تعالى من إمهالهم وعدم أخذهم بعذاب الإيابة كالأمم قبلهم . ولو أخرجوا الرسول لحاق بهم الهلاك وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلكم من الأقوام . ومن ثم يؤمر الرسول ﷺ أن يمضي في طريقه يصلي لربه ويقرا قرآنه ويدعو الله أن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق ويجعل له سلطانا نصيرا ، ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل . فهذا الاتصال بالله هو سلاحه الذي يعصمه من الفتنة ويكفل له النصر والسلطان . ثم بيان لوظيفة القرآن فهو شفاء ورحمة لمن يؤمنون به ، وهو عذاب ونقمة على من يكذبون ، فهم في عذاب منه في الدنيا ويلقون العذاب بسببه في الآخرة . وبمناسبة الرحمة والعذاب يذكر السياق شيئا من صفة الإنسان في حالتي الرحمة والعذاب . فهو في النعمة متبطر معرض ، وهو في النقمة يؤوس قنوط . ويعقب على هذا بتهديد خفي بترك كل إنسان يعمل وفق طبيعته حتى يلقي

في الآخرة جزاءه . كذلك يقرر أن علم الإنسان قليل ضئيل . وذلك بمناسبة سؤالهم عن الروح . والروح غيب من غيب الله ، ليس في مقدور البشر إدراكه . . والعلم المستيقن هو ما أنزله الله على رسوله . وهو من فضله عليه ولو شاء الله لذهب بهذا الفضل دون معقب ، ولكنها رحمة الله وفضله على رسوله . ثم يذكر أن هذا القرآن المعجز الذي لا يستطيع الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا وتظاهروا ، والذي صرف الله فيه دلائل الهدى ونوعها لتخاطب كل عقل وكل قلب . . هذا القرآن لم يغن كفار قريش ، فراحوا يطلبون إلى الرسول ﷺ خوارق مادية ساذجة كتفجير الينابيع في الأرض ، أو أن يكون له بيت من زخرف ؛ كما تعنتوا فطلبوا ما ليس من خصائص البشر كأن يرقى الرسول في السماء أمامهم ويأتي إليهم بكتاب مادي يقرأونه ، أو يرسل عليهم قطعاً من السماء تهلكتهم . وزادوا عننا وكفرا فطلبوا أن يأتيهم بالله والملائكة قبلاً ! وهنا يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يصور فيه عاقبتهم التي تنتظرهم جزاء هذا العنت ، وجزاء تكذيبهم بالآخرة ، واستنكارهم البعث وقد صاروا عظاماً ورفاتا . ويسخر من اقتراحاتهم المتعنتة ، وهم لو كانوا خزنة رحمة الله ، لأدركهم الشح البشري فامسكوا خشية نفاذ الخزائن التي لا تنفذ ! وهم مع ذلك لا يقفون عند حد فيما يطلبون ويقترحون ! وبمناسبة طلبهم الخوارق يذكرهم بالخوارق التي جاء بها موسى فكذب بها فرعون وقومه فأهلكهم الله حسب سنته في إهلاك المكذبين . فأما هذا القرآن فهو المعجزة الباقية الحقة . وقد جاء متفرقا حسب حاجة الأمة التي جاء لتربيتها وإعدادها . والذين أوتوا العلم من قبله من مؤمنى الأمم السابقة يدركون ما فيه من حق ويدعون له ويخشعون ، ويؤمنون به ويسلمون وتنتهي السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده ، وإلى تسبيحه وحمده ، كما بدأت بالتسبيح والتنزيه (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره . وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذا لأذنبناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا . وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنننا تحويلا) يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه ، ليفتري عليه غيره ، وهو الصادق الأمين . لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى . . منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بالهتهم وما كان عليه أبواهم . ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذي حرمه الله . ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء . والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثببت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلا . وللقي عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ، وهي مضاعفة العذاب في الحياة والممات ، دون أن يجد له نصيرا منهم يعصمه من الله . هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائما . محاولة إغرائهم لينحرفوا - ولو قليلا - عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحلول الوسط التي يغزونهم بها في مقابل مغنم كثيرة . ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينا ، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق . وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها ! ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق . وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير ، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل ، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة . لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء ! لذلك امتن الله على رسوله ﷺ أن تثبته على ما أوحى الله ، وعصمه من فتنة المشركين له ، ووقاه الركون إليهم - ولو قليلا - ورحمه من عاقبة هذا الركون ، وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفا ، وفقدان المعين والنصير .

وعندما عجز المشركون عن استنراج الرسول ﷺ إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازهم من الأرض - أي مكة - ولكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجرا ، لما سبق في علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة . ولو أخرجوا الرسول ﷺ عنوة وقسرا لحل بهم الهلاك (وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا) فهذه هي سنة الله النافذة (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنننا تحويلا) ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول ، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم . وهذا الكون تصرفه سنن مطردة ، لا تتحول أمام اعتبار فردي . وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون ، إنما هي السنن المطردة الثابتة . فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشا بعذاب الإبادة كما أخذ المكذبين من قبل ، لحكمة علوية ، لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة ، بل أوحى إليه بالهجرة . ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول . . بعد ذلك يوجه الله رسوله ﷺ إلى الاتصال به ، واستمداد العون منه ، والمضي في طريقه ، يعلن انتصار الحق وزهوق الباطل (أقم الصلاة لئلا تكون الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ؛ ومن الليل فتهدج به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا . وقل: جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة

للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) ودلوك الشمس هو ميلها إلى المغرب . والأمر هنا للرسول ﷺ خاصة . أما الصلاة المكتوبة فلها أوقاتها التي تواترت بها أحاديث الرسول ﷺ وتواترت بها سنته العملية . وقد فسر بعضهم دلوك الشمس بزوالها عن كبد السماء ، والغسق بأول الليل ، وفسر قرآن الفجر بصلاة الفجر ، وأخذ من هذا أوقات الصلاة المكتوبة وهي الظهر والعصر والمغرب والعشاء - من دلوك الشمس إلى الغسق - ثم الفجر . وجعل التهجد وحده هو الذي اختص رسول الله بأن يكون مأموراً به ، وأنه نافلة له . ونحن نميل إلى الرأي الأول . وهو أن كل ما ورد في هذه الآيات مختص بالرسول ﷺ وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسنة القولية والعملية (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أقم الصلاة ما بين ميل الشمس للغروب وإقبال الليل وظلامه ؛ واقرأ قرآن الفجر (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) ولهذين الأنين خاصيتهما وهما إديار النهار وإقبال الليل . وإديار الليل وإقبال النهار . ولهما وقعهما العميق في النفس ، فإن مقدم الليل وزحف الظلام ، كمطلع النور وانكشاف الظلمة . كلاهما يخشع فيه القلب ، وكلاهما مجال للتأمل والتفكير في نواميس الكون التي لا تفتقر لحظة ولا تختل مرة . وللقرآن - كما للصلاة - إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته ، ونسماته الرخية ، وهدوئه السارب ، وتفتحته بالنور ، ونبضه بالحركة ، وتنفسه بالحياة (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) والتهجد هو الصلاة بعد نومة أول الليل . والضمير في (به) عائد على القرآن ، لأنه روح الصلاة وقوامها (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . بهذه الصلاة وبهذا القرآن والتهجد به ، وبهذه الصلة الدائمة بالله . فهذا هو الطريق المؤدي إلى المقام المحمود وإذا كان الرسول ﷺ يؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليعبته ربه المقام المحمود المأذون له به وهو المصطفى المختار ، فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا المقام المأذون لهم به في درجاتهم . فهذا هو الطريق . وهذا هو زاد الطريق (وقل: رب أدخلني مدخل صدق . وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً) وهو دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به . ولتعلم أمته كيف تدعو الله وقيم تتجه إليه . دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها . بدئها وختامها . أولها وآخرها وما بين الأول والآخر . وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزل الله عليه ليفتري على الله غيره . وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص . (واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً) قوة وهيبة استعلى بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين وكلمة (من لدنك) تصور القرب والاتصال بالله والاستعداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه . وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله . ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله . لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه فينصره وبمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله . والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه ، فيصبحون لها جنداً وخداماً فيفلحون ، ولكنها هي لا تغلج إن كانت من جند السلطان وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه (وقل: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل وانحاره وجلاءه . فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتواري ويزهق (إن الباطل كان زهوقاً) حقيقة لدية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ ويتنفخ وينفخ ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة ؛ ومن ثم يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً ، ولكنه هش سريع العطب ، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبو سريعاً وتستحيل إلى رماد ؛ بينما الجمره النازكية تدفئ وتنفخ وتبقى ؛ وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء (إن الباطل كان زهوقاً) لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته ، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية ؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل ، ووهت هذه الأسناد تهوى وانهار . فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده . وقد تقف ضده الأهواء وتقف ضده الظروف ويقف ضده السلطان . . ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبي ويكفل له البقاء ، لأنه من عند الله الذي جعل (الحق) من أسمائه وهو الحي الباقي الذي لا يزول (إن الباطل كان زهوقاً) ومن ورائه الشيطان ، ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق ، وسلطان الله أقوى . وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد ، وصدق العهد . ومن أوفى بعهد من الله ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وفي القرآن شفاء ، وفي القرآن رحمة ، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرق وتفتحت لتلقى ما في القرآن من روح وطمأنينة وأمان . في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة . فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة ؛ والقلق مرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين . وفي القرآن شفاء من الهوى والندس والطمع والحسد ونزعات الشيطان . . وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين . وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية في مجالته المثمرة ، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي ، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط ، يجعل نشاطه منتجاً ومأموناً . ويعصمه من الشطط والزلل . وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليماً معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين . وفي

القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمانينتها . فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمانينة . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة . وهم في غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم في عنادهم وكبريائهم يشتطون في الظلم والفساد ، وهم في الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن ، فهم خاسرون . وفي الآخرة معذبون بكفرهم به ولجاجهم في الطغيان ، فهم خاسرون: (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) . فاما حين يترك الإنسان بلا شفاء ورحمة . حين يترك لنزعاته وانفعااته فهو في حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ولا يذكر ، وهو في حال الشدة يأس من رحمة الله ، تظلم في وجهه فجاج الحياة (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوساً) والنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان وأهبا فيحمد ويشكر ، والشدة تبيس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله ، فيرجو ويأمل ، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله ، فيتفاءل ويستبشر . ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء . ثم يقرر السياق أن كل فرد وكل فريق يعمل وفق طريقته واتجاهه ؛ والحكم على الاتجاهات والأعمال موكول لله (قل: كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً) وفي هذا التقرير تهديد خفي ، بعاقبة العمل والاتجاه ، ليأخذ كل حذره ، ويجاوب أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله . وراح بعضهم يسأل الرسول ﷺ عن الروح ما هو ؟ والمنهج الذي سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته ؛ فلا يبذل الطاقة العقلية التي وهبها الله فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفي غير مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به . فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر الله ، اختص بعلمه دون سواه (ويسألونك عن الروح . قل: الروح من أمر ربي . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل . ولكن فيه توجيه لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه . فلا جدوى من الخبط في التيه ، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه . والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها . وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود . والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، في حدود علمه القليل . ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ؛ ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف - الروح - لا يري ما هو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل . وما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن ، لأنه من العليم الخبير . ولو شاء الله لحرم البشرية منه ، وذهب بما أوحى إلى رسوله ؛ ولكنها رحمة الله وفضله (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً . إلا رحمة من ربك ، إن فضله ، كان عليك كبيراً) والله يمتن على رسوله ﷺ بهذا الفضل . فضل إنزال الوحي ، واستبقاء ما أوحى به إليه ؛ المنة على الناس أكبر ، فهم بهذا القرآن في رحمة وهداية ونعمة ، أجيالاً بعد أجيال . وكما أن الروح من الأسرار التي اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته ، ولا يملك الإنس والجن - وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي - أن يأتوا بمثله ، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة (قل: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فهذا القرآن ليس أفضلاً من عبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكيها . إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه . هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره . والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل . منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تصرف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها ، والتي تصرف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها . ومن ثم فهو يعالج النفس المضردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملازمة للفطرة المتغلغلة في وشائجها ودروبها ومنحنيات الكثرة . يعالجها علاجاً متكاملًا متناسق الخطوات في كل جانب ، في الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة . لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابساتها المتشابكة . أما النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته . ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بنواء يؤدي بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً . وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ؛ أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ؛ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ؛ أو يكون لك بيت من زخرف ؛ أو ترقى في السماء . ولن

نؤمن لرفيق حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . . .). وهكذا قصر إدراكهم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية ، فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبحجون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج . . . لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقايقه في أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر ، وشتى الأجيال والأطوار (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) وعلقوا إيمانهم بالرسول ﷺ بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ! أو بأن تكون له جنة من نخيل وعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو أن يأخذهم بعذاب من السماء ، فيسقطها عليهم قطعا كما أنزهرهم أن يكون ذلك يوم القيامة ! أو أن يأتي بالله والملائكة قبلا يناصره ويدفع عنه كما يفعلون هم في قبائلهم ! أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة . أو أن يرقى في السماء . ولا يكفي أن يعرج إليها وهم ينظرونه ، بل لا بد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه ! وتبدو طفولة الإدراك والتصور ، كما يبدو التعنت في هذه المقترحات الساذجة . وهم يسوو بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء ! أو بين تفجير ينبوع من الأرض ومجيء الله - سبحانه - والملائكة قبلا ! والذي يجمع في تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق . فإذا جاءهم بها نظروا في الإيمان له والتصديق به ! وغفلوا عن الخارقة الباقية في القرآن ، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه ، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تتركه الحواس ! والخارقة ليست من صنع الرسول ﷺ ولا هي من شأنه ، إنما هي من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته . وليس من شأن الرسول ﷺ أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها . فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله في تدبيره يمنعان الرسول أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به . . . (قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) يقف عند حدود بشريته ، ويعمل وفق تكاليف رسالته ، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه . ولقد كانت الشبهة التي عرضت للأقوام من قبل أن يأتيهم محمد ﷺ ومن بعد ما جاءهم ، والتي صدتهم عن الإيمان بالرسول وما معهم من الهدى ، أنهم استعدوا أن يكون الرسول بشرا ! ولا يكون ملكا (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشرا رسولا ؟) وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتها على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولا من عند الله . كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهيين للاستقرار في الأرض وهم في صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة (قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) فلو قدر الله أن الملائكة تعيش في الأرض لصاغهم في صورة آدمية ، لأنها الصورة التي تتفق مع نوااميس الخلق وطبيعة الأرض ، كما قال في آية أخرى: (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) والله قادر على كل شيء ، ولكنه خلق نوااميس وبرأ مخلوقاته وفق هذه النوااميس بقدرته واختياره ، وقدر أن تمضي النوااميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول ، لتحقق حكمته في الخلق والتكوين - غير أن القوم لا يدركون ! وما دامت هذه سنة الله في خلقه ، فهو يأمر الرسول ﷺ أن ينهي معهم الجدل ، وأن يكل أمره وأمرهم إلى الله يشهده عليهم ، ويدع له التصرف في أمرهم ، وهو الخبير البصير بالعباد جميعا (قل: كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) وهو قول يحمل رائحة التهديد . أما عاقبته في رسمها في مشهد من مشاهد القيامة مخي (ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، ماواههم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا: أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ، فأبى الظالمون إلا كفورا) ولقد جعل الله للهدى وللضلال سننا ، وترك الناس لهذه السنن يسبغون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الإنسان مهيا للهدى وللضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال . فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ؛ وهذا هو المهتدي حقا ، لأنه أتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله (فلن تجد لهم أولياء من دونه) ويحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة: على وجوههم يتكفأون (عميا وبكما وصما) مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام . جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك الدلائل الهدى (و ماواههم جهنم) في النهاية ، لا تبرد ولا تفتت (كلما خبت زدناهم سعيرا) وهي نهاية مفزعة وجزاء مخيف . ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله: (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) واستنكروا البعث واستبعدوا وقوعه (وقالوا: أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) والسياق يعرض هذا المشهد كأنه هو الحاضر الآن ، وكأننا الدنيا التي كانوا فيها قد انطوت صفحاتها وصارت ماضيا بعيدا . . . وذلك على طريقة القرآن في تجسيم المشاهد وعرضها واقعة حية ، تفعل فعلها في القلوب والمشاعر قبل فوات الأوان . ثم يعود ليجادلهم بالمنطق الواقعي الذي يروونه فيغفلونه (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟) فأية غرابة في البعث ؛ والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذا على أن يعيدهم أحياء ، وأجلهم إلى موعدة (فأبى الظالمون إلا كفورا) فكان جزاؤهم عادلا بعد منطوق الدلالات ومنطوق المشاهدات ، ووضوح الآيات . على أن أولئك الذين يقترحون على الرسول ﷺ تلك المقترحات

المتعنتة ، من بيوت الزخرف ، وجنات النخيل والأعناب ، والينابيع المتفجرة . . بخلاء أشحاء حتى لو أن رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفاذها ، ورحمة الله لا تنفذ ولا تفيض (قل: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا) وهي صورة بالغة للشح ، فإن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولا يخشى نفاذها ولا نقصها . ولكن نفوسهم لشحيحة تمنع هذه الرحمة وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها ! وعلى أية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشيء الإيمان في القلوب الجاحدة . وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعا (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحورا . قال: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ، وإني لأظنك يا فرعون مثورا . فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لطيفا وهذا المثل من قصة موسى وبني إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة وذكر المسجد الأقصى في أولها وطرف من قصة بني إسرائيل وموسى . وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجيء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب في سياق السورة ومصير المكذبين بالبعث الذي صورته هنا المشهد . والآيات التسع المشار إليها هنا هي اليد البيضاء والعصا وما أخذ الله به فرعون وقومه من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم) فهم شهداء على ما كان بين موسى وفرعون (فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحورا) فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يبري ما يقول ! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني ؛ ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية ! فأما موسى فهو قوي بالحق الذي أرسل به مشرفا منيرا ؛ مطمئن إلى نصرته الله له وأخذ للطغاة (قال: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض . بصائر . وإني لأظنك يا فرعون مثورا) هالكا مدمرا ، جزاء تكذيبك بآيات الله وأنت تعلم أن لا أحد غيره يملك هذه الخوارق . وإنما لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر ، حتى لكانها البصائر تكشف الحقائق وتجلوها . وعندئذ يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيلهم من الأرض ويبيدهم (فأراد أن يستفزه من الأرض) فكذا فكذلك يفكر الطغاة في الرد على كلمة الحق . وعندئذ تحق على الطاغية كلمة الله ، وتجري سنته باهلاك الظالمين وتوريت المستضعفين الصابرين (فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض . فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لطيفا) وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات . وهكذا أورش الله الأرض للذين كانوا يستضعفون ، موكولين فيها إلى أعمالهم وسلوكهم - وقد عرفنا كيف كان مصيرهم في أول السورة - أما هنا فهو يكلمهم هم وأعداءهم إلى جزاء الآخرة (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لطيفا) ذلك مثل من الخوارق ، وكيف استقبلها المكذوبون ، وكيف جرت سنة الله مع المكذبين . فأما هذا القرآن فقد جاء بالحق ليكون آية دائمة ، ونزل مفرقا ليقرا على مهل في الزمن الطويل (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة ، ويقوم لها نظاما ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل . ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابس التي صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم في الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل . جاء ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءا جزءا في مرحلة الإعداد ، لا فقها نظريا ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني ! وتلك حكمة نزوله متفرقا ، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى . ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى . تلقوه توجيهها يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهى ، وكلما تلقوا منه أديا أو فريضة . ولم يأخذوه منعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ؛ ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية . تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم ، وفي سلوكهم ونشاطهم . وفي بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن . قال ابن مسعود - رضي الله عنه - كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . ولقد أنزل الله هذا القرآن قائما على الحق (وبالحق أنزلناه) فنزل ليقر الحق في الأرض ويثبت (وبالحق نزل) فالحق مادته والحق غايته . ومن الحق قوامه ، وبالحق أهتمامه الحق الأصل الثابت في ناموس الوجود ، والذي خلق الله السماوات والأرض قائمين به ، متلبسا بهما ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته . والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذي جاء به . وهنا يأمر الرسول ﷺ أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم . إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا . وعليهم تبعه ما يختارون لأنفسهم . ويضع أمام أنظارهم نموذجا من تلقى الذين أتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قنوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علما ولا كتابا (قل: آمنوا به أو لا تؤمنوا . إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ؛ ويخرون

للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) وهو مشهد موح يلمس الوجدان . مشهد الذين أتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن ، فيخشعون و (يخرعون للأذقان سجداً) إنهم لا يتمالكون أنفسهم ، فهم لا يسجدون ولكن (يخرعون للأذقان سجداً) ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ (ويخرون للأذقان يبكون) (ويزيدهم خشوعاً) فوق ما استقبلوه به من خشوع . إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله . والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن ، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله . هذا المشهد الموحى للذين أتوا العلم من قبل يعرضه السياق بعد تخيير القوم في أن يؤمنوا بهذا القرآن أولاً يؤمنوا ، ثم يعقب عليه بتركهم يدعون الله بما شاءوا من الأسماء - وقد كانوا بسبب أوهامهم الجاهلية ينكرون تسمية الله بالرحمن ، ويستعدون هذا الاسم من أسماء الله - فكلها أسماؤه فما شاءوا منها فليدعوه بها (قل: ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وإن هي إلا سخافات الجاهلية وأوهام الوثنية التي لا تثبت للمناقشة والتعليل . كذلك يؤمر الرسول ﷺ أن يتوسط في صلته بين الجهر والخفوت كما كانوا يقابلون به صلته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد ولعل الأمر كذلك لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف في حضرة الله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً) وتختتم السورة كما بدأت بحمد الله وتقدير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير . وهو العلي الكبير . فيلخص هذا الختام محور السورة الذي دارت عليه ، والذي بدأت ثم ختمت به: (.وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيرا) { III }

سورة يونس

مكية و آياتها 109

نعود مرة أخرى إلى الحياة مع القرآن المكي ، بجوه الخاص ، وظلاله وإيقاعاته وإبجاءاته . والقرآن المكي ، ولو أنه قرآن من القرآن ، يشترك مع سائره في خصائصه القرآنية العامة ؛ وفي تفرد من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب ، في الموضوع وفي الأداء سواء . . إلا أن له مع ذلك جوه الخاص ، ومذاقه المعين ، الذي يعينه موضوعه الأساسي [وهو في اختصار: حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، وحقيقة العلاقات بينهما ؛ وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه ، ويتبعوا أمره وشرعه ؛ وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء ؛ ورد الناس إلى الإلهم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته] كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع . وهو أسلوب موح ، عميق الإيقاع ، بالغ التأثير ؛ حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير ، والموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة . . والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة ، التي تحده شخصيتها وملامحها . . ونحن لا نملك - في هذا التقديم - إلا تلخيص هذه المحتويات واحداً واحداً في إجمال ، حتى يجيء بيانها المفصل في أثناء استعراض النصوص القرآنية: إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله ﷺ ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ؛ فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه ، وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قال الذين لا يرجون لقاءنا: آتت بقرآن غير هذا أو بدله . قل: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراككم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح المجرمون) . . (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ؟ قل: فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وتواجه طلبهم خارقة مادية - غير القرآن - واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعون . فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن ؛ وهو يحمل برهانه في تفرد المعجز الذي تتحداهم به . وأن الآيات في يد الله ومشيئته ؛ وأن مواعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره الله ، والنبي لا يملك شيئاً فهو عبد من عباد الله . - وفي هذا جانب من

التعريف لهم بربهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلأف في الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون) (ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون . ويقولون: متى هذا الوعد ، إن كنتم صادقين ؟ قل: لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل: رأيتم إن أتاكم عذابه بيانا أو نهارا ؟ ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل: إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية - الأمر الذي يحدثهم رسول الله ﷺ فيه ، فيكذبون بالوحي أو يتشككون فيه ؛ ويطلبون قرآنا غيره ، أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته - بينما هم سادرون في عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء ، على اعتقاد أنهم شفعاءهم عند الله ؛ كما يزعمون لله الولد سبحانه بلا علم ولا بينة . فتقرر لهم صفات الإله الحق وأثار قبرته في الوجود من حولهم ، وفي وجودهم هم أنفسهم ، وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون ، وما يتقلب بهم هم من أحوال وهتاف فطرتهم وأنفسهم بربها الحق عند مواجهة الخطر الذي لا دافع له إلا الله . . وهذه هي القضية الكبرى التي تستغرق قطاعات شتى من السورة ؛ والتي تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ؟ إليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون)

(إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لإيات لقوم يتقون .) (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل: أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) (هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) (قل: من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون: الله . فقل: أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ! فإني تصرفون ؟) (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأني توفيقون ؟ قل: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل: الله يهدي للثق . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي ؟ فما لكم كيف تحكمون ؟ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغني من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون) (ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون . هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن في ذلك لإيات لقوم يسمعون) (قالوا: اتخذ الله ولدا - سبحانه - هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل: إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) (ألا إن لله ما في السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت وإليه ترجعون) (وتصور لهم حضور الله - سبحانه - وشهوه لكل ما بهم به البشر ، وكل ما يزاولون من نية وعمل ؛ مما يملأ الحس البشري بالرهبة والروعة ، كما يملؤه بالحنز واليقظة . . وذلك في مثل قوله تعالى في هذه السورة) (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين) كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة ، ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة ؛ ولا يندفعوا بازدهار الحياة حولهم قياموا بأس الله الذي يأتي بغتة (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض خرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (قل: رأيتم إن أتاكم عذابه بيانا أو نهارا ! ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة ، وتكذيبهم بقاء الله ، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة ، ومن الخسارة في الصفقة الدون التي يرضونها ، وتعريفهم بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي للابتلاء ، وفي الآخرة الجزاء . . ثم تواجههم بعرض مشاهد

متنوعة من مشاهد القيامة ؛ وخاصة ما يتصل منها بتخلي الشركاء عن عبادهم ، وتبرئهم منهم إلى الله ، وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها: سبحانك اللهم . وتحييتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية ؛ وما يترتب على تكذيبهم بالبعث (قل: أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ؟ قل: الله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لنؤذي فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) والسورة تحتشد - في إبلاغ تلك الحقائق التي تحتويها وتثبتها وتعميقها واستجاشة القلوب والعقول لها - بشتى المؤثرات الموحية ، التي يحفل بها الأداء القرآني الفريد في الموضوع وفي التعبير عنه سواء . وهي مؤثرات - على عمقها وحيويتها وحركتها - تناسب شخصية السورة وطبيعتها التي تحدثنا في الفقرة الأولى عنها . . وهذه نماذج منها ، نلم بها هنا إجمالا ، حتى نستعرضها في السياق تفصيلا (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ؟) (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) (قل: من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل: أفلا تتقون ؟ فذللكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؛ فأنى تصرفون ؟) (قل: يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله . ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ، وأمريت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالا ينفك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم . . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين) وبهذه المفاصلة تختم السورة ويختتم هذا الحشد من المؤثرات التي سقنا نماذج منها لا تستقصى ما في السورة من هذا المنهج القرآني الفريد في مخاطبة القلوب والعقول .

هذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء . وقد حمى الجدل من المشركين حول صدق الوحي ، وحول هذا القرآن ، وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم ، ومن تنديد بجاهليتهم ، ومن كشف لما في كيانتها من تناقض واضح . تناقض بين ما يعتقدونه من أن الله - سبحانه - هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبر المتصرف في كل شيء ، القادر على كل شيء - وهي الجذور الباقية من حنيفية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وبين ما يدعونه لله سبحانه من الولد ، حيث كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ، ويتخذونهم شفعاء عند الله ، ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار ! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقيدي من آثار في حياتهم ؛ وفي أوله ما كان يزاوله الكهان والرؤساء فيهم من تحريم وتحليل في الثمار والأنعام ؛ وجعل نصب منها لله ونصب لألهتهم المدعاة ! نزلت السورة في هذا الجو . وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة ، تواجه واقعا متصلا ؛ حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة . وهذا ما ينفي الرواية التي أخذ بها المشرفون على المصحف الأميري من كون الآيات 40 ، 94 ، 95 ، 96 مدنية . . فهذه الآيات متشابكة مع السياق ، وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلا ! والترابط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها . فيجيء في المطالع قوله تعالى (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق ، عند ربهم قال الكافرون ! إن هذا لساحر مبين) ويجيء في الختام (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) فالحدث عن قضية الوحي هو المطالع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطالع والختام . وقد سميت السورة سورة يونس . بينما قصة يونس فيها لا تتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو) فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين) . . ولكن قصة يونس - مع هذا - هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ؛ فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة ؛ وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب ، فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم ، كما هي سنة الله في المكذبين المصرين .

(الر تلك آيات الكتاب الحكيم}1{ أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين}2{ إن ربكم الله

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُبْدِرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {3} إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {4} هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {5} إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ {6} إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ {7} أَوْلَيْكَ مَا وَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ {8} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي
جَنَّاتِ النَّعِيمِ {9} دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ {10} وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {11} وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ بِكُذِّبَ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {12} وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمَجْرِمِينَ {13} ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ {14} وَإِذَا
قَتَلْتُمْ نَفْسًا أَمْ أَنَا بِنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ بَقِيرَانٌ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ {15} قُلْ لَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {16} فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ {17} وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يُضِرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَبْتُونَ اللَّهَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ {18} وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {19} وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَاسْتَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ {20} وَإِذَا أَنْزَلْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا
لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ {21} هُوَ الَّذِي يَسْتَرْكُمُ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِهَمِّ بَرِيحٍ طَيْبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ
الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ {22} فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {23} إِنَّمَا
مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَىٰ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا
أَخَذَتِ الْأَرْضُ زخرفها وَازْدَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا
كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {24} وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مِنَ
يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {25}

السورة كلها - كما أسلفنا في تقديمها - لحمة واحدة ، يصعب تقسيمها إلى مقاطع ... فهي تتدفق
في هيئة موجات متوالية ؛ تنصب بمؤثراتها الموحية على القلب البشري ، وتخطبه بإيقاعات متنوعة .
من التعجب من أمر المشركين في استقبالهم للوحي والقرآن . إلى عرض المشاهد الكونية التي
تتجلى فيها ألوهية الله سبحانه . . إلى عرض مشاهد القيامة . إلى عرض أحوال البشر في مواجهة
الأحداث التي تمر بهم . إلى عرض مصارع الغابرين . . إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه من الموضوعات
والمؤثرات التي تحتويها السورة . وإذا جاز تقسيم السورة إلى مقاطع مميزة . فإن أكثر من نصفها
الأول يعد مقطعا واحدا يتدفق بهذه الموجات المتتابعة . ثم تجيء قصة نوح - ومن بعده في اختصار -
وقصة موسى والإشارة إلى قصة يونس ؛ فتؤلف مقطعا آخر . ثم تجيء الإيقاعات الأخيرة في السورة
فتؤلف المقطع الأخير . ونظرا لطبيعة السورة هذه فسناحاول عرضها موجة موجة - أو مجموعة من
الموجات المتناسقة - كما هي طبيعتها المتميزة . . أما هذا الدرس الأول منها فيبدأ بحروف ثلاثة (ألف . لام . را)
كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف بحروف ذكرنا الرأي الذي
اخترناه في تفسيرها هناك . يبدأ بهذه الأحرف مبتدأ خيره: (تلك آيات الكتاب الحكيم) ثم يأخذ
السياق في عرض عدة أمور تبدو فيها الحكمة التي أشير إليها في وصف الكتاب . من الوحي إلى
الرسول ﷺ لينذر الناس ويبشر المؤمنين ، والرد على المعترضين أن يوحى الله إلى بشر . . إلى خلق
السموات والأرض وتدبير الأمر فيهما . . إلى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وتقدير منازل القمر
ليعلموا عدد السنين والحساب . . إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير . . ويتطرق

من عرض هذه الآيات الكونية إلى الغافلين عنها ، الذين لا يرتقبون لقاء الله مدبر كل شيء ، وما ينتظر هؤلاء الغافلين من سوء المصير ؛ وما ينتظر المؤمنين في الجانب الآخر من نعيم مقيم . ويسجل حكمة تأجيل المصير إلى يومه الموعود ، وعدم تعجيل الشر للناس كما يستعجلون هم التحير في هذه الدنيا ولو عجل لهم بالشر كما يستعجلون بالخير لانتهى الأجل وأخذوا بذنوبهم دون إهمال . ومن ثم وصف لطبيعة البشر في تلقيهم للشر والخير . وضراعتهم إلى الله عند مس الأذى ، ونسيانهم له عند كشف الضر . ولجأهم فيما كانوا من قبل فيه ، دون اعتبار بالقرون الخالية التي سارت في الطريق ذاته ، ولقيت مصارعها في ذلك الطريق ! ومع أن مصارع الغابرين كانت واضحة للعرب الذين يدعوهم الرسول ﷺ فإن المكذبين كانوا يطلبون إلى الرسول أن يأتي لهم بقران غير هذا القرآن أو يبدل بعضه . غير متدبرين ولا مدركين أن القرآن من عند الله ، وأن له حكمة ثابتة فهو لا يقبل التبديل . وهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم دون استناد إلى شيء ، ويتركون عبادة الله وحده وهي تستند إلى وحي من الله . ثم يطلبون خارقة من الخوارق غير ناظرين إلى آية الله الواضحة في القرآن ، غافلين عن آياته المعجزة في تضاعيف الكون . ثم عودة إلى طبيعة البشر في تلقي الرحمة والضر . وعرض نموذج حي من هذه الطبيعة ، في مشهد من المشاهد النابضة المتحركة المؤثرة . في ركوب البحر عندما تسيّر الفلك في أول الأمر رخاء ، ثم تعصف بها الرياح ويأتيها الموج من كل مكان . ومشهد آخر يمثل غرور هذه الحياة الدنيا ، وبريقها ولألاءها الذي ينطفئ في لحظة ، وأهلها مأخوذون بزخرفها غافلون عن المصير الخاطف المرهوب (ألر تلك آيات الكتاب الحكيم) من هذه الحروف وأمثالها ، تتألف آيات الكتاب الحكيم ، الذي ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول ﷺ وهذه الحروف في تناول أيديهم ، ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها آية واحدة من مثل آيات الكتاب - كما يتحداهم في هذه السورة - ولا يقودهم هذا إلى التدبر ، وإدراك أن الوحي هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول ﷺ وأنه لولا هذا الوحي لوقف وقفتهم عاجزا عن تأليف آية واحدة ، من هذه الحروف المبدولة للجمع (تلك آيات الكتاب الحكيم) الحكيم الذي يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض في هذه السورة جوانب منها صادقة باقية ، نجد مصداقها في كل جيل (أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون . إن هذا لساحر مبين) سؤال استنكاري . يستنكر هذا العجب الذي تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل . لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول: أبعث الله بشرا رسولا ؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة "الإنسان" . عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة "الإنسان" الذي يتمثل فيهم . فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله ، وأن يتصل الله به - عن طريق الوحي - فيكلفه هداية الناس . إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكا أو خلقا آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله . غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ؛ ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراد من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص . هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول ﷺ وشبهة أمثالهم في القرون الأولى . فاما في هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتا عن تلك ! إنهم يسألون: كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق . والذي ليس كمثله شيء ؟ وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علما بحقيقة الله سبحانه وطبيعة ذاته الإلهية ، كما أحاط علما بكل خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه . وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله ، ويعرف حدود هذا العقل . بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد ، ولم يقف العلم بعد حتى يقال: إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك . فضلا على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائما آفاق من المجهول بعد آفاق ! ففى الإنسان اذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله . والله أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة . وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة . ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كل خلية ، وكل بنية ، وكل مخلوق ؛ وقادر على أن يطوع الإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيتها . ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب . ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه . فللعلم ميدان . هو الميدان الذي يملك أدواته . وللعلم آفاق هي الأفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها . والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقا عن الروح . فهي ليست داخلية في نطاق عمله لأنها ليست شيئا قابلا للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله . لذلك تحب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل في ميدان الروح . أما ما يسمى "بالعلوم الروحانية" فهي محاولات وراءها الريب والشكوك في حقيقتها وفي أهدافها كذلك ! ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان إلا ما جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس . إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية . والعقل هنا في غير ميادانه ، وليس معه أدواته . لأنه لم يزود بأدوات العمل في هذا الميدان (أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟) فهذه خلاصة الوحي: إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة . وهذا يتضمن بيان التكاليف

الواجبة الاتباع وبيان النواهي الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال . والإنذار للناس جميعا . فكل الناس في حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير: البشري للذين آمنوا وحدهم . وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . . تلك المعاني التي توحى بها كلمة [صدق] مضافة إلى القدم . في جو الإنذار والتخويف . . "قدم صدق" . . قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تنزل ولا تتردد ، في جو الإنذار وفي ظلال الخوف ، وفي ساعات الحرج . . (قدم صدق عند ربهم) . في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة . حينما تنزل القلوب والأقدام . وحكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم . رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمنون إليه ويأخذون منه ويعطونه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج . أما حكمته في إرسال الرسل فهي أوضح ، والإنسان مهيا بطبعه للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز . ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر ، وأحاطت به الشبهات ، وجذبت التيارات والشهوات ، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج ، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض . هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه ، وينزل على إرشاده ، ويرجع إلى الصواب على هداية . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشرعية الله . ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمرا عجيبا (قال الكافرون: إن هذا لساحر مبين) ساحر لأن ما ينطق به معجز . وأولى لهم - لو كانوا يتدبرون - أن يقولوا: نبي يوحى إليه لأن ما ينطق به معجز . فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة ، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راق ، وما يرتكز عليه نظام متفرد . . ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسحر ، لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ؛ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ؛ إليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ؛ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتفنون) وهذه هي القضية الأساسية الكبرى في العقيدة . قضية الربوبية . . فقضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين . فهم كانوا يعتقدون بوجود الله - لأن الفطرة البشرية لا تستطيع التخلي عن الاعتقاد بوجود إله لهذا الكون إلا في حالات نادرة منحرفة شديدة الانحراف - ولكنهم كانوا يشركون مع الله أربابا يتوجهون إليهم بالعبادة . إما ليقربوهم إلى الله زلفى ويكونوا لهم شفعاء عنده كما كانوا يزاولون خصائص الربوبية فيشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله . والقرآن الكريم لا يدخل في جدل ذهني جاف بصدد قضية الألوهية والربوبية - كالذي جد فيما بعد بتأثير المنطق اليوناني والفلسفة الإغريقية - إنما يلمس المنطق الفطري الواضح البسيط المباشر ، إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن . وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل . وقدر اختلاف الليل والنهار . . هذه الظواهر البارزة التي تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها تدبر الواعي المدرك . . إن الله الذي خلق هذا ودبره هو الذي يليق أن يكون ربا يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئا من خلقه . . أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأفق الجدلبي التي يعكها الذهن باردة جافة ، ولا تدفئ القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟ إن هذا الكون الهائل . سماواته وأرضه . شمس وقمره . ليله ونهاره . وما في السماوات والأرض من خلق ، ومن أمم ومن سنن ، ومن نبات ومن طير ومن حيوان ، كلها تجري على تلك السنن . . إن هذا الليل الطامي السادل الشامل ، الساكن إلا من ديب الرؤى والأشباح . وهذا الفجر المتفتح في سدف الليل كابتسامة الوليد الراضي . وهذه الحركة يتنفس بها الصبح فيدب النشاط في الحياة والأحباء . وهذه الظلال الساربة يحسبها الرائي ساكنة وهي تدب في لطف . وهذا الطير الرائح الغادي القافز الواثب الذي لا يستقر على حال . وهذا النبات النامي المتطلع أبدا إلى النمو والحياة . وهذه الخلائق الذاهبة الآنية في تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام التي تدفع والقبور التي تبلغ ، والحياة ماضية في طريقها كما شاء الله . . إن هذا الحشد من الصور والظلال ، والأنماط والأشكال ، والحركات والأحوال ، والرواح والذهاب ، والبلى والتجدد ، والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . . إن هذا كله ليستجيش كل خالجه في كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتأثر ، حين يستيقظ القلب ، ويفتح لمشاهدة الآيات الماثورة في ظواهر الكون وحنائه . . والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب والعقل لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام) إن ربكم الذي يستحق الربوبية والعبادة هو هذا الخالق ، الذي خلق السماوات والأرض . خلقها في تقدير وحكمه وتدبير (في ستة أيام) حسب ما اقتضت حكمته أن يتم تركيبها وتنسيقها وتهيتها لما أراد الله . ولا ندخل في تحديد هذه الأيام الستة ، فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها . إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق حسب

مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيبته لبلوغ هذه الغاية . . وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر . فعلياً أن نقف عنده ولا نتعداه . والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام ، الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه (ثم استوى على العرش) والاستواء على العرش . كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة ، بالغة التي يفهمها البشر ويمثلون بها المعاني ، على طريقة القرآن في التصوير (ثم) هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هي للبعد المعنوي . فالزمان في هذا المقام لا ظل له . وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله - سبحانه - ثم كانت . فهو - سبحانه - منزه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان . لذلك نجزم بأن (ثم) هنا للبعد المعنوي ، ونحن أمنون من أننا لم نتجاوز المنطقة المأمونة التي يحق فيها للعقل البشري أن يحكم ويجزم . لأننا نستند إلى قاعدة كلية في تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات ، وعن مقتضيات الزمان والمكان (يدبر الأمر) ويقرر أوامره وأواخره ، وينسق أحواله ومقتضياته ، ويرتب مقدماته ونتائجه ، ويختار الناموس الذي يحكم خطواته وأطواره ومصائرهم (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) فالأمر كله له ، والحكم كله إليه ، وما من شفيع يقربون إلى الله زلفى . وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ، وفقاً لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح ، لا بمجرد التوسل بالشفعاء . . وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التي يعبدون تماثيلها شفاعة لا ترد عند الله ! ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذي لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . . (ذلكم الله ربكم) . الخلق بالربوبية (فاعبدوه) فهو الذي يستحق الدينونة له دون سواه (أفلا تذكرون ؟) فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة (إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقا) إليه وحده لا للشركاء والشفعاء . وقد وعد فلا خلف ولا تخلف ، فالبعث هو تامة الخلق (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليحزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فالعدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة... وبيدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة . إنها قمة الكمال البشري الذي يمكن أن تصل إليه البشرية . والبشرية لا تصل إلى شيء من هذا في هذه الأرض وفي هذه الحياة الدنيا المشوبة بالقلق والكدر ، والتي لا تخلو فيها لذة من غصة ، أو من عقابيل تعقبها - إلا لذائد الروح الخالصة وهذه قلما تخلص لبشر ، فأما الذين كفروا فقد خالفوا عن الناموس ، فلم يسيروا في طريق الكمال البشري ، بل جانبوه . وهذا يقتضي - حسب السنة التي لا تتخلف - ألا يصلوا إلى مرتبة الكمال لأنهم جانبوا قانون الكمال ؛ وأن يلقوا عقابله انحرافهم كما يلقي المريض عقابله انحرافه عن قوانين الصحة الجسدية . هذا يلقاه مرضاً وضعفاً ، وأولئك يلقونه تردياً وانتكاساً ، وغصصاً بلا لذائد - في مقابل اللذائد بلا غصص (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) وبعد هذه اللفتة من آيات الله في خلق السماوات والأرض إلى عبادة الله وحده ، الذي إليه المرجع وعنده الجزاء . . يعود السياق إلى الآيات الكونية التالية في وجودها وضخامتها للسماوات والأرض (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون) فهذان مشهدان بارزان من مشاهد الكون ، نساهما لطول الألفة ، ونفقد وقعهما في القلب بطول التكرار . وإلا فكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرة أول شروق شمس وأول غروب ، وأول مطلع قمر وأول مغيب ؟ هذان مشهدان مألوفان مكروران يربنا القرآن إليهما ، ليثير في مشاعرنا وهلة الجدة ، وليحيي في قلوبنا إحساس التطلع الحي ، والتأمل الذي لم يبلده التكرار ، والتيقظ لما في خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم (هو الذي جعل الشمس ضياء) فيها اشتعال (والقمر نورا) فيه إنارة (وقدره منازل) ينزل في كل ليلة منزل لا يكون فيه على هيئة خاصة ، كما هو مشهود في القمر ، بدون حاجة إلى علوم فلكية لا يدركها إلا المتخصصون (لتعلموا عدد السنين والحساب) وما تزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس . هل هذا كله عبث ؟ هل هذا كله باطل ؟ هل هذا كله مصادفة ؟ كلا ما يكون كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق ، وكل هذه الدقة التي لا تتخلف معها حركة . ما يكون هذا كله عبثاً ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) الحق قوامه . والحق أداته . والحق غايته . والحق ثابت راسخ . وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة قائمة دائمة (يفصل الآيات لقوم يعلمون) فالمشاهد التي تعرض هنا في حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر . ومن خلق السماوات والأرض ، ومن جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل تنشأ ظاهرة الليل والنهار ، وهي ظاهرة موحية لمن يفتح قلبه لإيحاء المشاهد والظواهر في هذا الكون العجيب (إن في اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السماوات والأرض . . آيات لقوم يتقون) واختلاف الليل والنهار تعاقبهما . ويشمل كذلك اختلافهما طولاً وقصرًا . وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما في الحس . إلا في اللحظات التي تستيقظ فيها النفس ، وينفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب ، فيقف في الشروق وفي الغروب وقفة الإنسان الجديد في هذا الكون ، يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب . وهي هي اللحظات التي يحيها الإنسان حياة كاملة حقيقية ، وينفض فيها التيبس الذي خلفته الألفة في أجهزة الاستقبال والاستجابة (وما خلق الله في السماوات والأرض) ولو وقف

الإنسان لحظة واحدة يرقب (ما خلق الله في السماوات والأرض) ويستعرض هذا الحشد الذي لا يحصى من الأنواع والأجناس، والهيئات والأحوال، والأوضاع والأشكال. لو وقف لحظة واحدة لامتلاً وطباًه وفاض بما يغنيه حياته كلها، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش. . ودع خلق السماوات والأرض وإنشاءهما وتكوينهما على هذا النحو العجيب، فذلك ما يوجه إليه القلب بالإشارة السريعة، ثم يتركه ليتملأه. . إن في ذلك كله (لآيات لقوم يتقون) تستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص. وجدان التقوى. الذي يدع هذه القلوب مستحاشة حساسة، سريعة التأثر والاستجابة لمجالي القدرة ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار والأسماع. هذا هو منهج القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية، المبنوثة حول الإنسان في هذا الكون؛ والتي يعلم الله سبحانه أن بينها وبين فطرة الكائن البشري لغة مفهومة، وإيحاءات مسموعة! والذين يمارون في هذه الحقيقة لا يقدمون في مكانها دليلاً معقولاً. ولا يزيدون على أن يقولوا: إن الكون وجد هكذا بقوانينه؛ وأن وجوده لا يحتاج إلى تعليل؛ ووجوده يتضمن قوانينه! فإن كان هذا كلاماً مفهوماً - أو معقولاً - فذاك! ولقد كان هذا الكلام يقال للهروب من الله في أوربا؛ لأن الهروب من الكنيسة اقتضاهم هنالك الهروب من الله! ثم أصبح يقال هنا وهناك، لأنه الوسيلة إلى التخلص من مقتضى الاعتراف بالوهية الله. ذلك أن مشركي الجاهليات القديمة كان معظمهم يعترف بوجود الله. ثم يماري في ربوبيته، على نحو ما رأينا في الجاهلية العربية التي واجهها هذا القرآن أول مرة. فلقد كان البرهان القرآني يحاصرهم بمنطقهم هم وعقيدتهم في وجود الله سبحانه وصفاته. ويطلبهم بمقتضى هذا المنطق ذاته أن يجعلوا الله وحده ربهم؛ فيدينوا له وحده بالاتباع والطاعة في الشعائر والشرائع. . فأما جاهلية القرن العشرين فتريد أن تخلص من ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها ابتداءً! ومن العجيب أنه في البلاد التي تسمى "إسلامية" يروج بكل وسيلة ظاهرة أو خفية لهذا الهروب الفاضح باسم "العلم" و"العلمية"! فيقال: إن "الغيبية" لا مكان لها في الأنظمة "العلمية" . . ومن الغيب كل ما يتعلق بالألوهية. .! ومن هذا المنفذ الخلفي يحاول الأيقون من الله الهروب. لا يخشون الله إنما يخشون الناس، فيحتالون عليهم هذا الاحتيال! وما تزال دلالة وجود الكون ذاته، ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة. تحاصر الهاربين من الله هنا وهناك. والفطرة البشرية بجمالها - قلباً وعقلاً وحساً ووجداناً - تواجه هذه الدلالة، وتستجيب لها. وما يزال المنهج القرآني هذا يخاطب الفطرة بجمالها. يخاطبها من أقصر طريق، ومن أوسع طريق وأعمق طريق!! والذين يرون كل هذا، ثم لا يتوقعون لقاء الله؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة، وأن الدنيا ليست النهاية، لأن البشرية لم تبلغ فيها كمالها المنشود؛ والذين يمرّون بهذه الآيات كلها غافلين، لا تحرك فيهم قلباً يتدبر، ولا عقلاً يفكر. . هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشري، ولن يصلوا إلى الجنة التي وعد المتقون. إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، حيث يفرغون من نصب الدنيا وضغارها إلى تسبيح الله وحمده في رضاء مقيم (إن الذين لا يرجون لقاءنا، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم؛ تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم. دعواهم فيها سبحانه اللهم. وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) إن الذين لا يتدبرون النظام الكوني الموحى بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً، لا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام، يتم فيها تحقيق القسط والعدل؛ كما يتم فيها إبلاغ البشرية إلى آفاقها العليا. ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله، ونتيجة لهذا القصور يقفون عند الحياة الدنيا، بما فيها من نقص وهبوط، ويرضونها ويستغرقون فيها، فلا ينكرون فيها نقصاً، ولا يدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية للبشر؛ وهم يغادرونها لم يستوفوا كل جزائهم على ما عملوا من خير أو اجترحوا من شر، ولم يبلغوا الكمال الذي تهينهم له بشريتهم. والوقوف عند حدود الدنيا وارتضاؤها يظل يهبط بأصحابه ثم يهبط، لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة، ولا يتطلعون بأبصارهم إلى أفق. إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائماً إلى هذه الأرض وما عليها! غافلين عن آيات الله الكونية التي توقظ القلب، وترفع الحس، وتحفز إلى التطلع والكمال. . (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وبئس المأوى وبئس المصير! وفي الضفة الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات. إن الذين آمنوا فادركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان، تحقيقاً لأمر الله بعمل الصالحات، وانتظاراً للآخرة الطيبة. . وطريقها هو الصالحات. . هؤلاء. (يهديهم ربهم بإيمانهم) يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذي يصل ما بينهم وبين الله، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق، ويهديهم إلى الخير بوحى من حساسية الضمير وتقواه. . هؤلاء يدخلون الجنة (تجري من تحتهم الأنهار) وما يزال الماء ولن يزال يوحى بالخصب والري والنماء والحياة. . فما همومهم في هذه الجنة وما هي شواغلهم، وما هي دعواهم التي يحبون تحقيقها؟ إن همومهم ليست مالا ولا جاهاً، وإن شواغلهم ليست دفع أذى ولا تحصيل مصلحة، ولقد ارتفعوا عن مثل هذه الشواغل والهموم. إن أقصى ما يشغلهم حتى ليوصف بأنه (دعواهم) هو تسبيح الله أولاً وحمده أخيراً، يتخلل هذا وذاك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين ملائكة الرحمن (دعواهم فيها: سبحانه اللهم. وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم: أن الحمد لله رب العالمين) إنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها؛ والارتفاع عن ضرورتها

وحاجاتها ، والرغبة في آفاق الرضى والتسبيح والحمد والسلام . تلك الآفاق اللائقة بكمال الإنسان . بعد ذلك يواجه السياق القرآني تحديهم لرسول الله ﷺ وطلبهم تعجيل العذاب الذي يتوعدهم به ؛ بيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة . ويرسم لهم مشهدهم حين يصيهم الضر فعلا ، فتتعري فطرتهم من الركام وتتجه إلى خالقها . فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة . ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ؛ ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هي للابتلاء وبعدها الجزاء (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون . وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم فئات في الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون) ولقد كان المشركون العرب يتحدون رسول الله ﷺ أن يعجل لهم العذاب ، وكل هذا يصور حالة العناد التي كانوا يواجهون بها هدى الله . . . وقد شاعت حكمته أن يؤجلهم ، فلا يوقع بهم عذاب الاستئصال والهلاك كما أوقعهم بالمكذبين قبلهم . فقد علم الله أن كثرتهم ستدخل في هذا الدين ، فيقوم عليها ، وينطلق في الأرض بها . وكان ذلك بعد فتح مكة ، مما كانوا يجهلونه وهم يتحدون في جهالة ! غير عالمين بما يريد الله بهم من الخير الحقيقي . لا الخير الذي يستعجلونه استعجالهم بالشر ! والله سبحانه يقول لهم في الآية الأولى: إنه لو عجل لهم بالشر الذي يتحدون باستعجاله ، استعجالهم بالخير الذي يطلبونه . . لو استجاب الله لهم في استعجالهم كله لقضى عليهم ، وعجل بأجلهم ! ولكنه يستبقهم لما أجلهم له . . ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما وراءه . فالذين لا يرجون لقاء سيظنون في عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتيهم الأجل المرسوم . وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر ، تكشف عن التناقض في طبيعة هذا الإنسان الذي يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ؛ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور . . وإن الإنسان ليظل مدفوعا مع تيار الحياة ، يخطئ ويذنب ويظغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس - إلا من عصم الله ورحم - من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفا وأن هناك عجزا . وساعات الرخاء تنسى ، والإحساس بالغنى يطغى . . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء . فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر . انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار . والسياق ينسق خطوات التعبير وإيقاعه مع الحالة النفسية التي يصورها ، والنموذج البشري الذي يعرضه . فيصور منظر الضر في بقاء وتلبث وتطويل (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر ، ليصور وقفة هذا الإنسان وقد توقف التيار الدافع في جسمه أو في ماله أو في قوته كما يتوقف التيار أمام السد ، فيقف أو يرتد . حتى إذا رفع الحاجز (مر) كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق (مر) لا يتوقف . ليشكر ، ولا يلتفت ليتدبر ، ولا يتأمل ليعتبر (مر كأن لم يدعنا إلى ضره) واندفع مع تيار الحياة دون كايح ولا زاجر ولا مبالاة ! كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون فماذا كانت نهاية الإسراف في القرون الأولى ؟ (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين) لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم - وهو الشرك - إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط . . . وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم (وما كانوا ليؤمنوا) لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهينين للإيمان . فلقوا جزاء المجرمين (كذلك نجزي القوم المجرمين) وإذا يعرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه (ثم جعلناكم فئات في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) وهي لمسة قوية للقلب البشري ؛ إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أدبل من مالكيه الأوائل ، وأجلى عنه أهله الذين سبق لهم أن مكثوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك ، وإنما هي أيام بقضها فيه ، ممتحنا بما يكون منه ، مبتلى بهذا الملك ، محاسبا على ما يكسب ، بعد بقاء فيه قليل ! وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به ، والتي يصورها قول الله سبحانه (لننظر كيف تعملون) لجعله شديد التوقى ، شديد الحذر ، شديد الرغبة في الإحسان ، وفي النجاة أيضا من هذا الامتحان ! وهذا مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري بمثل هذه اللمسات القوية ؛ والتصورات التي تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخرى من حسابها ! . . فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الإسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة . . لا يمكن أن يلتقيا في تصور للحياة ولا في خلق ، ولا في حركة ؛ كما لا يمكن أن يلتقي نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة

من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان ! وهنا يتحول السياق من خطابهم إلى عرض نماذج من أعمالهم بعد استخلافهم . لقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا:انت بقرآن غير هذا أو بدله) وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد ، إنما يصدر عن عبث وهزل ؛ وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله . وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لا يظنون أنهم سيلقون الله ! وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله ؛ كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية . فما على محمد أن يقبل التحدي ويؤلف قرآنا آخر ، أو يؤلف جزءا مكان جزء ؟! (قال: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي . إن أتبع إلا ما يوحى إلي . إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) إنها ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر . إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه . فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه . وإن هو إلا مبلغ متبع للوحي الذي يأتيه . وكل تبديل فيه معصية وراها عذاب يوم عظيم (قل: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت فيكم عمرا من قبله . أفلا تعقلون ؟) . إنه وحي من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك . ولو شاء الله ألا أتوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم . فالأمر كله لله في نزول هذا القرآن وفي تبليغه للناس . قل لهم هذا . وقل لهم: إنك لبثت فيهم عمرا كاملا من قبل الرسالة . أربعين سنة . فلم تحدثهم بشيء من هذا القرآن . لأنك لم تكن تملكه . لم يكن قد أوحى إليك . ولو كان في استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذي أقعدك عمرا كاملا ؟ إلا إنه الوحي الذي لا تملك من أمره شيئا إلا البلاغ . .

وقل لهم: ما كان لي أن أفترى على الله الكذب ، وأن أقول: إنه أوحى إلي إلا بالحق . فليس هنالك ما هو أشد ظلما ممن يفترى على الله أو من يكذب بآيات الله (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟) . وأنا أنهاركم عن ثمانية الجريمتين ، وهي التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله (إنه لا يفلح المجرمون) ويستمر السياق يعرض ما فعلوه وما قالوه بعد استخلافهم في الأرض . غير هذا الهزل في طلب قرآن جديد (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل: أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) والنفوس حين تحرف لا تقف عند حد من السخف . وهذه الأرياب المتعددة التي يعبدونها لا تملك لهم ضررا ولا نفعا ، ولكنهم يظنونها تشفع لهم عند الله (قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟) . قاله سبحانه لا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون ! فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمه الله وتنبؤونه بما لا يعلم له وجودا في السماوات ولا في الأرض ؟! إنه أسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذي يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقبل أن يمضي في عرض ما قالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض . والفطرة في أصلها كانت على التوحيد ، ثم جد الخلاف بعد حين (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلوا) وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعا إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنذت لحكمة يريدها (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) وبعد هذا التعقيب يمضي في الاستعراض لما يقول المستخلفون (ويقولون: لو لا أنزل عليه آية من ربه ! فقل: إنما الغيب لله ، فانتظروا إنني معكم من المنتظرين) فكل الآيات التي يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم . وكل آيات الله الماثلة في تضاعيف الكون لا تكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل في الأمم قبلهم . غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية . وطبيعة معجزتها . فهي ليست معجزة وقتية تنتهي بمشاهدة جيل ، إنما هي المعجزة الدائمة التي تخاطب القلب والعقل في جيل بعد جيل . ويوجه الله رسوله أن يحيلهم على الله الذي يعلم ما في غيبه ، ويقدر إن كان سيربز لهم خارقة أو لا يبرز (فقل: إنما الغيب لله . فانتظروا إنني معكم من المنتظرين) وهو جواب في طيه الإمهال وفي طيه التهديد . . وفي طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية في جانب الألوهية . فإن محمدا ﷺ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئا ، فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئا ، فأمرهم موكول إلى الله . . وهكذا يتحدد مقام العبودية في جانب مقام الألوهية ، ويخط خط بارز فاصل بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريب . وحين ينتهي السياق من عرض ما يقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر ، حين يذوقون الرحمة بعد الضر . كما تحدث من قبل عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه . ويضرب لهم مثلا مما يقع في الحياة يصدق ذلك ، فيقدمه في صورة مشهد قوي من مشاهد القرآن التصويرية (وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر في آياتنا . قل: الله أسرع مكرًا ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب

وانحرافات إلا في ساعة الكربة . فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان . . ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل أن ، مخلوقة دائماً بجلاء الإيمان . (وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر في آياتنا) كذلك صنع قوم فرعون مع موسى . فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه . فإذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا: إنما رفع عنا العذاب لئلا نجزيهم . وكذلك صنعت قريش وقد أجذبت وخافت الهلاك ، فجاءت محمداً تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ، ثم مكرت قريش بأية الله وظلت فيما هي فيه ! وهي ظاهرة مطردة في الإنسان ما لم يعصمه الإيمان) قل: الله أسرع مكرًا . (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) فالله أقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، والمكر المكشوف إبطاله مضمون (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) فلا شيء منه يخفى ، ولا شيء منه ينسى . أما من هم هؤلاء الرسل وكيف يكتبون ، فذلك غيب من الغيب الذي لا نعرف عنه شيئاً إلا من مثل هذا النص ، فعلياً أن ندركه دون ما تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح . ثم ذلك المشهد الحي ، الذي يعرض كأنه يقع ، وتشهده العيون ، وتتابعه المشاعر ، وتحقق معه القلوب . يبدأ بتقرير القدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون (هو الذي يسيركم في البر والبحر) ذلك أن السورة كلها معرض لتقرير هذه القدرة التي تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك . ثم ها نحن أولاء أمام المشهد القريب (حتى إذا كتبت في الفلك) وها هي ذي الفلك تتحرك رخاء (وجرين بهم بريح طيبة) وهنهم مشاعر أهل الفلك ندرکها (وفرحوا بها) وفي هذا الرخاء الأمن ، وفي هذا السرور الشامل ، تقع المفاجأة ، فتأخذ الغارين الأمنين الفرحين (جاءتها ريح عاصف) أيا للهول ! (وجاءهم الموج من كل مكان) وتناوحت الفلك واضطربت بمن فيها ، ولاطمها الموج وشالها وحطها ، ودار بها كالريشة الضائعة في الخضم . . وهؤلاء أهلها في فزع يظنون أن لا مناص (وظنوا أنهم أحيط بهم) فلا مجال للنجاة عندئذ فقط ، وفي وسط هذا الهول المتلاطم ، تتعري فطرتهم مما ألم بها من أوشاب ، وتنفض قلوبهم ما ران عليها من تصورات ، وتنفض الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه (دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)! وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتسكن القلوب الطائرة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابسة . فماذا ؟ (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق !) هكنا بغتة ومفاجأة ! إنه مشهد كامل ، لم تفتنا منه حركة ولا خالجة . . مشهد حادث . ولكنه مشهد نفس ، ومشهد طبيعية ومشهد نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جبل . ومن ثم يجيء التعقيب تحذيراً للناس أجمعين (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) سواء كان بغيًا على النفس خاصة ، بإيرادها موارد التهلكة ، والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية ؛ أو كان بغيًا على الناس فالناس نفس واحدة . على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة . والبغي لا يتمثل في أشع ولا أشنع من البغي على الوهية الله سبحانه ، واغتصاب الربوبية والقوامة والحاكمية ومزاوتها في عباده . والناس حين يبغون هذا البغي يذوقون عاقبته في حياتهم الدنيا ، قبل أن يذوقوا جزاءه في الدار الآخرة يذوقون هذه العاقبة فساداً في الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضلة لا تضار به (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم . . متاع الحياة الدنيا) لا تزيدون عليه ! (ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فهو حساب الآخرة وجزاؤها كذلك ، بعد شقوة الدنيا وعذابها ابتداء . وما قيمة (متاع الحياة الدنيا) هذا وما حقيقته ؟ يصور السياق هذه الحقيقة في مشهد من مشاهد القرآن التصويرية الحافلة بالحركة والحياة ، وهي مع ذلك من المشاهدات التي تقع في كل يوم ، ويمر عليها الأحياء دون انتباه (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى . . هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرغ ويزدهر . وها هي ذي الأرض كأنها عروس مخلوقة تترين لعرس وتبرج . وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وبارادتهم تزينت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، لا غيرها عليهم مغير ، ولا ينازعهم فيها منازع . وفي وسط هذا الخصب الممرغ ، وفي نشوة هذا الفرح المملع ، وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق (أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) في ومضة ، وفي جملة ، وفي خطفة . . وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان . وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس ، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع . هذه هي . لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار . هذه هي (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تلمس في لحظة ، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس .

(الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } 26 { وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } 27 { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَرِيقًا شُرَكَاءُ هُمْ مَّا كُنْتُمْ إِتَابًا تَعْبُدُونَ } 28 { فَكُفِّي بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادِكُمْ لِغَافِلِينَ } 29 { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } 30 { قُلْ مِنَ يَرْزُقِكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمِنْ يَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } 31 { فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } 32 { كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَفْسٍ عَلَى اللَّهِ بَيِّنَاتٍ لِيُبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالَّذِينَ اسْتَغْفَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ يَكُونُوا سَائِدِينَ لَا حِجَابَ لِعَذَابِنَا وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْمَاءِ اللَّهِ فَأَنَّ لَهُ إِيضًا إِلَهًا فَسَيَكْفُرُ بِمَا كَفَرَ وَأَنَّهُ كَإِذَا صَرَّفَ الْأَعْيُنَ عَنِ الْغَيْبِ لَا حِجَابَ وَإِنِ انبَغِثُوا الْبَصِيرَةَ أَعْيُنُهُمْ كَتُّوبًا يُعَذِّبُهُمْ فِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَعْيُنٌ مُغْشَاهُمْ فِيهَا كَتُّوبًا } 33 { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِمَن يَشَاءُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغُيُوبَ } 34 { أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } 35 { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } 36 { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } 37 { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } 38 { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } 39 { وَمِنْهُمْ مَن يَوْمِنَا بِهِ وَمِنْهُمْ مَن يَوْمِنَا بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ } 40 { وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } 41 { وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمْعُونَ الْإِنشَاءَ لَكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمِّيَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ } 42 { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ } 43 { وَيَوْمَ يُحْشِرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ } 44 { وَإِنَّا نَرِيكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعْبُدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ } 45 { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ } 46 { وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } 47 { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضِرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } 48 { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا فَمَاذَا يُسْتَعْجَلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ } 49 { ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } 50 { وَيَسْتَتَبِنُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } 51 { وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقَضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ } 52 { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 53 { هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } 54 { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } 55 { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } 56 { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلِ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } 57 { وَمَا ظُنُّوا النَّبِيَّ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } 58 { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } 59 { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } 60 { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } 61 { لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } 62 { وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 63 { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } 64 { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ } 65 { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 66 { قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ

عَلَى اللَّهِ الْبُكَدْبَ لَا يَفْلُحُونَ {69} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {70}

هذا الدرس كله لمسات وجدانية متتابعة ، تنتهي كلها إلى هدف واحد:مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر . والعدل فيه . لمسات وجدانية تأخذ النفس من أقطارها ، وتأخذ بها إلى أقطار الكون ، في جولة واسعة شاملة . جولة من الأرض إلى السماء . ومن أفاق الكون إلى أفاق النفس . ومن ماضي القرون إلى الحاضر القريب . ومن الدنيا إلى الآخرة . في سياق . . وفي الدرس الماضي لمسات من هذه ، وجولات من هذه . . ولكنها في هذا الدرس أظهر . . فمن معرض الحشر ، إلى مشاهد الكون ، إلى ذات النفس ، إلى التحدي بالقرآن ، إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين . ومن ثم لمحة عابرة من الحشر في مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب في صورة موحية للحس بالتوجس ، إلى تصوير علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء ، إلى بعض آيات الله في الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب . إنها جملة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك فطرة سليمة التلقي ، صحيحة الاستجابة ، ألا تستجيب لها ، وألا تتداول الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . . لقد كان الكفار صادقين في إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم تأثيره ويزلزل قلوبهم ! وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين !) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (كانت آخر آية في الدرس السابق) والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (فهنا يبين عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين . ويكشف عن رحمة الله وفضله ، وعن قسطه وعدله في جزاء هؤلاء هؤلاء . فاما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام . . فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) . وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) والقتر هو الغبار والسواد وكدرة اللون من الحزن أو الضيق . والذلة هي الانكسار والمهانة أو الإهانة . فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . . والتعبير يوحي بأن في الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة ، وفضل من الله يضاف إلى الجزاء المزيد فيه (أولئك) أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الأفاق (أصحاب الجنة) وملاكها ورفاقها (هم فيها خالدون) (والذين كسبوا السيئات) فكانت هي الربح الذي خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزداد عليهم السوء . ولكن (جزاء سيئة بمثلها) (وترهقهم ذلة) تغشاهم وتركبهم وتكربهم (ما لهم من الله من عاصم) يعصمهم ويمنعهم من المصير المحتوم ، نفاذا لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق ، ويخالف الناموس . . ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكفرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا) كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفة بأغشية من هذا الليل البهيم (أولئك) المبعدون في هذا الأظلام والقتام (أصحاب النار) ملاكها ورفاقها (هم فيها خالدون) ولكن أين الشركاء والشفعاء ! وكيف لم يعصموهم من دون الله ! هذه هي قصتهم في يوم الحشر العصيب (ويوم نحشروهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا:مكانكم أنتم وشركاؤكم . فزيلنا بينهم . وقال شركاؤهم) (ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق . وضل عنهم ما كانوا يفترون) هذه هي قصة الشفعاء والشركاء في مشهد من مشاهد القيامة ، مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله ، ولن يملكوا لهم خلاصا ولا نجاة . هؤلاء هم محشورون جميعا . . الكفار والشركاء . . وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم (شركاءهم) تهكما من جهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوما شركاء لله . هؤلاء هم جميعا كفارا وشركاء . يصدر إليهم الأمر (مكانكم أنتم وشركاؤكم) قفوا حيث أنتم . ولا بد أن يكونوا قد تسمرؤا في أماكنهم ! فالأمر يومئذ للنفاذ . ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما في الموقف (فزيلنا بينهم) وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء يتكلمون ليبرئوا أنفسهم من الجريمة . جريمة أن عبدتهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم ولم يشعروا ، فهم إذن لم يشركوا في الجناية ، ويشهدون الله وحده على ما يقولون (وقال شركاؤهم:ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) هؤلاء هم الشركاء الذين كانوا يعبدون . هؤلاء هم ضعاف يطلبون البراءة من إثم أتباعهم . ويجعلون الله وحده شهيدا ، ويطلبون النجاة من

إثم لم يشاركوا فيه ! عندئذ ، وفي هذا الموقف المكشوف ، تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتترك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة: هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت . . . وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وما عداه باطل (وردوا إلى الله مولاهم الحق) وهنالك لا يجد المشركون شيئاً من دعاويهم ومزاعمهم والتهتم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود (وصل عنهم ما كانوا يفترون) وهكذا يتجلى المشهد الحي ، في ساحة الحشر ، بكل حقائقه ، وبكل وقائعه ، وبكل مؤثراته واستجاباته . تعرضه تلك الكلمات القلائل ، فتبلغ من النفس ما لا يبلغه الإخبار المجرد ، ولا براهين الجدل الطويل ! ومن جولة الحشر الذي تسقط فيه الدعاوى والأباطيل ، ويتجلى فيه أن المولى هو الله المهيمن على الموقف وما فيه . إلى جولة في واقعهم الذي يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التي يعلمونها ، وإلى المشاهد التي يرونها في الحياة . بل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنها من أمر الله ومن خلق الله (قل: من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت) ولقد مر أن مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدير . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ، ليصحح لهم - عن طريق إيظاف وعيهم وتديبرهم ومنطقهم الفطري - ذلك الخلط والضلال (قل: من يرزقكم من السماء والأرض ؟) . من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض نباتها وطيورها وأسماكها وحيوانها ، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم . وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض . وهو أوسع من ذلك بكثير (أم من يملك السمع والأبصار ؟) يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها أو يمرضها ، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها ، ويسمعها ويربها ما تحب أو ما تكره . . . ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والأبصار . وهو حسبهم لإدراك مدلول هذا السؤال وتوجيهه . وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر ، ومن دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة . (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) . . . وكانوا يعدون الساكن هو الميت ، والنامي أو المتحرك هو الحي . فكان مدلول السؤال عندهم مشهوداً في خروج النبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ، وخروج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ . . . إلى آخر هذه المشاهدات . وهو عندهم عجيب . وهو في ذاته عجيب حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة وأمثالهما ليست في الموتى بل في الأحياء ؟ بما فيها من حياة كاملة واستعداد . فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وحياتها لأعجب العجب الذي تصنعه قدرة الله . . . وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة . وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي ، وتحول هذا الدم إلى فضلات مية بالاحتراق ، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهي بعد كأنه في كل لحظة أثناء الليل وأطراف النهار . وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لا جواب عليها كلها إلا أن يكون هناك إله ، يهب الحياة ! (ومن يدبر الأمر ؟) . في هذا الذي ذكر كله وفي سواه من شؤون الكون وشؤون البشر ؟ من يدبر الناموس الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر حركة هذه الحياة فتتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التي تصرف حياة البشر ، والتي لا تخطئ مرة ولا تحيد ؟ ومن ومن ؟ (فسيفولون الله فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون يده في هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله (فقل: أفلا تتقون ؟) أفلا تخشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض ، والذي يملك السمع والأبصار ، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والذي يدبر الأمر كله في هذا وفي سواه ؟ إن الذي يملك هذا كله لهو الله ، وهو الرب الحق دون سواه (فقل: الله ربكم الحق) والحق واحد لا يتعد ، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل ، وقد ضل التقدير) فمادام الحق إلا الضلال ؟ فأني تصرفون) وكيف توجهون بعيداً عن الحق وهو واضح بين تراه العيون ؟ بمثل هذا الانصراف عن الحق الواضح الذي يعترف المشركون بمقدماته وينكرون نتائجه اللازمة ، ولا يقومون بمقتضياته الواجبة ، قدر الله في سننه ونواميسه أن الذين يفسقون وينحرفون عن منطق الفطرة السليم وسنة الخلق الماضية لا يؤمنون (كذلك حفت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) لا لأنه يمنعهم من الإيمان . فهذه دلالة قائمة في الكون ، وهذه مقدماته قائمة في اعتقادهم . ولكن لأنهم هم يحيون عن طريق الموصل إلى الإيمان ، ويجحدون المقدمات التي في أيديهم ، ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم ، ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم . ثم عودة إلى مظاهر قدرة الله ، وهل للشركاء فيها من نصيب (قل: هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده . فأني توفكون ؟ قل: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل: الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى ؟ فما لكم كيف تحكمون ؟) . وهذه الأمور المسؤول عنها - من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق - ليست من بدائنه مشاهداتهم ولا من مسلمات اعتقادهم كالاولى . ولكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكاناً على

مسلماتهم الأولى ، فهي من مقتضياتها بشيء من التفكير والتدبر . ثم لا يطلب إليهم الجواب ، إنما يقرره لهم اعتماداً على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات (قل:هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟) . . وهم مسلمون بأن الله هو الذي يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء . . ولكن حكمة الخالق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم أنتهاء حياة المخلوقين في هذه الأرض ، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم ، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم ، وسيرهم على النهج أو انحرافهم عنه . إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم . وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد في حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته . ولا بد من تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، وهم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحي من الميت . والحياة الأخرى قريبة الشبه باخراج الحي من الميت الذي يسلمون به (قل:الله يبدأ الخلق ثم يعيده) . . وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها (فأنى تؤفكون) فتوجهون بعيداً عن الحق إلى الإفك وتضلون ؛ (قل:هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟) . . فينزل كتاباً ، ويرسل رسولا ، ويضع نظاماً ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ؛ ويكشف عن آيات الله في الكون والنفس ؛ ويوقظ القلوب الغافلة ، ويحرك المدارك المعطلة . كما هو معهود لكم من الله ومن رسوله الذي جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهتدوا إلى الحق ؛ وهذه قضية ليست من سابق مسلماتهم ، ولكن وقائعها حاضرة بين أيديهم . فليقررها لهم الرسول □ وليأخذهم بها (قل:الله يهدي للحق) ومن هذه تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ؟ أم من لا يهدي إلا أن يهدي؟)والجواب مقرر . فالذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالاتباع ، ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا أن يهديه غيره . . وهذا ينطبق سواء كان المعبودون حجارة أو أشجاراً أو كواكب . أو كانوا من البشر - بما في ذلك عيسى عليه السلام ، فهو بشريته محتاج إلى هداية الله له ، وإن كان هو قد بعث هادياً للناس - ومن عدا عيسى عليه السلام أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه (فما لكم ؟ كيف تحكمون؟) ما الذي وقع لكم وما الذي أصابكم ؟ وكيف تقدرון الأمور ، فتحيّدون عن الحق الواضح المبين ؟ فإذا فرغ من سؤالهم وإجابتهم ، وتقرير الإجابة المفروضة التي تحتمها البديهة وتحتمها المقدمات المسلمة . . عقب على هذا بتقرير واقعهم في النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد . فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، ولا إلى حقائق مدروسة بطمئن إليها العقل والفطرة ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهي لا تغني من الحق شيئاً (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . إن الظن لا يغني من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون) فهم يظنون أن الله شركاء . ولا يحققون هذا الظن ولا يمتحنونه عملاً ولا عقلاً . وهم يظنون أن آبائهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة:ولا يمتحنونهم هذه الخرافة ، ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظني . وهم يظنون أن الله لا يوحى إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله . وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ولا يحققون إن كان محمد - وهو بشر - قادراً على تأليف هذا القرآن ، بينما هم لا يقدرّون وهم بشر مثله . . وهكذا يعيشون في مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئاً . والله وحده هو الذي يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم . وتفريعا على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق في جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفي التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله ، وتحديدهم أن يأتي بسورة مثله . وتثني بوصفهم بالتسرع في الحكم على ما لم يعلموه يقيناً أو يحققوه . وتثنت بإثبات حالتهم في مواجهة هذا القرآن ، وتثبت الرسول [ص] على خطئه أياً كانت استجاباتهم أو عدم استجابتهم له ، وتنتهي بالتبئيس من الفريق الضال والإيماء إلى مصيرهم الذي لا يظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقونه بما هم فيه من ضلال (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) فهو بخصائصه ، الموضوعية والتعبيرية . بهذا الكمال في تناسقه ؛ وبهذا الكمال في العقيدة التي جاء بها ، وفي النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده ؛ وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية ، وفي تصوير طبيعة البشر ، وطبيعة الحياة ، وطبيعة الكون . . لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله . القدرة التي تحيط بالأوائل والأواخر ، وبالظواهر والسرائر ، وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص ومن آثار الجهل والعجز (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) ما كان من شأنه أصلاً أن يفترى . فليس الافتراء هو المنفي ، ولكن جواز وجوده هو المنفي . وهو أبلغ في النفي وأبعد (ولكن تصديق الذي بين يديه) من الكتب التي سبق بها الرسل . تصديقها في أصل العقيدة ، وفي الدعوة إلى الخير (وتفصيل الكتاب) الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من عند الله ، تتفق أصوله وتختلف تفصيلاته . . وهذا القرآن يفصل كتاب الله ويبين وسائل الخير الذي جاء به ، ووسائل تحقيقه وصيانته . فالعقيدة في الله واحدة ، والدعوة إلى الخير واحدة . ولكن صورة هذا الخير فيها تفصيل ، والتشريع الذي يحققه فيه تفصيل ، يناسب نمو البشرية وقتها ، وتطورات البشرية بعدها ، بعد أن بلغت سن الرشد فخطبت بالقرآن خطاب الراشدين ، ولم تخاطب بالخوارق المادية التي لا سبيل فيها للعقل والتفكير (لا ريب فيه ، من رب العالمين) تقرير وتوكيد لنفي جواز افتراءه عن طريق إثبات مصدره (من رب العالمين) (أم يقولون افتراه؟) بعد هذا النفي والتقرير ، فهو إذن من صنع

محمد . ومحمد بشر ينطق باللغة التي ينطقون بها ، و لا يملك من حروفها إلا ما يملكون . [ألف . لام . ميم] . . . [ألف . لام . را .] . . . [ألف . لام . ميم . صاد] . . . الخ . فدونهم إذن - ومعهم من يستطيعون جمعهم - فليفتروا ، كما افترى [بزعمهم] محمد . فليفتروا سورة واحدة لا قرأنا كاملا (قل:فاتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وقد ثبت هذا التحدي ؛ وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتا ولن يزال . والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويندوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان . وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة . . كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد ، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال . ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه . . فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء اللفظي ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب . والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي ، والإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضا . إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري . . إن له سلطانا عجيبا على القلوب ليس للأداء البشري ؛ حتى ليبليغ أحيانا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا . . وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول - وإن لم تكن هي القاعدة - ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل . أذكر حادثا وقع لي وكان عليه معي شهود ستة ، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاما . . كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك ؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجنبية ليس فيهم مسلم . . وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة ! والله يعلم - أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسا دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة ؛ وحاول أن يزاول تبشيرها معنا ! . . وقد يسر لنا قائد السفينة - وكان إنجليزيا - أن نقيم صلاتنا ؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاثها وخدمها - وكلهم نوهيون مسلمون - أن يصلي منهم معنا من لا يكون في "الخدمة" وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرحا شديدا ، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة . . ووقت بخبطة الجمعة وإمامة الصلاة ؛ والركاب الأجانب - معظمهم - متعلقون يرقبون صلاتنا ! . . وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم بهنتونا على نجاح "الفتاسي" !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم "تيتو" وشبوعيته ! - كانت شديدة التأثر والانفعال ، تبيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول:- في إنجليزية ضعيفة - إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح ! . . وليس هذا موضع الشاهد في القصة . . ولكن ذلك كان في قولها: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها "قسيسكم" ! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم "الصلاة" إلا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة ! وقد صححنا لها هذا الفهم ! . . وأجبناها: فقالت: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفا . . ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه . . إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن "الإمام" كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعا . . هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعشة وقشعريرة ! إنها شيء آخر ! كما لو كان - الإمام - مملوءا من الروح القدس ! - حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ! - وتفكرنا قليلا . ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة ! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئا ! وليست هذه قاعدة كما قلت . ولكن وقوع هذه الحادثة - ووقوع أمثالها مما ذكره لي غير واحد - ذو دلالة على أن في هذا القرآن سرا آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته . وقد يكون إيمان هذه السيدة بدينها ، وقرارها من الجحيم الشيوعي في بلادها ، قد أدهف حسها بكلمات الله على هذا النحو العجيب . . ولكننا بالنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شيء ، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه - وسره هذا - وهم لا يفترقون كثيرا من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيدة اليوغسلافية !!! ويضرب السياق عن المضي في الجدل بعد هذا التحدي ، لبقدر أنهم لا يتبعون إلا الظن ، فهم يحكمون على مالم يعلموه . والحكم يجب أن يسبقه العلم ، وألا يعتمد على مجرد الهوى أو مجرد الظن . والذي حكموا عليه هنا هو الوحي بالقرآن وصدق ما فيه من الوعد والوعيد . لقد كذبوا بهذا وليس لديهم من علم يقوم عليه التكذيب ، ولما يأتهم تأويله الواقعي بوقوعه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله) شأنهم في هذا شأن المكذبين من قبلهم ، الظالمين المشركين بربهم . فليتأمل المتأمل كيف كان مصير الأولين ليعرف حقيقة مصير الآخرين (كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان

عاقبة الظالمين) وإذا كان أكثرهم لا يتبعون إلا الظن ، ويكذبون بما لم يحصل لهم عنه علم ، فإن هناك منهم من يؤمن بهذا الكتاب ، فليسوا جميعهم من المكذبين (ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به . وربك أعلم بالمفسدين) والمفسدون هم الذين لا يؤمنون . وما يقع الفساد في الأرض كما يقع بضلال الناس عن الإيمان بربهم والعبودية له وحده . وما نجم الفساد في الأرض إلا من الدينونة لغير الله ، وما يتبع هذا من شر في حياة الناس في كل اتجاه . شر اتباع الهوى في النفس والغير ويعقب على تقرير مواقفهم من هذا الكتاب بتوجيه الخطاب للرسول ﷺ بالأبالي يتأثر بتكذيب المكذبين ، وأن ينفذ يديه منهم . ويعلمهم ببراءته من عملهم ، ويفاصلهم على ما معه من الحق في وضوح وفي حسم وفي يقين (وإن كذبوك فقل: لي عملي ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون) وهي لمسة لوجدانهم ، باعترالهم وأعمالهم ، وتركهم لمصيرهم منفردين ، بعد بيان ذلك المصير المخيف . وذلك كما تترك طفلك المعانده الذي يبأى أن يسير معك ، في وسط الطريق وحده يواجه مصيره فريدا لا يجد منك سندا . وكثيرا ما يفلح هذا الأسلوب من التهديد ! ويمضي السياق يستعرض حال بعضهم من الرسول ﷺ وهم يستمعون إليه بأذانهم وقلوبهم مغلقة . وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يتوبون من السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون إلى الطريق (ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ! ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؟) إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا . . إن هؤلاء لكثير ، في كل زمان وفي كل مكان . والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئا . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها . والرسول ﷺ لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمي . فذلك من شأن الله وحده عز وجل . والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة . وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها ، فإذا هم عطلوا حقت عليهم سنته التي لا تتخلف ولا تحابي ، ولقوا جزاءهم عدلا ، ولم يظلمهم الله شيئا (إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وفي هذه الآيات الأخيرة تسرية عن رسول الله ﷺ مما يجده في نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام . وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه في الجهد . ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم العمي . وما يفتح الأذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل في اختصاص الله . بعد ذلك يلمس وجدانهم لمسة خاطفة بمشهد من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التي تزحم حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم . . رحلة سريعة ، قضاهها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم ودارهم الأصيلية (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسروا الذين كذبوا بقاء الله ، وما كانوا مهتدين) وفي هذه الجولة الخاطفة ننظر فإذا المحشورون مأخوذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف ، ثم أسدل الستار . وهذه الشعوب المتناحرة ، والدول المتخاصمة - لا تتخاصم على حق عام ، ولا على منهج سليم ، إنما تتعارك على الحطام والأعراض - هذه . هل عرف بعضها بعضا ؟ وهي ما تكاد تفرغ من خصام حتى تدخل في خصام . ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، وما سبقه من أيام الحياة في الأرض إلى حديث مع الرسول ﷺ في شأن وعيد الله للمكذبين ؛ ذلك الوعيد الغامض ، لا يدرون إن كان سيعاجلهم غدا ، أم إنهم سينظرون إلى يوم الدين ، ليبقى مصلتا فوق رؤوسهم لعلهم يتقون ويهتدون . . وشيئا فشيئا تنتهي الجولة التي بدأت بالحديث عن الوعيد إلى نهايتها يوم لا ينفع الفداء ولو كان ما في الأرض كله ، ويوم يقضي الله بالقسط لا يظلم أحدا . . وذلك على طريقة القرآن في وصل الدنيا بالآخرة ، في كلمات ولحظات ، في تصوير حي يلمس القلوب ، ويصور في الوقت ذاته حقيقة الاتصال بين الدارين والحياتين كما هما في الواقع ، وكما ينبغي أن يكونا في التصور الإسلامي الصحيح . تبدأ هذه الجولة بتقرير أن مرجع القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذي كلف الرسول ﷺ أن يبلغه لهم ، في حياته أو بعد وفاته . فالمرجع إلى الله في الحاليين . وهو شهيد على ما يفعلون في حضور الرسول بالحياة ، وفي غيبته بالوفاة . فلن يضيع شيء من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول ﷺ مما يوعدون (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على ما يفعلون) فالأمور مهدرة سائرة حسب التدبير ، لا يخرم منها حرف ، ولا يتغير بالطوارئ والظروف . ولكن كل قوم ينظرون حتى يجيء رسولهم ، فينذرهم ويبين لهم ، وبذلك يستوفون حقهم الذي فرضه الله على نفسه بالأبالي يعذب قوما إلا بعد الرسالة ، وبعد الإعدار لهم بالتبيين . وعندئذ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول (ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) ونقف من هاتين الآيتين أمام حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية التي يرتكز عليها التصور الإسلامي كله . وعناية المنهج القرآني بتوضيحها وتقريرها في كل مناسبة ، وفي صور شتى متنوعة إنه يقال للرسول ﷺ إن أمر هذه العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون بها . كله لله ، وأن ليس لك من الأمر شيء . دورك فيها هو البلاغ ، أما ما وراء ذلك فكله لله . وقد ينقض أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك ، فليس حتما على الله أن يريك عاقبتهم ، وما ينزله بهم من جزاء . . هذا له وحده سبحانه ! أما أنت - وكل رسول - فعليك البلاغ . . ثم يمضي الرسول ويدع الأمر كله لله . .

ذلك كي يعلم العبيد مجالهم ، وكي لا يستعجل الدعاء قضاء الله مهما طال عليهم في الدعوة ، ومهما تعرضوا فيها للعذاب !! (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) وقد كانوا يسألون في تحد واستعجال ، طالين وقوع ما يوعدهم به النبي ﷺ من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الأمم التي جاءتها رسالها فكذبت ، فأخذ الله المكذبين:والجواب (قل:لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وإذا كان الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، فهو لا يملك لهم الضر والنفع بطبيعة الحال (قل:لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا . . إلا ما شاء الله . .) فالامر إذن لله يحقق وعيده في الوقت الذي يشاؤه . وسنة الله لا تتخلف ، وأجله الذي أجله لا يستعجل (لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) والأجل قد ينتهي بالهلاك الحسي . هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية . وقد ينتهي بالهلاك المعنوي . هلاك الهزيمة والضياع . وهو ما يقع للأمم ، إما لفترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائما فتضمحل وتنمحي شخصيتها وتنتهي إلى اندثارها كأمة ، وإن بقيت كأفراد . . وكل أولئك وفق سنة الله التي لا تتبدل ، لا مصادفة ولا جزافا ولا ظلما ولا محاباة . فالأمة التي تأخذ بأسباب الحياة تحيا والأمة التي تنحرف عنها تضعف أو تضمحل أو تموت بحسب انحرافها . والأمة الإسلامية منصوص على أن حياتها في اتباع رسولها ، والرسول يدعوها لما يحييها . لا بمجرد الاعتقاد ، ولكن بالعمل الذي تنص عليه العقيدة في شتى مرافق الحياة . وبالحياة وفق المنهج الذي شرعه الله لها ، والشريعة التي أنزلها ، والقيم التي قررها . وإلا جاءها الأجل وفق سنة الله . . ثم يباردهم السياق بلمسة وجدانية تنقلهم من موقف السائل المستهزئ المتحدي ، إلى موقفه المهذب الذي قد يفاجئه المحظور في كل لحظة من الليل أو النهار (قل:أرايتم إن أتاكم عذابه بيانا أو نهارا ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟) فهذا العذاب المغيب الذي لا يعلم موقعه وموعده ، والذي قد يحل بيانا وأنتم نيام ، أو نهارا وأنتم أيقاظ ، لا يجديكم في رده الصحو . . ما الذي يستعجل منه المجرمون ؟ وهو عذاب لا خير لهم في استعجاله على كل حال .

وبينما هم في مفاجأة السؤال الذي ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلا . . وهو لم يقع بعد . . ولكن التصور القرآني يرسمه واقعا ، ويفغر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان (أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستعجلون ؟!) . فكأنما قد وقع . وكأنما قد آمنوا به ، وكأنما يخاطبون بهذا التكبيت في مشهد حاضر يشهدونه الآن ! وتتمة المشهد الحاضر (ثم قيل للذين ظلموا:ذوقوا عذاب الخلد . هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟) وهكذا نجدنا مع السياق في ساحة الحساب والعذاب ، وقد كنا منذ لحظات وفقرات في الدنيا نشهد خطاب الله لرسوله عن هذا المصير !! وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول:إن كان هذا الوعيد حقا . فهم مزلزون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين . والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين (ويستنبئونك:أحق هو ؟ قل:إي وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) (إي وربى) الذي أعرف قيمة ربوبيته فلا أقسم به حانثا ، ولا أقسم به إلا في جد وفي يقين . . (إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ما أنتم بمعجزين أن يأتي بكم ، وما أنتم بمعجزين أن يحاسبكم ، وأن يجازيكم وبينما نحن معهم على هذه الأرض في استنباء وجواب . إذا نحن فجأة - مع السياق في نقلة من نقاتل الأسلوب القرآني المصور - في ساحة الحساب والجزاء . مبدئيا على وجه الفرض والتقدير . (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به) فلا يقبل منها حتى على فرض وجوده معها . ولا تكتمل الآية حتى يكون الفرض قد وقع وقضى الأمر (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط في أيديهم ، والتعبير يرسم للخيال صورة الكمد يظلل الوجوه ، دون أن تنطق الشفاه ! (وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) وانتهى المشهد الذي بدأ منذ نصف آية فرضا وانتهى واقعا ، على طريقة التصوير القرآني المؤثر المثير .

(ألا إن لله ما في السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت ، وإليه ترجعون . يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل:يفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ألا . . . بهذا الإعلان المدوي (ألا إن لله ما في السماوات والأرض) والذي يملك ما في السماوات والأرض يملك أن يجعل وعده حقا فلا يعجزه عن تحقيقه معجز ، ولا يعوقه عن تصديقه معوق (ألا إن وعد الله حق) (ولكن أكثرهم لا يعلمون) . . وهم لجهلهم يشكون أو يكذبون (هو يحيي ويميت) والذي يملك الحياة والموت ، يملك الرجعة والحساب (وإليه ترجعون) إنه تعقيب سريع للتوكيد السريع بعد الاستعراض المثير . ثم يعقبه النداء الجامع للبشرية جميعا: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) جاءتكم في ذلك الكتاب الذي ترتابون فيه . جاءتكم الموعظة (من ربكم)فليس هو كتابا مفترى ، وليس ما فيه من عند بشر . جاءتكم الموعظة لتحيي قلوبكم ، وتشفي صدوركم من الخرافة التي تملؤها ، والشك الذي يسيطر عليها ، والزيغ الذي يمرضها ، والقلق الذي يحيرها . جاءت لتقبض عليها البرء والعافية واليقين والاطمئنان والسلام مع الإيمان . وهي لمن يرزق الإيمان هدى إلى الطريق الواصل ، ورحمة

من الضلال والعذاب (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون) فهذا الفضل الذي آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان . . فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذي يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة . إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل:بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) لقد كانوا يدركون قيمة النقلة البعيدة التي نقلها لهم هذا الدين ، من وهدة الجاهلية التي كانوا فيها . . وإنها لنقلة بعيدة بالقياس إلى الجاهلية في كل زمان ومكان . . بما فيها جاهلية القرن العشرين . وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق واليسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والألية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية . وفي ظل هذا الحديث عن فضل الله ورحمته ، المتمثلين فيما جاء للناس من موعظة وهدى وشفاء لما في الصدور ، يتعرض السياق للجاهلية ، وهي تزاول حياتها العملية ، لا وفق ما جاء من عند الله ؛ ولكن وفق أهواء البشر ، واعتنائهم على خصائص الله سبحانه ، ومزاولتهم أمر التحليل والتحرير فيما رزقهم الله (قل:أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ! قل:الله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذنو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) قل:ماذا ترون في رزق الله الذي أنزله إليكم ؟ - وكل ما جاء من عند الله في عيانه إلى البشر فهو منزل من ذلك المقام الأعلى - ماذا ترون في هذا الرزق الذي أعطاه لكم ، لتتصرفوا فيه وفق إذنه وشرعه ، فإذا أنتم - من عند أنفسكم ودون إذن من الله لكم - تحرمون منه أنواعا وتحلون منه أنواعا . والتحرير والتحليل تشريع ، والتشريع حاكمية . والحاكمية ربوبية . وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم (قل:الله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟) إنها القضية التي يتكرر ذكرها في القرآن الكريم ؛ وتواجه بها الجاهلية بين الحين والحين . . ذلك أنها القضية الكبرى التالية لشهادة أن لا إله إلا الله . بل إنها هي في حالة التطبيق الواقعي في الحياة . والله يجبههم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟) . . وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب وتتنظمهم جميعا . . فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذي يتصورون أن يكون في شأنهم يوم القيامة !! وهو سؤال تنوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية ! (إن الله لذنو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) والله ذو فضل على الناس برزقه هذا المادي الذي أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ؛ والنواميس التي تحكم هذه المصادر ، وأقدرهم كذلك على التنوع في أشكاله ، والتحليل والتركيب في مادته لتنوع هذه الأشكال . . وكله في الكون وفيهم من رزق الله . . ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذلك . . فإذا هم يحيون عن منهج الله وشرعه ؛ وإذا هم يشركون به غيره . . ثم يشقون في النهاية بهذا كله . . يشقون لأنهم لا ينتفعون بهذا الذي هو شفاء لما في الصدور ! والله هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمهر وظاهر ، الذي لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . . هذه هي اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر في السياق ، ليخرج منها إلى طمأننة الرسول ﷺ ومن معه بأنهم في رعايته وولايته ، لا يضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع الله شركاء وهم واهمون (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) شعور مطمئن ومخيف معا ، مؤنس ومرهب معا . . وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه . الله بكل عظمته ، وبكل هيئته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته . الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . ومدبر هذا الكون ما جل منه وما هان . . الله مع هذا المخلوق البشري . الذرة التائهة في الفضاء لولا عناية الله تمسك بها وترعاها ! إنه شعور رهيب . ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن . إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية . . إن الله معها إنه ليس شمول العلم وحده ، ولكن شمول الرعاية ، ثم شمول الرقابة (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) ويسبح الخيال مع الذرات السابحة في الأرض أو في السماء - ومعها علم الله - ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصورا في علم الله . . ويرتعش الوجدان إشفاقا ورهبة ، ويخضع القلب إجلاا وتقوى ، حتى يطمأن الإيمان من الروعة والرهبة ؛ ويهدد القلب الواجف بأنس القرب من الله . وفي ظل هذا الانس ، وفي طمأنينة هذا القرب . . يأتي الإعلان الجاهر (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم) وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا في كل شأن وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء الله ، المؤمنون به الاتقياء المرأقبون له في السر والعلن: (الذين آمنوا وكانوا يتقون) كيف يخافون وكيف يحزنون ، وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه ؟ وعلام يحزنون ومم يخافون ، والبشرى لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ إنه الوعد الحق الذي لا يتبدل - لا تبديل لكلمات الله (ذلك هو الفوز العظيم) إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون

حق التقوى . والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه . . هكذا يجب أن تفهم معنى الولاية لله . لا كما يفهمه العوام ، من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء ! وفي ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبي ﷺ وهو أولى الأولياء ، بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفترين ، وكانوا في ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه (ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعا . هو السميع العليم) ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين - كما في الموضوع الآخر - لأن السياق سياق حماية الله لأولياته . فيفرد الله بالعزة جميعا - وهي أصلا لله وحده ، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه - ليجرد منها الناس جميعا ، ومشركو قريش العتاة داخلون في الناس . أما الرسول ﷺ فهو في الحماية الإلهية التي أضفاها على أولياته . فلا يحزن لما يقولون . والله معه وهو السميع العليم . الذي يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمي أولياءه مما يقال ومما يكاد . وفي ملك يده كل من في السماوات وكل من في الأرض من إنس وجن وملائكة ، وفي عصاة ونقاة ، فكل ذي قوة من خلقه داخل في سلطانه وملكه (ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض) وهذه حكمة ذكر (من) هنا لا "ما" لأن المقصود إثبات أن الأقوياء كالضعفاء كلهم في ملك يده سواء . فالسياق جار فيها مجراه (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) فهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا في حقيقتهم شركاء لله في شيء ؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة (إن يتبعون إلا الظن . وإن هم إلا يخرصون) ثم لفنة إلى بعض مجالي القدرة في المشاهدة الكونية التي يغفل عنها الناس بالتركار (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) والمالك للحركة وللسكون ، الذي يجعل الليل ليسكن فيه الناس ، ويجعل النهار مبصرا يقود الناس فيتحركون ! ويبصرهم فيبصرون . . ممسك بمقالييد الحركة والسكون ، قادر على الناس ، قادر على حماية أولياته من الناس . ورسوله ﷺ في مقدمة أولياته . ومن معه من المؤمنين (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) يستخدم القرآني يستخدم المشاهد الكونية كثيرا في معرض الحديث عن قضية الألوهية والعبودية . ذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهده شاهد ناطق للفظرة لا تملك لمنطقة رها . كذلك يخاطب الناس بما في علاقتهم بهذا الكون من تناسق . وهم يجدون هذا في حياتهم فعلا . فهذا الليل الذي يسكنون فيه ، وهذا النهار الذي يبصرون به ، هما ظاهرتان كونيتان شديتا الاتصال بحياتهم . وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس يحسونه هم - ولو لم يتعمقوا في البحث و "العلم" . ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية ! وهكذا لم يكن البشر في عماية عن لغة الكون حتى جاءتهم "العلوم الحديثة" ! لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكينونتهم كلها . ومن ثم خاطبهم بها العليم الخبير منذ تلك القرون . وهي لغة متجددة بتجدد المعرفة ، وكلما ارتقى الناس في المعرفة كانوا أقدر على فهمها ، متى فتحت قلوبهم بالإيمان ونظرت بنور الله في هذه الأفاق ! وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة في الدنيا وتنتهي بالعذاب في الآخرة على طريقة القرآن ، (قالوا: اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغني ، له ما في السماوات وما في الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل: إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وعقيدة أن الله - سبحانه - ولدا ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور في التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ؛ والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التي جرت بتوالد أبناء الفناء ، وهو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله . فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فألى أن ينقضي هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضي امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد . والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون . والولد تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدي دورها في عمارة الأرض - كما شاء الله - وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة . والبشر يكافحون فيما يحيط بهم ، ويكافحون أعداءهم من الحيوان والناس . فهم في حاجة إلى التساند ، والولد أقرب من يكون إلى العون في هذه الأحوال . والبشر يستكثرون من المال الذي يجلبونه لأنفسهم بالجهد الذي يبذلونه ، والولد يعين على الجهد الذي يجلب المال . وهكذا إلى سائر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض ، حتى ينقضي الأجل ، ويقضي الله أمرا كان مفعولا . وليس شيء من ذلك كله متعلقا بالذات الإلهية ، فلا الحاجة إلى الامتداد ، ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة ، ولا الحاجة إلى النصير ، ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شيء ما مما يخطر أو لا يخطر على البال متعلقة بذات الله تعالى . . ومن ثم تنتقي حكمة الولد ، لأن الطبيعة الإلهية لا يتعلق بها غرض خارج عن ذاتها ، يتحقق بالولد . وما قضت حكمة الله أن يتوالد البشر إلا لأن طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النوع من التكملة . فهي تقتضي الولد اقتضاء . وليست المسألة جزافا . ومن ثم كان الرد على فرية (قالوا اتخذ الله ولدا) . . هو (سبحانه ! هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض) (سبحانه ! . .) تنزيها لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصور (هو الغني) بكل معاني الغنى ، عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر ومما لا يخطر على البال . مما يقتضي وجود الولد . والمقتضيات هي التي تسمح بوجود المقتضيات ، فلا

يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية، (له ما في السماوات وما في الأرض) فكل شيء ملكه . ولا حاجة به - سبحانه - لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد . فالولد إذن عبث . تعالى الله سبحانه عن العبث ! ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظري حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية ، مما جد عند المتكلمين ، وفي الفلسفات الأخرى . لأنه يلمس الموضوعات في واقعها القريب إلى الفطرة . ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائياً وتصبح غرضاً في ذاتها ! فيكتفي هنا بهذه اللمسة التي تمس واقعهم ، وحاجتهم إلى الولد ، وتصورهم لهذه الحاجة ، وانتفاء وجودها بالقياس إلى الله الغني الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض ، ليبلى من نفوسهم موضع الاقتناع أو موضع الإفحام ، بلا جدل نظري يضعف أثر اللمسة النفسية التي تستجيب لها الفطرة في بسر وهوادة . ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون . ويسمى البرهان سلطاناً ، لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوي ذو سلطان (إن عندكم من سلطان بهذا) ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون . تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ . وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق . فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله - سبحانه - ! إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة . فهو أولاً ينافي ما يستحقه الله من عباده من تنزيه وتعظيم ، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولأنه ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات . فكأنها فرع من تصور هذه العلاقة . وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم في الوثنيات من سلطان ؛ وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان ، إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة !

أو بين الله تعالى وعيسى بن مريم من صلة الأبوّة والنبوّة ، وحكاية الخطيئة ، ومنها نشأت مسألة الاعتراف ، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس إلى أبي المسيح [بزعمهم] . . إلى نهاية السلسلة التي متى بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق فسدت الحلقات التالية كلها في كل ضروب الحياة . فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي ، ولكنه مسألة الحياة برمتها . وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عدا ، انتهى إلى تخلص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلصه من سلطان الهين نفسه ! إنما نشأ من هذه الحلقة . حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخالقه . وجر في ذنبه شراً كثيراً تعاني البشرية كلها ويلات في التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء . ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام . . الله خالق أزلي باق ، لا يحتاج إلى الولد . والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي علاقة الخالق بخلقه دون استثناء . وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابي . فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز ، ومن حاد عنها ضل وخسر . . الناس في هذا كلهم سواء . وكلهم مرجعهم إلى الله . وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً . ولكل نفس ما عملت . ولا يظلم ربك أحداً . عقيدة بسيطة واضحة ، لا تدع مجالاً لتأويل فاسد ، ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات ، ولا في سحب وضباب ! ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها . وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) لا يفلحون أي فلاح . لا يفلحون في شعب ولا طريق . لا يفلحون في الدنيا ولا في الأخرى . والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسيرة سنن الله الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ، ودفعها إلى الإمام . وليس هو مجرد الإنتاج المادي مع تحطم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية . فذلك فلاح ظاهري موقوت ، منحرف عن خط الرقي الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال (متاع في الدنيا . ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) مجرد متاع واط . وهو متاع قصير الأمد . وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة . إنما يعقبه (العذاب الشديد) ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان .

(وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ بَيِّنَاتٌ مِّنَّا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرِكَاكُمْ ثُمَّ لَا يُكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْبَضُوا إِلَيَّ وَلَا تَبْطَرُونَ } {71} فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامْرَأَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } {72} فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ جُلَّانِفَ وَأَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ } {73} ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ } {74} ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَنَاهُ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ } {75} فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ

مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ {76} قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُونَ {77} قَالُوا أَجئْنَاكَ لِنُقَلِّبَكَ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا
 نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ {78} وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ {79} فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ
 مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ تَلْقَوْنَ {80} فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ {81} وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ {82} فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا
 ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنْ
 الْمَسْرِفِينَ {83} وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ {84} فَقَالُوا
 عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {85} وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ {86} وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا يَمُرُّ بَيْوتَا وَاجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {87} وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشدَّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ {88} قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {89} وَجَاوَزْنَا
 بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودَهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ {90} الْأَنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ
 الْمُفْسِدِينَ {91} فَالْيَوْمَ نَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا
 لَغَافِلُونَ {92} وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ
 الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {93} فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا
 إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {94} وَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {95} إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
 لَا يُؤْمِنُونَ {96} وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ جِئُوا بِرِوَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ {97} فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ
 آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ {98} وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى
 يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ {99} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا
 يَعْقِلُونَ {100} قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتِ وَالْبُيُوتِ عَنِ قَوْمٍ لَا
 يُؤْمِنُونَ {101} فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُنْتَظَرِينَ {102} ثُمَّ نَجَّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ {103}

الآن يأخذ السياق في جولة تفصيلية لهاتين الإشارتين ، فيسوق طرفا من قصة نوح مع قومه ، وطرفا
 من قصة موسى مع فرعون وملئه ، تتحقق فيهما عاقبة التكذيب ، والقضاء في أمر الأمة بعد مجيء
 رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة . كذلك تجيء إشارة عابرة لقصة يونس الذي
 آمنت قريته بعد أن كاد يحل بها العذاب ، فرفع عنها ونجت منه بالإيمان . . وهي لمسة من ناحية
 أخرى تزين الإيمان للمكذبين ، لعلهم يتقون العذاب الذي يندرون . ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم
 نوح وقوم موسى المهلكين . والمناسبة ظاهرة لإيراد هذا القصص بالنسبة لسياق السورة ، وبالنسبة
 لهذه المعاني القريبة قبلها . والقصص في القرآن يجيء في السياق ليؤدي وظيفة فيه ؛ ويتكرر في
 المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق ، والحلقات التي تعرض منه في موضع تفي
 بحاجة ذلك الموضع ، وقد يعرض غيرها من القصة الواحدة في موضع آخر ، لأن هذا الموضع تناسبه
 حلقة أخرى من القصة . وسنرى فيما يعرض من قصتي نوح وموسى ويونس هنا وفي طريقة العرض
 مناسبة ذلك لموقف المشركين في مكة من النبي ﷺ والقالة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة
 المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان . كما سنجد المناسبة بين القصص والتعقيبات
 التي تتخلله وتتلوه (وائل عليهم نبا نوح ، إذ قال لقومه: يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي
 وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت ، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم
 عليكم غمّة ، ثم افضوا إليّ ولا تنظروني . فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ،
 وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا
 الذين كذبوا بآياتنا ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) إن الحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح ،
 هي الحلقة الأخيرة: حلقة التحدي الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل .
 ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ، ولا التفصيلات في تلك
 الحلقة ، لأن الهدف هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ،
 وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة . لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة .

ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة ، لأن هذا هو مقتضى السياق في هذا الموضوع (وَاَتْلُوهُم نَبَأَ نُوحٍ ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ . ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ بِغَيْرِ مَشْرُوعٍ . ثُمَّ أَقْبَضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ) إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم ؛ وتذكيري لكم بآيات الله . فأنتم وما تريدون . وأنا ماضٍ في طريقي لا أعتمد إلا على الله (فعلى الله توكلت) عليه وحده فهو حسبي دون النصارى والأولياء (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) وتببروا مصادر أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامين (ثم ولا يكن أمركم عليكم غمة) بل ليكن الموقف واضحا في نفوسكم ، وما تعزموه مقررًا لا لبس فيه ولا غموض ، ولا تردد فيه ولا رجعة (ثم اقضوا إلي) فنفذوا ما اعزمتهم بشأني وما دبترتم ، بعد الروية ووزن الأمور كلها والتصميم الذي لا تردد فيه (ولا تنظرون) ولا تمهلوني للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادي ، هو اعتمادي على الله وحده دون سواه . إنه التحدي الصريح المثير ، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مألٍ يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته ، حتى لبغري خصومه بنفسه ، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعا ؟ كان معه الإيمان . . القوة التي تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التبدير . وكان وراءه الله الذي لا يدع أوليائه لأولياء الشيطان ! إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدي غرورا ، وليس كذلك تهورا ، وليس انتحارا . إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان . والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدى قوى الطاغوت في زمانه هذا التحدي الواضح الصريح . فلنمض مع القصة لنرى نهايتها عن قريب (فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجرينى إلا على الله . وأمرت أن أكون من المسلمين) فإن عرضتم عني وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجرا على الهداية ، فينقض أجري بتوليكم (إن أجرينى إلا على الله) ولن يزحزحني هذا عن عقيدتي ، فقد أمرت أن أسلم نفسي كلها لله (وأمرت أن أكون من المسلمين) فماذا كان ؟ (فكذبوه . فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف . وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) هكذا باختصار . نجاته هو ومن معه في الفلك - وهم المؤمنون . واستخلافهم في الأرض على قلوبهم . وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) لينظر من ينظر (عاقبة المنذرين) المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين . ويجعل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه ، لأن نوحا والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدي للكثرة الكافرة . فلم تكن النتيجة مجرد هلاك هذه الكثرة ، بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار ؛ واستخلافها في الأرض ، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها ، وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان . وفي اختصار وإجمال يشير السياق إلى الرسل بعد نوح ، وما جاءوا به من البينات والخوارق وكيف تلقاها المكذبون الضالون (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين) فهؤلاء الرسل جاءوا قومهم بالبينات . والنص يقول: إنهم ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل . . وهذا يحتمل أنهم بعد مجيء الآيات ظلوا يكذبون كما كانوا قبلها يكذبون . فلم تحولهم الآيات عن عنادهم . كما يحتمل أن المكذبين جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم ، لأنهم ذوو طبيعة واحدة . فهؤلاء ما كان يمكن أن يؤمنوا بما كذب به أسلاف لهم ، أو بما كذبوا هم به في أشخاص هؤلاء الأسلاف ! فهم منهم ، طبيعتهم واحدة ، وموقفهم تجاه البينات واحد . لا يفتحون لها قلوبهم ، ولا يتدبرونها بعقولهم . وهم معتدون يتجاوزون حد الاعتدال والاستقامة على طريق الهدى ، ذلك أنهم يعطلون مداركهم التي أعطاهم الله لهم ليتدبروا بها ويتبينوا . وبمثل هذا التعطيل ، تغلق قلوبهم وتوصد منافذها (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) حسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر ، فلا يعود صالحا للتلقى والاستقبال . . لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الأهداء . وإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال .

فأما قصة موسى فيبدوها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدي ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، على نطاق أوسع مما في قصة نوح ، ملما بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين في مكة من الرسول ﷺ وموقف القلة المؤمنة التي معه . وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى ، مقسمة إلى خمسة مواقف ، يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها في هذه السورة على النحو الذي عرضت به . . وهذه المواقف الخمسة تتتابع في السياق على هذا النحو: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين . قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم ، أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون . قالوا: أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء في الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين) والآيات التي بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف . ولكنها لا تذكر هنا ولا تفصل لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال في هذا الموضوع يعني . والمهم هو تلقي

فرعون وملئه آيات الله (فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) فلما جاءهم الحق من عندنا (بهذا التحديد (من عندنا) . ليعصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هذا الحق الصادر من عند الله: (قالوا: إن هذا لسحر مبين) بهذا التوكيد المتبجح الذي لا يستند مع هذا إلى دليل (إن هذا لسحر مبين) كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في جميع العصور ! فهكذا قال مشركو قريش ، كما حكى عنهم في مطلع السورة ، على تباعد الزمان والمكان ، وعلى بعد ما بين معجزات موسى ومعجزة القرآن ! (قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون) وقد حذف من استنكار موسى الأول ما دل عليه الثاني . فكأنه قال لهم: أتقولون للحق لما جاءكم: هذا سحر ؟ أسحر هذا ؟ وفي السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر ، وفي السؤال الثاني تعجب من أن يقول أحد عن هذا إنه سحر . فالسحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق ؛ ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس . وما كان الساحرون ليؤدوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغراض ، ويحقق مثل هذا الاتجاه ؛ وما كانوا ليفلحوا وكل عملهم تخيل وتزييف . وهنا يكشف الملام عن حقيقة الدوافع التي تصدهم عن التسليم بآيات الله (قالوا: أحيئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء في الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين) وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي . وهو الخوف على السلطان في الأرض ، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة . إنها هي العلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى الله رب العالمين ! وما كان رجال من أذكى قريش مثلاً ليخطنوا إدراك ما في رسالة محمد ﷺ من صدق وسمو ، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد . ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد . كما خشي الملام من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض ، فقالوا متبححين (وما نحن لك بمؤمنين !) وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر ، وأرادوا - في أغلب الظن - أن يغرِقوا الجماهير بها ، بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر في ظاهرها ، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً . وبذلك ينتهي الخطر الذي يخشونه على معتقداتهم الموروثة ، وعلى سلطانهم في الأرض ، وهو الأساس . . ونرجح أن هذه كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة ، بعدما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقي الذي يتوقعونه (وقال فرعون: أنتوني بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لهم موسى: القوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى: ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ونلاحظ هنا اختصاراً في موقف المباراة ، لأن نهايته هي المقصودة . وفي قولة موسى: (ما جئتم به السحر) . . رد على تهمة السحر التي وجهت إليه . فالسحر هو هذا الذي يصنعه هؤلاء ، لأنه ليس أكثر من تخيل وسحر للأنظار لا هدف له إلا اللعب بالعقول ، لا تصحبه دعوة ، ولا تقوم عليه حركة . فهذا هو السحر لا آيات الله التي جاءهم بها حقاً من عند الله . (وفي قوله) إن الله سيبطله (. تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) الذين يضللون الناس بالسحر ، أو الملام الذين جاءوا بالسحرة بنية الفساد والإبقاء على الضلال وقد كان . . وبطل السحر وعلا الحق . . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة في هذا المجال . ويسدل الستار هنا ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم ! . وهذا إحدى عبر القصة المقصودة (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . وإن فرعون لعال في الأرض . وإنه لمن المسرفين . وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا: على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين . وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوثكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين) ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار ، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي . وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى ، خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب ، والأدلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل . وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت ، كما كان مسرفاً في الطغيان ، لا يقف عند حد ، ولا يتحرج من إجراء قاس . وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف ، ويطمئن القلوب ، ويثبتها على الحق الذي تنحاز إليه (وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه . وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغى فإذا هي أقوى وأثبت . وقد ذكّر لهم موسى الإيمان والإسلام . وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك . . مقتضى الاعتقاد في الله ، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد . . واستجاب المؤمنون لهاتف الإيمان على لسان نبيهم (فقالوا: على الله توكلنا) ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) والدعاء بالألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يمكن القوم الظالمين منهم ، فيظن القوم أن تمكثهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون ! ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم . فالمؤمنون

يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين . والآية الثانية أصرح في النتيجة المطلوبة (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) ودعاؤهم الله ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين ، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين ، لا ينافي الاتكال على الله والتقوي به . بل هو أدل على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى الله . والمؤمن لا يتمنى البلاء ، ولكن يثبت عند البلاء . وعقب هذا التمييز ، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى ، وإيمان من آمن بموسى ، أوحى الله إليه وإلى هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتا خاصة بهم ، وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعدادا للرحيل من مصر في الوقت المختار ؛ وكلفهم تطهير بيوتهم ، وتركية نفوسهم ، والاستبشار بنصر الله (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تباوأ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين) وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معا ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة ، تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئا كثيرا في ساعة الشدة . وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ، ليست خاصة ببني إسرائيل ، فهي تجربة إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي ، وقد عمّت الفتنة وتجبر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة - وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة - وهنا يرشدهم الله إلى أمور :

اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها - ما أمكن في ذلك - وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها ، لتطهرها وتركيبها ، وتدريبها وتنظيمها ، حتى يأتي وعد الله لها .

اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد . تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ؛ وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح ؛ وتزاول بالعبادة ذاتها نوعا من التنظيم في جو العبادة الطهور .

واتجه موسى - عليه السلام - إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجى لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه ، الذين يملكون المال والزينة ، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين ، فتنتهي إلى التهاوي أمام الجاه والمال ، وإلى الضلال . . اتجه موسى إلى ربه يدعو أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب الله الدعاء : (وقال موسى: ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال: قد أجيب دعوتكما ، فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) (ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحياة الدنيا) بنشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك ، وإما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين . وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم . ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تترك أن هذه النعمة أبتلاء واختبار ، وأنها كذلك ليست شيئا ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة . وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس (قال: قد أجيب دعوتكما) كتبت لها الإجابة وقضى الأمر (فاستقيما) في طريقكما وعلى هدايتنا حتى يأتي الأجل (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) فيخطوا على غير علم ، ويترددوا في الخطط والتدبيرات ، ويقلقوا على المصير ، ولا يعرفوا إن كانوا يسبرون في الطريق الهادي أم هم ضلوا السبيل . والمشهد التالي هو مشهد التنفيذ (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؛! فاليوم نتجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي والتكذيب . والسياق يعرضه مختصرا مجملا ، لأن الغرض من سياقة هذه الحلقة من القصة في هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة . بيان رعاية الله وحمائيته لأولياته ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه ، الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة ، فهنا يأتي القصص ليصدق ذلك الوعيد (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا . ولهذا الإسناد في هذا الموضوع دلالة (فأتبعهم فرعون وجنوده) لا اهتداء وإيماننا ، ولا دفاعا مشروعا . ولكن (بغيا وعدوا) وتجاوزنا للحد وطغيانا ومن مشهد البغي والعدو مباشرة إلى مشهد الغرق في ومضة (حتى إذا أدركه الغرق) وعاین الموت ، ولم يعد يملك نجاة (قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغى . . كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضائل وتصاغر واستخذى . فهو لا يكفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد في استسلام (وأنا من المسلمين) المسلمين ! (الآن وقد عصيت قبل وكنت

(من المفسدين؟!)! الآن حيث لا اختيار ولا فرار؟ الآن وقد سبق العصيان والاستكبار؟ الآن؟!)
فاليوم نتجيك ببدنك) لا تأكله الأسماك ، ولا يذهب منكرا مع التيار لا يعرف للناس . ذلك ليدرك
من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك (لتكون لمن خلفك آية) يتعظون بها ويعتبرون ،
ويرون عاقبة التصدي لقوة الله ووعيده بالتكذيب (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) لا
يوجهون إليها قلوبهم وعقولهم ، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم . ويسدل الستار على المشهد
النهائي في المأساة . مأساة البغي والفساد والتحدى والعصيان . . ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مال
بني إسرائيل بعدها ، تستغرق ما حدث في أجيال (ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعأ صدق ، ورزقناهم من
الطيبات ، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون
) والمبعأ هو مكان الإقامة الأمين . وإضافته إلى الصدق تزيده أمانا وثباتا واستقرارا كثبات الصدق
الذي لا يضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء . ولقد طاب المقام فترة لبني
إسرائيل بعد تجارب طويلة ، لا يذكرها السياق هنا لأنها ليست من مقاصده ، وتمتعوا بطيبات من
الرزق حلال ، حتى فسقوا عن أمر الله فحرمت عليهم . والسياق لا يذكر هنا إلا اختلافهم بعد وفاق .
اختلافهم في دينهم وديانهم ، لا على جهل ولكن بعد أن جاءهم العلم ، وبسبب هذا العلم ،
وإستخدامه في التاويلات الباطلة . ولما كان المقام هنا مقام نصره الإيمان وخذلان الطغيان ، فإن
السياق لا يطيل في عرض ما وقع بعد ذلك من بني إسرائيل ، ولا يفصل خلافهم بعد ما جاءهم العلم .
ولكن يطوي هذه الصفحة ، ويكلمها بما فيها لله في يوم القيامة (إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة
فيما كانوا فيه يختلفون) فيبقى للقصة جلالها ، ويظل للمشهد الأخير تأثيره . . وهكذا نذكر
لماذا يساق القصص القرآني ، وكيف يساق في كل موضع من مواضعه . فليس هو مجرد حكايات
تروى ، ولكنه لمسات وإيحاءات مقدره تقديرا . بعد ذلك يجيء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة
موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطابا إلى الرسول ﷺ تثبيتا بما حدث للرسول قبله ، وبيانا لعله
تكذب قومه له ، أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبيانات ، إنما هي سنة الله في المكذبين من قبلهم
، وسنة الله في خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال . . وفي الطريق يلم الإمامة
سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ، فرد عنهم . لعل فيها حافزا
للمكذبين قبل فوات الأوان . . وينتهي بالخلاصة المستفادة من ذلك القصص كله . أن سنة الله التي
مضت في الأولين ماضية في الآخرين: عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلص للرسول ومن معهم من
المؤمنين . حقا كتبه الله على نفسه . وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد: لقد كان آخر الحديث
عن بني إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ،
يقرأونها في كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ إن كان في شك مما أنزل إليه ، من هذا
القصص أو غيره ، فليسال الذين يقرأون الكتاب من قبله . فليدبرهم عنه علم ، مما يقرأون(فإن
كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا
تكونن من الممترين) ولكن الرسول ﷺ لم يكن في شك مما أنزل الله إليه . أو كما روي عنه ﷺ
" لا أشك ولا أسأل " . فقيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان في شك . والتعقيب عليه: (لقد جاءك
الحق من ربك) وفي هذا ما يكفيه لليقين ، ولكن هذا التوجيه يشي بما كان وراءه من شدة
الموقف وتأزمه في مكة بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت
خديجة وأبي طالب ، واشتداد الأذى على رسول الله ﷺ ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريبا في مكة
بسبب موقف قريش العنيد . . وكل هذه ملابسات تلقي ظلالها على قلب رسول الله ﷺ فيسري عنه
ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى . ثم إنه تعرض بالشاكين الممترين المكذبين (ولا
تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين) وهذا التعريض يترك الفرصة لمن يريد
منهم أن يرجع ليرجع ؛ لأنه إذا كان الرسول ﷺ مأذونا في أن يسأل إن كان في شك ، ثم هو لا يسأل
ولا يشك ، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق . وفي هذا إيحاء للأخريين ألا يترددوا ، وألا
يكونوا (من الممترين) وبعد فإذا كان ما جاء إلى الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ، فما
تعليل إصرار قوم على التكذيب ولجاجهم فيه ؟ تعليله أن كلمة الله وسنته قد اقتضت أن من لا يأخذ
بأسباب الهدى لا يهتدي ، ومن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه ، ومن يعطل مداركه لا ينتفع
بوظيفتها ، فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبيانات ، لأنه لا يفيد شيئا من الآيات
والبيانات . وعندئذ تكون كلمة الله وسنته قد حقت عليهم وتحققت فيهم (إن الذين حضت عليهم
كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه
لم يجيء عن اختيار . ولم تعد هنالك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة . وعند هذا الموقف الذي تظهر
فيه حتمية سنن الله العامة ، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة ، متى تعرض الإنسان لها باختياره ، تفتح
نافذة مضبوطة بأخر شعاع من أشعة الأمل في النجاة . ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبيل وقوع
العذاب (فلو كانت قرية أمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي
في الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين) ولكن القرى لم تؤمن . إنما أمنت منها قلة ، فكانت الصفة
الغالبة هي صفة عدم الإيمان . . ذلك فيما عدا قرية واحدة - والقرية هي القوم ، والتسمية هكذا
إيدان بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلات البدو - ولا يفصل السياق هنا قصة
يونس وقومه ، إنما يشير إلى خاتمها هذه الإشارة ؛ لأن الخاتمة وحدها هي المقصودة هنا . فلا

نزديها نحن تفصيلاً . وحسبنا أن ندرک أن قوم یونس كان عذاب مخز یتهددهم ، فلما آمنوا فی اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب ، وترکوا یتمتعون بالحياة إلى أجل . ولو لم یؤمنوا لحل العذاب بهم وفاقا لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه . . حسبنا هذا لندرک أمرین هامین:

أولهما: الإهابة بالمکذبین أن یتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم یونس من عذاب الخزي فی الحياة الدنيا . وهو الغرض المباشر من سیاقه القصة هذا المساق . .

وثانيهما: أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف یکشف هذا العذاب ، وترک قوم یونس یتمتعون فترة أخرى . بل مضت ونفذت . لأن مقتضى سنة الله كان أن یحل العذاب بهم لو أصروا على تکذیبهم حتى یجیء . فلما عدلوا قبل مجیئه جرت السنة بانجائهم نتيجة لهذا العدول . فلا جبرية إذن فی تصرفات الناس ، ولكن الجبرية فی ترتيب آثارها علیها .

ومن ثم ترد القاعدة الكلية فی الکفر والإیمان (ولو شاء ربک لآمن من فی الأرض کلهم جمیعاً . أفأنت تکره الناس حتی یکنوا مؤمنین ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بأذن الله ، ویجعل الرجس على الذین لا یعقلون)

ولو شاء ربک لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى ، فجعله لا یعرف إلا طریقاً واحداً هو طریق الإیمان کالملائكة مثلاً . أو لجعل له استعداداً واحداً یقود جمیع أفرادہ إلى الإیمان . ولو شاء كذلك لأجبر الناس جمیعاً وقهرهم علیه ، حتی لا تكون لهم إرادة فی اختیاره . ولكن حکمة الخالق التي قد ندرک بعض مرامیها وقد لا ندرک ، دون أن ینفی عدم إدراکنا لها وجودها . هذه الحکمة اقتضت خلقة هذا الکائن البشري باستعداد للخیر وللشر وللهدی والضلال . ومنحته القدرة على اختیار هذا الطريق أو ذاك . وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارک ، ووجهها إلى إدراک دلائل الهدی فی الكون والنفس وما یجیء به الرسل من آیات وبنیات ، فإنه یؤمن ویهتدی بهذا الإیمان إلى طریق الخلاص . وعلى العکس حین یعطل مواهبه ویفلق مدارکة ویسنرها عن دلائل الإیمان یقسو قلبه ، ویستغلق عقله ، وینتهي بذلك إلى التکذیب أو الجحود ، فالی ما قبره الله للمکذبین الجاحدين من جزاء . . فالإیمان إذن متروک للاختیار . لا یکره الرسول علیه أحداً . لأنه لا مجال للإکراه فی مشاعر القلب وتوجهات الضمیر (أفأنت تکره الناس حتی یکنوا مؤمنین ؟) وهو سؤال للإنکار ، فإن هذا الإکراه لا یكون (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بأذن الله) وفق سنته الماضیة التي بناها . فلا تصل إلى الإیمان وقد سارت فی الطريق الآخر الذي لا یؤدي إليه . لا أنها تريد الإیمان وتسلک طریقہ ثم تمنع عنه ، فهذا لیس المقصود بالنص . بل المقصود أنها لا تصل إلى الإیمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنته فی الوصول إليه من طریقہ المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ یهدیها الله ویقع لها الإیمان بأذنه . فلا شيء یتم وقوعه إلا بقدر خاص به . إنما الناس یسیرون فی الطريق . فیقدر الله لهم عاقبة الطريق ، ویوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا فی الله لیهدوا . . ویدل على هذا عقب الآية (ویجعل الرجس على الذین لا یعقلون) فالذین عطلوا عقولهم عن التدبر ، یجعل الرجس علیهم . والرجس أشبع الدنس الروحي ، فهؤلاء ینالهم ذلك الرجس بسبب تعطیلهم لمدارکهم عن التعقل والتدبر ، وانتهاؤهم بهذا إلى التکذیب والکفران . ویزید الأمر ایضاً بأن الآيات والنذر لا تغنی عن الذین لا یؤمنون ؛ لأنهم لا یتدبرونها وهي معروضة أمامهم فی السماوات والأرض (قل: انظروا ماذا فی السماوات والأرض . وما تغنی الآيات والنذر عن قوم لا یؤمنون) وسواء كان عقب الآية استفهاماً أو تقريراً . فمؤداه واحد . فإن ما فی السماوات والأرض حافل بالآيات ؛ ولكن الآيات والنذر لا تفید الذین لا یؤمنون ، لأنهم من قبل لم یلقوا بالا إليها ، ولم یتدبروها . (وما تغنی الآيات والنذر عن قوم لا یؤمنون) وماذا تجدی الآيات والنذر إذا استغلفت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقي فی الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنساني بجملته عن هذا الوجود ، فلم یسمع إيقاعات حمده وتسبیحه؟! ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما فی السماوات والأرض ، وسیلة من وسائل المنهج القرآنی لاستحیاء القلب الإنساني ؛ لعله ینبض ویتحرك ، ویتلقي ویستجیب . ولكن أولئك المکذبین من الجاهلیین العرب - وأمثالهم - لا یتدبرون ولا یستجیبون . . فإماذا ینتظرون ؟ إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المکذبین معروفة ، وليس لهم أن یتوقعوا من سنة الله أن تتخلف . وقد ینظرهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستئصال ، ولكن الذین یصرون على التکذیب لا بد لهم من النکال (فهل ینتظرون إلا مثل أيام الذین خلوا من قبلهم ؟) (قل: فانظروا إني معکم من المنتظرین) وهو التهديد الذي ینهي الجدل ، ولكنه یخلع القلوب . ویختم هذا المقطع من السیاق بالنتيجة الأخيرة لكل رسالة ولكل تکذیب ، وبالعبارة الأخيرة من ذلك القصص وذلك التعقیب (ثم ننجي رسلنا والذین آمنوا . كذلك حقاً علينا ننج المؤمنین) إنها الكلمة التي کتبها الله على نفسه: أن تبقى البذرة المؤمنة وتثبت وتنجو بعد كل إبداء وكل خطر ، وبعد كل تکذیب وكل تعذیب . .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } 104 { وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 105 { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ } 106 { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } 107 { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } 108 { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } 109 {

هذه خاتمة السورة ، وخاتمة المطاف لتلك الجولات في شتى الآفاق ، تلك الجولات التي نحس أننا عائدون منها بعد سياحات طويلة في آفاق الكون ، وجوانب النفس ، وعوالم الفكر والشعور والتأملات . عائدون منها في مثل الإجهاد من طول التطواف ، وضخامة الجني ، وامتلاء الوطاب ! هذه خاتمة السورة التي تضمنت تلك الجولات حول العقيدة في مسائلها الرئيسية الكبيرة: توحيد الربوبية والقوامة والحاكمية ، ونفي الشركاء والشفعاء ، ورجعة الأمر كله إلى الله ، وسننه المقدره التي لا يملك أحد تحويلها ولا تبديلها . والوحي وصدقه ، والحق الخالص الذي جاء به . والبعث واليوم الآخر والقسط في الجزاء . هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله ، وسقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها . ها هي ذي كلها تلخص في هذه الخاتمة ، ويكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس إعلانا عاما ، وأن يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة: أنه ماض في خطته ، مستقيم على طريقته ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (قل: يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين) قل: يا أيها الناس جميعا ، وإن كان الذين يتلقون الخطاب إذ ذاك هم مشركي قريش ، إن كنتم في شك من أن ديني الذي أدعوكم إليه هو الحق ، فإن هذا لا يحولني عن يقيني ، ولا يجعلني أعبد الهيثم التي تعبدونها من دون الله (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) أعبد الله الذي يملك أجالكم وأعماركم . وإبراز هذه الصفة لله هنا له قيمته وله دلالته ، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم ، وانتهاء أجالهم إليه ، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التي لا تحيي ولا تميت (وأمرت أن أكون من المؤمنين) فأنا عند الأمر لا أتعدها . (وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكون من المشركين) وهنا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر ، كان الرسول ﷺ يتلقاه في مشهد حاضر للجميع . وهذا أقوى وأعمق تأثيرا (أقم وجهك للدين حنيفا) متوجها إليه خالصا له ، موقفا عليه (ولا تكون من المشركين) زيادة في توكيد معنى الاستقامة للدين ، ولمعنى أن يكون من المؤمنين ، عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك . فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوه المشركون لجلب النفع ودفع الضر . فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحابي وعدله لا يلين (وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم) فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه ، والخير كذلك . فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة . وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه . فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية (وهو الغفور الرحيم) الذي يفض ما مضى متى وقعت التوبة ، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم . هذه خلاصة العقيدة كلها ، مما تضمنته السورة ، يكلف الرسول ﷺ أن يعلنهما للناس ، ويوجه إليه الخطاب بها كأنما على مشهد منهم . وهم هم المقصودون بها . إنما هو أسلوب من التوجيه الموحى المؤثر في النفوس . ويقف رسول الله ﷺ بها في وجه القوة والكثرة ، ووجه الرواسب الجاهلية ، ووجه التاريخ الموعل بالمشركين في الشرك يعلنها في قوة وفي صراحة وهو في عدد قليل من المؤمنين في مكة ، والقوة الظاهرة كلها للمشركين . ولكنها الدعوة وتكاليقها ، والحق وما ينبغي له من قوة ومن يقين ومن ثم يكون الإعلان الأخير للناس (قل: يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل) فهو الإعلان الأخير ، والكلمة الفاصلة ، والمفصلة الكاملة ، ولكل أن يختار لنفسه . فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها) وليس الرسول موكلا بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقا ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم ، وإلى قدر الله بهم في النهاية والختام خطاب إلى الرسول ﷺ باتباع ما أمر به ، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه (واتبع ما يوحى

إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة ، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق . .

سورة هود

مكية وآياتها 123

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي من أخرج الفترات وأشققها كما في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب - وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابتة ، واستهزاء المشركين به ، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله ﷺ من خديجة - رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ؛ وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقصى مداها ؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها . . وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية . . قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبي طالب - وكان له عضدا وحرزا في أمره ، ومنعة وناصر على قومه - وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا . قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، قال: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب ، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي . ورسول الله ﷺ يقول لها: " لا تبكي يا بنية ، فإن الله مانع أباك " قال: ويقول بين ذلك: " ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " . وقال المقرئ في إمتاع الأسماع: فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتها وسماه " عام الحزن " وقال: " ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حاميا له ولا ذابا عنه غيره . ففي هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها ، وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحمل طابع هذه الفترة ؛ وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها . وأثار هذه الفترة وجوها وظلالها واضحة في جو السورة وظلالها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله ﷺ والذين معه على الحق ؛ والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي . وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها في السورة في سمات عدة تشير إلى بعض منها:

فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله ، من لدن نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك ، والعبودية له وحده بلا منازع ؛ والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء ؛ وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة ؛ وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . . أما مضمون هذا الكتاب الأساسي فهو: (ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) . .

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولاً غير مسبوق . . لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنني لكم نذير مبين . إن لا تعبدوا إلا الله ، إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) . . (وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني ، أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . . ولا تتولوا مجرمين) وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب) (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا

الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ)

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة . .

ومن ذلك عرض مواقف الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وهم يتلقون الإعراض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ، وفي نصر الله الذي لا شك أت ؛ ثم تصديق العواقب في الدنيا - وفي الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم ، بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين:

ففي قصة نوح نجد هذا المشهد: (فقال الملائ الذين كفروا من قومه: ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك) (اتبك إلا الذين هم أرادنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . قال: يا قوم أرايتم إن كنت علي بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنزل مكموها وأنتم لها كارهون ؛ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجري إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم . ولكني أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصروني من الله إن طردتهم ؛ أفلا تذكرون ؛ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول: إني ملك ، ولا أقول للذين تزددو أعينكم: لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما في أنفسهم ، إني إذن لمن الظالمين . قالوا: يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال: إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين) . ثم يجيء مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفي قصة هود نجد هذا المشهد (قالوا: يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول: إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . قال: إني أشهد الله ، وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ) . ثم تجيء العاقبة (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود !) .

وفي قصة صالح نجد هذا المشهد (قالوا: يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؛ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قال: يا قوم أرايتم إن كنت علي بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصروني من الله إن عصيته ؛ فما تزيدونني غير تخسير) . ثم تجيء العاقبة بعد غفر الناقة والتكذيب: فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعدا لثمود ! . .

وفي قصة شعيب نجد هذا المشهد (قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؛ إنك لأنك الحليم الرشيد ! قال: يا قوم أرايتم إن كنت علي بينة من ربي وورثني منه رزقا حسنا ؛ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقني أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود . قالوا: يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال: يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله وآتخذتموه وراءكم ظهريا ؛ إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا علي مكانتكم إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب . . ثم تجيء الخاتمة: (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود !) . .

ومن ذلك التعقيب علي هذا القصص بتوجيه رسول الله ﷺ إلى دلالاته: والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ؛ وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ؛ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم علي الحق الذي أرسلوا به . . وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته علي صدق دعواه في الوحي والرسالة .

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب (تلك من أبناء الغيب نوحيا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين)

وفي نهاية القصص الوارد في السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة (ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلّموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم الهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيي . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذهم شديد) (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ؛ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفيّنهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . قاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلّموا فتمسككم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون:اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فأعبده ، وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون)

وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي في التوجيه القرآني ؛ وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافيء للموقف ؛ وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ؛ ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها ، متوافيا مع أهدافها ، مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية .

فالآن نفصل هذه الإشارة المجملة:

فالقصاص فيها هو جسم السورة . وهو إن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها ؛ إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز .

لذلك نجد تركيب السورة يحتوي على ثلاثة قطاعات متميزة:

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة ويشغل حيزا محدودا .

والقطاع الثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ ويشغل معظم سياق السورة .

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة في حيز كذلك محدود . .

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق في تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التي يستهدفها سياق السورة كله ؛ وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق . وهي تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه

وهذه الحقائق الأساسية التي تستهدف السورة تقريرها هي:

أن ما جاء به النبي ﷺ وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله - سبحانه - وهي تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك . والتلقي في هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك . والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة:

ففي مقدمة السورة تجيء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله ﷺ (ألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير) (أم يقولون:اقترأه ؛ قل:أأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟) وفي قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ؛ وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ، إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) (ونادى نوح ربه فقال:رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال:يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنني

أعظك أن تكون من الجاهلين) (وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) (وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أشاكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) (قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير) (وإلى أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا) وفي التعقيب ترد هذه الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفصلة بين الناس على أساسها (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون) (ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فأعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون) وهكذا تلقتي قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة .

ولكي يدين الناس لله وحده بالربوبية ، فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه ، وتقرر كذلك أنهم في قبضته في هذه الدنيا ؛ وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير . . وتتوافق مقاطع السورة الثلاثة في تقرير هذه الحقيقة كذلك .

في المقدمة يجيء (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون)

وفي قصص الرسل تجيء أمثال هذه التعريفات (إنني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرهون شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ) . .

وفي التعقيب يجيء (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد) .

(وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير) .

وفي سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية في الضمائر ، وتثبيتها في النفوس ، وتعميقها في الكيان البشري ، وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية ، مكية للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات . . في سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفي هذا المستوى يحتوي سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التي تلمس أوتار الكيان البشري كلها في عمق واستجاشة ، وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها . . يحتوي الكثير من الترغيب والترهيب . الترغيب في خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعي الدينونة لله وحده بلا شريك ، وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء . . والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة ؛ وبالعذاب في الدنيا أو في الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعي ، ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم في الآخرة إلى جهنم ، التي يقودون لها أتباعهم في الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع في الدنيا ؛ ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى . وهذه نماذج من الترغيب والترهيب: (ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله . وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شيء قدير) من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون) (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ، فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار ، وبئس المورد . واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود !)

ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ ؛ من مصارع المكذابين ونجاة المؤمنين - على النحو الذي سبق في بعض المقتطفات - ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة ؛ ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه في ثنايا هذا المشهد الكوني الضريد (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه ، قال: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا: أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال: اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه - وكان في معزل - يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

قال: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ! قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقيين . وقيل: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء ، وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل: بعداً للقوم الظالمين . . الخ . . الخ . . الخ . .

ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ؛ فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب ، المتحدين للنذر في استهتار . . يرفع لهم صور أنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم ؛ وفي الحشرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ؛ وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ؛ وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد (ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن: ما يحبسنا ؛ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم . وحق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليتوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن: ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)

ويحتوي شيئاً من مشاهد القيامة ؛ وصور المكذبين فيها ؛ ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحية وتولوا عن رسله ؛ وما يحدونه يومئذ من خزي ؛ لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؛ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ؛ ألا لعنة الله على الظالمين ؛ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .)

ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه وإطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور ؛ بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه ، ولا علمه المحيط ؛ ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعاً ، وهم - الذين يكذبون - في قبضته كسائر الخلائق ؛ من حيث لا يشعرون (إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شيء قدير . ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليهم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين)

ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك ، استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام ، على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة ، في صراحة وفي صرامة ، وفي ثقة وطمأنينة ويقين . . وقد مر جانب من هذا الاستعراض في المقطعات السابقة ، وألبقية ستأتي في موضعها في تفسير السورة . ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام ، ووحدة الحقيقة التي يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ؛ ووحدة العبارات المحكية عنهم التي تتضمن هذه الحقيقة . . يحمل في طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإبهاء . .

وحسبنا في تقديم السورة هذه الإشارات المجملة حتى نلتقي بنصوص السورة مفصلة . .

. . والله المستعان . .

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير {1} {ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ} {2} {وإن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير} {3} {إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير} {4} {ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور} {5} {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين} {6} {وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين} {7} {ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسنا إلا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون} {8} {ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليتوس كفور} {9} {ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور} {10} {إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير} {11} {فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذيرٌ

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {12} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {13} فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {14} مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ {15} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {16} أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَجْزَابِ فَلِئَلَّامُ مَوْعِدِهِ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ {17} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ {18} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغِضُونَهَا عَوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {19} أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ {20} أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {21} لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ {22} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {23} مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {24}

هذا الدرس الأول من السورة يمثل المقدمة - التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب - وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية: توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والاعتقاد في البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب في دار العمل والابتلاء . . مع تعريف الناس بربهم الحق ؛ وصفاته المؤثرة في وجودهم وفي وجود الكون من حولهم ؛ وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاهما في حياة البشرية . وتوكيد الدينونة لله في الآخرة كالدينونة له سبحانه في الحياة الدنيا . كذلك تتضمن هذه المقدمة بياناً لطبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ كما تتضمن تسليمة وترويحاً للرسول ﷺ في وجه العناد والتكذيب ، والتحدي والمكابرة ، التي كان رسول الله ﷺ يواجهها في تلك الفترة العصيبة في حياة الدعوة بمكة ، كما أسلفنا في التعريف بالسورة . مع تحدي المشركين بهذا القرآن الذي يكذبون به ، أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات - كما يزعمون أن هذا القرآن مفترى - وتثبيت الرسول ﷺ و الفئة المؤمنة معه بهذا التحدي من الله وبذلك العجز من المشركين ! ومع هذا التحدي تهديد قاصم للمكذبين بما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الذي يستعجلون به ويكذبون . وهم الذين لا يطيقون أن تنزع منهم رحمة الله في الدنيا ، ولا يصبرون على ابتلائه فيها وهو أيسر من عذاب الآخرة ! ثم يجسم هذا التهديد في مشهد من مشاهد القيامة ؛ يتمثل فيه موقف المكذبين بهذا القرآن من أحزاب المشركين ؛ ويتبين فيه عجزهم وعجز أوليائهم عن إنقاذهم من العذاب الأليم ، المصحوب بالخزي والتشهير والتنديد والتأنيب . وفي الصفحة المقابلة من المشهد . . الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما ينتظرهم من الثواب والنعيم والتكريم . . ومشهد مصور للفريقين - على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؛ أفلا تذكرون ؟) . .

(أَلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم . وهو على كل شيء قدير . .)

إنها جملة الحقائق الاعتقادية الأساسية:

إثبات الوحي والرسالة .

العبودية لله وحده بلا شريك .

جزاء الله في الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة .

جزاء الله في الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله عصاة وطائعين .

قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

ألف . لام . راء :مبتداً ، خبره (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وهذا الكتاب المؤلف من مثل هذه الأحرف هو الذي يكذبون به . وهم عن شيء من مثله عاجزون ! كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء ، دقيقة الدلالة ، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة ، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب ، وكل إيحاء وكل إشارة ذات هدف معلوم . متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب ، ومنسقة ذات نظام واحد . ثم فصلت . فهي مقسمة وفق أغراضها ، مبوبة وفق موضوعاتها ، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه . أما من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله سبحانه ، وليس هو الرسول (من لدن حكيم خبير) يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة . . هكذا جاءت من لدنه ، على النحو الذي أنزل على الرسول ، لا تغيير فيها ولا تبديل . وما تضمنته من نذارة وبشارة (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فهي العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينونة (يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) . فهو الجزاء للتائبين المستغفرين (وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) فهو الوعيد للمتولين (إلى الله مرجعكم) فهي الرجعة إلى الله في الدنيا والآخرة (وهو على كل شيء قدير) فهي المقدر المطلق والسلطان الشامل . هذا هو الكتاب . أو هو آيات الكتاب . فهذه هي القضايا الهامة التي جاء ليقررها ويقم عليها بناءه كله بعد تقريرها . وما كان لدين أن يقوم في الأرض ، وأن يقيم نظاماً للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد . فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقاب الوهم والخرافة والسلطان الزائف ، أو استعبادها للآرباب المتفرقة ونزواتهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية - وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمة - فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة . وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ، يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة . وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقية التي أكرمهم بها الله ، إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمة ، ويتجرد منها العبيد في كل صورة من الصور . وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ، على ألوهية الله - سبحانه - للكون ؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية؛ إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ، الذي يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؛ لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويحاولونه في حياة الناس ، ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله ، ويجعلونهم عبيداً لهم من دون الله . وكانت الرسالات والرسول والدعوات الإسلامية تجاهد دائماً لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي . . الله سبحانه . . والله - سبحانه - غني عن العالمين . لا ينقص في ملكه شيئاً عصيان العصاة وظغيان الطغاة . ولا يزيد في ملكه شيئاً طاعة الطائعين وعبادة العابدين . . ولكن البشر - هم أنفسهم - الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ، ويتحررون من العبودية للعبيد . . ولما كان الله - سبحانه - يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة الله وحده . وليخرجوهم من عبادة العبيد . . لخيرهم هم أنفسهم . . والله غني عن العالمين . إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله . ذلك النير المنزل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان !

والدينونة لله وحده تتمثل في ربوبيته للناس وحده . والربوبية تعني القوامة على البشر ، وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله ، لا من عند أحد سواه . وهذا ما يقرر مطلع هذه السورة الكريمة أنه موضوع كتاب الله وفحواه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير: ألا تعبدوا إلا الله) وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب في لغتهم التي نزل بها كتاب الله الكريم . والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه ، وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة . والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب ، والأخذ في مقابله في أعمال الطاعة . ولا توبة بغير هذين الدليلين ، فهما الترجمة العملية للتوبة ، وبهما يتحقق وجودها الفعلي ، الذي ترجى معه المغفرة والقبول . . فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل في الإسلام ، بينما هو لا يدين لله وحده ، ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه ؛ فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكذبه واقع الدينونة لغير الله . . والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة ، وقوام التبليغ . وهما عنصرا الترغيب والترهيب ، اللذان علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق ؛ ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة ، بعد توحيد الدينونة لله ، وإثبات الرسالة من عنده . . الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة . . وهما بدء الطريق للعمل الصالح . والعمل الصالح ليس مجرد طيبة

في النفس وشعائر مفروضة تقام . إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح ، من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج . والجزاء المشروط (يمتنعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله) والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا . أما في الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر . فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة (ويؤت كل ذي فضل فضله) خصصها بعض المفسرين بجزء الآخرة . وأرى أنها عامة في الدنيا والآخرة ، على النحو الذي فسرنا به المتاع الحسن في الدنيا ؛ وهو متحقق في جميع الأحوال . وذو الفضل يلقي جزاءه في اللحظة التي يبذل فيها الفضل . يجده رضى نفسيا وارتياحا شعوريا ، واتصالا بالله وهو يبذل الفضل عملا أو مالا متجها به إلى الله . أما جزاء الله له بعد ذلك فهو فضل من الله وسماحة فوق الجزاء (وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو عذاب يوم القيامة . لا عذاب يوم بدر كما يقول بعض المفسرين . فاليوم الكبير حين يطلق هكذا ينصرف إلى اليوم الموعود . ويقوي هذا ما بعده (إلى الله مرجعكم) وإن كان المرجع إلى الله في الدنيا والآخرة وفي كل لحظة وفي كل حالة . ولكن جرى التعبير القرآني على أن المرجع هو الرجعة بعد الحياة الدنيا (وهو على كل شيء قدير) وهذه كذلك تقوي هذا المعنى ، لأن التلويح بالقدرة على كل شيء ، مناسب للبعث الذي كانوا يستبعدونه ويستصعبونه ! وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . . يمضي السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات ، عندما يقدمها لهم النذير البشير ، ويصور الوضع الحسي الذي يتخونه والحركة المادية المصاحبة له وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتخفي . ويكشف عن العتب في تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم في أخفى أوضاعهم ؛ وكل دابة في الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليهم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها . كل في كتاب مبين) والآيات الكريمتان تستحضران مشهدا فريدا ترجف له القلوب حين تتدبره وتتصوره ! ويا لها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله - سبحانه - وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه عليهم بذات الصدور) ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله ﷺ بسمعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويغطون رؤوسهم استخفاء من الله الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام . . وذلك كما ظهر منهم في بعض الأحيان ! ولا يكمل السياق الآية حتى يبين عتب هذه الحركة ، والله ، الذي أنزل هذه الآيات ، معهم حين يستخفون وحين يبرزون . ويصور هذا المعنى - على الطريقة القرآنية - في صورة مرهوبة ، وهم في وضع خفي دقيق من أوضاعهم . حين يآوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، واللبل لهم ساتر ، وأعطيتهم لهم ساتر . ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر . يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) . والله يعلم ما هو أخفى . وليست أعطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد . فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أنه ليس هناك من عين تراه ! (إنه عليهم بذات الصدور) عليهم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تقارفها ، والتي تلزمها كما يلزم صاحب صاحبه ، أو المالك ملكه . . فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور . ومع ذلك فالله بها عليهم . . وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكون تذهب أو تضيع (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ؛ كل في كتاب مبين) وهذه صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب . . هذه الدواب - وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة . ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة ، وتكمن في باطنها ، وتخفى في دروبها ومسارها . ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء . . إلا وعند الله علمها . وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن . من أين تجيء وأين تذهب . . وكل منها . كل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق . إنها صورة مفصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق . ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصوره الخيال . وهذه درجة أخرى ، الخيال البشري عنها أعجز إلا بالهام من الله . . وقد أوجب الله - سبحانه - على نفسه مختارا أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يبب على هذه الأرض . فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعا ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره . سادجا خامة ، أو منتجا بالزرع ، أو مصنوعا ، أو مركبا . . إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده . حتى إن بعضها ليتناول رزقه دما حيا مهضوما ممثلا كالبعوضة والبرغوث ! ! وليس المقصود أن هناك رزقا فرديا مقدر لا يأتي بالسعي ، ولا يتأخر بالقعود ، ولا يضيع بالسلبية والكسل ، كما يعتقد بعض الناس ! وإلا فإين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها ، وجعلها جزءا من نواميسه ؟ وأين حكمة إن لكل مخلوق رزقا . هذا حق . وهذا الرزق مذخور في هذا الكون . مقدر من الله في

سنه التي ترتب النتائج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعي وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات . حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التي لا تحابي أحدا ، ولا تتخلف أو تحيد . إنما هو كسب طيب وكسب خبيث ، وكلاهما يحصل من عمل وجهد . إلا أنه يختلف في النوع والوصف . وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذلك . ولا تنسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا ؛ وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول . والسياق القرآني المحكم المتناسق لا تفوته هذه اللفظات الأسلوبية والموضوعية ، التي تشارك في رسم الجو في السياق ثم يمضي السياق في تعريف البشر بربهم ، وإطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار أو أماد محكمة ؛ لحكمة كذلك خاصة . يبرز منها السياق هنا ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليلوكم أيكم أحسن عملا . ولئن قلت: إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين) وخلق السماوات والأرض في ستة أيام تحدثنا عنه في سورة يونس . . وهو يساق هنا للربط بين النظام الذي يقوم عليه الكون والنظام الذي تقوم عليه حياة الناس (ليلوكم أيكم أحسن عملا) والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة: (وكان عرشه على الماء) وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي أنتهيا إليه كان هناك الماء ؛ وكان عرش الله سبحانه على الماء . . أما كيف كان هذا الماء ، وأين كان ، وفي أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء . . فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئا على مدلول النص ، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده . وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقا من النظريات التي تسمى "العلمية" - حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق - فالنظريات "العلمية" قابلة دائما للانقلاب رأسا على عقب ، كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد ، وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى . والنص القرآني صادق بذاته ، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها أم لم يهتد . وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية . فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة - وإن كانت دائما احتمالية وليست قطعية - أما النظرية العلمية فهي قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر ، وهي قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب . . ومن ثم لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هي على القرآن ، فلها طريق غير طريق القرآن . ومجال غير مجال القرآن . وتلمس موافقات من النظريات "العلمية" للنصوص القرآنية هو هزيمة لجذبة الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه ، وأنه من لدن حكيم خبير . هزيمة ناشئة من الفتنة "بالعلم" وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعي الذي لا يصدق ولا يوثق به إلا في دائرته . فلينتهبه إلى ديبب الهزيمة في نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على "العلم" يخدم القرآن ويخدم العقيدة ، ويثبت الإيمان ! إن الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم البشري المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه ! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء . أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن . وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجاربه ، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة ، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة . كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم ، وأن يتحرر ، وأن يعيش في سلام ونشاط . . ثم تركه بعد ذلك يعمل في دائرته الخاصة . ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه . ولم يتعرض لذكر شيء من الحقائق العلمية إلا نادرا . مثل أن الماء أصل الحياة والعنصر المشترك في جميع الأحياء . ومثل أن جميع الأحياء أزواج حتى النباتات الذي يلحق من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث . . وأمثال هذه الحقائق . التي صرحت بها النصوص القرآنية .

(وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام - وكان عرشه على الماء - ليلوكم أيكم أحسن عملا) خلق السماوات والأرض في ستة أيام . . وهنا فقرات كثيرة محذوفة يشير إليها ما بعدها فيغني عنها . . خلقها في هذا الأمد ؛ لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشري ، وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السماوات . . وهو سبحانه مسيطر على الكون كله . . (ليلوكم أيكم أحسن عملا) . . والسياق يظهر كأن خلق السماوات والأرض في ستة أيام - مع سيطرة الله سبحانه على مقاليد - كان من أجل ابتلاء الإنسان . ليعظم هذا الابتلاء ويشعر الناس بأهميتهم وبعديتهم وابتلائهم . ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة في تكوين هذا الوجود ، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاخرون (ولئن قلت: إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين) . . فما أعجبها قولة ، وما أغربها ، وما أكذبها في ظل هذا البيان الذي تقدمها ! و استعجال الكفار العذاب شأنهم في التكذيب بالبعث ، وجهلهم بإرتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم في مسألة العذاب الدنيوي ، فهم يستعجلونه وينسألون عن سبب تأخيرها ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت (ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن: ما يحبسها ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحق بهم ما كانوا به

يستهوون) لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها ، بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التي يطلّبونها ثم يمضون هم في التكذيب . ذلك أنها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس ، ولجيل واحد من هذه الأمة . والمعجزة كذلك لا يشهدها إلا هذا الجيل ، ولا تبقى لتشاهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن الجيل الذي شهدها أول مرة . فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات ، ولجميع الأقسام وجميع الأجيال ، وكانت المعجزة التي صاحبها معجزة غير مادية ، فهي قابلة للبقاء ، قابلة لأن تتدبرها أجيال وأجيال ، وتؤمن بها أجيال وأجيال ، ومن ثم اقتضت الحكمة ألا تؤخذ هذه الأمة بعذاب الاستئصال . وأن يقع العذاب على أفراد منها في وقت معلوم . . . وكذلك كان الحال في الأمم الكتابية قبلها من اليهود والنصارى ، فلم يعم فيهم عذاب الاستئصال (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة . وإذا ما أبطأ فهي حكمة ورحمة . ليؤمن من يتهاى للإيمان . وفي فترة التأجيل التي صرف الله العذاب فيها عن مشركي قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء . وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد في الإسلام . . . وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن . ولكن البشر القاصرين العجولين لا يعلمون . وبمناسبة استعجال العذاب يحول السياق جولة في نفس هذا المخلوق الإنساني العجيب ، الذي لا يثبت ولا يستقيم إلا بالإيمان (ولئن أدقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أدقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن: ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظته الحاضرة ، ويطغى عليه ما يلبسه ؛ فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي . فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له . وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه ؛ ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً (إلا الذين صبروا) صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، فإن كثيرا من الناس يصبرون على الشدة تحلدا وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور ، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر (وعملوا الصالحات) في الحالين . في الشدة بالاحتمال والصبر ، وفي النعمة بالشكر والبر (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) بما صبروا على الضراء وبما شكروا في السراء . إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة ؛ كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء . وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ؛ ويربطه بالله في حاله ، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء . ولا ينتفج ويتعالى عندما تغمره النعماء . . . وكلا حالى المؤمن خير . وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله ﷺ . (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) ولعل هنا تحمل معنى الاستفهام . وهو ليس استفهاما خالصا ، إنما يتلبس به أن المتوقع من النفس البشرية أن تضيق صدرا بهذا الجهل ، وبهذا التعنت ، وبهذه الاقتراحات السخيفة التي تكشف عن بعد كامل عن إدراك طبيعة الرسالة ووظيفتها . فهل سيضيق صدرك - يا محمد - وهل سيحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبغله لهم ، كي لا يقابلوه بما اعتادوا أن يقابلوا به نظائره فيما أخبرتهم من قبل ؛ كلا . لن تترك بعض ما يوحى إليك ولن يضيّق به صدرك من قولهم هذا (إنما أنت نذير) فواجبك كله أن تنذرهم - وأبرز صفة النذير هنا لأن المقام يستوجبها مع أمثال هؤلاء - فأد واجبك: (والله على كل شيء وكيل) . فهو الموكل بهم ، بصرفهم كيف يشاء وفق سنته ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون . ولست أنت موكلا بكفرهم أو إيمانهم . إنما أنت نذير . وهذه الآية تشي بجو تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة ؛ وما كان يعتور صدر رسول الله ﷺ من الضيق . كما تشي بنقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة ، في الوقت الذي هلك فيه العشير والنصير ؛ وغمرت الوحشة قلب رسول الله ﷺ وغشى الكرب على قلوب المؤمنين القلائل في هذه الجاهلية المحيطة . ومن بين كلمات الآية نحس جوا مكروبا تنزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة ، وتسكب فيه الطمأنينة ، وتريح الأعصاب والقلوب ! وقولة أخرى يقولونها . وقد قالوها مرارا: إن هذا القرآن مفترى . فتحدهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء (أم يقولون افتراء ؟ قل: فاتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة في سورة يونس ، فما التحدي بعد ذلك بعشر سور ؟ قال المفسرون القدماء: إن التحدي كان على الترتيب: بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور . وحقيقة إن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور . فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبت . وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز . ولقد حاول السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة ، فأجهد نفسه طويلا - رحمة الله عليه - ليقول: إن المقصود بالتحدي هنا هو

القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرة . فتحدهم بعشر . . لأن تحديدهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديدهم بعشر نظرا لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكمة إن كان سيحاكي . . الخ ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة . فيقول مرة: انتوا بمثل هذا القرآن . أو انتوا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيب زمني . لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابس التي لم يذكرها لنا القرآن (وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ادعوا شركاءكم وفصحاءكم وبلغاءكم وشعراءكم وجنكم وإنسكم . وأتوا بعشر سور فقط مفتريات ، إن كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله ! (فإن لم يستجيبوا لكم) ولم يقدروا على افتراء عشر سور ، لأنهم عاجزون عن أن يقدموا لكم عوناً في هذه المهمة المتعذرة ! وعجزتم أنتم بطبيعة الحال ، لأنكم لم تدعوهم لتستعينوا بهم إلا بعد عجزكم ! (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) فهو وحده القادر على أن ينزله ، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا النحو الذي نزل به ، متضمنا ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم في نفوسهم وفي معاشهم . . . وأن لا إله إلا هو . . فهذا مستفاد كذلك من عجز الهتك عن تلييتكم في تأليف عشر سور كالتي أنزلها الله . فلا بد أن يكون هناك إله واحد هو القادر وحده على تنزيل هذا القرآن . ويعقب على هذا التقرير الذي لا مفر من الإقرار به سؤال لا يحتمل إلا جوابا واحدا عند غير المكابرين المتعنتين . سؤال (فهل أنتم مسلمون ؟) بعد هذا التحدي والعجز ودلالته التي لا سبيل إلى مواجهتها بغير التسليم ، ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون !!! لقد كان الحق واضحا ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ، وتعبيد للناس كي لا يستجيبوا لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة . . داعي لا إله إلا الله . . لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم فيقول (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون)

إن للجهد في هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقي نتيجة عمله في هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد - في أجل محدود - ولكن ليس له في الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئا ، ولم يحسب لها حسابا ، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا . ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط [من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض] وهي صورة مناسبة للعمل المنفخ المتورم في الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك ! ونحن نشهد في هذه الأرض أفرادا اليوم وشعوبا وأمما تعمل لهذه الدنيا ، وتنال جزاءها فيها . ولدنياها زينة ، ولدنياها انتفاخ ! فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل: لماذا ؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه - ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع - فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئا ، وينالوا كذلك متاع الحياة الآخرة . بعد ذلك يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله ﷺ وما جاء من الحق ؛ وإلى هذا القرآن الذي يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛ كما يشهد له كتاب موسى من قبله . يلتفت السياق إلى هذا الحشد من الأدلة المحيطة بالنبي ﷺ وبدعوته ورسالته . ذلك ليثبت بهذه الالتفاتة قلب رسول الله ﷺ والقللة المؤمنة معه . ثم ليوعد الذين يكفرون به من أحزاب المشركين بالنار ؛ وليعرضهم في مشهد من مشاهد العذاب يوم القيامة يجلله الخزي والعار جزاء العتو والاستكبار ؛ وليقرر أن هؤلاء المتبجحين بالباطل ، المعاندين في الحق أعجز من أن يفلتوا من عذاب الله ؛ وأعجز من أن يجدوا لهم من دون الله أولياء . (لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) . . وليعقد بينهم وبين المؤمنين موازنة في صورة حسية مشهودة ؛ تصور الفارق البعيد بين الفريقين في طبيعتهم ، وفي موقفهما وحالهما في الدنيا وفي الآخرة سواء (أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؛ أولئك يعرضون على ربهم ؛ ويقولوا الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ،

يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون) (إن طول هذه الجملة ، وتنوع الإشارات والإيحاءات فيها ، وتنوع اللفظات والإيقاعات أيضا . . إن هذا كله يشي بما كانت تواجهه القلة المؤمنة ، في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة ؛ ويصور لنا حاجة الموقف إلى هذه المعركة التقريرية الإيحاءية ؛ كما يصور لنا طبيعة هذا القرآن الحركية ؛ وهو يواجه ذلك الواقع ويجاهده جهادا كبيرا (أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) وفي قوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) وفي عائد هذه الضمائر (في ربه) وفي (يتلوه) وفي (منه) . . وأرجحها - كما يبدو لي - هو أن المقصود بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) هو رسول الله ﷺ وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به - وأن المقصود بقوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته . وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر . (ومن قبله) - أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن ؛ " كتاب موسى " يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ سواء بما تضمنه من البشارة به ؛ أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده . والذي يرجح هذا عندي هو وحدة التعبير القرآني في السورة - في تصوير ما بين الرسل الكرام وربهم ، من بينة يجدونها في أنفسهم ، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحى إليهم ، ويجدون بها ربهم في قلوبهم وجودا مستيقنا واضحا لا يخالجهم معه شك ولا ريب . فنوح - عليه السلام - يقول لقومه: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؛ . . وصالح عليه السلام يقول الكلمة ذاتها (يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير) وشعيب عليه السلام يقولها كذلك (قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، ورزقني منه رزقا) فهو تعبير موحد عن حال واحدة للرسل الكرام مع ربهم ، تصور حقيقة ما يجدونه في أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية في نفوسهم ؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحي أيضا . . وهذا التوحيد في التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصدا في سياق السورة - كما أسلفنا في التعريف بها - لإثبات أن شأن النبي ﷺ مع ربه ومع الوحي الذي تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله ؛ مما يبطل دعاوى المشركين المفتراة عليه ﷺ وكذلك لتبنيته هو والقلة المؤمنة معه على الحق الذي معهم ؛ فهو الحق الواحد الذي جاء به الرسل جميعا ، والذي أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعا . ويكون المعنى الكلي للآية: أفهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه وبقينه . . حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه - أو يتبع يقينه هذا - شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذي جاء إماما لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو يصدق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدق بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله . . يقول: أفمن كان هذا شأنه يكون موضعا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناونه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لامر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات . . ثم يعرض مواقف الذين يؤمنون بهذا القرآن والذين يكفرون به من الأحزاب ، وما ينتظر هؤلاء من جزاء في الآخرة . ويعرج على تثبيت الرسول ﷺ والذين يؤمنون بما معه من الحق ؛ فلا يقلقهم شأن المكذبين الكافرين ، وهم كثرة الناس في ذلك الحين: (أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) وقد وجد بعض المفسرين إشكالا في قوله تعالى (أولئك يؤمنون به) إذا كان المقصود بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) هو شخص رسول الله ﷺ كما أسلفنا . . فإن أولئك " تعني جماعة يؤمنون بهذا الوحي وبتلك البينة . . ولا إشكال هناك . فالضمير في قوله تعالى (أولئك يؤمنون به) يعود على " شاهد " وهو القرآن . وكذلك الضمير في قوله تعالى (ومن قبله) فإنه يعود على القرآن كما أسلفنا . . فلا إشكال في أن يقول (أولئك يؤمنون به) أي بهذا الشاهد أي بهذا القرآن - والرسول ﷺ هو أول من آمن بما أنزل إليه ، ثم تبعه المؤمنون: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . .) كما جاء في آية البقرة . . والآية هنا تشير إلى رسول الله ﷺ وتدمج معه المؤمنين الذين آمنوا بما آمن به هو وبلغهم آياه . . وهو أمر مألوف في التعبير القرآني ، ولا إشكال فيه . (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وهو موعده لا يخلف ، والله سبحانه هو الذي قدره وديره ! (فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) . . وما شك رسول الله ﷺ فيما أوحى إليه ، ولا امتري - وهو على بينة من ربه - ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشي بما كان يخالف نفس رسول

الله ﷻ من ضيق وتعيب ووحشة من جراء تجرد الدعوة وكثرة المعاندين ، تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت . وكذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب يحتاج إلى برد اليقين ينزل عليهم من ربهم الرحيم . وما أحوج طلائع البعث الإسلامي ؛ وهي تواجه مثل تلك الحال في كل مكان ؛ ويتأزر عليها الصد والإعراض ، والسخرية والاستهزاء ، والتعذيب والإيذاء ؛ والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية ؛ وتتضافر عليها كل قوى الجاهلية في الأرض من محلية وعالمية ؛ وتسلط عليها أشع ألوان الحرب وأنكدها ؛ ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها هذه الحرب ومن يطاردونها هذه المطاردة . . . ما أحوج هذه الطلائع إلى تدبير هذه الآية بكل فقرة فيها ، وبكل إشارة ، وبكل لمحة فيها وكل إيماء ؛ ما أحوجها إلى اليقين الذي يحمله التوكيد الرباني الحكيم وما أحوجها إلى أن تجد في نفوسها ظلالة لما كان يجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه من بينة من ربهم ، ومن رحمة لا يخطئونها ولا يشكون فيها لحظة ؛ ومن التزام بالمضي في الطريق مهما تكن عقبات الطريق:

ثم يمضي السياق يواجه الذين يكفرون به ؛ ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله سبحانه وعلى رسوله ﷺ وذلك في مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الكذب . سواء بقولهم: إن الله لم ينزل هذا الكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله . أو بدعواهم في الربوبية الأرضية وهي من خصائص الألوهية . . . يجمل النص هنا الإشارة لتشمل كل ما يوصف بأنه كذب على الله . هؤلاء يعرضون في مشهد يوم القيامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد . وفي الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وما ينتظرهم من نعيم . ويضرب للفریقین مثلاً: الأعمى والأصم والبصير والسميع (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؛ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون ، لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفریقین كالأعمى والبصير والسميع . هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟) . إن افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء ، وظلم للحقيقة ولمن يفترى عليه الكذب . فما بال حين يكون هذا الافتراء على الله ؟ (أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) إنه التشهير والتشنيع . بالإشارة (هؤلاء) (هؤلاء الذين كذبوا) وعلى من ؟ (على ربهم) لا على أحد آخر ! إن جو الفضيحة هو الذي يرتسم في هذا المشهد ، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة (ألا لعنة الله على الظالمين) يقولها الأشهاد كذلك . والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون ، أو هم الناس أجمعون . فهو الخزي والتشهير - إذن - في ساحة العرض الحاشدة ! أو هو قرار الله سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رؤوس الأشهاد (ألا لعنة الله على الظالمين) والظالمون هم المشركون . وهم الذين يفترون الكذب على ربهم ليلصقوا عن سبيل الله (ويبغونها عوجاً) فلا يريدون الاستقامة ولا الخطة المستقيمة ، إنما يريدونها عوجاً والتواء وانحرافاً . يريدون الطريق أو يريدون الحياة أو يريدون الأمور . . . كلها بمعنى . . . (وهم بالآخرة هم كافرون) ويكرر (هم) مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها في مقام التشهير . والذين يشركون بالله - سبحانه - وهم الظالمون - إنما يريدون الحياة كلها عوجاً حين يعللون عن استقامة الإسلام . وما تنتج الدينونة لغير الله - سبحانه - إلا العوج في كل جانب من جوانب النفس ، وفي كل جانب من جوانب الحياة . (أولئك) البعداء المبعدون الملعونون (لم يكونوا معجزين في الأرض) فلم يكن أمرهم معجزاً لله ، ولو شاء لأخذهم بالعذاب في الدنيا (وما كان لهم من دون الله من أولياء) ينصرونهم أو يمعنونهم من الله . إنما تركهم لعذاب الآخرة ، ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة (يضاعف لهم العذاب) فقد عاشوا معطلي المدارك مغلقی البصائر ؛ كان لم يكن لهم سمع ولا بصر (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) (أولئك الذين خسروا أنفسهم) وهي أفدح الخسارة ، فالذي يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها وأولئك خسروا أنفسهم فاضاعوها في الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الأدمية التي تتمثل في الارتقاء عن الدينونة لغير الله من العبيد . كما تتمثل في الارتقاء عن الحياة الدنيا والتطلع - مع المتاع بها - إلى ما هو أرقى وأسمى . وذلك حين كفروا بالآخرة ، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه . وخسروا أنفسهم في الآخرة بهذا الخزي الذي ينالهم ، وبهذا العذاب الذي ينتظرهم (وذل عنهم ما كانوا يفترون) غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله . فقد تبدد وذهب وضاع (لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون) الذين لا تعدل خسارتهم خسارة . وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى . وفي الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) والإخبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم . . وهي تصور حال المؤمن مع ربه ، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به ، وهدوء نفسه وسكون قلبه ، وأمنه واستقراره

ورضاه (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟) صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يري وكالأصم لا يسمع - والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها ، وهي أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكانما هو محروم من تلك الجوارح والحواس - والفريق الثاني كالبصير يرى وكالسميع يسمع ، فيهدية بصره وسمعه (هل يستويان مثلا ؟) سؤال بعد الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررة (أفلا تذكرون) فالقضية في وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكير . فهي بديهية لا تقتضي التفكير . وتلك وظيفة التصوير الذي يغلب في الأسلوب القرآني في التعبير . أن ينقل القضايا التي تحتاج لجدل فكري إلى بديهيات مقررة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {25} أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ {26} فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ الْأَيِّ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ {27} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَإِنِّي أَخَافُ أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ {28} وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِضَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ {29} وَيَا قَوْمِ مِن يَبْصُرِنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {30} وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزَايِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي عَيْنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ {31} قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ {32} قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ {33} وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ إِنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {34} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرَمُونَ {35} وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدِ آمَنَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ {36} وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ يَا عَيْنُنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ {37} وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنِّي نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ {38} فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ {39} حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثِنٍ وَأَهْلِكْ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ {40} وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ {41} وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ {42} قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ {43} وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضِ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {44} وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ {45} قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {46} قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ {47} قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ {48} تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ {49}

القصص في هذه السورة هو قوامها ؛ ولكنه لم يجيء فيها مستقلا ، إنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها . والقصص هنا مفصل بعض الشيء - وبخاصة قصة نوح والطوفان - وهو يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة ، والتي يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون ، وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ . ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بابراهيم في الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى . . ويشير إلى الخط التاريخي ، لأنه يذكر التاليين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب ، ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص في السياق . وأوله في التاريخ (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . إنني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد ﷺ والتي تضمنتها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وهذه المقاربة في الألفاظ

التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة ، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها . وذلك مع تقدير أن المحكي هنا هو معنى ما قاله نوح - عليه السلام - لا ألفاظه . وهو الأرجح . فنحن لا ندرى بأية لغة كان نوح يعبر (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه:إني لكم نذير مبين) ولم يقل قال:إني . . . لأن التعبير القرآني يحيي المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية . وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع . هنا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة (إني لكم نذير مبين) وهو أقوى في تحديد هدف الرسالة وإبرازه في وجدان السامعين . ومرة أخرى يبلور مضمون الرسالة في حقيقة جديدة (ألا تعبدوا إلا الله) فهذا هو قوام الرسالة ، وقوام الإنذار . ولماذا ؟ (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار ، في هذه الكلمات القصار واليوم ليس اليماً . إنما هو مؤلم . والأليم - اسم مفعول أصله مالوم ! - إنما هم المألومون في ذلك اليوم . ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا ، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم ، شاعر به ، فما بال من فيه ؟ (فقال الملأ الذين كفروا من قومه:ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) ذلك رد العلية المتكبرين . . الملأ . . كبار القوم المتصدين . . وهو يكاد يكون رد الملأ من قريش:ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا - بادي الرأي - وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . الشبهات ذاتها ، والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاتها ، والاستقبال الغبي الجاهل المتعافي ! إنها الشبهة التي وقعت في نفوس جهال البشر:أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله ؛ فإن تكن رسالة فيلحملها ملك أو مخلوق آخر . وهي شبهه جاهلة ، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه ، وهي وظيفة خطيرة ضخمة ، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهياون لحمل الرسالة ، باختيار الله لهم ، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه . وشبهة أخرى جاهلة كذلك . هي أنه إذا كان الله يختار رسولا ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم ، المتسلطين العالين ، وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني ، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين من صفوفه . وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض ، إنما هي في صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها . . . إلى آخر صفات النبوة الكريمة . . وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء ! ولكن الملأ من قوم نوح ، كالملا من قوم كل نبي تعميمهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلية ، فلا يدركون مبررا لاختصاص الرسل بالرسالة . وهي في زعمهم لا تكون لبشر . فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض ! (ما نراك إلا بشرا مثلنا) هذه واحدة . . أما الأخرى فادهى (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادي الرأي)!! وهم يسمون الفقراء من الناس (أراذل) كما ينظر الكبراء دائما إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان ! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا ؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء ، وتصل القلوب بالله واحد قاهر عال علي الأعلياء . ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ؛ ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لعفلة الجماهير واستغاباها للخرافات الوثنية في شتى صورها . وأول صور الوثنية الديونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك . فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض . ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائما ، ويصدون عنها الجماهير ؛ ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتفسير (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) أي دون ترو ولا تفكير . . وهذه تهمة كذلك توجه دائما من الملأ العالين لجموع المؤمنين . . أنها لا تتروى ولا تفكر في اتباع الدعوات . ومن ثم فهي متهمة في اتباعها واندفاعها ، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها ، ولا أن يسلكوا طريقها . فإذا كان الأراذل يؤمنون ، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل ؛ ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون ! (وما نرى لكم علينا من فضل) يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل ! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان ما معكم خيرا وصوابا لاهدتينا إليه ، ولم تسبقونا أنتم إليه ! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطيء الذي تحدثنا عنه . قياس الفضل بالمال ، والفهم بالجاه ، والمعرفة بالسلطان . . فذو المال أفضل . وذو الجاه أفهم . وذو السلطان أعرف !!! هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها ، فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية ، وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة . وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب . وهي انتكاسة للبشرية من غير شك ، لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنسانا ، واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية ! (بل نظنكم كاذبين) وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول واتباعه . ولكنهم على طريقة طبقتهم . . "الارستقراطية" . . يلقونها في أسلوب

التحفظ اللائق "بالأرستقراط ! " (بل نظنكم) ! لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة - بادي الرأي - التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون ! إنه النموذج المتكرر من عهد نوح ، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب ، المتعاطمة المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ !! ويتلقى نوح - عليه السلام - الاتهام والإعراض والاستكبار ، في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به ، واطمئنائه إلى ربه الذي أرسله ؛ وفي وضوح طريقة أمامه واستقامة منهجه في شعوره . فلا يشتم كما شتموا ، ولا يتهم كما اتهموا ، ولا يدعي كما ادعوا ، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرا غير حقيقته ولا على رسالته شيئا غير طبيعتها (قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم . أنزل مكموها وأنتم لها كارهون ؟) . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرين إلا على الله ، وما أن بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم: عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول: إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم: لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما في أنفسهم ، إني إذن لمن الظالمين) (يا قوم) في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم . إنكم تعترضون فتقولون (ما نراك إلا بشرا مثلنا) . فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربي ، بين في نفسي مستيقن في شعوري . وهي خاصية لم توهبوا . وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة ، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة - وهذه رحمة ولا شك عظيمة - مارأيكم رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية ، لأنكم غير متهيئين لإدراكها ، وغير مفتوحين البصائر لرؤيتها (أنزل مكموها ؟) . إنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن الزمكم الإذعان لها والإيمان بها (وأنتم لها كارهون) ! وهكذا يتلطف نوح في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم ، والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها: ويصرهم بأن الأمر ليس موكولا إلى الظواهر السطحية التي يقبسون بها . وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم . مبدأ الاختيار في العقيدة ، والافتناع بالنظر والتبدر ، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء ! (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرين إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوما تجهلون) يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فأمنوا ، وليس لي عند الناس إلا أن يؤمنوا . إني لا أطلب مالا على الدعوة ، حتى أكون حزيا بالأثرياء غير حفي بالفقراء ؛ فالناس كلهم عندي سواء . . . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء) إن أجرين إلا على الله) عليه وحده دون سواه (وما أنا بطارد الذين آمنوا) ونفهم من هذا الرد أنهم طلبوا أو لوجوا له بطردهم من حوله ، حتى يفكروا هم في الإيمان به ، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالإراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد ! - لست بطاردهم ، فهذا لا يكون مني . لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لي إنهم ملاقوا ربهم . . . (ولكني أراكم قوما تجهلون) تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله . وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله (ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم . أفلا تذكرون ؟) فهناك الله . رب الفقراء والأغنياء . رب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقوم الناس بقيم أخرى . ويزنهم بميزان واحد . هو الإيمان . فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته . من يعصمني من الله إن أنا أخللت بموازينه ، وبغيت على المؤمنين من عباده - وهم أكرم عليه - وأقررت القيم الأرضية الزائفة التي أرسلني الله لأعدلها لا لأتبعها ؟ (أفلا تذكرون ؟) . . . وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة ؟ ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة . يقدمها لهم في معرض التذكير ، ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية ، بتخليه عنها ، وتجرده منها . فمن شاء الرسالة كما هي ، بقيمها ، بدون زخرف ، بدون ادعاء ، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله (ولا أقول لكم عندي خزائن الله . .) فادعي الثراء أو القدرة على الإثراء (ولا أعلم الغيب) فادعي قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة (ولا أقول: إني ملك) فادعي صفة أعلى من صفة الإنسانية في ظنكم لارتفع في أعينكم ، وأفضل نفسي بذاتي عليكم (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا) إرضاء لكبريائكم ، أو مسأيرة لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية (الله أعلم بما في أنفسهم) فليس لي إلا ظاهرهم ، وظاهرهم يدعو إلى التكريم ، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيرا (إني إذن لمن الظالمين) إن ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوي . الظالمين للحق وقد جئت أبلاغه ؛ والظالمين لنفسي فأعرضها لغضب الله ؛ والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله - ولا يفسر الظلم بالشرك في كل الحالات - وهكذا ينفي نوح - عليه السلام - عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة . ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية . ويردهم في نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليوأجوها ، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها . بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة . فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعا ، نموذجا للداعية ، ودرسا في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالة لهم ، مع المؤدة التي لا تنحني معها الرؤوس ! وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يسوا من مناهضة الحجة بالحجة ؛ فإذا هم - على عادة طبقتهم - قد

أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، وأن يدعنوا للبرهان العقلي والفطري . وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي: (قالوا: يا نوح قد جادلتنا ، فأكثر جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) إنه العجز يلبس ثوب القدرة ، والضعف يرتدي رداء القوة ؛ والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك ، ولسنا نبالي وعيدك . أما نوح فلا يخرج هذا التكذيب والتحدي عن سمات النبي الكريم ، ولا يقعه عن بيان الحق لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجعلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم ، وردهم إلى هذه الحقيقة وهي أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله ، وسنته هي التي تنفذ . . وما يملك هو أن يردها أو يحولها . . إنه رسول . وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة ، فلا يقعه عن إبلاغه وبيانه أن القوم بكذبونه ويتحدونه (قال: إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي - إن أردت أن أنصح لكم - إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون) فإذا كانت سنة الله تقتضي أن تهلكوا بغوايتكم ، فإن هذه السنة ستمضي فيكم ، مهما بذلت لكم من النصح . لا لأن الله سيصدقكم عن الانتفاع بهذا النصح ، ولكن لأن تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا ، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم دائما في قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ؛ ولا مفر لكم من لقائه وحسابه جزائه: وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق لفئة عجيبة ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة ، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمدا يفترى هذا الفصص . فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصة نوح (أم يقولون افتراه ؟ قل: إن افتريته فعلي إجرامي ، وأنا بريء مما تجرمون) فالافتراء إجرام ، قل لهم: إن كنت فعلته فعلي تبعته ، وأنا أعرف إنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه ، وأنا بريء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب . وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن ، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا في السياق . ثم يمضي السياق في قصة نوح ؛ يعرض مشهدا ثانيا . مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل ! فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه . هكذا أوحى الله إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد . ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحذ واستهزاء (فلا تبتس بما كانوا يفعلون) أي لا تحس بالبؤس والقلق ، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم ، لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء ، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم . دع أمرهم فقد انتهى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) برعايتنا وتعليمنا (ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون) فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم . فلا تخاطبني فيهم . . لا دعاء بهديتهم ، ولا دعاء عليهم - وقد ورد في موضع آخر أنه حين يس من دعاهم ، والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحي - فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء . . والمشهد الثالث من مشاهد القصة: مشهد نوح يصنع الفلك ، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه: قال: إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) والتعبير بالمضارع . فعل الحاضر . . هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته . فنحن نراه ماثلا لخيلنا من وراء هذا التعبير . يصنع الفلك . ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرن . يسخرن من الرجل الذي كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ؛ ثم إذا هو ينقلب نجارا يصنع مركبا . . إنهم يسخرن لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر . شأنهم دائما في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير . فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية (قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون) نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) نحن أم أنتم . يوم ينكشف المستور ، عن مشهد التعبية عندما حلت اللحظة المرتقبة (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا: أحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال: اركبوا فيها باسم الله مجربها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم) وتنفرد الأقوال حول فوران التنور ، وبذهب الخيال ببعضها بعيدا ، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصة الطوفان كلها واضحة . أما نحن فلا نضرب في مناهة بغير دليل ، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا ما يقدمه لنا النص ، وفي حدود مدلوله بلا زيادة . وأقصى ما نملك أن نقوله: إن فوران التنور - والتنور هو الموقد - قد يكون بعين فارت فيه ، أو بفاورة بركانية . وأن هذا الفوران ربما كان علامة من الله لنوح ، أو كان مصاحبا مجرد مصاحبة لمجيء الأمر ، وبدءا لتنفيذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء . وسح الوايل من السماء . لما حدث هذا (قلنا: أحمل فيها من كل زوجين اثنين . .) كان نظام العملية كان يقتضي أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة في حينها . فقد أمر أولا بصنع الفلك فصنعه ، ولم يذكر لنا السياق الغرض من صنعه ، ولم يذكر أنه أطلع نوحا على هذا الغرض

كذلك (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) أمر بالمرحلة التالية (قلنا:احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن) ومرة أخرى تتفرق الأقوال حول (من كل زوجين اثنين) وتشيع في الجو رائحة الإسرائيليات قوية . أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشط حول النص (حمل فيها من كل زوجين اثنين) مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء . وما وراء ذلك خبط عشواء (وأهلك - إلا من سبق عليه القول -) أي من استحق عذاب الله حسب سنته (ومن آمن) من غير أهلك (وما آمن سبعا إلا قليل) (وقال:اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) فنفذ الأمر وحشر من حشر وما حشر ووهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوها ، فهي في رعاية الله وحماه . . وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بله الطوفان؟! ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب:مشهد الطوفان (وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه - وكان في معزل - يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال:سأوى إلى جبل يعصمني من الماء . قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) إن الهول هنا هولان . هول في الطبيعة الصامتة ، وهول في النفس البشرية يلتقيان (وهي تجري بهم في موج كالجبال) وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم ، وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة ، ويروح يهتف بالولد الشارد (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) ولكن البتة العاقلة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المغرورة لا تغفر مدى الهول الشامل (قال:سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) ثم ها هي ذي الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير (قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) لا جبال ولا مخابئ ولاحام ولا واق . إلا من رحم الله . وفي لحظة تتغير صفحة المشهد . فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) وإننا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفسنا - ونحن نتابع السياق - والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد . وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء . وابنه الفتى المغرور يابى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء ، وكان لم يكن دعاء ولا جواب! وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية - بين الوالد والمولود - كما يقاس بمداه في الطبيعة . والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . وإنهما لمتكافئان ، في الطبيعة الصامتة وفي نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة في تصوير القران . . . وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأذن (وقيل:يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغبض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين) ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل فتبلع الأرض ، وتكف السماء (وقيل:يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) (وغبض الماء) ابتلعت الأرض في جوفها وغار من سطحها (وقضى الأمر) ونفذ القضاء (واستوت على الجودي) ورست رسو استقرار على جبل الجودي . . (وقيل بعدا للقوم الظالمين) وهي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير . . (قيل) على صيغة المجهول فلا يذكر من قال ، من قبيل لف موضوعهم ومواراته (وقيل بعدا للقوم الظالمين) بعدا لهم من الحياة فقد ذهبوا ، وبعدا لهم من رحمة الله فقد لعنوا ، وبعدا لهم من الذاكرة فقد انتهوا . . وما عادوا يستحقون ذكرا ولا ذكرا!

والآن وقد هدأت العاصفة ، وسكن الهول ، واستوت على الجودي . الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع (ونادى نوح ربه ، فقال:رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين) رب إن ابني من أهلي ، وقد وعدتني بتجاة أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . فلا تقضي إلا عن حكمة وتدبير . . قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله ، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء . . وجاءه الرد بالحقيقة التي غفل عنها . فالأهل - عند الله وفي بيته وميزانه - ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة . وهذا الولد لم يكن مؤمنا ، فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن . . جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد ، وفيما يشبه التقرير والتأنيب والتهديد (قال:يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكون من الجاهلین) إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين . حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعا . عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد مالا يربطه النسب والقرابة (إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح) فهو منبت منك وأنت منبت منه ، ولو كان ابنك من صلبك ، فالعروة الأولى مقطوعة ، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة . ولأن نوحا دعا دعاء من يستنجز وعدا لا يراه قد تحقق . . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد (فلا تسألن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكون من الجاهلین) إني أعظك خشية أن تكون من الجاهلین بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق . ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته (قال:رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وأدركت رحمة الله نوحا ، تطمئن قلبه ، وتباركه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم (قيل ؛ يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .

وأمام سمعتهم ثم يمسه منا عذاب أليم) وكانت خاتمة المطاف: النجاة والبشري له ولمن يؤمن من زريته؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسه العذاب الأليم. ذات البشري وذات الوعيد؛ اللذان مرا في مقدمة السورة. فجاء القصص ليرجمهما في الواقع المشهود ومن ثم يجيء التعقيب (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا؛ فاصبر إن العاقبة للمتقين) فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني في هذه السورة، حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون. فهذا القصص غيب من الغيب، ما كان يعلمه النبي، وما كان معلوماً لقومه، ولا متداولاً في محيطه. إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير.

وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني. فهي هي. والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير.

وحقيقة تكرار الاعتراضات والانتهاكات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيانات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل.

وحقيقة تحقق البشري والوعيد، كما يبشر النبي وينذر، وهذا شاهد من التاريخ.

وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد: (والعاقبة للمتقين). فهم الناجون وهم المستخلفون.

وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل. إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

تعقيب على قصة نوح: دروس وعبر ودلالات منها

وبعد. . . أكان الطوفان عاماً في الأرض؟ أم إنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح؟ وأين كانت هذه الأرض؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث؟ أسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً؛ وإلا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح. . . وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآني في كثير ولا قليل. ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان. وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين. وأن الطوفان قد عم هذه الرقعة، وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها - فيما عدا ركب السفينة الناجين. وهذا حسناً في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق، الذي لا يعرف "التاريخ" عنه شيئاً. وإلا فيومها أين كان "التاريخ"؟! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب، والصدق والكذب، والتجريح والتعديل! وما ينبغي قط أن يستفتي ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق. ومجرد استفتائه في مثل هذا الشأن قلب للأوضاع، وانتكاسة لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين! ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير. . . وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه "العهد القديم" تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح. . . ولكن هذا كله شيء لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان؛ ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق. بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد. وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالة في أن الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع زكريات الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمرها الأرض من جديد. . . ونخلص من هذه القضية العرضية إلى عبرة هذا الحادث الكوني العظيم. . . وهي - في الحقيقة - عبر شتى، لا عبرة واحدة. . . وسنحاول أن نلم بشيء منها في الصفحات التالية، قبل أن ننقل من قصة نوح إلى قصة هود:

إن قوم نوح - عليه السلام - هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم، ومدى إصرارهم على باطلهم، ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح - عليه السلام - إليهم، وخالصتها: التوحيد الخالص الذي يرضد الله - سبحانه - بالدينونة والعبودية؛ ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية. . .

إن قوم نوح هؤلاء. . . هم ذرية آدم. . . وأدم - كما نعلم من قصته في سورة الأعراف من قبل - وفي سورة البقرة كذلك - قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها - وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها - بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التي زلها،

وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها . وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق - هو وزوجه وبنيه - أن (يتبع) ما يأتيه من هدى الله ، ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه . . وما من شك أنه علم بنبيه الإسلام جيلا بعد جيل ؛ وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفت البشرية في الأرض ؛ حيث لم تكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح - وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله - قد صاروا إلى هذه الجاهلية - التي وصفها القصة في هذه السورة - فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتنا وأصنامها وتصوراتها وتقاليدنا جميعا . وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية . تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمسك بهدى الله ، وأتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة . . ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدرا من الاختيار - هو مناط الابتلاء - وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف - ولو قيد شعرة - عن هدى الله إلى تعاليم غيره ؛ فيجتاله الشيطان حتى يقذف به - بعد أشواط - إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم - النبي المسلم - بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة . . حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده . . تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة" وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متاخرا من أطوار العقيدة . سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للالهة . ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشمس والكواكب . . إلى آخر ما تخبط فيه هذه "البحوث" التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان !

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ؛ فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان - وفق ذلك المنهج الموجه ! - من حيث لا يشعرون ! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم . حين يقرر أن آدم - عليه السلام - هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام . وأن نوحا - عليه السلام - واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه . . القائم على التوحيد المطلق . . وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ؛ وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام . . القائم على التوحيد المطلق . . وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد - إنما كان الترقى والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة - وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك راسب في الأجيال التالية - حتى بعد انحراف الأجيال عنها - ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها ؛ حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني . أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعا ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت ، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية ؛ إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه . فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى . .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ؛ ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال - إذن - لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! - أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم ؛ إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا !

ومع أننا هنا - في ضلال القرآن - لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام - إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل . . . ولكننا نلم بنموذج واحد ، نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القضية . .

كتب الأستاذ العقاد في كتابه: "الله" في فصل أصل العقيدة:

. . "ترقى الإنسان في العقائد . كما ترقى في العلوم والصناعات .

"فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

"وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات . " لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

"وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألفاظ والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

"فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد ؛ وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر ، وطوراً بعد طور . وأسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

"وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة . فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه حديثاً في الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحث عن محال . . .

كذلك كتب في فصل: "أطوار العقيدة الإلهية" في الكتاب نفسه:

"يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب:

وهي دور التعدد

ودور التمييز والترجيح

ودور الوحدانية

"وفي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات . ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور ، وتقبل الصلوات والقرايين .

"وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرهما . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وأنزماً من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم في حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

"وفي الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك المطاع .

"ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطواراً من الحضارة تشبع فيها المعرفة ، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما

هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالمة ، وكثيرا ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقّة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحضيرة السماوية . . . الخ .

وواضح سواء من رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ؛ ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية . وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال . .

وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه: "موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ أن اتخذ الإنسان ربا ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد" . . .

والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم ، تقريرا واضحا جازما ، شيئا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب: "الله" متأثرا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة . . وأن الذي يقرره الله - سبحانه - أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده . وأنه عرف بنيه بهذه العقيدة ، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا ، وإلا التوحيد عقيدة . . وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتالية من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد . . ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد . . ودانت لشتى الأرباب الزائفة . . . حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد . وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعا ؛ ولم ينح إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون "نزاهة التوحيد" وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية ! ولنا أن نحزم أن أجيالا من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق . قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد . . وأنه هكذا كان شأن كل رسول: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . .

والذي لا شك فيه أن هذا شيء ، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب: "الله" شيء آخر . وبينهما تقابل تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها . . وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا ، فهي ليست الكلمة النهائية حتى في مباحث البشر الفانيين !

وما من شك أنه حين يقرر الله - سبحانه - أمرا بيينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع ، ويقرر غيره أمرا آخر مغايرا له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع . وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة . . وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أن الدين جاء وحيا من عند الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ؛ وإنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجيء بغير التوحيد في أية فترة من فترات التاريخ ، ولا في أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك قراراته إلى قرارات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ؛ وهي أنه وحي من الله ، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور ! وليس وقفا على ترقى العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية !

ولعل هذه اللوحة المختصرة - التي لا نملك الاستطراد فيها في كتاب الظلال - تكشف لنا عن مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية - في أي جانب من جوانبها - عن مصدر غير إسلامي . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها . حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه . . (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) . .

ونقف وقفة أخرى مع قصة نوح . . نقف مع نوح وابنه الذي ليس من أهله !) وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل - يا بني اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .) (ونادى نوح ربه ، فقال: رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال: يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال: رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) إن الوشيجة التي يجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بأفاق وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم . إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ؛ وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست

وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة . . إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح - عليه السلام - وهو يقول (رب إن ابني من أهلي) (يا نوح إنه ليس من أهلك) ثم بين له لماذا يكون ابنه . . ليس من أهله (إنه عمل غير صالح) إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: (فلا تسألن ما ليس لك به علم) فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحساب خاطئ . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك ! وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة . . إن الجاهليات تجعل الرابطة أنا هي الدم والنسب ؛ وأنا هي الأرض والوطن ، وأنا هي القوم والعشيرة ، وأنا هي اللون واللغة ، وأنا هي الجنس والعنصر ، وأنا هي الحرفة والطبقة ! تجعلها أنا هي المصالح المشتركة ، أو التاريخ المشترك . أو المصير المشترك . . وكلها تصورات جاهلية - على تفرقها أو تجمعها - تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي ! والمنهج الرباني القويم - ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي لنتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ﷺ وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه - قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير . . والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ، ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها . .

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه:

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام ، تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاماً كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن . . إن هذه الحفنة - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ؛ وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض ! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد . . . وهذا أمر خطير . . إن طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها ؛ والتي تعاني الغربة في هذه الجاهلية والوحشة ؛ كما تعاني الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل . . إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالاته التي تستحق التدبر والتفكير ! إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى . . شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومثشتاتها وقواها ومدخراتها جميعاً ؛ كما يستحق منه سبحانه أن يكلاً هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد ! لقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترون عليه كما قال الله تعالى في سورة القمر (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنوناً وازدجر . . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه (مغلوب) ويدعو ربه أن " ينتصر " هو وقد غلب رسوله . . عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر) وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاوّل عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المرهوب . . كان الله سبحانه - بذاته العلية - مع عبده المغلوب وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا . . جزء لمن كان كفر . .). هذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كل مكان وفي كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ؛ وحين " تغلبها " الجاهلية ! إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة . . وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان . فما الطوفان إلا صورة من صور تلك القوى ! (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها ؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه ؛ وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنه لن يترك أوليائه إلى أعدائه ، إلا فترة الإعداد والابتلاء ؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء . وهذه هي عبرة الحوادث الكونية العظيم إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى أفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنه لا ينبغي له أن يفسق قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه (أني مغلوب فانتصر) إن القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة . . إن الجاهلية تملك قواها . . ولكن الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحسب ! وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله . . ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ؛ قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً . . ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوى الهائلة ،

والتدمير على البشرية الضالة جميعا ، وتورث الأرض لتلك الحضنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها . . إن عصر الخوارق لم يمض ! فالخوارق تتم في كل لحظة - وفق مشيئة الله الطليقة - ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطا أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها . وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تتركها ؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائما ، ويلاسون آثارها المبدعة . والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهام كاملا ، بكل ما في طاقتهم من جهد ؛ ثم يدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجاروا إليه كما جار عبده الصالح نوح (فدعا ربه أني مغلوب ، فانتصر) ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ؛ فهم على هذا الانتظار مأجورون . ومرة أخرى نجد أن هذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهادا كبيرا . . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون في مثل الجو الذي تنزل فيه القرآن ؛ ومن ثم يتذوقونه ويدركونه ؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين خطابا مباشرا به ، كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى ، فتذوقته وادركته وتحركت به . .

. . والحمد لله في الأولى والآخرة . .

(وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ {50} يَا قَوْمِ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ {51} وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ {52} قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ {53} إِن نَقُولُ إِلَّا إِعْتِرَاكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُم أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ {54} مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ {55} إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَائَةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {56} فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ {57} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ {58} وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ {59} وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ {60} وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِن رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ {61} قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرِيبٌ {62} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ {63} وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَنُوحُوهَا تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ {64} فَعَصَوْهَا فَقَالَ تَمَنَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكْنُوبٍ {65} فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئذٍ إِن رَبِّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ {66} وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ {67} كَانَ لَمُ يَغْنَوُ فِيهَا إِلَّا إِن ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لثَمُودِ) {68}

مضى قوم نوح في التاريخ ، الأكثرون المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ ؛ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء ، والناجون استخلفوا في الأرض تحقيقا لسنة الله ووعدته (إن العاقبة للمتقين) ولقد كان وعد الله لنوح (يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمتعهم ثم يمسه من عذاب اليم) فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله . وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد - ومن بعدهم ثمود - ممن حقت عليهم كلمة الله (وأمم سمتعهم ثم يمسه من عذاب اليم) لقد عادت الجاهلية مرة أخرى كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلا الله من المسلمين من ذرية آدم . . فلا بد أن أجيالا من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذي كان عليه أبواهم . حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وانحرفت بهم إلى الجاهلية التي واجهها نوح - عليه السلام - ثم جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين ، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين ديار - كما دعا نوح ربه . ولا بد أن أجيالا كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده . حتى اجتالتهم الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية . وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية . . فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف [والحقف كثيب الرمل المائل] في جنوب الجزيرة العربية ، وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر في شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة وبلغت كل منهما في زمانها أقصى

القوة والمنعة والرزق والمتاع . . ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله ، واختاروا الوثنية على التوحيد ، والدينونة للعبيد على الدينونة لله ، وكذبوا الرسل شر تكذيب . وفي قصصهم هنا مصداق ما في مطلع السورة من حقائق وقضايا كقصة نوح (وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره . إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا . إن أجري إلا على الذي فطرني . أفلا تعقلون) ، ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين) وكان هود من عاد . فهو أخوهم . واحد منهم ، تجمعه - كانت - أصرة القريى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة . وتبرز هذه الأصرة هنا في السياق ، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته ، وليبدو موقف القوم من أخيه وبنيه شادا ومستقبحا ! ثم لتقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيه على أساس افتراق العقيدة . ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة . لتتفرد هذه الوشيجة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي ، ثم لكي تتبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركي . فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض . . . ثم تنتهي بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد . . . أمة مسلمة وأمة مشركة . . وبينهما فرقة ومفاصلة . . وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين . ولا يجيب ، وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة ، وتتم المفارقة ، وتميز الصوف ، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم ، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم ، ويخلعوا ولاهم لقومهم ولقيادتهم السابقة ، ويعطوا ولاهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلق الدينونة للعباد . . . وعندئذ فقط - لا قبله - يتنزل عليهم نصر الله (وإلى عاد أخاهم هودا) أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحا إلى قومه في القصة السابقة (قال: يا قوم) بهذا التودد ، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول . فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه . (قال: يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره) القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا - كما أسلفنا - عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة . ولعل أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح ! ثم تطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ! ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات ، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة - في صورة من صور الجاهلية الكثيرة . ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق . الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلا الله وحده . . . الانحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله . على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هم يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول (يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره) (إن أنتم إلا مفترون) مفترون فيما تعبدونه من دون الله ، وفيما تدعونه من شركاء لله . ويبادر هود لبوض لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة ، فليس له من ورائها هدف . وما يطلب على النصح والهداية أجرا . إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل (يا قوم لا أسألكم عليه أجرا . إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون) مما يشعر أن قوله (لا أسألكم عليه أجرا) كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغي أجرا أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها . وكان التعقيب (أفلا تعقلون) للتعجب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولا من عند الله يطلب رزقا من البشر ، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوت هؤلاء الفقراء ! ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة . ويكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بالآف السنين (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين) استغفروا ربكم مما أنتم فيه ، وتوبوا إليه فابدأوا طريقا جديدا يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية (يرسل السماء عليكم مدرارا) وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء ، ويحتفظون به بالخصب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع (ويزدكم قوة إلى قوتكم) هذه القوة التي عرفتم بها (ولا تتولوا مجرمين) مرتكبين جريمة التولي والتكذيب . ونظر في هذا الوعد . وهو يتعلق بادرار المطر ومضاعفة القوة . وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود ، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة ؟ فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ، بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتران على الطبيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل أن ؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرارا كراما لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه . . . كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض ؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل نهار لتملا فراغ الإله الحق في فطرة البشر ! والملحوظ دائما أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها

سدنتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة . . .
أحيانا . . كل ذلك ليدين لها الناس ! فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد ! وهذا كله
يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعباد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده في عمارة الأرض
والنهوض بتكاليف الخلافة فيها ، بدلا من أن ينفقه عباد الأرباب الأرضية في الطبل والزمر
والتراتيل والتسابيح لهذه الأرباب المفتراة ! ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في
قلوبهم ولا في مجتمعهم ، ولكنها قوة إلى حين . حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة
الله ، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى جانب واحد من السنن
الكونية كالعامل والنظام ووفرة الإنتاج . وهذه وحدها لا تدوم . لأن فساد الحياة الشعورية
والاجتماعية يقضي عليها بعد حين . فأما إرسال المطر . مدارا . فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن
طبيعية ثابتة في النظام الكوني . ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محيا في
مكان وزمان ، ومدمرا في مكان وزمان ؛ وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم
، وأن يكون الدمار معه لقوم ، وأن ينفذ الله تبشيريه بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل
الطبيعية ؛ فهو خالق هذه العوامل ؛ وجاعل الأسباب لتحقيق سنته على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك
مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك
لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض غير
مقيد بما عهدته الناس في الغالب . تلك كانت دعوة هود - ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة
. ربما لأن الطوفان كان قريبا منهم ، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكروهم به في
سورة أخرى - فأما قومه فظنوا به الظنون . . (قالوا . يا هود ما جئنا ببينة ، وما نحن بتاركي
الهلثنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض الهتنا بسوء . .) إلى هذا الحد بلغ
الانحراف في نفوسهم ، إلى حد أن يظنوا أن هودا يهذي ، لأن أحد الهتتم المفتراة قد مسه بسوء
فأصبح بالهلثيان ! (يا هود ما جئنا ببينة) والتوحيد لا يحتاج إلى بينة ، إنما يحتاج إلى التوجيه
والتذكير ، وإلى استحاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير (وما نحن بتاركي الهتنا عن قولك)
أي لمجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل ! (وما نحن لك بمؤمنين) أي مستجيبين لك ومصديقين . .
وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذي وقد أصابك أحد الهتنا بسوء ! وهنا لم يبق لهود إلا التحدي . وإلا
التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه . وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين . وإلا المفاصلة بينه
وبين قومه ونقض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب (قال إني أشهد الله ، وأشهدوا أنني بريء
مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما
من دابة إلا هو أخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به
إليكم ، ويستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ) إنها
انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد
اتخذوا غير طريق الله طريقا . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبثت
بينهما وشيجة العقيدة . وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله
منهم . ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم ؛ كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من
نفوره وخوفه أن يكون منهم ! وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه . ومع ثقة الإيمان واطمئنانه !
قال: إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه (إني أشهد الله على براءتي مما
تشركون من دونه . وأشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم: أنني عالنتكم بالبراءة مما
تشركون من دون الله . ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن أحدها مسني بسوء . تجمعوا
أنتم وهي - جميعا - ثم كيدوني بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعا ، ولا أخشاكم شيئا) إني
توكلت على الله ربي وربكم) ومهما أنكرتم وكذبتم . فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله
لي ولكم . فالله الواحد هو ربي وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة (ما من دابة إلا هو
أخذ بناصيتها) وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة أخذة بناصية كل دابة على هذه
الأرض ، بما فيها الدواب من الناس . والناصية أعلى الجبهة . فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة
حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب
غلظ حسهم ومشاعرهم . . وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد (إن
ربي على صراط مستقيم) فهي القوة والاستقامة والتصميم . وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة
ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي . . إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود -
عليه السلام - في نفسه من ربه . . إنه يجد هذه الحقيقة واضحة ، إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب
الدعوة في نفسه ، لا تدع في قلبه مجالا للشك في عاقبة أمره ، ولا مجالا للتردد عن المضي في طريقه
. إنها حقيقة الألوهية كما تجل في قلوب الصفوة المؤمنة أبدا . وعند هذا الحد من التحدي بقوة
الله ، وإبراز هذه القوة في صورتها القاهرة الحاسمة ، يأخذ هود في الإنذار والوعيد (فإن تولوا فقد
أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) فأدبت واجبي لله ، ونقضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه
(ويستخلف ربي قوما غيركم) يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم
ببغيكم وظلمكم وانحرافكم (ولا تضرونه شيئا) فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك في
كونه فراغا ولا نقصا (إن ربي على كل شيء حفيظ) يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى

والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربا ! وكانت هي الكلمة الفاصلة . وانتهى الجدل والكلام . ليحق الوعيد والإنذار (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا . ونجيناهم من عذاب غليظ) لما جاء أمرنا بتحقيق العام الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب النازل بالقوم ، واستثنيتهم من أن يصيبهم بسوء . وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة . والآن وقد هلكت عاد . يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيع باللجنة والطرده ، في تقرير وتكرار وتوكيد (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا في هذه الدنيا لعنة يوم القيامة . ألا إن عادا كفروا ربهم . ألا بعدا لعاد قوم هود) (وتلك عاد) بهذا البعد . وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السياق ، وكان مصرعهم معروضا على الأنظار . . ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) وهم عصوا رسولا واحدا . ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا ؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعا . ولا ننسى أن هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم حريمتهم وإبراز شناعتها . فهم جحدوا آيات ، وهم عصوا رسلا . فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة ! (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أمر كل متسلط عليهم ، معاند لا يسلم بحق ، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين ، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم . ولا يكونوا ذبولا فيهدروا آدميتهم . وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد . كانت هي قضية الحاكمية والاتباع . . كانت هي قضية: من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره ؟ يتجلى هذا في قول الله تعالى (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد) فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل - لأنه أمر الله - ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان . . في كل رسالة وعلى يد كل رسول . لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد . . هلكوا مشيعين باللجنة في الدنيا وفي الآخرة (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة يوم القيامة) ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم خالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبه عال (ألا إن عادا كفروا ربهم) ثم يدعو عليهم بالطرده والبعد البعيد: (ألا بعدا لعاد قوم هود) بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد . كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسله عليهم حتى تقصدهم قصدا (ألا بعدا لعاد قوم هود)!!!

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة ، قبل أن تنتقل منها إلى قصة صالح . ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون . . ليس فقط في ماضيها التاريخي ، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان . وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة . وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك ؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة . . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبدل في سبيله كل هذه الجهود ؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان . . لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه ، فالله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة "بالإنسان" إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها . [وهذا ما نرجو أن نزيده بيانا - إن شاء الله - في نهاية قصص الرسل في ختام السورة] . .

ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين . وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصد دعوة رسول الله ﷺ لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) . .

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين . . وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت ؛ وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ والذين لم تصقل أرواحهم وتشرف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها . .

فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير) يا قوم: ماذا تروني إن كنت أجد في نفسي حقيقة ربي واضحة بيّنة ، تجعلني على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وأتاني منه رحمة فاختارني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تؤهلني لها . فمن ينصرنى من الله إن أنا عصيته فقصرمت في إبلاغكم دعوته ، احتفاظاً برجائكم في ؟ أفتأفعي هذا الرجاء وناصري من الله ؟ كلا (فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير) ما تزيدونني إلا خسارة على خسارة . . غضب الله وحرمانى شرف الرسالة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة . وهي خسارة بعد خسارة . ولا شيء إلا التخسير ! والتثقل والتشديد ! (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تآكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) ولا يذكر السياق صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة . ولكن في إضافتها لله (هذه ناقة الله) وفي تخصيصها لهم (لكم آية) ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله . ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجيء ! (هذه ناقة الله لكم آية . فذروها تآكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء) وإلا فيعالحكم العذاب . يدل على هذه المعالجة فاء الترتيب في العبارة . ولفظ قريب (فيأخذكم عذاب قريب) . يأخذكم أخذاً . وهي حركة أشد من المس أو الوقوع (فعقروها . . فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب) ودل عقروهم للناقة ، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو . دل على فساد قلوبهم واستهتارهم . والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وعقروهم إياها ، لأنها لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييراً يذكر . ثم ليتابع السياق عجلة العذاب . فهو يعبر هنا بقاء التعقيب في كل الخطوات (فعقروها . فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة (ذلك وعد غير مكذوب) فهو وعد صادق لن يحيد . وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك . فالعذاب لم يتأخر (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين) فلما جاء موعد تحقيق الأمر - وهو الإنذار أو الإهلاك - نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا . . خاصة ومباشرة . . نجيناهم من الموت ومن خزي ذلك اليوم ، فقد كانت مية ثمود مية مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً . (إن ربك هو القوي العزيز) يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمراً ، ولا يهون من يتولاه ويرعاه . ثم يعرض السياق مشهدهم ، معجبا منهم ، ومن سرعة زوالهم (كان لم يغنوا فيها) كان لم يقيموا ويتمتعوا . . وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسة مثيرة ، والمشهد معروض ، وما بين الحياة والموت - بعد أن يكون - إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع . كان لم يغنوا فيها . . ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة: تسجيل الذنب ، وتشجيع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى (ألا إن ثمود كفروا بربهم . ألا بعدا لثمود !)

ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ . . الدعوة فيها هي الدعوة . وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته . . عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع . . ومرة أخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد - فثمود كعادهم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح - ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد . .

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة !

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا . فهاهم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا . فما أغنت معهم شيئاً ! إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تدبرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول!!!

ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن الكريم: قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بيئة من ربي ، وأتاني منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير . . وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه: (إن ربي قريب مجيب)

وما تتجلى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب !

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالا ؛ وفي الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذي كان مرجوا في قومه ، لصالحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليأس منه ، المضجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ما ورثوا عن آباءهم من الدينونة لغيره !

إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده . حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي لبيدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق !

إن صالحا يناديهم (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . .) فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لا يملكون له ردا . . وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفّلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الارزاق التي يستمتعون بها في الأرض . . وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله - سبحانه - هو الذي أنشأهم من الأرض ، وهو الذي أقرهم على عمارتها . ولكنهم ما كانوا يتبعون هذا الاعتراف بالوهية الله - سبحانه - وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض ، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع . . وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . لقد كانت القضية هي ذاتها . . قضية الربوبية لا قضية الألوهية . قضية الدينونة والحكومية قضية الاتباع والطاعة . . إنها القضية الدائمة التي تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية !

(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ {69} فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ {70} وَأَمْرَاتِهِ قَائِمَةً فَضَحِكْتِ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {71} قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ {72} قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتِ اللَّهُ وَبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ {73} فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبَشْرِىِ بِجَادِلِنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ {74} إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ {75} يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ {76} وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِىَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ {77} وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبِلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ {78} قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ {79} قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ {80} قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رَسَلْنَا رَجُلًا مِنْ رَبِّكَ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَبِّكَ الْبَشْرِىِ فَاسْتَجِبْ لَهُ وَلَا يَلتَمِذْ مِنْكَ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مَصِيبٌ مِمَّا آصَابُهُمْ إِنْ مَوْعَدُهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {81} فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ {82} مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ {83})

يلم السياق في مروره التاريخي بالمستخلفين من عهد نوح ، وبالأمم التي بوركت والأمم التي كتب عليها العذاب . . يلم بطرف من قصة إبراهيم ، تتحق في البركات ، في الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم . وفي قصتي إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح (قيل:يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم ستمتعتهم ثم يمسخهم منا عذاب اليم) وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه:إسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء المرسلين (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا في موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم ! والرسل:الملائكة . وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل - مع المفسرين - في تعريفهم وتحديد من هم بلا دليل (قالوا:سلاما . قال سلام) وكان إبراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه في العراق ، وعبر الأردن ، وسكن في أرض كنعان في البادية - وعلى عادة البدو في إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفا (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) أي سمين مشوي على حجارة الرضف المحماة . ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه) أي لا تمتد إليه (نكرهم وأوجس منهم خيفة) فالذي لا يأكل الطعام يريب ، ويشعر بأنه ينوي خيانة أو غدرا بحسب تقاليد أهل البدو . وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم (قالوا:لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ! ولكن حدث في هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث)

وامراته قائمة فضحكت) وربما كان ضحكها ابتهاجا بهلاك القوم الملوئين (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) وكانت عقيما لم تلد وقد أصبحت عجوزا . ففاجأتها بشرى بإسحاق . وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب . والمرأة - وبخاصة العقيم - يهتز كيانه كله لمثل هذه البشرى ، والمفاجأة بها تهزها وتربكها (قالت: يا ويلتا ! ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب) وهو عجيب حقا . فالمرأة ينقطع ظمئها عادة في سن معينة فلا تحمل . ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب (قالوا: أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد) ولا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل . وعندما يشاء الله لحكمة يريد بها - وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه - يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التي لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث في الوجود . وإلى هنا كان إبراهيم - عليه السلام - قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التي حملوها إليه . ولكن هذا لم ينسه لوطا وقومه - وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريبا منه - وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال . وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعا (فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب) والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأني ولا يثور . والأواه الذي يتضرع في الدعاء من التقوى . والمنيب الذي يعود سريعا إلى ربه . . وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدل لأن النص القرآني لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضي وإنه لم يعد للجدال مجال (يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود) ويسكت السياق . وقد سكت - ولا شك - إبراهيم . . ويسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط . وقوم لوط في مدن الأردن عمورية وسدوم (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال: هذا يوم عصيب !) لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعا أزواجا ، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله . والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة . والبشرية تعرف حالات مرضية فريدة شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة . وهي تشير إلى أن المرض النفسي يعدي كالمرض الجسدي . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيء ، عن طريق إحياء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة . الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يلبي حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها . والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تعد لاستقبالها وإحيائها . بدلا من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفورا فطريا - لا أخلاقيا فحسب - من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة . الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها . سيء لوط بأضيافه . وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التي ستتاله في أضيافه (وقال: هذا يوم عصيب !) وبدأ اليوم العصيب ! (وجاءه قومه يهرعون إليه) أي يسرعون في حالة تشبه الحمى (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه ، وما ضيق بهم ذرعه ، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب ! ورأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد قومه المندفعين إلى داره ، يهددونه في ضيفه وكرامته . فحاول أن يدلهم على الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال ، وعنده منه في داره بناته ، فهن حاضرات ، حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة ! (قال: يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم . فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي . أليس منكم رجل رشيد ؟) (هؤلاء بناتي هن أظهر لكم) أظهر بكل معاني الطهر . النفسي والحسي . فهن يلبن الفطرة النظيفة ، ويترن مشاعر كذلك نظيفة . نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية . ثم هن أظهر حسيا . حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمنا كذلك ظاهرا نظيفا (فاتقوا الله) قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسها من ناحية الفطرة . (ولا تخزون في ضيفي) قالها كذلك يلمس نخوتهم وتقاليدهم البدوي في إكرام الضيف إطلاقا (أليس منكم رجل رشيد ؟) فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة . . ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الأسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة . وظلت الفورة المريضة الشاذة في اندفاعها المحموم (قالوا: لقد علمت مالنا في بناتك من حق . وإنك لتعلم ما نريد ! . .) لقد علمت لو أردنا بناتك لتزوجناهن . فهذا حقنا . . (وإنك لتعلم ما نريد) . . وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث . وأسقط في يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب ، وانفجرت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة (قال: لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد !) قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية - الذين جاء الملائكة في

صورتهم - وهم صغار صباح الوجوه ؛ ولكنهم - في نظره - ليسوا بأهل بأس ولا قوة . فالتفت إليهم
يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة . أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد !
وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي إلى ركن شديد . ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه .
كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: "رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد" !
وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده . . كشف الرسل للوط عن الركن الشديد
الذي يأوي إليه (قالوا:يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك) وأنبأوه بأنهم ، لينجو مع أهل بيته
الطاهرين ، إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسدين (فاسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت
منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبتها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟) .
والسرى: يعني سير الليل ، والقطع من الليل بعضه ، ولا يلتفت منكم أحد . أي لا يتخلف ولا يعوق
. لأن الصبح موعدهم مع الهلاك . فكل من بقي في المدينة فهو هالك مع الهالكين (أليس الصبح
بقريب ؟) . . سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق . لتقريب الموعد وتأكيده . فهو قريب . مع مطلع
الصباح . ثم يفعل الله بالقوم - بقوته - ما لم تكن قوة لوط التي تمنأها فاعلة ! والمشهد الأخير .
مشهد الدمار المروع ، الألائق بقوم لوط (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة
من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) فلما جاء موعد تنفيذ الأمر (جعلنا
عاليها سافلها) وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها . وهنا
القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المتركسة من قمة الإنسان إلى
درك الحيوان . بل أخط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان (وأمطرنا
عليها حجارة من سجيل) حجارة ملوثة بالطين . . وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام (منضود)
متراكم بعضه يلاحق بعضها هذه الحجارة . (مسومة عند ربك) كما تسوم الماشية أي تربي وتطلق
بكثرة . فكانما هذه الحجارة مرباة ! ومطلقة لتنمو وتكثر ! لوقت الحاجة . . وهو تصوير
عجيب يلقي ظله في الحس ، ولا يفصح عنه التفسير ، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يليقه (وما
هي من الظالمين ببعيد) فهي قريبة وتحت الطلب ، وعند الحاجة تطلق فتصعب ! والصورة التي
يرسمها السياق هنا لهذه النزلة التي أصابت قوم لوط هي أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي
تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل . . وعند ربك للظالمين كثير
!!! وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في
موعده في هذا الموعد ليحقق قدر الله في قوم لوط كما قدر في علمه القديم . وهذا التوقيت
والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل ما يجري فيه متناسقا مع
قدره بكل شيء وبكل حي فيه . وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به
مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط .

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُضُوا الْمِيثَاقَ وَالْمِيزَانَ
إِنِّي أراكم بخير وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مَحِيطٍ } {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ } {85} بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } {86} قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } {87} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي
وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ مِنْكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا
تُوفِّقُنِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } {90} قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ } {91} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } {92} وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَادِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } {93} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِاثِمِينَ } {94}
كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعثتْ تَمُودُ } {95} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانَ
مُؤْتَمِنِينَ } {96} إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } {97} يُضْمِرُ قَوْمَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمُؤْرَدُونَ } {98} وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس الورد
المرفود } {99}

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين . . ومع
الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس ، وهي

وثيقة الصلة بالعقيدة في الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله ! وتجري القصة على نسق قصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وإن كانت أقرب في نهايتها وأسلوب عرضها . والتعبير عن خاتمتها إلى قصة صالح ، حتى لنشترك معها في نوع العذاب وفي العبارة عن هذا العذاب (وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .) إنها الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأولى . وقاعدة الحياة الأولى . وقاعدة الشريعة الأولى . وقاعدة المعاملات الأولى . . القاعدة التي لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة (ولا تنقصو المكيال والميزان ، إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ) والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة - بعد قضية العقيدة والدينونة - أو هي قضية الشريعة والمعاملات التي تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة . . فقد كان أهل مدين - وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام - ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم ، أي ينقصونهم قيمة أشياءهم في المعاملات . وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف . كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الناهبة الأبية بين شمال الجزيرة وجنوبها . ويتحكموا في طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائزة التي وصفها الله في هذه السورة .

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعتاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهي بذلك ضمانا لحياة إنسانية أفضل ، و ضمانا للعدل والسلام في الأرض بين الناس . وهي الضمانة الوحيدة التي تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء . . إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة . . هذه هي نظرة الإسلام . وهي تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التي تركز إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم ! وهي حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت بنعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ؛ كما بنعدم تأثرها بالبيئة والعوامل الساندة فيها . فلا يكون المتحكم في أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعي أو يعيشون على الصناعة . . إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها في التصور الأخلاقي وفي قواعد المعاملات الأخلاقية ، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ؛ وحين تصبح قاعدة الأخلاق هي إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقي عقابه ، وكل ما بهرف به أصحاب المذاهب الوضيعة من نبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعي للأمم يصبح لغوا في ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية ! (ولا تنقصو المكيال والميزان . إني أراكم بخير) فقد رزقكم الله رزقا حسنا ، فلستم في حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى ، ولكن يفركم أو يضركم أن لا تنقصو المكيال والميزان . . بل إن هنا الخير ليهده ما أنتم عليه من غش في المعاملة ، أو غصب في الأخذ والعتاء (وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) إما في الآخرة عند الله . وإما في هذه الأرض حين يؤدي هذا الغش والغصب ثمارهما المرة في حالة المجتمع وفي حركة التجارة . وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض ، في كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفي كل احتكاك ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه في صورة إيجابية بعد صورة النهي السلبية (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة وللعبارة ظل في الحس . وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص ، فهو أكثر سماحة ووفاء (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وهذه أعم من المكيلات والموزونات . فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع . تقويمها كيلا أو وزنا أو سعرا أو تقديرا . وتقويمها ماديا أو معنويا . وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات . لأن كلمة "شيء" تطلق أحيانا ويراد بها غير المحسوسات . وبخس الناس أشياءهم - فوق أنه ظلم - يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد ، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير . . وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر ، ولا تبقى على شيء صالح في الحياة (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) والعثو هو الإفساد ، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد ، قاصدين إلى تحقيقه . ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) فما عند الله أبقي وأفضل . . وقد دعاهم في أول حديثه إلى عبادة الله وحده - أي الدينونة له بلا شريك - فهو يذكرهم بها هنا ، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم ، واتبعوا نصيحته في المعاملات . وهي فرع عن ذلك الإيمان (بقية الله خير لكم . . إن كنتم مؤمنين) ثم يخلي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه ، ويبين لهم أنه هو لا يملك لهم شيئا ، كما أنه ليس موكلا بحفظهم من الشر والعذاب . وليس موكلا كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولا عنهم إن هم ضلوا ، إنما عليه البلاغ وقد آداه (وما أنا عليكم بحفيظ) ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر ، وبتقل التبعة ، ويفقههم وجها لوجه أمام العاقبة بلا

وسيط ولا حفيظ . ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال) قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد أبائنا ، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! . . وهو رد واضح التهكم ، بين السخرية في كل مقطع من مقاطعه . وإن كانت سخرية الجاهل المطموس ، والمعاند بلا معرفة ولا فقه (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد أبائنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟) . فهم لا يدركون - أو لا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، وبئذ ما يعبدونه من دونه هم وأبائهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة . وقبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة ، وارتباطها معا بالمعاملات . . قبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى ! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها - بما فيها أولئك الذين يقولون: إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون - فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره . . وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله . . وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم - وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف - فلقد قامت أزمة في "الكنيست" مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها - من غير اليهود - أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده - مهما تعرضت للخسارة - فإين من يدعون أنفسهم "مسلمين" من هنا الاستمسك بالدين؟! إن بيننا اليوم - ممن يقولون: إنهم مسلمون! - من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية . وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم . يتساءلون أولا في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزى المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله "المتحضرين"؟! . . . فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد أبائنا ؟) وهم يتساءلون ثانيا . بل ينكرون بشدة وعنف . أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . . فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده . وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية - النظرية الأخلاقية مثلا - ويعدوننا تخليطا من أيام زمان! فلا يذهبن بنا الترفع كثيرا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق . . . تتهمهم بالرجعية والتعصب والحمود!!! وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذي نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان! ويسخر أهل مدين من شعيب - كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق - فيقولون (إنك لأنت الحليم الرشيد!) وهم يعنون عكس معناها . فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد أبائهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!! ويتلطف شعيب تالطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يبالها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم . . يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ؛ فهو لا يبغى كسبا شخصيا من وراء دعوته لهم ؛ فلن ينهاتهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس . وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون) قال: يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، ورزقتي منه رزقا حسنا؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) . . . (يا قوم . . .) في تودد وتقرب ، وتذكير بالأواصر القريبة (أرايتم إن كنت على بينة من ربي؟) أجد حقيقته في نفسى وأستيقن أنه هو يوحى إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه . وعن هذه البينة الواضحة في نفسى ، أصدر وأثقا مستيقنا (ورزقتي منه رزقا حسنا) ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها . (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم قافعل ما نهيتكم عنه لاحقق لنفسي نفعا به! (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) الإصلاح العام للحياة

والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ؛ وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ، ويضيع بعض الفرض . فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرض والقدرة ؛ ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا ، ومجموعا متضامنا متعاوننا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام ! (وما توفيقى إلا بالله) فهو القادر على إنجاح مساعي في الإصلاح بما يعلم من نيته ، وبما يجزي على جهدي (عليه توكلت) عليه وحده لا اعتمد على غيره (وإليه أنيب) إليه وحده أرجع فيما يحزبني من الأمور ، وإليه وحده أتوجه بنيتي وعملي ومساعي ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير ، فيبطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط: فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصببكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم بعيد) لا يجملكم الخلاف معى والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصببكم ما أصاب الأقوام قبلكم . وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان . وقريب كذلك في الزمان . فمدین كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم - وهم في مواجهة العذاب والهلاك - باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحانها (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود) وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخضع وتلين . ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم في الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب (قالوا: يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز) فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة (وإنا لنراك فينا ضعيفا) فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها ويواجههم بها (ولولا رهطك لرجمناك) ففى حسابهم عصبية العشييرة ، لا عصبية الاعتقاد ، وصلته الدم لا صلة القلب . ثم هم يفضلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب (وما أنت علينا بعزيز) لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر . ولكننا نحسب حساب الأهل والعشييرة ! وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمية والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبية تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه . أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية . وعندئذ تأخذ شعيبا الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتصل من الاعتزاز برهطه وقومه ؛ ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة في هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون . ويلقى كلمته الفاصلة الأخيرة . ويفاصل قومه على أساس العقيدة ، ويخلى بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذي يختارون (قال: يا قوم: ارهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؛ إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب) (ارهطى أعز عليكم من الله ؟) . . أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس ، وهم ضعاف ، وهم عباد من عباد الله . . هؤلاء أعز عليكم من الله ؟ . . هؤلاء أشد قوة ورهبة فى نفوسكم من الله ؟ (واتخذتموه وراءكم ظهريا) وهي صورة حسية للترك والإعراض ، تزيد فى شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه ، وهم من خلقه ، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه . فهو البطر ووجود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير (إن ربى بما تعملون محيط) والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشئ والقدرة عليه . إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله - سبحانه - ووقاره . الغضبة التي لا يقوم إلى جوارها شئ من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشييرته وقومه . . إن شعيبا لم ينتفخ ولم ينتفض أن يجد القوم يرهبون رهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذي يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه - الذين افترق طريقهم عن طريقه - وهذا هو الإيمان فى حقيقته . . أن المؤمن لا يعتر إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصبية تخشى ولا يخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه ، إنما هي لربه ودينه . وهذا هو مفرق الطريق فى الحقيقة بين التصور الإسلامى والتصور الجاهلى فى كل أزمانه وبيئاته ! ومن هذه الغضبة لله . والتتصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدى الذى بوجه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم - بعد أن كان واحدا منهم - ويفترق الطريقان فلا يلتقيان (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) وامتصوا فى طريقكم وخطتكم ، فقد نفضت يدي منكم (إنى عامل) على طريقتي ومنهجي (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أنا أم أنتم ؟ (وارتقبوا إنى معكم رقيب) للعاقبة التى تنتظرني وتنتظركم . . وفى هذا التهديد ما يوجي بثقته بالمصير . كما يوجي بالمفاصلة وافتراق الطريق . ويسدل الستار هنا . على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة ، ليرفع هناك على مصرع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين فى ديارهم ،

أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكان لم يعمرها حيناً من الدهر . مضوا مثلهم مشيعين باللعة ، طويت صفحاتهم في الوجود وصفحهم في القلوب (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها . ألا بعدا لمدين ، كما بعدت ثمود) وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد . وخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره . وتتضمن هذه الإشارة العبرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة القصبة التي لم تذكر هنا ، كما تضم مشهداً من مشاهد القيامة الحية المتحركة . وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسي من مبادئ الإسلام . مبدأ التبعة الفردية التي لا يسقطها اتباع الرؤساء والكبراء . ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذي السلطان وكبراء قومه (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه) ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها ، فإذا هم يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط (فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد) ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، مستهينين بأنفسهم ، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق . . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً (يقدم قومه يوم القيامة) وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى (فأوردهم النار)!! أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم . ألم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير ؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الأدمية وهي حرية الإرادة والاختيار ؟ فأوردهم النار . وبنا ساه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب (وبئس الورد المورود !) وإذا ذلك كله . قيادة فرعون لهم ، وإيرادهم موردهم . . إذا ذلك كله حكاية تروى ، ويعلق عليها (وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة) ويسخر منها ويتهكم عليها (بئس الرشد المرفود) فهذه النار هي الرشد والعطاء والمنة التي رقد بها فرعون قومه !! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلاً ورفداً مرفوداً . . فما هو ذا رفته لمن اتبعه . . النار . . وبئس الورد المورود . وبئس الرشد المرفود ! وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب . .

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ {101} وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ {102} إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ {103} وَمَا نُوخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ {104} يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ {105} فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ {106} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ {107} وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ {108} فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِمَّا يَعْبدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلٍ وَإِنَّا لَمَوْفُقُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرٌ مَنْقُوصٌ {109} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْنَاهُمْ وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٌ {110} وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوقِفْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {111} فَاسْتَقِمُّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {112} وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمْسِكُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ {113} وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ {114} وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {115}

خاتمة السورة . تشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، مبنية على ما سبق في سياق السورة . من المقدمة ومن القصص . وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة ، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك .

والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم الآلهة التي يدعون من دون الله من شيء - لما جاء أمر ربك - وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهم أليم شديد)

والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحيا بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ)

عليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد ﷺ شأنهم شأن من قبلهم في الحالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنما لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد أتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد في الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هي فيه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون: فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ! إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما آتروا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون . وكشف عن سنة الله في كون الناس مختلفين في مناهجهم واتجاهاتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدراً من الاختيار (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وفي النهاية يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص هو تثبيت فؤاد النبي ﷺ ويؤمر الرسول أن يلقي للمشركين كلمته الأخيرة ، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله . وأن يعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع له أخذ الناس بما يعملون (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فأعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون)

...

(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك . منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ؛ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد) ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المآخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار . وما حل بهم من قبل في الدنيا يخاليل للأنظار . . في هذا الموضوع وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد . . هنا يأتي هذا التعقيب (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحي ينبئك بهذا الغيب المظمور . وذلك بعض أغراض القصص في القرآن (منها قائم) لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة وال عمران ، كبقايا عاد في الأحقاف وبقايا ثمود في الحجر . ومنها (حصيد) كالزرع المحصود . اجثت من فوق الأرض وتعرى وجهها منه ، كما حل بقوم نوح أو قوم لوط . وما الأقوام ؛ وما العمران ؛ . . إن هي إلا حقول من الأناسي كحقول النبات . غرس منها يزكو وغرس منها خبيث ! غرس منها ينمو وغرس منها يموت ! (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) فهم قد عطلوا مداركهم ، وتولوا عن الهدى ، وكذبوا بالآيات ، واستهزأوا بالوعيد ، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب) وهذا غرض آخر من أغراض هذا القصص . فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه ؛ وتكرر الإنذار مع كل رسول ؛ وقيل لهم: إن هذه الأرباب المفتراة لا تعصمهم من الله . . فما هي ذي العاقبة تصدق النذر . فلا تعني عنهم آلهتهم شيئاً ، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك ، بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودماراً . [ولفظ تنبيب

أقوى بينائه اللفظي وجرسه المشدد [ذلك أنهم اعتمدوا عليهم ، فزادوا استهتارا وتكذيبا . فزادهم الله نكالا وتدميرا . فهذا معنى (ما زادوهم) فهم لا يملكون لهم ضرا كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً . ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) كذلك الذي قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهي ظالمة . . ظالمة:مشاركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد في الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح . وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون (إن أخذة أليم شديد) بعد الإمهال والمتاع والابتلاء ، وبعد الإعذار بالرسول والبيئات ، وبعد أن يسود الظلم في الأمة ويسيطر الظالمون . ويتبين أن دعاة الحق المصلحين قلة منعزلة لا تأثير لها في حياة الجماعة الظالمة السائدة في الضلال . . ثم . . بعد أن تفصل العصابة المؤمنة قومها الساديين في الضلال ؛ وتعتبر نفسها أمة وحدها لها دينها ولها ربها ولها قيادتها المؤمنة ولها ولاؤها الخاص فيما بينها . وتعلن الأمة المشاركة من قومها بهذا كله ، وتدعها تلاقى مصيرها الذي يقدره الله لها . وفق سنته التي لا تتخلف على مدار الزمان . . ذلك الأخذ الأليم الشديد في الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أي الذين تفتحت بصائرهم ليركوا أن الذي يأخذ القرى بظلمها في هذه الحياة سيأخذها بنوبها في الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب . . وهنا يعبر أسياس بالقلب البشري من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن في وصل الرحلتين بلا فاصل في السياق:(إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة (ففي ذلك الأخذ الأليم الشديد مشابه من بهذه التقوى التي تجلو البصائر والقلوب . . والذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تفتح للآيات ، ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب في هذه الدنيا ، وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهما . ثم يأخذ في وصف ذلك اليوم (ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) وهنا يرتسم مشهد التجميع يشمل الخلق جميعا ، على غير إرادة منهم ، إنما هو سوق الجميع سوفا إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون (يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه) فالصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبنة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه . والكلام بإذن لا يجروء أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء الله فيخرج من صمته بإذنه . ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع (فمنهم شقي وسعيد) ومن خلال التعبير تشهد (الذين شقوا) شهدهم في النار مكروبي الأنفاس (لهم فيها زفير وشهيق) من الحر والكتمة والضيق . ونشهد (الذين سعدوا) نشدهم في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع . هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم (ما دامت السماوات والأرض) وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام والاستمرار . وللتعبير ظلال . وظل هذا التعبير هنا هو المقصود . وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين . وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله في النهاية . فمشيئة الله هي التي اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها . إنما هي طليقة تبدل هذه السنة حين يشاء الله (إن ربك فعال لما يريد) وزاد السياق في حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتى على فرض تبديل إقامتهم في الجنة . وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد . بعد هذا الاستطراد إلى المصير في الآخرة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام في الدنيا ، والمشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو هنا ثم هناك . . يعود السياق بما يستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول ﷺ

والقلة المؤمنة معه في مكة - تسرية وتثبिता ؛ وإلى المكذبين من قومه بيانا وتحذيرا . فليس هناك شك في أن القوم يعبدون ما كان أبأؤهم يعبدون - شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر - ونصيبتهم الذي يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد آخر عنهم فقد آخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى - بعد اختلافهم في دينهم - لأمر قد شاءه الله في إنظارهم . ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفي الموعد المحدود . ولم يؤخر عنهم العذاب لأنهم على الحق . فهم على الباطل الذي كان عليه أبأؤهم بكل تأكيد (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد أبأؤهم من قبل . وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) لا يتسرب إلى نفسك شك في فساد عبادة هؤلاء . والخطاب للرسول ﷺ والتحذير لقومه ، وهذا الأسلوب أفعال في النفس أحيانا ، لأنه يوحى بأنها قضية موضوعية بينها الله لرسوله ، وليست جدالا مع أحد ، ولا خطابا للمتلبسين بها ، إهمالا لهم وقلة انشغال بهم ! وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخاصة المجردة أثرها في اهتمامهم أكثر مما لو حوطينا بها خطابا مباشرا . . ومصيرهم إذن كمصيرهم . . العذاب . . ولكنه يلفه كذلك في التعبير تمشيا مع الأسلوب (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) ومعروف نصيبهم هذا من نصيب القوم قبلهم . وقد رأينا منه نماذج ومشاهد ! وقد لا يصيبهم عذاب الاستئصال

- في الدنيا - كما لم يصب قوم موسى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم ، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة : (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة ، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتابا ، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ، تستطيع الأجيال أن تدبره كالجيل الذي أنزل فيه . والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها وإما أن لا يؤمن فيأخذ العذاب . . . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظللان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير ، مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل فيصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعا يدعى إليه الناس جميعا ، ويحاسب على أساسه الناس جميعا ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل (وإنهم) . . . أي قوم موسى . . . (لفي شك منه مريب) . . . من كتب موسى ، لأنه لم يكتب إلا بعد أجيال ، وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتعبه . وإذا كان العذاب قد أجل . . . فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرا وشرها . سيفوهم بها العليم الخبير بها ولن تضع (وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم . إنه بما يعملون خبير) وفي التعبير تأكيدات متنوعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيل . وحتى لا يشك أحد في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي لا شك في بطلانه ، وأنه الشرك الذي زاوله من قبل كل المشركين ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة في تلك الفترة . فقد وقف المشركون وقفهم العنيدة منها ومن رسول الله ﷺ والقلة المؤمنة معه ، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب . بينما عذاب الله الموعود مؤجل لم يقع بعد . والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضي أعداؤها ناجين ! . . . إنها فترة تهتز فيها بعض القلوب . وحتى القلوب الثابتة تنالها الوحشة ، وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت . وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله ، وأنهم على الباطل الذي لا شك فيه ! كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله في إمهال الظالمين ، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم ، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون ! وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهذه العقيدة في النصوص القرآنية ، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة ، وكيف يكشف لها معالم الطريق ! ... ذلك البيان مع هذا التوكيد بلقي في النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها في خلقه وفي دينه وفي وعده وفي وعيدته . وإذن فليستقيم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم - كما أمروا - لا يغلون في الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق . ثم يتزودون بزاد الطريق ، ويصبرون حتى تتحقق سنة الله عندما يريد (فاستقم كما أمرت - ومن تاب معك - ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) هذا الأمر للرسول ﷺ (ومن تاب معك) فاستقم كما أمرت (أحسب - عليه الصلاة والسلام - برهته وقوته حتى روي عنه أنه قال مشيرا إليه " شيبنتي هود . . . " . فالاستقامة: الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف . وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبير الدائم ، والتحري الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلا أو كثيرا . . . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة (إنه بما تعملون بصير) والبصر - من البصيرة - مناسب في هذا الموضع ، الذي تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير . فاستقم - أيها الرسول - كما أمرت . ومن تاب معك (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ولا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا . إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القوة في الأرض ، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبدونهم لغير الله من العبيد . . . لا تركنوا إليهم فإن ركونهم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه ، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير (فتمسكم النار) جزاء هذا الانحراف (وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) والاستقامة على الطريق في مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين والله - سبحانه - يرشد رسوله ﷺ (ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق) (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل) ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذي يبقى حين يفنى كل زاد ، والذي يقيم البنية الروحية ، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب ببربها الرحيم الودود ، القريب المجيب ، وينسم عليها نسمة الأنس في وحشتها وعزلتها في تلك الجاهلية النكدة الكنود ! والآية هنا تذكر طرفي النهار - وهما أوله وآخره - وزلفا من الليل أي قريبا من الليل . وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دون تحديد عددها . والعدد محدد بالسنة وموافقته كذلك . والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة - أي أدائها كاملة مستوفاة - بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل حسنة ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهي داخلة فيه بالأولوية . لا أن الصلاة هي الحسنة التي تذهب السيئة بهذا التحديد - كما ذهب بعض المفسرين (ذلك ذكرى للذاكرين) فالصلاة ذكر في أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب والاستقامة في حاجة إلى الصبر . كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله في المكذبين يحتاج إلى الصبر . . . ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة

وعلى ما سبقه في السياق هو: (واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) والاستقامة إحسان . وإقامة الصلاة في أوقاتها إحسان . والصبر على كيد التكذيب إحسان . . . والله لا يضيع أجر المحسنين . .

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ {116}) وما كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ {117} وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {119} وَكَلَّا تَقْبِضَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ {120} وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ {121} وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ {122} وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {123}

ثم يعود السياق إلى تكملة التعليق والتعقيب على مصارع القرى والقرون . فيشير من طرف خفي إلى أنه لو كان في هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد في الأرض ، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم ، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين ، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد ، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة ، فانجاهم الله . وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم والخانعين لهم ، فاهلك القرى بأهلها الظالمين (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ! إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتباع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ) وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم . فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله ، في صورة من صورهِ ، فيجد من ينهض لدفعه هي أمة ناجية ، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير . فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد ، فإن سنة الله تحق عليها ، إما بهلاك الاستئصال . وإما بهلاك الانحلال . . والاختلال ! والتعقيب الأخير عن اختلاف البشر إلى الهدى وإلى الضلال ، وسنة الله المستقيمة في اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين - إلا من رحم ربك - ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك: لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد . . نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنوع فيها . وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدره على هذه الأرض . وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض . ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته . وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه . وأن يختار هو طريقه ، ويحمل تبعه الاختيار . ويجازي على اختياره للهدى أو للضلال . شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة . فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين . وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أصول العقيدة - إلا الذين أدركتهم رحمة الله - الذين اهتدوا إلى الحق - والحق لا يتعد - فاتفقوا عليه . وهذا لا ينفي أنهم مختلفون مع أهل الضلال . ومن المقابل الذي ذكره النص (وتمت كلمة ربك: لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يفهم أن الذين اتقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هو الجنة تمتليء بهم كما تمتليء جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق ، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة ! والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول ﷺ عن حكمة سوق القصص إليه في خاصة نفسه للمؤمنين . فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ، وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم في غيب الله . ثم ليعبد الله وليتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون) وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقال للذين لا يؤمنون: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون) ويا لله للرسول ﷺ لقد كان يجد من قومه ، ومن انحرافات النفوس ، ومن أعباء الدعوة ، ما يحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه - وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (وجاءك في هذه الحق) أي في هذه السورة . . الحق من أمر الدعوة ، ومن قصص الرسل ، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشري والوعيد (وموعظة وذكرى للمؤمنين) تعظهم بما سلف في القرون وتذكرهم بسنن الله وأوامره ونواهيهِ فأما الذين لا يؤمنون بعد ذلك فلا موعظة لهم ولا ذكرى . وإنما الكلمة الفاصلة والمفاصلة الحاسمة (وقال للذين لا يؤمنون: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون) كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم في هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه . . وما

ينتظرونه غيب من غيب الله (ولله غيب السماوات والأرض) والأمر كله إليه . أمرك وأمر المؤمنين ، وأمر الذين لا يؤمنون ، وأمر هذا الخلق كله ما كان في غيبه وما سيكون (فاعبده) فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة (وتوكل عليه) فهو الولي وحده والنصير . وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد (وما ربك بغافل عما تعملون)

وهكذا تختتم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية . بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده . والرجعة إليه في نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون . .

وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام ، والتناسق بين القصص والسياق ، بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . .

وبعد . فإن المتتبع لسياق هذه السورة كلها - بل المتتبع للقرآن المكي كله - يجد أن هناك خطأ أصيلا ثابتا عريضا عميقا ، هو الذي تركز عليه ؛ وهو المحور الذي تدور حوله ؛ وإليه ترجع سائر خطوطها ، وإليه تشد جميع خيوطها كذلك . . إنه خط العقيدة الذي يركز إليه هذا الدين كله . . وإنه محور العقيدة الذي يدور عليه هذا المنهج الرباني لحياة البشرية جملة وتفصيلا . .

وسنحتاج - في التعقيب الإجمالي على هذه السورة - أن نقف وقفات إجمالية كذلك على ذلك الخط وعلى هذا المحور - كما يتجلى في سياق السورة - وبعضها مما يكون قد سبق لنا الوقوف عنده شيئا ما . ولكننا في هذا التعقيب الإجمالي سنحتاج إلى الإلمام به ، ربطا لأجزاء هذا التعقيب الأخير:

إن الحقيقة الأولى البارزة في سياق السورة كله . . سواء في مقدمتها التي تعرض مضمون الكتاب الذي أرسل به محمد ﷺ أو في القصص الذي يعرض خط الحركة بالعقيدة الإسلامية على مدى التاريخ البشري . أو في التعقيب الختامي الذي يوجه رسول الله ﷺ إلى مواجهة المشركين بالنتائج النهائية المستخلصة من هذا القصص ومن مضمون الكتاب الذي جاءهم به في النهاية هي التأكيد على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره . . وتقرير أن هذا هو الدين كله . . وإقامة الوعد والوعد ، والحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ، على هذه القاعدة الواحدة الشاملة العريضة . . كما أسلفنا في تقديم السورة وفي مواضع متعددة من تفسيرها فيبقى هنا أن نجلي أولا طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة: إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .) (ألا تعبدوا إلا الله ، إنني لكم منه نذير وبشير . . .) وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي . . فهل مدلولهما واحد ؟ إن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه . . ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله والمدلول الثاني هو مقتضى المدلول الأول ومفهومه . . ولكن الأول "منطوق" والآخر "مفهوم" . . ولقد اقتضت حكمة الله - في بيان هذه الحقيقة الكبيرة - عدم الاكتفاء بالمفهوم ، في النهي عن عبادة غير الله . وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل . وإن كان مفهوما ومتضمنا في الأمر الأول ! إن هذا يعطينا إيحاء عميقا بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها في ميزان الله سبحانه ، بحيث تستحق ألا توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وأن يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن ! ولا بالمقتضى اللازم ! كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها . . عبادة الله . . وعدم عبادة سواه . . أن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء . . وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وإضافة النهي الصريح عن عبادة سواه إلى المفهوم الضمني الذي يتضمنه الأمر بعبادته وحده . . ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ، ولا يتركون عبادته ، ولكنهم مع هذا - يعبدون معه غيره ؛ فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون ! ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهى معا ؛ بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صورته الكثير . وقد تكرر مثل هذا التعبير القرآني في مواضع شتى ؛ هذه نماذج منها من هذه السورة (أَلَمْ يَأْمُرْ بِالْعِبَادَةِ إِلاَّ لِلَّهِ ، وَإِلاَّ لِلَّهِ الْغَيْبُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْغَنِيُّ) (هود: 2 - 1] (هود: 25 - 26] (وإلى عاد أخاهم هودا ، قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترونه) هود: 50]

وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد ، له دلالة من غير شك . سواء في تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات

الضمنية والمقتضيات اللازمة ، وإنما ينص نصا منطوقا على كل جانب فيها . أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله - سبحانه - بطبيعة الكائن الإنساني ، وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة ، وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش ، إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو ، الذي يتجلى فيه القصد والعمد . . . والله الحكمة البالغة . . . وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . ثم نقف أمام مدلول مصطلح "العبادة" الوارد في السورة - وفي القرآن كله - لنترك ما وراء ذلك التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره . وما وراء هذه العناية في التعبير عن شطري هذه الحقيقة في نص منطوق ، وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنية المفهومة إن إطلاق مصطلح "العبادات" على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل ، في مقابل إطلاق مصطلح: "المعاملات" على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل . . . إن هذا جاء متأخرا عن عصر نزول القرآن الكريم ؛ ولم يكن هذا التقسيم معروفا في العهد الأول .

" وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية . . . وما من أضحية يقدمها عابد الله لله ، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة ! من الأموال والأنفس والأعراض . . .

وتقام أصنام من "الوطن" ومن "القوم" ومن "الجنس" ومن "الطبقة" ومن "الإنتاج" . . . ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب . . .

وتدق عليها الطبول ؛ وتنصب لها الرايات ؛ ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد . . . إلا فالتردد هو الخيانة ، وهو العار . . . وحتى حين يتعارض العرض . مع متطلبات هذه الأصنام ، فإن العرض هو الذي يضحي ؛ ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم ! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام ، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام ! إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده في الأرض ؛ وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان . . . إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله لبيدل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله ! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذ هم جاهدوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض . . . إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ؛ وفوق ذلك كله الذل والذنس والعار ! وأخيرا فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ، ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة . كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها في الحياة فيها .

لقد هربت أوربا من الله - في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف - وثارَت على الله - سبحانه - في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحریتهم وكرامتهم - ومصالحهم كذلك - في ظل الأنظمة الفردية [الديمقراطية] وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية ، والأوضاع النيابية البرلمانية ، والحريات الصحفية ، والضمانات القضائية والتشريعية ، وحكم الأغلبية المنتخبة . . . إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة . . . ثم ماذا كانت العاقبة ؛ كانت العاقبة هي طغيان "الرأسمالية" ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات ، وكل تلك التشكيلات ، إلى مجرد لافعات ، أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال ، فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التي ظننها الناس هناك كفضيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحریتهم ، في معزل عن الله سبحانه !!

"ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغي فيها "رأس المال" و "الطبقة" إلى الأنظمة الجماعية ! فمادوا فعلا ؛ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك" ! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

"وفي كل حالة ، وفي كل وضع ، وفي كل نظام ، دان البشر فيه للبشر ، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال . إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله . . . والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلیاء . . . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحریاتهم وفضائلهم . ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية .

"من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله - سبحانه - وفي كتبه . . . وهذه السورة نموذج من تلك العناية . . . فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله ، في كل زمان وفي كل مكان ؛ وتتعلق بالجاهليات كلها . . . جاهليات ما قبل التاريخ ، وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد" .

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية: أنه يتجلى بوضوح من التقارير القرآنية بجملتها - وهذه السورة نموذج منها - أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية - التي يعبر عنها في هذه السورة بالعبادة - هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام ؛ وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام ! إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم . وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد . وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق . . ثم هي بعد - بعد ذلك لا قبله - قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام ؛ وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام . وتنفذ فيها الأحكام .

وكذلك فإن قضية "العبادة" ليست قضية شعائر ؛ وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة . . . وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين . . . واستحقت كل هذه الرسل والرسالات . واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ؛ ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية:

لقد بينا من قبل في التعقيب على قصة نوح أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي

عليه السلام أبي البشر الأول ، ثم على يدي نوح - عليه السلام - أبي البشر الثاني . . ثم بعد ذلك على يدي كل رسول . . . وأن الإسلام يعني توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والنصور والتوجه بالعبادة والشعائر ، وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع: أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجه والتشريع .

ثم بينا كذلك أن الجاهلية - سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر ! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع - أو هما معا - كانت تطرؤ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكانت تفسد عقائدهم وتصوراتهم ، كما تفسد حياتهم وأوضاعهم ؛ بالدينونة لغير الله - سبحانه - سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب ، أو روح أو أرواح شتى ؛ أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر: كاهن أم ساحر أم حاكم . . فكلها سواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك ، والخروج من الإسلام إلى الجاهلية .

ومن هذا التتابع التاريخي - الذي يقصه الله سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن ؛ وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه . . .

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية ، ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ - ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ؛ ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح ! - وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات رأسا في إحدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أختاتون مثلا في الديانة المصرية القديمة ؛ فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد - ولو على سبيل الاحتمال - وقد جاء أختاتون في مصر بعد عهد يوسف - عليه السلام - وتبشيريه بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم - حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف :-

(إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ؛ ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أرى رباً متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؛ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . . . [يوسف: 37 - 40]

وهم إنما يفعلون ذلك ، لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العدا والرفض للمنهج الديني ، بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوروبية والبحث العلمي في كل صوره في فترة من فترات التاريخ . فبدأ المنهج وفي عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها ، للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها . ومن أجل هذا جاء منهجا منحرفا منذ البدء ، لأنه يعتمد الوصول سلفا إلى نتائج معينة ، قبل البدء في البحث !

وحتى حين هدأت حدة العدا للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر في طريقه . لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذي قام عليه ، والتقاليد التي تراكمت على هذا الأساس ، حتى صارت من أصول المنهج !

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه . هذا الخطأ الذي طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع . .

على أنه أيا كان المنهج وأيا كانت النتائج التي يصل إليها ؛ فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقارير الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم . . وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه في مسألة من المسائل ؛ فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه "مسلم" أن يأخذ بتلك النتائج . ذلك أن التقارير القرآنية في مسألة الإسلام والجاهلية ، وسبق الإسلام للجاهلية في التاريخ البشري ، وسبق التوحيد للتعدد والتثنية . . قاطعة ، وغير قابلة للتأويل . فهي مما يقال عنه: إنه معلوم من الدين بالضرورة . وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة في هذا الأمر ، أن يختار بين قول الله سبحانه وقول علماء الأديان . أو بتعبير آخر: أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام ! لأن قول الله في هذه القضية منطوق وصریح ، وليس ضمنيا ولا مفهوما ! إن البشرية اليوم - بجمليتها - تزاو رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول - محمد ﷺ وهي جاهلية تتمثل في صور شتى:

بعضها يتمثل في إلحاد بالله سبحانه ، وإنكار لوجوده . . فهي جاهلية اعتقاد وتصور ، كجاهلية الشيوعيين .

وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه ، وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والاتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم . . وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك .

وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه ، وأداء للشعائر التعبدية . مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة . وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم "مسلمين" ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه - بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية ؛ مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ؛ ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد !

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين . أو شرك بالله كالآخرين . .

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ؛ تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجمليتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة ، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام مرات متعددة ، كان آخرها الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسي لطلائع البعث الإسلامي ، والمهمة الأساسية التي عليها أن تقوم بها للبشرية ؛ ونقطة البدء الحاسمة في هذه المهمة . إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام ككرة أخرى ، والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها . على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي: وهو الاعتقاد بالوهمية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده . . وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام ؛ ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ؛ ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك . وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعا ، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعاً . . إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام . فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذي يواجه الجاهلية ، ليرد الناس إلى الله مرة أخرى ، ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح في نفوس العصابة المسلمة التي تعاني مواجهة الجاهلية الشاملة في هذه الفترة النكدة من حياة البشرية . فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامي عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية ؛ وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلي - وهي تحسبه مجتمعا مسلما - وتفقد

تحديد أهدافها الحقيقية ، بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا ، لا من حيث تزعم ! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع . بعيدة جدا .

والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم . .

سورة يوسف

مكية و آياتها 111

هذه السورة مكية ، نزلت بعد سورة هود ، في تلك الفترة الحرجة التي تحدثنا عنها في تقديم سورة يونس وفي تقديم سورة هود . . بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة سندی رسول الله ﷺ وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجا ومخرجا بالهجرة إلى المدينة . . وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التي نزلت في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة وفي حياة الرسول ﷺ والعصبة المسلمة معه في مكة والسورة مكية بجملتها ، على خلاف ما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات [1 ، 2 ، 3 ، 7] منها مدنية . ذلك أن الآيات الثلاث الأولى هذا نصها (الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وهذه الآيات هي مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف عليه السلام . . ونص الآية التالية في السياق هو (إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين) ثم تمضي القصة بعد ذلك في طريقها إلى النهاية . فالقديم لهذه القصة بقول الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) يبدو هو التقديم الطبيعي للمصاحب لنزول القصة ، وكذلك هذه الأحرف المقطعة [الر] وتقرير أنها آيات الكتاب المبين . ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآنا عربيا . . هو كذلك من جو القرآن المكي ، ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذي كانوا يدعون أن أعجميا يعلمه لرسول الله ﷺ! وتقرير أنه وحي من الله كان النبي ﷺ من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته . ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة في نهايتها ، وهو قول الله تعالى: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . . فهناك حبكة بين التقديم للقصة والتعقيب عليها ؛ ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب . أما الآية السابعة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلا ؛ ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت في مكة وهي ليست من سياقها ثم أضيفت إليها في المدينة ! ذلك أن في الآية الثامنة ضميرا يعود على يوسف وإخوته في هذه الآية السابعة ، بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن تكون معها الآية السابقة . وهذا نصها (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلي أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين) مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معا ، في سياق السورة الموصول . والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحا وفي موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إحياءاتها . بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة . . ففي الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش - منذ عام الحزن - وتعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله - سبحانه - يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعاني صنوفا من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترجيع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز . ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه ، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم ، وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقي بعد ذلك إخوته الذين القوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها . . هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها ، وخرج منها كلها متحررا خالصا ؛ آخر توجهاته ، وآخر اهتماماته ، في لحظة الانتصار على المحن جميعا ؛ وفي لحظة لقاء أبويه ولم شمله ؛ وفي لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها (إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين) آخر توجهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه ، منخلعا من هذا كله بكلية كما يصوره القرآن الكريم (فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه ، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على

العرش ، وخرأ له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وإخواني ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم . . رب قد أتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما ، وأحقني بالصالحين)

وهكذا كانت طلبته الأخيرة . . بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولمة الشمل . . أن يتوفاه ربه مسلما ، وأن يلحقه بالصالحين . . وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير . . فلا عجب أن تكون هذه السورة . بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك ، مما ينزل على رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة معه في مكة ، في هذه الفترة بالذات ، تسلية وتسرية ، وتطمينا كذلك وتثبينا للمطاردين المغتربين المتوحشين ! لا بل أن الخاطر ليذهب بي اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين ؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراها تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه ، ليواجه هذه الابتلاءات كلها . ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز . . حتى وهو ما يزال فتى يباع بين الرقيق . . ! وما يذهب بي الخاطر إليه اللحظة يجعلني أندوق مذاقا خاصا - أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! - ذلك التعقيب الذي أعقب القصة (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استياس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستينس الرسل - كما استياس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ! . . الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة ، وهي في مثل هذه الفترة تعيش ، وفي جوها تتنفس ، فتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح . من بعيد . . والسورة ذات طابع منفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة . فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات ، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملا في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصرا مجملا . أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة . وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعا . هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ؛ ويؤديها أداء كاملا . . ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف ، وتنتهي بتأويلها . بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل في جميع الوجوه ؛ فوق تحقيقه للهدف الاصيل الذي من أجله سبقت القصة ، والتعقيبات التي تلتها . وسنحتاج أن نقول كلمة مفصلة - بعض الشيء - عن هذا الأداء الكامل ، تكشف عن ذلك المنهج القرآني الفريد .

. . وبالله التوفيق . .

إن قصة يوسف - كما جاءت في هذه السورة - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة ، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقدي والتربوي والحركي أيضا . . ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه ، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء !

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة - عرضا كاملا في كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ؛ وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات . . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا متجردا في وقفته الأخيرة ، متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا في نهاية الفقرة السابقة .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض ، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال . . وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة . متمثلة في نماذج متنوعة:نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول . . ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة ، والضعف

والحيرة أمام هذه المواجهة ، متميزا فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها . . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة . . ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية ! والأضواء التي تلقىها على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعا . وما وراء أستار القصور وديانها ومناوراتها ، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة . . ونموذج "العزيز" وعليه ظلال طبقته وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ! . . ونموذج "الملك" في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيدا عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق . . وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد ، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح "الواقعية" السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة . . فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة ، ذلك الأداء الصادق ، الرائع بصدق العميق وواقعيته السليمة . . المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة ، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستقعا من الوحل يسميه "الواقعية" كالمستقع الذي أنشأته "الواقعية" العربية الجاهلية !

وقد أملت القصة بألوان من الضعف البشري ؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسي ، ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيته الكاملة في هذه المواقف ، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف ، فإنها لم تسف قط لتنشئ ذلك المستقع المقرز للفترة السليمة ، ذلك الذي يسمونه في جاهلية القرن العشرين "الواقعية" أو يسمونه أخيرا "الطبيعة" ! .

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف:

إخوة يوسف . . والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها ! ثم تزين لهم "المحلل الشرعي" الذي يخرجون به من تلك الجريمة . . ملاحظا في هذا واقعيته في بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه - وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم ونقابليهم ، وحاجتهم النفسية - من ثم - إلى مبرر للجريمة ، وإلى طريقة للتخلل من نكارتها وبشاعتها (لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين . إذ قالوا:ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - ونحن عصابة - إن أبانا لفي ضلال مبين ! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ! قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة - إن كنتم فاعلين ! - قالوا: يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ! قال: إن ليحزنتني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصابة إننا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتبتئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا: يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ونحن نجدهم - هم هم - في كل مواقف القصة بعد ذلك - كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها - فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذي قدموا من بلادهم - كنعان - ليشتروا منه القمح في سنوات الجذب العجاف ، حيث يدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك في رحله . . ما إن يروا هذا التدبير - وهم لا يعلمون ما وراءه - حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف (قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرنا يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال: أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون) كذلك نجدهم - هم هم - بعد مواجهة أبيهم بالفجعة الثانية في شيخوخته الحزينة ، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم ، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة (وتولى عنهم وقال: يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين !) ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية - بعدما كشف لهم عن شخصيته - فلما رأوا أباهم يستشق عبير يوسف ، غاظهم هذا الاتصال الباطني الدال على عمق ما بينه وبين يوسف ، فلم يملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه (ولما فصلت العير قال أبوه: إنني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تصدقنا ! قالوا: تالله إنك لفي ضلالك القديم !) وامرأة العزيز . . في صرع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح ، فلا تحفل حياء أنثويا ولا كبرياء ذاتيا ، كما لا تحفل مركزا اجتماعيا ولا

فضيحة عائلية . . والتي تستخدم - مع ذلك - كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائم التهمة التي ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تؤدي بحياته ! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزميتها وكبريائها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تحمل المرأة وحياتها ، الأنثى التي لا تحس في إرواء هواتها الأنثوية أمرا يعاب أصلا ! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته ، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعيتها ، فإن الأداء القرآني - الذي ينبغي أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي - لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة - حتى وهو يصور لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها - لينشيء ذلك المستنقع الكريه الذي يتمرغ في وحله كتاب "القصة الواقعية" وكتاب "القصة الطبيعية" في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء ! (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلمنا ، وكذلك نحزي المحسنين . وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك ! قال: معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب ، وقيدت قميصه من دبر ، وأفيا سيدها لدى الباب ، قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟! قال: هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال: إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ! يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ! . . وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حبا ! إنا لنراها في ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت: اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن: حاش لله ! ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم . قالت: فذلكن الذي لمتنني فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال: رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم)

"وكذلك حين نلتقي بها مرة أخرى بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة ؛ وبقي هناك حتى رأى الملك رؤياه ، وتذكر الفتى الذي كان سجينا معه أن يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا ، فطلب الملك أن يأتوه به ، فأبى حتى يحقق قضيته ، ويبريء ساحته ، فاستدعاها الملك مع النسوة . وإذا بها ما تزال المرأة المحبة ، مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف ؛ ومع تسرب الإيمان الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعا (وقال الملك: انتوني به . فلما جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربك فاسأله: ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم . قال: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن: حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز: إن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم) ويوسف . . العبد الصالح - الإنسان - لم يزور الأداء القرآني في شخصيته الإنسانية لمحة واحدة ؛ وهو يواجه الفتنة بكل بشريته - مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه - وبشريته تمثل مجموعها واقعيته بكل جوانبها . . لقد ضعف حين همت به حتى هم بها ؛ ولكن الخيط الآخر شده وأنقذه من السقوط فعلا . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضا ! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى . . ليست هنالك لمحة واحدة مزورة في واقعية الشخصية وطبيعتها ؛ وليس هنالك راحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني ! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه . . والعزيز . . وشخصيته بطبيعتها الخاصة ، وبطبيعة سمت الإمارة ؛ ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها ! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته (فلما رأى قميصه قد من دبر ، قال: إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين !) والنسوة . . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه . . اللغظ بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه ، بعدما شغفها حبا ! والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . قم إقرارهن الانثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلفظن بقصتها ويستنكرن موقفها ؛ وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن (حاش لله ! ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم) نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام (قال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب

إيهن وأكن من الجاهلين) فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ؛ ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده ! والبيئة التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف في أمر يوسف ، على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ؛ ولا يهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيته (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) فإذا تابعنا شخصية يوسف - عليه السلام - فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية ، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية ، المتمثلة في كونه " العبد الصالح - الإنسان - بكل بشريته ، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه " فهو في السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته ! - لا يغفل عن الدعوة لدينه ، في كياسة وتلطف - مع الحزم والفضل - وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها . . كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه (ودخل معه السجن فتان . قال أحدهما:إني أراني أعصر خمرا ، وقال الآخر:إني أراني أحمل فوق رأسي خيزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن ، أرى باب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن ، أما أحكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتاكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان) وهو - مع هذا كله - بشر ، فيه ضعف البشر . فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله - سبحانه - شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده (وقال للذي ظن أنه ناج منهما:اذكرني عند ربك . فأناشاه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين) ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين ، وقد رأى الملك رؤياه ، فحار في تأويلها الكهنة والسدنة ؛ حتى تذكر صاحب السجن يوسف - بعدما تمت التربية الربانية للعبد الصالح ، فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره - حتى إذا ما طلب الملك - بعد تأويله لرؤياه - أن يأتيه به ، أجاب في هدوء المطمئن الواثق ؛ وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمة وتبرئة سمعته (وقال الملك:إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر بابسات . يا أيها الملأ أفتوتني في رؤيائي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا:أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة:إنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر بابسات ، لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال:تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه في سنبله ، إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن . إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . . وقال الملك:أئتوني به . . فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال نسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم . قال:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز:الآن ححصص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم . . وقال الملك:أئتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال:إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال:اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم) ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية ، مطمئنة ساكنة واثقة ، نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث ، وتتوارى تماما شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة . ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله (وكذلك مكننا ليوسف في الأرض يتبأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألوانا أخرى من الابتلاءات ، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى ؛ وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي ، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة . نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ؛ وهو في الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى . . ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته: (وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال:أئتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا:سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) ونجده وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه . فللمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة ، الضابطة الصابرة (ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه:قال:إني أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن:آيتها العير إنكم لسارقون . قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟ قالوا:نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا:تالله

لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا:فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا:جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم . قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرهما يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال:أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون . قالوا:يا أيها العزيز ، إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال:معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون) . ثم نلتقي به وقد استوفت المحنة بيعقوب أجلها ، وقدر الله أن تنقضي الابتلاءات التي نزلت به وببيته ، وحن يوسف إلى أبويه وأهله ، ورق لأخوته والضر باد بهم ، فكشف لهم عن نفسه ، في عتاب رقيق ، وفي عفو كريم ، يجيء في أوانه ، وكل الملابس توحى به ، وتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك (فلما دخلوا عليه قالوا:يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين . قال:هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا:أنتك لأنت يوسف ؟ قال:أنا يوسف ، وهذا أخي ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا:تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين . قال:لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصي هذه فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين) وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع . . موقف اللقاء الجامع ويوسف في أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه . . وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحى جانبا ينفرد بربه ، ويناجيه خالصا له ، وتلك كله مطروح وراءه (رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة . توفني مسلما وألحقني بالصالحين) إنها شخصية موحدة متكاملة ، بكل وأقبيتها الممتلئة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها .

ويعقوب . . الوالد المحب الملهوف ، والنبي المطمئن الموصول ، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معا تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف ؛ وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق ، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيهِ . فتتجلى شخصيته بواقعيته الكاملة في كل جوانبها (إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال:)(يا بني لا تقصص رؤياك علي إخوتك فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيته البشرية النبوية ، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجعية: (قالوا:يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون . قال:إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا إياهم عشاء يبكون ، قالوا:يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ؛ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعيته تلك - وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له . . أخي يوسف . . وقد طلبه منهم عزيز مصر - يوسف - الذي لا يعرفونه ! في مقابل أن يعطيهم كيلا يفتاتون به في السنوات العجاف ! (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا:يا أبانا متع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون:قال:هلي أمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؛ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا:يا أبانا ما نبغي ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير . قال:لئن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله:لتأتني به إلا أن يحاط بكم . فلما أتوه موثقهم قال:الله على ما نقول وكيل . . وقال:يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فقليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لئو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم نلتقي به في فجيعة الثانية . . والدا ملهوبا ونبيا موصولا . . ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيتخلف أحد أبناء يعقوب - صاحب الشخصية الخاصة فيهم ، متوافيا مع سماته التي صاحبته مواقفه كلها في القصة ، مشفقا أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه . إلا أن ياذن له أبوه أو يحكم له الله (فلما استياسوا منه خلصوا نجيا ، قال كبيرهم:الم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى ياذن لي أبي ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا:يا أبانا إن ابنك سرق ! وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واصل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون . قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن

فهو كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تياسوا من روح الله . إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتي نجد ذات الملامح وذات الواقعية . وهو يشم ريح يوسف في قميصه ، ويواجه غيظ بنيه وتبكيهم فلا يشك في صدق ظنه بربه (ولما فصلت العير قال أبوه:إني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا:تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا:يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال:سوف استغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم (إنها الشخصية الموحدة الخصائص واللامح ، الواقعية المشاعر والتصرفات ، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف ! والواقعية الصادقة الأمنية النظيفة السليمة في الوقت نفسه ، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع ، على هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها ، وفي بيئتها وملابساتها . . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها ؛ وتجيء في الصورة المتوقعة لها ؛ وتجيء في مكانها من مسرح العرض ؛ متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها . . الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضا كما قررنا من قبل هنا . حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق "بالإنسان" في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري ؛ وكما لو كانت هي محور حياته كلها ، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق ! إن الجاهلية إنما تفسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني ! وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجمليتها ؛ فتنشئ منها مستقفا واسعا عميقا ، مزيئا في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية ! وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هي مخرصة في تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن "بروتوكولات صهيون" تريد هذا ! تريد تجريد "الإنسان" إلا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ؛ فهذه هي أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب "العلمية" ! "المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم "الداروينية" وتارة باسم "الفرويدية" وتارة باسم "الماركسية" أو "الأشترابية العلمية" . . وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة ! والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة ، وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة ، وتسجل سماتها العامة ، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية . . ونكتفي ببعض اللمحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد ، إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ إنما كان يحكمها "الرعاة" الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريبا منهم ، فعرفوا شيئا عن دين الله منهم . تأخذ هنا من ذكر القرآن للملك بلقب "الملك" في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بعد بلقبه المعروف . "فرعون" . . ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ؛ وهي أسر "الرعاة" الذين سماهم المصريون "الهكسوس" ! كراهية لهم ؛ إذ يقال:إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة:"الخنازير" أو "رعاة الخنازير" ! وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو في السجن ؛ وقرر أنها دين أبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة ، فيما حكاها القرآن الكريم من قوله (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالأخرة هم كافرون . واتبعت ملة أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة وشاملة - كما جاء به رسل الله جميعا - من ناحية أصول العقيدة . تحتوي ، الإيمان بالله ، والإيمان بالأخرة ، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا ، ومعرفة الله سبحانه بصفاته . . الواحد ، القهار . . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ؛ ومن ثم نفى الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد ، وإعلان السلطان والحكم لله وحده ، ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره . ومزاولة السلطان والحكم والرؤية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده . وتحديد معنى "العبادة" بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للرؤية ، وتعريف الدين القيم بأنه أفراد الله سبحانه بالعبادة - أي إفراده بالحكم - فهما

مترادفان أو متلازمان (إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم) وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها . وواضح أن يوسف - عليه السلام - عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر ، استمر في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولا بد أن الإسلام انتشر في مصر على يديه - وهو يقبض على أوقات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم - وانتشر كذلك في البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لثقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره - وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمناروا من مصر ويتزودوا ، مما يصور حالة الجذب التي حلت بالمنطقة كلها في هذه الفترة . والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئاً عنها في أول القصة ، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها . والإشارة الأولى وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف (فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن وقلن: حاش لله ! ما هذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم) ووردت في قول العزيز لامراته (يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ؛ إنك كنت من الخاطئين) أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التي يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت في النهاية ، فيما حكاها عنها السياق القرآني (قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي . إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم) وإذا اتضح أن ديانة التوحيد - على هذا المستوى - كانت قد عرفت قبل تولي يوسف مقاليد الحكم في مصر ؟ فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع في أثناء توليه الحكم ، ثم من بعد ذلك في عهد أسر الرعاة . فلما استرد الفراعنة زمام الأمور في الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة في ذرية يعقوب التي تكاثرت في مصر ، لإعادة الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية ! وهذا يكشف لنا سبباً أصيلاً من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبني إسرائيل - أي يعقوب - إلى جانب السبب السياسي ، وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا في عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بني إسرائيل أيضاً . . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغي أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع . ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين ! فهي العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت ، فقد كان الصراع الحقيقي بين عقيدة التوحيد التي تفرد الله سبحانه بالربوبية ، وتفرد به العبادة - أي بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده - وبين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية ، ولا تقوم إلا بها . ولعل التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به "أخناتون" لم يكن إلا أثراً من الآثار المضطربة التي بقيت من التوحيد الذي نشره يوسف عليه السلام في مصر كما أسلفنا ؛ وبخاصة إذا صح ما يقال في التاريخ من أن أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية ! وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التي وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها . فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية ، وتسجل طابع العصر كله . فواضح تماماً انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التي لا تقتصر على أرض واحدة ، ولا على قوم بأعيانهم . . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة في رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها في النهاية . وفي رؤيا الفتيتين صاحبي السجن . وفي رؤيا الملك في النهاية . . وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشي بطابع العصر كله ! وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية . غنية كذلك بالعنصر الإنساني ، حافلة بالانفعال والحركة . وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازاً قوياً . فضلاً على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة ، ذات الإيقاع الموسيقي المناسب لكل جو من الأجواء التي يصورها السياق . في القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات متنوعة واضحة الخطوط والظلال: في حب يعقوب ليوسف وأخيه وحيه لبقية أبنائه . وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها . وعنصر أغيره والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوي . وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة ؛ فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب لتلقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة . . وعنصر المكر والخداع في صور شتى . من مكر إخوة يوسف به ، إلى مكر امرأة العزيز يوسف وبزوجها وبالنسوة . وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام . وبالإعجاب والتبني ، والاعتصام والتأبي . وعنصر الندم في بعض ألوانه ، والغفو في أوانه . والفرح بتجمع المتفارقين . . وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العلية من الملأ: في البيت والسجن والسوق والديوان - في مصر يومذاك . والمجتمع العبراني ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات . وتبدأ القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ، وينصحه بالأ يقصها على إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كتاب "العهد القديم" بعد هذا الختام الفني الدقيق ، الوافي بالغرض الديني كل الوفاء . وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف . فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق ، ويظل تأويلها

مجهولا ، يتكشف قليلا قليلا ، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تعمل فيه ولا اصطناع ! والقصة مقسمة إلى حلقات . كل حلقة تحتوي جملة مشاهد . والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تخيل القاريء وتصوره ، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال ، مع ما في هذا من تشويق ومتاع . . . وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف ، وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء . وفي هذا القدر ما يكشف عن مدى الإمكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلامي ، لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة ، دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفضن يقدم ل "الإنسان" ! وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية ؛ وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها . ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها . إلى جانب الحقائق الكبرى التي تتقرر من خلال سياق القصة ، ثم من خلال سياق السورة كلها بعد ذلك . وبخاصة تلك التعقيبات الأخيرة في السورة . .

ونكتفي في هذا التقديم للسورة بلمحات سريعة من هذا كله:

إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعا ؛ واستيفاء مقوماتها الأساسية في كل رسالة ؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه ، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده ، ودينونة البشر له وحده . . . كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة . وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه "علم الأديان المقارن" من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيرا جدا ، بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة ؛ وأنها ترقى في معرفة العقيدة كما ترقى في معرفة العلوم والصناعات . . . هذه المزاعم التي تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات .

كذلك هي تقرر طبيعة ديانة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعا . . . إنه ليس توحيد الألوهية فحسب . ولكنه كذلك توحيد الربوبية . . . وتقرير أن الحكم لله وحده في أمر الناس كله ؛ وأن هذا التقرير شيء من أمر الله سبحانه بالأبعد إلا إياه . والتعبير القرآني الدقيق في هذه القضية يحدد مدلول "العبادة" تحديدا دقيقا . فهي الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر . . . وهذا وحده هو "الدين القيم" فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده ، وما لم يكن الحكم لله وحده . ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله في شأن واحد من شؤون الحياة . فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية . والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله . . . أو أن تكون العبادة لله . . . فهما مترادفان أو متلازمان . والعبادة التي يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه . . .

وهذا التقرير القرآني بصورته هذه الجازمة ينتهي كل جدل في اعتبار الناس في أي زمان وفي أي مكان مسلمين أو غير مسلمين ، في الدين القيم أم في غير هذا الدين . . . فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة . . . من دان لغير الله وحكم في أي أمر من أمور حياته غير الله ، فليس من المسلمين وليس في هذا الدين . ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمة ورفض الدينونة لغيره من خلانقه فهو من المسلمين وفي هذا الدين . . . وكل ما وراء ذلك تمحل لا يحاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل في بيئة من البيئات وفي قرن من القرون ! ودين الله واضح . وهذا النص وحده كاف في جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة . من جادل فيه فقد جادل في هذا الدين !

ومن الإيحاءات الواردة في ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلى في قلبي عبيد صالحين من عباد الله المخترين: يعقوب ويوسف:

فأما يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجردا من كل شيء ، نافضا عنه كل شيء ، متجها إلى ربه ، مبتهلا إليه في انكسار وفي خشوع بناجيه (رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفيني مسلما وألحقني بالصالحين) ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شيء في هذا الجانب ؛ فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف ، موصولا بربه ، يحسه - سبحانه - قريبا منه مستجيبا له (في موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف (معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثوأي . إنه لا يفلح الظالمون) وفي الموقف الآخر وهو يخشى على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك (رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) وفي موقف تعريف نفسه لأخوته ، يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها (قالوا:أنك لأنت يوسف ؟ قال:أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية في مكة ، إلى حاجة الحركة الإسلامية في

كل فترة . وأما يعقوب ففي قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة في كل موقف وفي كل مناسبة ؛ وكلما اشتد البلاء شفت تلك الحقيقة في قلبه ورفقت بمقدار ما تعمقت وبرزت . فمئذ البدء ويوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) وفي مواجهة الصدمة الأولى في يوسف يتجه إلى ربه مستعينا به (قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) وفي مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه ، وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، لا ينسى أن هذا التدبير لا يعني عنهم من الله شيئا ، وأن الحكم النافذ هو حكم الله وحده ؛ وإنما هي حاجة في النفس لا تعني من الله وقدره (وقال: يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون) وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه ، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه (قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعا ؛ إنه هو العليم الحكيم) ثم يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهائم والصفاء ، وبنوه يؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن ؛ فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها ، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون ؛ فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه ، ورجاؤه في رحمته وروحه (وتولى عنهم وقال: يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا قالوا: تالله تفتنا تذكر يوسف حتى تكون حرزا أو تكون من الهالكين ! قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تياسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ولقد ذكرهم بما يعلمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه ، وهم يجادلونه في ربح يوسف ، وقد صدق الله فيه ظنه (ولما فصلت العير قال أبوه: إنني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تضنون . قالوا: تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال: ألم أقل لكم: إنني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) إنها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفاة المختارة . وهي تحمل الإيحاء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة ؛ كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة ، لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضا . وأخيرا نجى إلى التعقيبات المتنوعة التي جاءت بعد القصة الطويلة إلى نهاية السورة .

إن التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله ﷺ بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله ﷺ حاضرا وقائعه (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصص في الاتجاه ذاته (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثرا موحيا من المؤثرات الكثيرة في سياق السورة ، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها ، وتوكيدها في مواجهة الاعتراض والتكذيب . ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله ﷺ وتهوين أمر المكذبين على نفسه . وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات الماثرة في كتاب الكون ، وهي حسب الفطرة السليمة في التنبيه إلى دلائل الإيمان ، والاستماع إلى الدعوة والبرهان . ثم تهديهم بعذاب الله الذي قد يفاجئهم وهم غافلون (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأي من آية في السماوات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . فأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟) وهي إيقاعات مؤثرة بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح . وبخاصة في قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بالشرك ، لأنها لم تحسم في قضية التوحيد . وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحى ، بتوجيه الرسول ﷺ إلى تحديد طريقه وتميزها وإفرادها عن كل طريق ، والمفاضلة على أساسها الواضح الفريد (قل: هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين) ثم تختم السورة بإيقاع آخر يحمل عبرة القصص القرآني كله ، في هذه السورة وفي سواها . يحملها للنبي ﷺ والقلة المؤمنة معه ، ومعها التثبيت والتسرية والبشرى ؛ ويحملها للمشركين المعاندين ، ومعها التذكير والعظة والنذير . كما أن فيها للجمع تقريراً لصدق الوحي وصدق الرسول ؛ وتقريراً لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة ، مع تخلص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟) حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

وبعد فاعل من المناسب في تقديم السورة التي حوت قصة يوسف ، نموذجاً كاملاً للأداء الفني الصادق الجميل ، أن نلم بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني في السورة بكاملها وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تمثل سائرهما:

في هذه السورة - كما في السور القرآنية الأخرى - تتكرر تعبيرات معينة ، تؤلف جزءاً من جو السورة وشخصيتها الخاصة . وهنا يرد ذكر العلم كثيراً ، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى: (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) (وكذلك مكننا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين) (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ؛ إنه هو السميع العليم) (قال: لا يأتيكما طعام تزرعانه ، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمني ربي) (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (قال: اجعلني على خزائن الأرض ؛ إني حفيظ عليم) (وإنه لذنو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) (قال: ألم أقل لكم: إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث) وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفة في هذا الكتاب الكريم .

وفي السورة تعريف بخصائص الألوهية ، وفي مقدمتها "الحكم" وهو يرد مرة على لسان يوسف - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية ، ويأتي مرة على لسان يعقوب - عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القدرية ، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفواً ولا مصادفة أبداً (يقول يوسف في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحداية الألوهية) يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم) ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض (يا بني: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون) وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم ، كالدينونة القهرية له سبحانه في القدر . فكلاهما من العقيدة ؛ وليست الدينونة في القدر القاهر وحدها هي الداخلة في نطاق الاعتقاد ، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد . ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف المدخل ، صفة الله المناسبة (اللطيف) في الموقف الذي يتجلى فيه لطف الله في التصريف (ورفع أبويه على العرش ، وخرخوا له سجداً . وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . . إن ربي لطيف لما يشاء . . إنه هو العليم الحكيم) ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق في السورة بين تقديم القصص ، والتعقيب المباشر عليه ، والتعقيب الختامي الطويل . . وكل هذه التعقيبات تتجه إلى تقرير قضايا واحدة ، وتتلاقى عليها بين البدء والختام . .

وحسبنا في التعريف بالسورة هذه اللمسات حتى نلتقي بها في السياق .

(الر تِلْكَ آيَاتُ كُوبًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ } 4 { قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } 1 { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } 2 { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ } 3 { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَلْبًا لِلْإِنْسَانِ عِدُوًّا مُبِينًا } 5 { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 6 { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ } 7 { إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } 8 { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحُلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } 9 { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } 10 { قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } 11 { أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ } 12 { قَالَ إِنِّي لِيَحْزَنُنِي

أَنْ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {13} قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ {14} فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {15} وَجَاوُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ {16} قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مِتَابَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {17} وَجَاوُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {18} وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى بَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {19} وَشَرُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ {20}

الموضوع: يوسف من بيت أبيه إلى بيت مصر هذا الدرس هو المقدمة ، ثم الحلقة الأولى من القصة ، وتتألف من ستة مشاهد ، وتبدأ من رؤيا يوسف إلى نهاية مؤامرة إخوته عليه ، ووصوله إلى مصر . . وسنواجه النصوص الواردة فيه مباشرة ، بعد ذلك التقديم السابق للسورة ، وفيه غناء (ألر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) (ألف . لام . را . . تلك آيات الكتاب المبين) هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم . هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزل الله كتابا عربيا مؤلفا من هذه الأحرف العربية المعروفة (لعلكم تعقلون) وتذكر أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشرا ، فلا بد عقلا أن يكون القرآن وحيا . والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالاتها القاهرة . ولما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب ، على وجه التخصيص (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) فبإحساننا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص - وهو أحسن القصص - وهو جزء من القرآن الموحى به (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) فقد كنت أحد الأميين في قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق . ثم يرفع الستار عن المشهد الأول في الحلقة الأولى ، لنرى يوسف الصبي يقص رؤياه على أبيه (إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لي ساجدين . قال: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) كان يوسف صبيا أو غلاما ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان ؛ وأقرب ما يراه غلام - حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به - أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يطولها . ولكن يوسف رآها ساجدة له ، متمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيما . والسياق يروى عنه في صيغة الإيضاح المؤكدة (إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) ثم يعيد لفظ رأى (رأيتهم لي ساجدين) لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنا عظيما لهذا الغلام . لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك . ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها . أما تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب . ولهذا نصحه بالأ يقص رؤياه على إخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير - غير الشقيق - فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم ، فتمتليء نفوسهم بالحق ، فيبدروا له أمرا يسوؤه (قال: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) ثم علل هذا بقوله (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويزين لهم الخطيئة والشر . ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد أحس من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن ، يتجه خاطره إلى أن هذا الشأن في الدين والصلاح والمعرفة ؛ بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه ، وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون . فتوقع أن يكون يوسف هو الذي يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتمتثل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم . فقال له (وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له ، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق [والجد يقال له أب] هذا طبيعي . ولكن الذي يستوقف النظر قوله (ويعلمك من تأويل الأحاديث) والتأويل هو معرفة المأل . فما الأحاديث ؟ . أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مألها الذي تنتهي إليه ، منذ أوائلها . وهو إلهام من الله لذوي البصائر المدركة النافذة ؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل في حياة يوسف فيما بعد ؟ كلاهما جانز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب . وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام وهي موضوع هذه القصة وهذه السورة . إنا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو

البعيد . ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه في السجن ، ورؤيا الملك في مصر . وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده . لأنه موجود بالفعل ! والسبب الأول يكفي ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا بتعنت . فما هي طبيعة الرؤيا ؟ تقول مدرسة التحليل النفسي: إنها صور من الرغبات المكبوتة تنتفض بها الأحلام في غياب الوعي . وهذا يمثل جانباً من الأحلام . ولكنه لا يمثلها كلها . [وفرويد] ذاته - على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته - يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية . فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية ؟ وقبل كل شيء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها . إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب ، وبعض سنن الله في هذا الوجود . ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤى على هذا النحو . . إن حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل ، أو الحاضر المحجوب . وأن ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنما يحجبه عنا عامل الزمان ، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان . وأن حاسة ما في الإنسان لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان ، فتغلب على حاجز الزمان وترى ما وراءه في صورة مبهمه ، ليست علماً ولكنها استشفاف ، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس ، وفي الرؤى لبعضهم ، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان ، أو هما معا في بعض الأحيان . وإن كنا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان . كما أن حقيقة المكان ذاتها - وهي ما يسمى بالمادة - ليست معلومة لنا على وجه التحقيق (وما أوتيت من العلم إلا قليلاً)! ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر: مشهد إخوة يوسف يتآمرون ، مع حركة تنبيه لأهمية ما سيكون) لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقب عن الآيات ويسأل ويهتم . وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام . لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات . فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون . ترى حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب "العهد القديم" ؟ إن السياق هنا يفيد أن لا . فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم . أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على السنتهم ، ولكانت ادعى إلى أن تلهج أسنتهم بالحقد عليه . فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له . ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة ، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة ، والتي تمهد لها ظروف حياته ، وواقع أسرته ، ومجيئه لأبيه على كبره . وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء ، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر . كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، وإخوته من أمهات (إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة) أي ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفع (إن أبانا لفي ضلال مبين) إذ يؤثر غلاماً وصبياً صغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين ! ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح . روح غلام بريء لا يملك دفعا عن نفسه ، وهو لهم أخ . وهم أبناء نبي - وإن لم يكونوا هم أنبياء - بهون هذا . وتتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب . حتى توازي القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله (اقتلوا يوسف . أو اطرحوه أرضاً) وهما قريب من قريب . فطرحه في أرض نائية مقطوعة مفض في الغلب إلى الموت . . ولماذا ؟ (يخل لكم وجه أبيكم) فلا يحجبه يوسف . وهم يريدون قلبه . كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه ، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين ! والجريمة ؟ الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) ! هكذا ينزغ الشيطان ، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاك ؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة ، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان ! ولكن ضميراً واحداً فيهم ، يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه . فيقترح حلاً يريحهم من يوسف ، ويخلي لهم وجه أبيهم ، ولكنه لا يقتل يوسف ، ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك . إنما يلقيه في الجب على طريق القوافل ، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتتقذه وتذهب به بعيداً (قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة . إن كنتم فاعلين) ونحس من قوله: (إن كنتم فاعلين) روح التشكيك والتشيط . كأنه يشككهم في أنهم مصررون على إيقاع الأذى بيوسف . وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل ، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ . ولكن هذا كان أقل ما يشفي حقدهم ؛ ولم يكونوا على استعداد

للتراجع فما اعترموه . . نفهم هذا من المشهد التالي في السياق . . فما هم أولاء عند أبيهم ، يراودونه في اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة . وما هم أولاء يخادعون أباهم ، ويمكرون به ويوسف . فلتشهد ولنستمع لما يدور (قالوا: يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ! قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون) والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب ، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم (يا أبانا) بهذا اللفظ الموحى المذكر بما بينه وبينهم من أسرة (مالك لا تأمنا على يوسف ؟) سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي ، وفيه استحاشة لنفي مدلوله من أبيهم ، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف . فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المرأعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار ، لا لأنه لا يأمّنهم عليه . فمبادرتهم له بأنه لا يأمّنهم على أخيهم وهو أبوهم ، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر ؟ ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف . فهي مبادرة مأكرة منهم خبيثة ! (مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون) قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء - وكاد المرعب أن يقول خنوني - فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المرعب (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) زيادة في التوكيد ، وتصويرا لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة والرياضة ، مما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون . وردا على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي - بطريق غير مباشر - أنه لا يأمّنهم عليه ، ويعلل احتجاجه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئب (قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) (إني ليحزنني أن تذهبوا به) إني لا أطيق فراقه . . ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها . أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم ، وهو ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) ولا بد أنهم وجدوا فيها عنرا كانوا يبحثون عنه ، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة ، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب ! وأختاروا أسلوبا من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه (قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون) لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإنا لخاسرون كل شيء ، فلا نصالح لشيء أبدا ! وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج . . ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته ! ... والآن لقد ذهبوا به ، وما هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء . والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي ، وأنه سيعيش وسيذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) فقد استقر أمرهم جميعا على أن يجعلوه في غيابة الجب ، حيث يغيب فيه عنهم . وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفرع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له ولا مغيث وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء . في هذه اللحظة البائسة يلقي الله في روعه أنه ناج ، وأنه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع ، وهم لا يشعرون بأن الذي يواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابة الجب وهو صغير . وندع يوسف في محنته في غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله في روعه وبطنته ، حتى يأذن الله بالفرج . ندعه لتشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع (وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا: يا أبانا ، إنا ذهبنا نستيق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) لقد ألهم الحقد الفائر عن سبب الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتبهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلا على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها . فلم يكن من المستعاج أن يذهبوا في الصباح ليركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لظخوه به في غير إيقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب . . فعلوا هذا (وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا: يا أبانا ، إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المرعب أن يقول خنوني ، فيقولون (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أي وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول . وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبوا له مكيدة ما . وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، ويصفون له حالا لم تكن ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرا منكرًا وذللته ويسرت لهم ارتكابه ؛ وأنه سيصبر متحملا متجملا لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب (قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ثم لنعد سريعا إلى يوسف في الجب ، لنرى المشهد الأخير في هذه الحلقة الأولى من حلقات القصة (وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه قال: يا بشري . هذا غلام . وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ،

وكانوا فيه من الزاهدين) لقد كان الجب على طريق القوافل ، التي تبحث عن الماء في مضافه ، في الأبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك (وجاءت سيارة) أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشفة والجوالة والقناصة (فأرسلوا واردهم) أي من يرد لهم الماء ويكون خبيراً بمواقعه (فأدلى دلوه) لينظر الماء أو ليملاّ الدلو - ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية للقارئ والسماع (قال: يا بشري! هذا غلام!) ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل ، وحال يوسف ، وكيف ابتهج للنجاة ، ليتحدث عن مصيره مع القافلة (وأسروه بضاعة) أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقاً . ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار . ثم باعوه بثمن قليل (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) وكانوا يتعاملون في القليل من الدراهم بالعد ، وفي الكثير منها بالوزن (وكانوا فيه من الزاهدين) لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه . وكانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم .

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {21}) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُحْسِنِينَ {22}) وَرَاوَدَتْهُ الْيَاقُونَِيَّةُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {23}) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بَرَّهَانَ رَبَّهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {24}) وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جِزَاءٌ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابَ أَلِيمٍ {25}) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَانِئِينَ {26}) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ {27}) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ {28}) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ {29}) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {30}) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَيْبَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ {31}) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَ وَيَكُونَ مِنَ الصَّاعِرِينَ {32}) قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ {33}) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ({34}) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ {35})

الحلقة الثانية من حلقات القصة ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع ببيع الرقيق ، ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير - والخير يتوسم في الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجيا الملاح - فإذا هو يوصي به امرأته خيرا ، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا . ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتى حكما وعلما يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله . إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور ، وفي جو ما يسمونه الطبقة الراقية وما يغشاها من استهتار وفجور . . ويخرج يوسف منها سليما معافى في خلقه وفي دينه ، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل من الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

إن السياق لا يكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه ، وسنعلم بعد شوط في القصة أنه عزيز مصر [قيل: إنه كبير وزرائها] ولكن نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن ، وإن المحنة قد انتهت بسلام ، وأنه مقبل بعد هذا على خير (أكرمي مثواه) والمثوى هو مكان الثوي والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته . . وهي مبالغة في الإكرام . في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف والام ! ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خير ، وما يتطلع إليه فيه من أمل (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات . ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذه ولدا إذا صدقت فراسته ، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته . وهنا يقف السياق لينبه إى أن هذا التدبير من الله ، وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين في الأرض - وها قد بدأت بشأته بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته - ويشير إلى أنه ماض في الطريق ليعلمه الله من تأويل الأحاديث - على الوحيين اللذين ذكرناهما من قبل - ويعقب السياق على هذا الابتداء في

تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة الله غالبية ، لا تقف في طريقها قوة ، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل) وكذلك مكننا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره) وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أمرا ، وأراد له الله أمرا ، ولما كان الله غالبا على أمره ومسيطرا فقد نفذ أمره ، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأقلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون . ويمضي السياق ليقدر أن ما شاء الله ليوسف وقال عنه (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) قد تحقق حين بلغ أشده (ولما بلغ أشده أتيناها حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين) فقد أوتى صحة الحكم على الأمور ، وأوتى علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا ، أو بما هو أعم ، من العلم بالحياة وأحوالها ، فاللفظ عام ويشمل الكثير . وكان ذلك جزاء إحسانه . إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك (وكذلك نجزي المحسنين) وعندئذ تجبئه المحنة الثانية في حياته ، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولى . تجبئه وقد أوتى صحة الحكم وأوتى العلم - رحمة من الله - لبواجبها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه ... والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك ! قال: معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون - ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين - واستبضا الباب وقدمت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب . قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ؟ إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال: هي راودتني عن نفسي . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال: إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين) إن السياق لم يذكر كم كانت سننها وكم كانت سنة ؛ فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير . لقد كان يوسف غلاما عندما التقطته السيارة وباعته في مصر . أي إنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد . فهذه هي السن التي يطلق فيها لفظ الغلام ، وبعدها يسمى فتى فشابا فرجلا . . . وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب (وأخاف أن يأكله الذئب) وفي هذا الوقت كانت هي زوجة ، وكانت وزوجها لم يرزقا أولادا كما يبدو من قوله (أو نتخذ ولدًا) فهذا الخاطر . . خاطر التبني . . لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد ؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد . فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة ، يعلمان فيها أن لا ولد لهما . وعمل كل حال فالتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنة عن أربعين سنة ، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالي الثلاثين . ونتوقع كذلك أن تكون سننها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها . وهي السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها . . نرجحه لأن تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة ، مألوفة لكيدها ، متهاككة كذلك على فتاها . ونرجحه من كلمة النسوة فيما بعد . . (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى عبد ، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف . وهو ما ترجمه شواهد الحال . نبحت هذا البحث ، لنصل منه إلى نتيجة معينة . لنقول: إن التجربة التي مر بها يوسف - أو المحنة - لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق . إنما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر ، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، مع جو القصور ، وجو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها أمراته مع يوسف (يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وكفى ! والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز ، فيكون جوابها عليهن ، مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها ، فيفتتن به ، ويصرحن ، فتصرح المرأة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاعرين) فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة . هي بيئة الطبقة المترفة دائما . ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة . . فهذه هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف ، وصمد لها ، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة . ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة الصمود لها هذا الأمد الطويل . أما هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل ، لما كان عسيرا أن يصمد لها يوسف ، وبخاصة أنه هو المطلوب فيها لا طالب . وتهالك المرأة قد يصد من نفس الرجل . وهي كانت متهاككة . والآن مع النصوص (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت: هيت لك !) وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير . . وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تحتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير (وقالت: هيت لك !) هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة . وقد لا تكون أبدا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارا . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج ، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة (قال: معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون) (معاذ الله) أعيد نفسي بالله أن أفعل (إنه ربي

أحسن مثواي) وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه . والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التآبي ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود . فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعت إليه دعوة غليظة جاهزة بعد تعليق الأبواب ، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتحمل القرآن في حكايته وروايته (وقالت: هيت لك) (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)! لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة . فاما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعاً شيقاً ، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على أصبعه بضمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن ! - تنهي عن مثل هذا المنكر ، وهو لا يرعوي ! حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبيدي ، فجاء فضربه في صدره . . إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع ! وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك . أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف ، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعدهما أوتيهما الذي خطر لي أن قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم . . وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ؛ ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاح . . ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبية ؛ لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة ، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً . هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ، وبتصور الظروف . وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية . وما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات . فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتآبي (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين) (واستبقا الباب) فهو قد أثر التلخص بعد أن استفاق . . وهي عدت خلفه لتمسك به ، وهي ما تزال في هياجها الحيواني (وقدت قميصه من دبر) نتيجة جذبها له لترده عن الباب وتقع المفاجأة (وألفيا سيدها لدى الباب) وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب . إنها تتهم الفتى (قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟) ولكنها امرأة تعشق ، فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون (إلا أن يسجن أو عذاب اليم)! ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل (قال: هي راودتني عن نفسي)! وهنا يذكر السياق أن أحداً أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع (وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه ؟ هل كان مع زوجها [سيدها بتعبير أهل مصر] وشهد الواقعة ؟ أم أن زوجها استدعا وعرض عليه الأمر ، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيراً من أسرة المرأة ويطلع عليه ما رأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم ! هذا وذلك جائز . وهو لا يغير من الأمر شيئاً . وقد سمي قوله هذا شهادة ، لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروف من الجانبين - ولكل منها ومن يوسف قول - سميت فتواه هذه شهادة ، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه . . فإن كان قميصه قد من قبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب . وإن كان قميصه قد من دبر فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هيلة حتى ألباب ، وهي كاذبة وهو صادق . . وقدم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبه ، فهي السيدة وهذا فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول ! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة (فلما رأى قميصه قد من دبر) تبين له حسب الشهادة المبينة على منطلق الواقع أنها هي التي راودت ، وهي التي دبرت الاتهام . . وهنا تبدو لنا صورة من " الطبقة الراقية " في الجاهلية قبل آلاف السنين وكانها هي هي اليوم شاخصة . رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله (قال: إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين)! هكذا . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق . والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء . فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إن كيدكن عظيم ! فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم ! والتفاتة إلى يوسف البريء: (يوسف أعرض عن هذا) فأهمله ولا تعره اهتماماً ولا تتحدث به وهذا هو المهم محافظة على الظواهر ! وعظة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه (واستغفري لذنبك . إنك كنت من الخاطئين) إنها الطبقة الأرستقراطية

، من رجال الحاشية ، في كل جاهلية . قريب من قريب ! ويسدل الستار على المشهد وما فيه ، وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملبساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة ، ولا مستقعا للوحل الجنسي المقبوح ! ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور في طريقها . فهكذا تضي الأمور في القصور ! ولكن للقصور جدراناً ، وفيها خدم وحشم . وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستورا . وبخاصة في الوسط الأرستقراطي ، الذي ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجري في محيطهن . وإلا تداول هذه الفضائح ولو كها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات (وقال نسوة في المدينة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حبا . إنا لنراها في ضلال مبين) وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون . ولأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز ، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر - أي كبير وزرائها - ليعلم هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) ثم بيان لحالها معه (قد شغفها حبا) فهي مفتونة به ، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه ، وشغاف القلب هو غشاؤه الرقيق (إنا لنراها في ضلال مبين) وهي السيدة الكبيرة وزوجة الكبير ، تفتتن بفتاها العبراني المشتري . أم لعلهن يتحدثن عن اشتهاها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها ، وهو وحده المنتقد في عرف هذه الأوساط لا الفعلة في ذاتها لو ظلت وراء الأستار !؟ وهنا كذلك يقع ما لا يمكن وقوعه إلا في مثل هذه الأوساط . ويكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة ، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكا ، وأتت كل واحدة منهن سكيना ، وقالت: اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن: حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم . قالت: فذلكن الذي لمتنني فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونا من الصاغرين) لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها . ونذكر من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتي يدعين إلى المأدب في القصور . وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشاييا على عادة الشرق في ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكا . وأتت كل واحدة منهن سكيना تستعملها في الطعام - ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأوا بعيدا ، وأن الترف في القصور كان عظيما . فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية . وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف (وقالت: اخرج عليهن) (فلما رأينه أكبرنه) بهتن لطلعته ، ودهشن (وقطعن أيديهن) وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة (وقلن حاش لله !) وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيرا عن الدهشة بصنع الله (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) وهذه التعبيرات دليل - كما قلنا في تقديم السورة - على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان . ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، وأنهن لقيين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول . فقالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ؛ والتي تفخر عليهن بأن هذا الذي لمتنني فيه) فانظرن ماذا لقيتين منه من البهر والدهش والإعجاب ! (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ولقد بهرنني مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام - تريد أن تقول: إنه عانى في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ! - ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهن في تبجح المرأة من ذلك الوسط ، لا ترى بأسا من الجهر بنزواتها الأنثوية جاهرة مكشوفة في معرض النساء (ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونا من الصاغرين !) فهو الإصرار والتبجح والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد . ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات ، المبيدات لمفاتنهن في مثل هذه المناسبات . ونفهم من السياق أنهن كن نساء مفتونات فانتات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار ؛ فإذا هو يناجي ربه قال (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) ولم يقل: ما تدعونني إليه . فهن جميعا كن مشركات في الدعوة . سواء بالقول أو بالحركات واللفظات . . وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهم لإيقاعه في الدعوة . سواء بالقول أو بالحركات واللفظات . . وإذا الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه منه (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین) وهي دعوة الإنسان العارف بشريته . الذي لا يغتر بعصمته ؛ فيريد مزيدا من عناية الله وحياطته ، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وأغراء (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن ، بعد هذه التجربة ، أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثرا منه . أو بهما جميعا (إنه هو السميع العليم) الذي يسمع ويعلم ، يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء . وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية ، بلطف الله ورعايته . وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثانية من قصته المثيرة .

...

(وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَبَيَّنَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْجِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا بِنْتَاؤِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {36} قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {37} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ {38} يَا صَاحِبِي السَّجْنُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَإِيَّاكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يَا صَاحِبِي السَّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَسَيَقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ {41} وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ {42}

وهذه هي الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف ؛ فكل ما بعدها رخاء ، وابتلاء لصبره على الرخاء ، بعد ابتلاء صبره على الشدة . والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة . والسجن للبريء المظلوم أقسى ، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسوى . وفي فترة المحنة هذه تتجلى نعمة الله على يوسف ، بما وهبه من علم لدني بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب الذي تبدو أوائله فيعرف تأويله . ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاناً رسمياً بحضرة الملك ، وظهور مواهبه التي توهمه لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة ، وسلطان عظيم ، (ثم بدأ لهم من بعدما راوا الآيات لبسجنته حتى حين) وهكذا جو القصور ، وجو الحكم المطلق ، وجو الأوساط الأرستقراطية ، وجو الجاهلية ! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف . وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها الذي شغفها حيا ، ثم تعلن لهم أنها به مفتونة حقا . ويفتتن هن به ويفرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه ، والمرأة تعلن في مجتمع النساء - دون حياء - أنه إما أن يفعل ما يؤمر به ، وإما أن يلقي السجن والصغار ، فيختار السجن على ما يؤمر به ! بعد هذا كله ، بدأ لهم أن يسجنوه إلى حين ! ولعل المرأة كانت قد بثت من محاولاتها بعد التهديد ؛ ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشارا في طبقات الشعب الأخرى . . وهنا لابد أن تحفظ سمعة " البيوتات " ! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن ، فإنهم لسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من " الوسط الراقي " قد فتنت به ، وشهرت بجهه ، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية ! (ودخل معه السجن فتيان) سنعرف من بعد أنهما من خدم الملك الخواص . . ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف في السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار ، وجعله موضع ثقة المساجين ، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية ، فغضب عليهم في نزوة عارضة ، فألقى بهم في السجن . . يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فتیان أنسا إليه ، فهما يقصان عليه رؤيا رايها . ويطلبان إليه تعبيرها ، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك (قال أحدهما:إني أراي أعصر خمرًا ؛ وقال الآخر:إني أراي أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين) وينتهز يوسف هذه الفرصة لبيت بين السجنا عقيدته الصحيحة ؛ فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أربابا يزاولون خصائص الربوبية ، ويصبحون فراعين ! ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه لدنيا خاصا ، جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء . هو وأبواه من قبله . . وبذلك يكسب ثقتهم منذ اللحظة الأولى بقدرته على تاويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهم كذلك لدينه (قال:لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما ، ذلكم مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبع ملة آباءي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف . . وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها (قال:لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نباتکما بتأويله قبل أن يأتیکما ، ذلكم مما علمني ربي) بهذا التوكيد الموحى بالثقة بأن الرجل على علم لدني ، يرى به مقبل الرزق وينبئ بما يرى . وهذا - فوق دلالاته على هبة الله لعبده الصالح يوسف - وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى - وقوله: (ذلكم مما علمني ربي) تحيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه ؛ وليعلم بها هذا العلم اللدني الذي سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون) مشيرا بهذا إلى القوم الذين ربي فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك

والملا من القوم والشعب الذي يتبعهم . والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجههما بشخصيتهما ، إنما يواجه القوم عامة كي لا يجرجهما ولا ينفرضهما - وهي كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل . ثم يمضي يوسف بعد بيان معالم ملة الكفر ليبين معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وأبؤه) واتبعت ملة آبائي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئا قط . . والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل في متناول الناس جميعا لو اتجهوا إليه وأرادوه . ففي فطرتهم أصوله وهواته ، وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفي رسالات الرسل بيانه وتقديره . ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) مدخل لطيف . . وخطوة خطوة في حذر ولين . . ثم يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحا كاملا ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما ، وفساد ذلك الواقع النكد الذي يعيشون فيه . . بعد ذلك التمهيد الطويل يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لقد رسم يوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة ، كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة . كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هذا شديدا عنيفا (يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحجب إليهما هذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة . وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضية موضوعية (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هذا شديدا . . إن الفطرة تعرف لها إليها واحد فظيم إذن تعدد الأرباب ؟ . . إن الذي يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار . ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعا لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس . وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا . . إن الرب لا بد أن يكون إله يملك أمر هذا الكون ويسيره . ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه ، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره ! والله الواحد القهار في غنى عن العالمين ؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة ، ثم يخطو يوسف - عليه السلام - خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) إن هذه الأرباب - سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله - ليست من الربوبية في شيء ، وليس لها من حقيقة الربوبية شيء . فالربوبية لا تكون إلا لله الواحد القهار ؛ الذي يخلق ويقهر كل العباد . . ولكن البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء ، ويخلعون عليها صفات ، ويعطونها خصائص ؛ وفي أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان . . والله لم يجعل لها سلطانا ولم ينزل بها من سلطان . وهنا يضرب يوسف - عليه السلام - ضربه الأخيرة الحاسمة فبيّن: لمن ينبغي أن يكون السلطان ! لمن ينبغي أن يكون الحكم ! لمن ينبغي أن تكون الطاعة . . أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون "العبادة" ! (إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إن الحكم لا يكون إلا لله . فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ؛ إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ؛ سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب . أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعا في صورة منظمة عالمية . ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاهها فقد كفر بالله كفرا بواحا ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده ! إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة . فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله سلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان . . ويوسف - عليه السلام - يعلل القول بأن الحكم لله وحده . فيقول (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى "العبادة" التي يخص بها الله وحده . إن معنى عبد في اللغة: دان ، وخضع ، وذلك . . ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر . . إنما كان هو معناه اللغوي نفسه . . فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده . سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله - سبحانه - بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه . . وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف - عليه السلام - اختصاص الله بالعبادة تعليلا لاختصاصه بالحكم . فالعبادة - أي الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره . . وسواء في هذا حكمه القدري القهري في

حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحق به الدينونة . ويقرر يوسف - عليه السلام - أن اختصاص الله - سبحانه - بالحكم - تحقيقا لاختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم (ذلك الدين القيم) وهو تعبير يقيد القصر . فلا دين قيما سوى هذا الدين ، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وكونهم (لا يعلمون) لا يجعلهم على دين الله القيم . فالذي لا يعلم شيئا لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه . . فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين ! ولم يقم جهلهم عندهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداء . فاعتقاد شيء فرغ عن العلم به . . وهذا منطوق العقل والواقع . . بل منطوق البدهة الواضح . لقد رسم يوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة ؛ كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هذا شديدا . . إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعيا أخص خصائص الألوهية ، وهو الربوبية . أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه ، ودينونتهم لفكره وقانونه . وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يدعيه - ولو لم يقله بلسانه - فالعمل دليل أقوى من القول . وإن الطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس . فما يمكن أن يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلا أن الحكم لله وحده ، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده . والخضوع للحكم عبادة . بل هي أصلا مدلول العبادة . والى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه ، مرتبطا في مطلعته بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن . ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقا به (يا صاحبي السجن ، أما أحكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) ولم يعين من هو صاحب البشري ومن هو صاحب المصير السيء تلطفا وتحرجا من المواجهة بالشر والسوء . ولكنه أكد لهما الأمر واثقا من العلم الذي وهبه الله له قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) وانتهى فهو كائن كما قضاه الله . وأحب يوسف السجن البريء ، الذي أمر الملك بسجنه دون تحرر ودون بحث ، إلا ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية لعلمهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويرا مقلوبا ، كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط . . أحب يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر (وقال للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك) . اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه ، فهو بهذا ربك . فالرب هو السيد والحاكم والفاخر والمشرع . . وفي هذا توكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي . ومما يلاحظ أن ملوك الرعاة لم يكونوا يدعون الربوبية قولا كالفراعنة ، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة . ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهي نص في معنى الربوبية ، وهنا يسقط السياق أن التاويل قد تحقق ، وأن الأمر قد قضي على ما أوله يوسف . وبترك هنا فجوة ، نعرف منها أن هذا كله قد كان . ولكن الذي ظن يوسف أنه ناج فنجأ فعلا لم ينفذ الوصية ، ذلك أنه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف ، ونسى ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها ، فنسى يوسف وأمره كله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) (قلبت في السجن بضع سنين) والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف . وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد . وكان هذا من اصطفاؤه وإكرامه . ن عباد الله المخلصين يتبغى أن يخلصوا له سبحانه ، وأن يدعوا له وحده قيادهم ، ويدعوا له سبحانه تنقيلا خطاهم . وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك ، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحبا وشوقا . . فيتم عليهم فضله بهذا كله . .

...

(. وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ {43} } قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ {44} } وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِهُمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِ {45} } وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ {43} } قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ {44} } وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِهُمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِ {45} } يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ النَّاسَ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {46} } قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَائِمًا فَمَا حَصَنْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ {47} } ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَنَةٌ سَعْدٌ شَدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ {48} } ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ {49} } وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالِ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ {50} } قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَأَوْتُمْ

يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {51} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ {52} وَمَا أBRَى نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ {53}

والآن نحن في مجلس الملك ، وقد رأى رؤيا أهمته ، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات (وقال الملك: اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) (يا أيها الملائة أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا: أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) طلب الملك تأويل رؤياه . فعجز الملائة من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم . وصرف الحديث عنه ! فقالوا: إنها (أضغاث أحلام) أي أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) إذا كانت أضغاثا مختلطة لا تشير إلى شيء ! والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث: رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك . وطلب تأويلها في كل مرة ، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله في مصر وخارج مصر - كما أسلفنا - وأن الهبة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد في معجزات الأنبياء . هنا تذكر أحد صاحبيه في السجن ، الذي نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر يوسف في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب . . هنا تذكر الرجل الذي أول له رؤياه ورؤيا صاحبه ، فتحقق التأويل (وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة : أنا أنبتكم بتأويله فارسلون !) يوسف - أيها الصديق - أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) والساقى يقب يوسف بالصديق ، أي الصادق الكثير الصدق . وهذا ما جربه في شأنه من قبل (أفتنا في سبع بقرات سمان . . .) ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقا في نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولا ، وليجيء تأويلها ملاصقا في السياق لذكرها . ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد ، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه . وهذا أكمل (قال: تزرعون سبع سنين دأبا) أي متتالية متتالية . وهي السنوات السبع المخضبة المرموز لها بالبقرات السمان (فما حصنتم فنروه في سنبله) أي فتركوه في سنبله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية (إلا قليلا مما تأكلون) فجردوه من سنبله ، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجيدة المرموز لها بالبقرات العجاف (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد) لا زرع فيهن (يأكلن ما قدمتم لهن) وكان هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نعمها وجوعها ! (إلا قليلا مما تحصنون) أي إلا قليلا مما تحفظونه وتصنونه من التهامها ! (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغال الناس وفيه يعصرون) أي ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجيدة ، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب . تنقضي ويعقبها عام رخاء ، يغال الناس فيه بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمرا ، وسمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتا . وهنا نلاحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك ؛ فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف . فبشر به الساقى ليبشر الملك والناس ، بالخلاص من الجذب والجوع بعام رخي رغيد . وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالي . تاركا فجوة بين المشهدين يكمل التصور ما تم فيها من حركة . ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك . ويحذف السياق ما نقله الساقى من تأويل الرؤيا ، وما تحدث به عن يوسف الذي أولها . وعن سجنه وأسبابه والحال التي هو فيها . . كل أولئك يحذفه السياق من المشهد ، لنسمع نتيجته من رغبة الملك في رؤية يوسف ، وأمره أن يأتيه به (وقال الملك: انتوني به) ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر . ولكننا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذي لا نعرف: إن كان هو الساقى الذي جاءه أول مرة . أو رسولا تنفيذيا مكلفا بمثل هذا الشأن . نجد يوسف السجن الذي طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحا في موقفه ، وتعلن براءته - على الأَشهاد - من الوشائيات والفسائس والغمز في الظلام . . لقد رباه ربه وأدبه . ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمانينة . فلم يعد معجلا ولا عجولا ! إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى: اذكرني عند ربك ، والموقف الذي يقول له فيه: أرجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، والفارق بين الموقفين بعيد (قال: أرجع إلى ربك فاسأله: ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم) لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره ، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن . . بهذا القيد . . تذكيرا بالواقعة وملاساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها . . وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لنظهر الحقيقة خالصة ، دون أن يتدخل هو في مناقشتها . . كل أولئك لأنه واثق من نفسه ، واثق من براءته ، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلا ، ولا يخذل طويلا . ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة (رب) بمدلولها الكامل ، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه . فالملك رب هذا

الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه . والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهن - والسياق يحذف هذا لنعلمه مما يليه) قال: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟! والخطب هو : الأمر الجلل والمصاب . فكان الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه . فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل أو شأن لهن خطير (ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟!) ومن هذا نعلم شيئا مما دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير ؛ ما قالته النسوة ليوسف وما لمحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة . ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموهل في التاريخ . فالجاهلية دائما هي الجاهلية . إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التخلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية ! وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك ، يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار (قلن: حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء !) وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها . ولو من مثل هؤلاء النسوة . فقد كان أمر يوسف إذن من النضاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال . وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التي يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به . . تتقدم لتقول كل شيء في صراحة (قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين) الآن حصحص الحق وظهر ظهورا واضحا لا يحتمل الخفاء (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد ؛ وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فأمنت (ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية ، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر . كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجل في التعبير (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) شهادة كاملة بنظافته وبراعته وصدقه . لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها . . فهل هو الحق وحده الذي يدفعها لهذا الإقرار الصريح في حضرة الملك والملا ؟ يشي السياق بحافز آخر ، هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبا بفتنتها الجسدية . أن يحترمها تقديرا لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته (ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب) ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة (وما أبريء نفسي ، إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم . .) إنها امرأة أحببت . امرأة تكبر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها وإسلامها ، فهي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه ، أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه ! وهكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة ، التي لم تسق لمجرد الفن ، إنما سيقت للعبارة والعظة . وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة . ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسما رشيما رفيقا شديقا . في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعات في مثل هذه النفوس ، في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك . وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام ، وتسير الحياة بيوسف رخاء ، الاختبار فيه بالنعمة لا بالشدة . وإلى هنا نقف في هذا الجزء من الظلال ، وتتابع القصة سيرها في الجزء التالي إن شاء الله .

هذا الدرس يبدأ بأخر فقرة في المشهد السابق . مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتي قطعن أيديهن - كما رغب إليه يوسف أن يفعل - تمحيصا لتلك المكابد التي أدخلته السجن ، وإعلانا لبراعته على الملا ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته ؛ وهو يبديها واثقا مطمئنا ، في نفسه سكينه وفي قلبه طمأنينة وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة ، وفي حياة الدعوة كذلك . فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح ، ولا شيء من غبار الماضي يلاحقه وهو بريء . ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئا ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص ، إنما رغب إلى الملك أن يفحص أمر عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة (الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبريء نفسي ؛ إن النفس لأماراة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم) وفي هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متبرجة ، تبريء نفسها من خيانة يوسف في غيبته ؛ ولكنها تتحفظ فلا تدعي البراءة المطلقة ، لأن النفس أماراة بالسوء - إلا ما رحم ربي - ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله - ولعل ذلك كان اتباعا ليوسف (إن ربي غفور رحيم) وبذلك يسدل الستار على ماضي الألام في حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين .

(وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ {54} قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ {55}) وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين {56} ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون {57} وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون {58} ولما جهزهم

بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْبِكُمْ إِلَّا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ {59} فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ {60} قَالُوا سَنَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ {61} وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {62} فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَّكَيْلَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {63} قَالَ هَلْ أُمِنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أُمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {64} وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَاعَتْنَا رَبَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ بِسَبْرٍ {65} قَالَ لِنِ أَرْسِلْهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونَ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِيَني بِهِ إِلَّا أَن يَحَاطَبَ بِكُمْ فَلَمَّا أَنُوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {66} وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ {67} وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {68}

(وقال الملك: أتوني به أستخلصه لنفسي . . فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال: اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم . . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا ، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك . وأي ملك ؟ ملك مصر ! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلما ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الخطوة عند الملك . . كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحيه فقال (أتوني به أستخلصه لنفسي) فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة الرضاء الملكي السامي ! " فيطير بها فرحا . . كلا ! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجي والصديق . . فيا ليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام - وهم أبرياء مطلقو السراح - فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وعلى خطوة الاتباع ل مكانة الأصفياء . . يا ليت رجالا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإبلاء والاعتزاز تدر من الريح - حتى المادي - أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء ! (وقال الملك: أتوني به أستخلصه لنفسي) ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لتجد يوسف مع الملك (فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين) فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفي أمان . فليس هو الفتى العبراني الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المههد بالسجن . إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفي حماه . فماذا قال يوسف ؟ إنه لم يسجد شكرا كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت . ولم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كما يقول المتملقون للطواغيت ! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أول بها رؤيا الملك ، خيرا مما ينهض بها أحد في البلاد ؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلادا من الخراب ، ومجمعا من الفتنة - فتنة الجوع - فكان قويا في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفائته وأمانته ، قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه (قال: اجعلني على خزائن الأرض . إني حفيظ عليم) والأزمة القادمة وستين الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها . وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروع الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجذب على السواء . ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها ، وأن وراها خيرا كبيرا لشعب مصر وللشعوب المجاورة (إني حفيظ عليم) ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض . . إنما كان حسيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ؛ وليكون مسؤولا عن إتمام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوزه طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه . فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة . إنما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون . و هنا تعرض شبهة و هي طلب المسؤولية (اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم) أمران محظوران في النظام الإسلامي:

أولهما: طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول ﷺ " إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله [أو حرص عليه] . . . [متفق عليه] .

وثانيهما: تزكية النفس ، وهي محظورة بقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم)

ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد محمد رسول الله ﷺ وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف - عليه السلام - والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة ، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول . . لا نريد أن نجيب بهذا ، وإن كان له وجه ، لأننا نرى أن الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقا ، وأوسع أفاقا من أن يرتكن إلى هذا الوجه ؛ وإنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بد من إدراكها ، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص ، وإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها ، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والزكود ! إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ ! . . لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية . كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ؛ إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي . . وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعتان عظيمتا الدلالة ؛ كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي ؛ وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية . والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ؛ ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها ؛ وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . . الذين يفعلون ذلك ؛ ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ ؛ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ . . هؤلاء ليسوا "فقهاء" ! وليس لهم "فقه" بطبيعة الفقه ! وبطبيعة هذا الدين أصلا ! إن "فقه الحركة" يختلف اختلافا أساسيا عن "فقه الأوراق" مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التي يقوم عليها ويستمد منها "فقه الأوراق" ! إن فقه الحركة يأخذ في اعتباره "الواقع" الذي نزلت فيه النصوص ، وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لا تفصل عناصره . فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته ، واختل تركيبه ! ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته ، يعيش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأتها الأولى فيها . . إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ ! ونأخذ مثلا لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهي الإسلامي بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب ، وهو المأخوذ من قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) (ومن قول رسول الله ﷺ " إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله " لقد نشأ هذا الحكم - كما نزلت تلك النصوص - في مجتمع مسلم ؛ ليطبق في هذا المجتمع ؛ وليعيش في هذا الوسط ؛ وليبلي حاجة ذلك المجتمع . وفق نشأته التاريخية ، ووفق تركيبه العضوي ، ووفق واقعه الذاتي . فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي . . وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي . وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي . . إسلامي في نشأته ، وفي تركيبه العضوي ، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة . . وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر "فراغا" بالقياس إلى ذلك الحكم ، لا يملك أن يعيش فيه ، ولا يصلح له ، ولا يصلح كذلك ! ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي . وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآني . . ونريد أن نفهم لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشوري أو للإمامة أو للإمارة . .

إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحدا بالتراحم عليه - اللهم إلا ابتغاء الأجر بالتهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى - ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يمنعوها ! ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم ، وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضا . . إن الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع . فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية . .

أولا: تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله - على عهد النبوات - أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله - على مدار الزمان بعد ذلك - فيستجيب للدعوة ناس ؛ يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة . فمنهم من يفتن

ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضي نحبه شهيدا ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق . .

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستارا لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقيم مملكة الله في الأرض - أي لينفذ حكم الله في الأرض - ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ؛ إنما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله في العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ؛ ولا عند حدود جنس معين ؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما يطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا "الإنسان" . . كل الإنسان: في "الأرض" . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت .

وفي أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التمييز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة . . وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها . . ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوي على أساس التمييز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية - كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل - ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام . . في هذا المجتمع لا يخس الناس بعضهم بعضا ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين - مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع - وعندئذ تنتفي الحاجة - من جانب آخر - إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ! ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة . . لن يوجد اليوم أو غدا ، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها . . وهذه نقطة البدء . . ثم تعقبها الفتنة والابتلاء - كما حدث أول مرة - فأما ناس فيفتنون ويرتدون ! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء . . وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام ، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما بكره أحدهم أن يلقى في النار ؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم في الأرض - كما مكن للمسلمين أول مرة - فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي . . ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية . . ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم !

ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى . فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين ! إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة . . يتحرك لتحرير "الإنسان" . كل الإنسان . . في "الأرض" . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت ؛ بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة !

وإذن فستظل الحركة - التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة - تتميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ؛ ولا تقف أبدا ليركز هذا المجتمع ويأسن - إلا أن ينحرف عن الإسلام - وسيظل الحكم الفقهي - الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية - قائما وعملا في محيطه الملائم . . ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا ؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية !

وهذا القول كذلك وهم ناشيء من التأثير بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . . إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ؛ فلا يعز عليهم أن يتندبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية . . سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - له . . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دأبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهد ماض إلى يوم القيامة .

إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته - أو يكتبون - يدخلون في متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ ! يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم ، بتركيبه العضوي الحاضر ! وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر - بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية - فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام . . إن تركيبه العضوي مناقض تماما للتركيب العضوي للمجتمع المسلم . فالمجتمع المسلم - كما قلنا - يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفتات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع ، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام . مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من قتنة وإيداء وحرب على هذه الحركة ، والصر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف . أما المجتمع الجاهلي الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية . . وهو - من ثم - يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام !

هؤلاء الكتابون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحبرهم - أول ما يحبرهم - طريقة اختيار أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية ! كيف يمكن هذا في مثل هذه المجتمعات التي نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة ! كذلك تحبرهم طريقة اختيار الإمام ؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد ؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد - متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها - فكيف يعودون هم فيختارون الإمام ؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم ؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام ؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم ؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهم له ، ويكون هذا هو العنصر الأول في اعتباره ؟ . . .

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا في هذه المتاهة !

أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة . . إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم ؛ وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سبجاء بها لتطبيق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر ، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة ! هذه نقطة البدء في المتاهة . . ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ ، وبوغل في هذا الفراغ ، حتى يبعد في التيه ، وحتى يأخذه الدوار ! ! إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم ، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام . . لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ ، ولم تتحرك في فراغ كذلك ! إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي . . ينشأ من أشخاص ومجموعات وفتات جاهدت - في وجه الجاهلية - لإنشائه ؛ وتحدت أقدارها وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة . إنه مجتمع جديد . . ومجتمع وليد . . ومجتمع متحرك دائما في طريقه لتحرير "الإنسان" . . كل الإنسان . . في "الأرض" . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ، ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواعيت . . أيا كانت هذه الطواعيت . . ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة ، واختيار الإمام ، واختيار أهل الشورى . . وما إليها . . قضايا كثيرة تثار ، ويطرقها الباحثون في الإسلام . في الفراغ . . في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه . . بتركيبه العضوي المختلف تماما عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم . . وبقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته . .

إن العمل في الحقل "الفكري" للفقهاء الإسلامي عمل مريح ! لأنه لاخطر فيه ! ولكنه ليس عملا للإسلام ؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته ! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن

يشتغلوا بالأدب وبالفضن أو بالتجارة ! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملا للإسلام في هذه الفترة فأحسب - والله أعلم - أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضا !

إن دين الله يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع ، لتلبية هذا المجتمع الجاهلي الأبيق منه ، المتنكر له ، الشارد عنه . . الذي يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه في مشكلاته وحاجاته ؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه . .

كلا ! إن الذي يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامي هو وجود الطواغيت التي تأبى أن تكون الحاكمة لله ؛ فتأبى أن تكون الربوبية في حياة البشر والألوهية في الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا . يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة . ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله - أي تدين لها وتخضع وتتبع - فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك . . فهذا هو أخص مدلولات الشرك في نظر الإسلام . .

وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما في الأرض ؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية .

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية - إذن - بوسائل مكافئة . إنما الذي يواجهها دعوة إلى الدخول في الإسلام مرة أخرى ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ؛ ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام في وجه الجاهلية . ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق . . وعندئذ فقط يجيء دور أحكام الفقه ، التي تنشأ نشأة طبيعية في هذا الوسط الواقعي الحي ، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددة في هذا المجتمع الوليد ، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها ، وهي أمور كلها في ضمير الغيب - كما أسلفنا - ولا يمكن التكهن بها سلفا ، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين !

إن هذا لا يعني - بحال - أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية . ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له ، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه - بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به - ليس قائما الآن فعلا . ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقا بقيام ذلك المجتمع . . ويبقى الالتزام بها قائما في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ؛ ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية . .

وهذا هو الطريق وحده ؛ وليس هنالك طريق آخر . .

ولبت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان ، وبيان أحكام الإسلام ! ولكن هذه إنما هي "الأماني" ! فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت ، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة . . والذي يبدو فرد ، ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الأرض . . ثم . . يدخل الناس في دين الله أفواجا . . ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذي لا يرضى من الناس دينا غيره: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) . .

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف - عليه السلام .

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادما في وضع جاهلي . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه . وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماما . .

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق . إن السياق لا يثبت أن الملك وافق . فكأنما يقول: إن الطلب تضمن الموافقة ! زيادة في تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . فيكفي أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هو الجواب . . ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القاريء يفهم أنه أصبح في المكان الذي طلبه .

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق (وكذلك مكننا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب . . على هذا النحو مكننا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا . والأرض هي مصر . أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها (يتبوا منها حيث يشاء) يتخذ منها المنزل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد . في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود (نصيب برحمتنا من نشاء) فتبدله من العسر يسرا ، ومن الضيق فرجا ، ومن الخوف أمنا ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا (ولا نضيع أجر المحسنين) الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا في الدنيا (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيرا من متاع الدنيا ، متى أمن الإنسان واتقى . فاطمان بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه في سره وجهره وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه البشرية في الآخرة جزاء وفاقا على الإيمان والصبر والإحسان .

ودارت عجلة الزمن . وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء . فلم يذكر كيف كان الخصب ، وكيف زرع الناس . وكيف أدار يوسف جهاز الدولة . وكيف نظم ودبر وادخر . كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله (إنني حفيظ عليم) وكذلك لم يذكر مقدم سني الجذب ، وكيف تلقاها الناس ، وكيف ضاعت الأرزاق . . لأن هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحدا من رجاله بعد ذلك في السورة كلها . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخائفة الرهيبة . وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء . وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداما فنيا كاملا في الأداء ، أما فعل الجذب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف ، يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وقفت مصر - بتدبير يوسف - منها ، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها . وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فنية تحقق هدفا دينيا في السياق (وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال: أنتوني باخ لكم من أبيكم . ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا: سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) لقد اجتاح الجذب والمجاعة أرض كنعان وما حولها . فاتجه إخوة يوسف - فيمن يتجهون - إلى مصر . وقد تسمع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان . وها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف ، وهم لا يعلمون . إنه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيرا . أما يوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذلك! وابن الغلام العبراني الصغير الذي أقوه في الجب منذ عشرين عاما أو تزيد من عزيز مصر شبه المتوج في سنه وزيه وحرصه ومهابته وخدمته وحشمه وهيله وهيلمانه ؟ ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه . فلا بد من دروس يتلقونها (فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) ولكننا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلا طيبا ، ثم أخذ في إعداد الدرس الأول (ولما جهزهم بجهازهم قال: أنتوني باخ لكم من أبيكم) فنفهم من هذا أنه تركهم يأثسون إليه ، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل ، وأن لهم أبا صغيرا من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه . فلما جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم: إنه يريد أن يرى أخاهم هذا (قال: أنتوني باخ لكم من أبيكم) وقد رأيتم أنني أوفي الكيل للمشتريين . فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم ؛ ورأيتم أنني أكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى مني الإكرام المعهود (ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟) ولما كانوا يعلمون كيف يظن أبوهم بأخيهم الأصغر - وبخاصة بعد ذهاب يوسف - فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسورا ، وإنما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم ، وأنهم سيحاولون إقناعه ، مع تأكيد عزمهم - على الرغم من هذه العقبات - على إحضاره معهم حين يعودون (قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) ولفظ (نراود) يصور الجهد الذي يعلمون أنهم بادلوه . . أما يوسف فقد أمر غلمانهم أن يدسوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف . وقد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوي ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم في التبادل في الأسواق . . أمر غلمانهم بدسها في رحالهم - والرحل متاع المسافر - لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التي جاءوا بها (وقال لفتيانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون)

وندع يوسف في مصر . لنشهد يعقوب وبنيه في أرض كنعان . دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه ، ويبدو أنهم في دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه

عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم . فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم . وهم يعدون بحفظه (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنا له لحافظون) ولا بد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب . فهو ذاته وعدهم له في يوسف ! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه (قال: هل أمنكم عليه إلا كما أمنتمكم على أخيه من قبل !) . فخلووني من وعودكم وخلووني من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي (قاله خير حافظا وهو أرحم الراحمين !) وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها ، ولم يجدوا في رحالهم غلالا ! ن يوسف لم يعطهم قمحا ، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم . فلما عادوا قالوا: يا أبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطربهم إلى العودة بأخيهم ، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه (قالوا: يا أبانا ما نبغى . هذه بضاعتنا ردت إلينا) ثم أخذوا يخرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية في الحصول على الطعام (ونمير أهلنا) والميرة هي الزاد ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم (ونحفظ أخانا) ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم (ونزداد كيل بعير) وهو ميسور لهم حين يرافقهم (ذلك كيل يسير) ويبدو من قولهم: (ونزداد كيل بعير) أن يوسف - عليه السلام - كان يعطي كل واحد وسق بعير - وهو قدر معروف - ولم يكن يبيع كل مشتر ما يريد . وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجب ، كي يظل هناك قوت للجميع: واستسلم الرجل على كره ؛ ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطا (قال: لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقا من الله: لتأتني به إلا أن يحاط بكم) أي لتقسمن لي بالله قسما يربطكم ، أن تردوا علي ولدي ، إلا إذا غلبتم علي أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدي مدافعتكم عنه (إلا أن يحاط بكم) وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم . فاقسموا (فلما أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل) زيادة في التوكيد والتذكير . وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له في رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز (وقال: يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغني عنكم من الله من شيء . إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون) ونقف هنا أمام قول يعقوب - عليه السلام (إن الحكم إلا لله) وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك . وقضاه الإلهي الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئا . وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره . وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار . . وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضی منهم واختيار . وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي . . وهذا كذلك لا يكون إلا الله . شأنه شأن حكمه القدری ، باختلاف واحد: هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه . فبترتب على هذا أو ذاك نتائج وعواقبه في حياتهم في الدنيا وفي جزائهم في الآخرة . ولكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلا راضين . .

وسار الركب ، ونفذوا وصية أبيهم (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغني عنهم من الله من شيء - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

فيم كانت هذه الوصية ؟ لم قال لهم أبوهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ؟ تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدي وتعيد ، بلا ضرورة ، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم . فلو كان السياق يجب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظا بالجو الذي أراده . والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئا عليهم ، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة انقضاء لهذا الشيء مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله من شيء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه . إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فتعلم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة ، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم . أو هو تتبع قطاع الطريق لهم . أو كائنا ما كان فهو لا يزيد شيئا في الموضوع . سوى أن يجد الرواة والمفسرون بابا للخروج عن الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل ، مما يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الاحايين !

فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق ، لنلتقي باخوة يوسف في المشهد التالي بعد الوصول:

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ {69} فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعِيرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ {70} قَالُوا

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ {71} قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ {72} قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ {73} قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَادِبِينَ {74} قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {75} فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِمَّنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ {76} قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ {77} قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {78} قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ {79}

(ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه . قال:إني أنا أخوك ، فلا تبتس بما كانوا يعملون) ونجد السياق هنا يجعل بضم يوسف لأخيه في المأوى ، وإطلاعه على أنه أخوه ؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل ، وهي ذكرى لا بد كان يبتس لها الصغير كلما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه . فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه في وسطه في أرض كنعان . يجعل السياق بهذا ، بينما الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف . ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه . ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ، وعند رؤيته لأخيه ، بعد الفراق الطويل . ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر . وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب ! ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورية للناس في كل زمان ومكان (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن:آيتها العير إنكم لسارقون . قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟ قالوا:نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا:فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه - كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم - قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال:أنتم شر مكانا . والله أعلم بما تصفون . قالوا:يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال:معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون). وهو مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت ، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالا ، غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآني هذا العرض الحي الأخاذ . فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك - وهي عادة من الذهب - وقيل:إنها كانت تستخدم للشرب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيب القمح ، لندرته وعزته في تلك المعاجة . يدسها في الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذا لتدبير خاص ألهمه الله له وسنعلمه بعد قليل . ثم ينادي مناد بصوت مرتفع ، في صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون (آيتها العير إنكم لسارقون) ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذي يتهمهم بالسرقة - وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب (قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟) قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس ومنهم هذا الذي أذاع بالإعلان (قالوا:نفقد صواع الملك) وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعا . وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف (ولمن جاء به حمل بعير) من القمح العزيز (وأنا به زعيم) أي كفيل . ولكن القوم مستيقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا ، وما جاءوا ليسرقوا وليجتروا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات ، فهم يقسمون واثقين (قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض) فقدو علمتم من حالنا ومظهرنا ونسبنا أننا لا نجترح هذا (وما كنا سارقين) أصلا فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع . قال الغلمان أو الحراس (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟) وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف . فقد كان المتبع في دين يعقوب:أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا في مقابل ما يسرق . ولما كان أخوة يوسف موقنين بالبراءة ، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه (قالوا:جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزي الظالمين) وهذه هي شريعتنا نحكمها في السارق . والسارق من الظالمين . كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش . وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه . كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه)! ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم ، الحالفين ، المتحدين . . فلا يذكر شيئا عن هذا ، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته . . بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة ، ريثما يفيق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه (كذلك كدنا ليوسف) أي كذلك دبرنا له هذا التدبير

الدقيق (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) فلو حكم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه ، إنما كان يعاقب السارق على سرقة ، دون أن يستولي على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم . وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه . وهو كيد الله له . والكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه . وهو سوء - ولو مؤقتا - لأبيه . فهذا اختار تسميته كيدا على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره . وهو من دقائق التعبير (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) (إلا أن يشاء الله) فيدبر مثل هذا التدبير الذي رأيناه . ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة (نرفع درجات من نشاء) وإلى ما ناله من علم ، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى (وفوق كل ذي علم عليم) وهو احتراس لطيف دقيق ، وهم في حيرة من أمرهم ، وقد حرك الحرج الذي يلاقونه كوامن حقدهم على أخي يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب (قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)! ن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . . وتنطلق الروايات والتفسيرات تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير . كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف ؛ وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التي تخرجهم ، وتبرؤا من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه ! لقد قذفوا بها يوسف وأخاه ! (فأسرهما يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) أسر هذه الفعلية وحفظها في نفسه ، ولم يبد تأثره منها . وهو يعلم براءته وبراءة أخيه . إنما قال لهم (أنتم شر مكانا) يعني أنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف - وهي حقيقة لا شتمة (والله أعلم بما تصفون) وبحقيقة ما تقولون . وأراد بذلك قطع الجدل في الاتهام الذي أطلقوه ، ولا دخل له بالموضوع ! وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذي وقعوا فيه . عادوا إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوه (لتأتني به إلا أن يحاط بكم) فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى ، الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ بداله واحد منهم إن لم يكن مطلقه لخاله أبيه ؛ ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين (قالوا: يا أيها العزيز إن له أبا شيئا كبيرا ، فخذ أحدا مكانه ، إنا نراك من المحسنين) ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا . وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرا في النفوس (قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إن ذن لظالمون) ولم يقل معاذ الله أن نأخذ برينا بجريرة سارق . لأنه كان يعلم أن أخاه ليس سارق . فعبر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) وهي الحقيقة الواقعة دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه إنا ذن لظالمون . . وما نريد أن نكون ظالمين . . وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف . وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون في موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

(فَلَمَّا اسْتِأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدِ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } 80 { ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين } 81 { وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون } 82 { قال بل سئلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم } 83 { وتوبلى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم } 84 { قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين } 85 { قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون } 86 { يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون } 87 { فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجننا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين } 88 { قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون } 89 { قالوا أإنت يوسف قال إنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } 90 { قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين } 91 { قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين } 92 { اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين } 93 { ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون } 94 { قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم } 95 { فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون } 96 { قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين } 97 { قال سوف أستغفر لكم ربّي إنه هو الغفور الرحيم } 98 { فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله

أَمِينٍ {99} وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَيْتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {100} رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ {101}

ينس إخوة يوسف فى إقناع حاشية الملك بموقفهم ، فعقدوا مجلسا يتشاورون فيه . وهم هنا فى هذا المشهد يتناجون . والسياق لا يذكر أقوالهم جميعا . إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما أنتهوا إليه (فلما استياسوا منه خلصوا نجيا . قال كبيرهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى ياذن لى أبى ، أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبىكم فقولوا: يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعيبر التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون) إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم فى يوسف من قبل . ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليها قراره الجازم: ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن ياذن له أبوه ، أو يقضى الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع . أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق ، فأخذ بما سرق . ذلك ما علموه شهدوا به . أما إن كان برينا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب . كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيبا بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب . وإن كان فى شك من قولهم فليسأل أهل القرية التى كانوا فيها - وهى عاصمة مصر - والقرية اسم للمدينة الكبيرة - وليسأل القافلة التى كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتتار الغلة فى السنين العجاف . . . ويطوي السياق الطريق بهم ، حتى يقفهم فى مشهد أمام أبيهم المفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبا الفظيع . فلا نسمع إلا رده قصيرا سريعا ، شجيا وجيعا . ولكن وراءه أملا لم ينقطع فى الله أن يرد عليه ولديه ، أو أولاده الثلاثة بما فىهم كبيرهم الذى أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له . . . وإنه لأمل عجيب فى ذلك القلب الوجيع (قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم) كلمته ذاتها يوم فقد يوسف . ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك (إنه هو العليم الحكيم) . . . الذى يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج . هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء فى الله ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته . ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدي وتراه الأبصار (وتولى عنهم وقال: يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) وهى صورة مؤثرة للوالد المفجوع . يحس أنه منفرد بهم ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه ، فينفرد فى معزل ، يندب فجيعة فى ولده الحبيب . يوسف . الذى لم ينسه ، ولم تهون له مصيبتة السنون ، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل (يا أسفا على يوسف !) ويكظم الرجل حزنه ويتجدد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكما (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) ويبلغ الحقد بقلوب بنيه ألا يرحموا ما به ، وأن يلسع قلوبهم حينئذ ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم ، فلا يسرون عنه ، ولا يعزونه ، ولا يعللونه بالرجاء ، بل يريدون ليطمسوا فى قلبه الشعاع الأخير (قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين !) وهى كلمة حانقة مستنكرة . تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه ، حتى تنوب حزنا أو تهلك أسى بلا جدوى . فيوسف ميثوس منه قد ذهب ولن يعود ! ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون (قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون) وفى هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ؛ كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألأنها الباهر . إن هذا الواقع الظاهر المينس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ، واستتكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل فى وجه هذا الواقع الثقيل . . . إن هنا كله لا يؤثر شيئا فى شعور الرجل الصالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور ! وهذه قيمة الإيمان بالله ، ومعرفة سبحانه هذا اللون من المعرفة . معرفة التجلى والشهود وملابسة قدرته وقدره ، وملامسة رحمته ورعايته ، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين . إن هذه الكلمات (وأعلم من الله ما لا تعلمون) تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب . والقلب الذى ذاق هذا مذاقا لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن يتعمق للمس والمشاهدة والمذاق ! ولا تملك أن تزيد . ولكننا

نحمد الله على فضله في هذا ، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه . ثم يوجههم يعقوب إلى تلمس يوسف وأخيه ؛ وألا ييأسوا من رحمة الله ، في العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائما منظور (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فيا للقلب الموصول !!! (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) تحسسوا بحواسكم ، في لطف وبصر وصبر على البحث . ودون يأس من الله وفرجه ورحمته . وكلمة "روح" أدق دلالة وأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخائق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندي (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه ، الشعرون بنفحاته المحيية الرخية ، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في مضايق الشدة ومخائق الكروب . . . ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفذت منهم النقود ، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشتررون بها الزاد . . . يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام (فلما دخلوا عليه قالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين) وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز ، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس ، وحن وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا هو يترقق في الإفشاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله (قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟!)!! ورن في آذانهم صوت لعلمهم يذكرن شيئا من نبراته . ولاحت لهم ملامح وجه لعلمهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه في سمت عزيز مصر وأهته وشياته . والمتعم في نفوسهم خاطر من بعيد (قالوا: أنك لأنت يوسف ؟) أنك لأنت؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وأذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير (قال: أنا يوسف . وهذا أخي . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) مفاجأة! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة . . . ولا يزيد . . . سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء . أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسنا إليهم وقد أساءوا . حليما بهم وقد جهلوا . كريما معهم وقد وقفوا منه موقفا غير كريم (قالوا: تالله لقد أثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين) اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إثارة الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان . يقابله يوسف بالصفح والعضو وإنهاء الموقف المخجل . شيمة الرجل الكريم . وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة . إنه كان من المحسنين (قال: لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين) لا مؤاخذه لكم ولا تأنيب اليوم . فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور . والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين . . . ثم يحول الحديث إلى شأن آخر . شأن أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن . فهو معجل إلى تبشيره . معجل إلى لقائه . معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، وما ألم بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال (اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين) كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله . والمفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة . . . وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبي رسول ويعقوب نبي رسول ؟ ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة ، حتى تنتهي مشاهدتها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير . (ولما فصلت العير قال أبوه: إنني لأجد ريح يوسف . لولا أن تصفون!) ريح يوسف ! كل شيء إلا هذا . فما يخطر على بال أحد أن يوسف بعد في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل . وأن له ريحا يشمها هذا الشيخ الكليل ! إنني لأجد ريح يوسف . لولا أن تقولوا شيخ خرف (لولا أن تصفون) لصدقتم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد . كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير . ومن أين فصلت ؟ يقول بعض المفسرين: إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة القميص من هذا المدى البعيد . ولكن هذا لا دلالة عليه . فربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطرق في أرض كنعان ، واتجهت إلى محلة يعقوب على مدى محدود . ونحن بهذا لا نتكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبي كيعقوب من ناحية نبي كيوسف . كل ما هنالك أننا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآني أو رواية ذات سند صحيح . وفي هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح . ودلالة النص لا تعطي هذا المدى الذي يريده المفسرون ! ولكن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه ، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف (قالوا: تالله . إنك لفي ضلالك القديم) في ضلالك بيوسف ، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لا يعود . ولكن المفاجأة البعيدة تقع ، وتتبعها مفاجأة أخرى (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا) مفاجأة القميص . وهو دليل على يوسف وقرب لقياه . ومفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه . . . وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه . تلك التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه (قال: ألم أقل لكم: إنني أعلم من الله ما لا تعلمون؟!) قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا

كنا خاطئين) ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيء من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح (قال:سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) وحكاية عبارته بكلمة (سوف) لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم . . ويمضي السياق في مفاجات القصة . فيطوي الزمان والمكان ، لنلتقي في المشهد النهائي المؤثر المثير (فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه . وقال:ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال:يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم) ويا له من مشهد ! بعد كسر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهم الضامىء الشديد . يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع ! ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة:ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة . ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه (فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه ، وقال:ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته له - وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه - كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين (ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) ثم يذكر نعمة الله عليه (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي) ويذكر لطف الله في تدبيره لتحقيق مشيئته (إن ربي لطيف لما يشاء) يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها (إنه هو العليم الحكيم) ذات التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة (إن ربك عليم حكيم) وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير ، تشهد يوسف بنزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان ، والرغد والأمان . . . ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الناكر ! كل دعوته - وهو في أبهة السلطان ، وفي فرحة تحقيق الأحلام - أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين: (رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفني مسلما وألحقني بالصالحين) (رب قد آتيتني من الملك) آتيتني منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله . فذلك من نعمة الدنيا (وعلمتني من تأويل الأحاديث) بادرآك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم . نعمتك يا ربي أنكرها وأعددها (فاطر السماوات والأرض) بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى أهلها (أنت وليي في الدنيا والآخرة) فانت الناصر والمعين . .

رب تلك نعمتك . وهذه قدرتك . رب إنني لا أسألك سلطانا ولا صحة ولا مالا . رب إنني أسألك ما هو أبقي وأغنى (توفني مسلما وألحقني بالصالحين) وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان . ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه . إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير . .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ {102} وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ {103} وَمَا تَسَأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {104} وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ {105} وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {107} قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {108} وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ {109} جَنَى الْمَجْرِمِينَ {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {111}

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها . تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث عن السورة . وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة ، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين ، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم . فنأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق . وهو ترتيب ذوهدف معلوم . تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم . وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة ، وقد غبرت بهم القرون . وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) فهذا هو ذا يعقب على القصة

بعد تمامها ، ويعطف ختامها على مطلعها (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه ؛ ولكننا نوحيه إليك وأية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إليك . وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في موضعه . وهم يمكرون بيوسف ، وهم يمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نميا وهو من المكر بمعنى التدبير . وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعون السجن . . كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكي عنه إنما هو الوحي الذي سيقته السورة لتثبت من بين ما تثبت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين ، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة . ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي ، وإحياء القصص ، واللغات واللمسات التي تحرك القلوب ، أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، وهم يشهدون بالرسول ﷺ ويعرفون أحواله ، ثم يسمعون منه ما يسمعون . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهم يمرون كذلك على الآيات المبتوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها ، ولا يدركون مدلولها ، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى ما يواجهه . فما الذي ينتظرونه ؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، ولقد كان الرسول ﷺ حريصا على إيمان قومه ، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم ، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة . ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهي إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ، لأنهم - كما قال في هذه الآيات - يمرون على الآيات الكثيرة معرضين . فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبتوثة في الأفاق . وإنك لغني عن إيمانهم فما تطلب منهم أجرا على الهداية ؛ وإن شأنهم في الإعراض عنها لعجيب ، وهي تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل: (و ما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين) تذكرهم بآيات الله ، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم ، وهي مبذولة للعالمين ، لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة ، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد ، فيمتاز الأغنياء على الفقراء ، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين . إنما هي ذكرى للعالمين . ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد . .) وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبنوثة في تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر . في السماوات وفي الأرض . يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف النهار . وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخاليل للقلوب والعقول . ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعائها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل في الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروي . لحظة تأمل في النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم . لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسماك السابح في الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام . . لحظة تأمل في صبح أو مساء ، في هداة الليل أو في زحمة النهار . . لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب . . إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب ، والتأثر المستجيب . ولكنهم (يمرون عليها وهم عنها معرضون) لذلك لا يؤمن الأكثرون! وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صورته - إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه . والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سببا من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضرر ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله . . لذلك يقول رسول الله ﷺ "الشرك فيكم أخفى من ديبب النمل" . وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي: روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر: " من حلف بغير الله فقد أشرك " . وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ " إن الرقي والتمايم شرك " . وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله [ص]: " من علق تميمه فقد أشرك " . وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن محمود بن لبيد أن رسول الله [ص] قال: " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: " الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء " ؟ فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان . وهناك الشرك الواضح

الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة . الدينونة في شرع يتحاكم إليه - وهو نص في الشرك لا يجادل عليه - والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة في زي من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر . . والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعا ودينونة لعرف اجتماعي ساند من صنع العبيد ، وتركا للأمر الواضح الصادر من رب العبيد . . إنه عندئذ لا يكون ذنبا ، ولكنه يكون شركا . لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله . . وهو من هذه الناحية أمر خطير . . ومن ثم يقول الله: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فتطبق على من كان يواجههم رسول الله في الجزيرة ، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان وبعد فما الذي ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة في صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التي لا يسألون عليها اجرا ؛ ماذا ينتظرون ؟) أفأتمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون . وهي لمسة قوية لمشاعرهم ، لإيقاظهم من غفلتهم ، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة . فإن عذاب الله الذي لا يعلم موعده أحد ، قد يشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم ، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون . . إن الغيب موصد الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن ، ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة ، فكيف يأمن الغافلون ؟ و إذا كانت آيات هذا القرآن الذي يحمل دليل الرسالة ، وكانت الآيات التي يحفل بها الكون معروضة للأنظار . . إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ، ويشركون بالله شركا ظاهرا أو خفيا وهم الأكثرون . فالرسول ﷺ ماض في طريقه ومن اهتدى بهديه ، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين (قل:هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ! وما أنا من المشركين) (قل:هذه سبيلي) واحدة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة (أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيدا ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة ، لا نخبط ولا ننحس ، ولا نحس . فهو اليقين البصير المستبصر . نزه الله - سبحانه - عما لا يليق بألوهيته ، ونفصل ونعزل ونتميز عن الذين يشركون به (وما أنا من المشركين) لا ظاهر الشرك ولا خافيه . هذه طريقي فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم . وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التميز ، لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم ، يفترقون عما لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ! ولا يكفي أن يدعو أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميعون في المجتمع الجاهلي . فهذه الدعوة لا تؤدي شيئا ذا قيمة ! إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية ؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص أصرته العقيدة المتميزة ، وعنوانه القيادة الإسلامية . لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي ؛ وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضا ! إن اندغامهم وتميعهم في المجتمع الجاهلي ، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية ، يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم ، وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم ، وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين . . إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس . . وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصيلة ، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ ! والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية ، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام . . هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب ! . . إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم ووجهتهم ووجهتهم ! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؛ وطريقهم الخاص ؛ وسبيلهم التي تفرق تماما عن سبيل الجاهلية .

ثم لفتة إلى سنة الله في رسالاته ، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين . . إن محمدا ليس بدعا من الرسل ، ورسالته ليست بدعا من الرسالات . وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة في الأرض (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون) إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب . حتى قلوب المتجبرين . ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلقاتهم ؛ وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيتون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون . . ثم إذا هم ساكنون ، لا حس ولا حركة . آثارهم خاوية ، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ، وديناهم المائلة للعبث والمستكنة في الضمائر والمشاعر . . إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هذا مهما يكن جاسيا غافلا قاسيا . ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) لم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر . إنما كانوا بشرا مثلك من أهل الحاضرة ، لا من أهل البادية ، ليكونوا أرق حاشية وألين جانبا . . وأصبر

على احتمال تكاليف الدعوة والهداية ، فرسالتك ماضية على سنة الله في إرسال رجال من البشر نوحى إليهم (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم ؛ وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستألفهم ، وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار (أفلا تعقلون ؟) فتدبروا سنن الله في الغابرين ؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير ؟ ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله ، وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد (حتى إذا استنأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل في قوته ، وكثرة أهله ، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة . إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويفغر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . فتعجز في خواطرهم الهواجس . تراهم كذبوا ؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا ؟ وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخائق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة . في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً (جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) تلك سنة الله في الدعوات . لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكرب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسباب الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمراً ماحقاً لا يقفون له ، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير . ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً . فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعوى لا تكلفه شيئاً . أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً . فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأديعاء . والأديعاء لا يحتملون تكاليف الدعوة ، لذلك يشفقون أن يدعوها ، فإذا ادعوها عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون ؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله ، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل ؛ إما أن تربح ربها معينا محمداً في هذه الأرض ، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربها وأيسر حصيلة ! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريضة ، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله ، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات ! . . . ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً . وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة ، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله ، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا . وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً . ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، بعد جهاد يطول أو يقصر . وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا . وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد . في الجب وفي بيت العزيز وفي السجن . وألوان من الاستيناس من نصرة الناس . . . ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا - كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب - وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين . فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثاً مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضاً ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة ، كما توافق المطلع والختام في القصة . وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها ، وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة ، وطريقة أدائها ، وعباراتها كذلك . فتحقق الهدف الديني كاملاً ، وتحقق السمات الفنية كاملة ، مع صدق الرواية ، ومطابقة الواقع في الموضوع . قد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة ، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رؤياً تتحقق رؤياً رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه أفراد بعض الحلقات في

قصص الرسل الآخرين . كحلقة قصة سليمان مع بلقيس . أو حلقة قصة مولد مريم . أو حلقة قصة مولد عيسى . أو حلقة قصة نوح والطوفان . . الخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملا في مواضعها . أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين)

سورة الحجر مكية وآياتها 99

هذه السورة مكية بجملتها ، نزلت بعد سورة يوسف ، في الفترة الحرجة ، ما بين "عام الحزن" وعام الهجرة . . تلك الفترة التي تحدثنا عن طبيعتها وملابساتها ومعالمها من قبل في تقديم سورة يونس وفي تقديم سورة هود وفي تقديم سورة يوسف بما فيه الكفاية . . وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة ، وحاجاتها ومقتضياتها الحركية . . إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية ؛ وتوجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة معه ، توجيهها واقعيًا مباشرًا وتجاهد المكذبين جهادًا كبيرًا . كما هي طبيعة هذا القرآن ووظيفته . ولما كانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت ، بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبي ﷺ والعصبة المؤمنة معه ؛ حيث اجترأت قريش على رسول الله ﷺ بما لم تكن تجترئ عليه في حياة أبي طالب . واشتد استهزاؤها بدعوته ؛ كما اشتد إيذاؤها لصحابته . . فقد جاء القرآن الكريم في هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ؛ ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ؛ ويكشف للرسول ﷺ عن علة تكذيبهم وعنادهم ؛ وهي لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه ، لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تجدي معه الآيات البينات . ومن ثم يسلي الرسول ﷺ ويواسيه ؛ ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذي معه ؛ والصدع به بقوة في مواجهة الشرك وأهله ؛ والصبر بعد ذلك على بقاء الاستجابة ووحشة العزلة ، وطول الطريق ! ومن هنا تلتقى هذه السورة في وجهتها وفي موضوعها وفي ملامحها مع بقية السور التي نزلت في تلك الفترة ؛ وتواجه مثلها مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية . أي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملابساتها الواقعية . ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة ، وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان . ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن . سمة الواقعية الحركية . . لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مرامييه وأهدافه . إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني . . لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ؛ ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ؛ ويواجه حالة واقعة ؛ كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتدقيقها ؛ كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية ، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية . نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة ؛ ومن ثم يواجهون أحوالاً وملابسات وظروفاً وأحداثاً كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى - صلوات الله وسلامه عليه - والعصبة المسلمة معه . . من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة ؛ التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبلى - في سبيل الله - به . إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ؛ ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى . . هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية . . وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ؛ ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه . على النحو الذي أسلفنا . . وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق ، في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة ! وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة . حركة تهدف إلى

إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ؛ ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد ؛ كما كانت الحركة الأولى - على عهد محمد ﷺ تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة ؛ قبل أن تقوم الدولة في المدينة ؛ وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض أمة من الناس . نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله ، وذلك لاختلاف الظروف والملابسات الخارجية . نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة . . ولكن مع اختلاف في الملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة . . وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي "اجتهادا" جديدا في "فقه الحركة" يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلا أو كثيرا . هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة . . أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة ، وشرائع المجتمع المنظم المستقر ، فهذا ليس أوانه . . . إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم ، قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي ! . . هذا النوع من الفقه يأتي في حينه ؛ وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حين يوجد ؛ ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك ! إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستتب بذوره في الهواء !

ونعود إلى استكمال الحديث عن موضوعات السورة:

محور هذه السورة الأول: هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصلية للتكذيب ، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين . . وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات ، متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء في ذلك القصة ، ومشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه . وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام . فإن جو هذه السورة - الحجر - يذكر بجو سورة الأعراف . - وابتدؤها كان بالإندار ، وسياقها كله جاء مصداقا للإندار - فهذا كذلك في سورة الحجر يتشابه البدء والسياق ، مع اختلاف في الطعم والمذاق ! في سورة الحجر يجيء الإندار كذلك في مطلعها ، ولكن ملفعا بظل من التهويل والغموض يزيد جوها رهبة وتوقعا للمصير: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون: السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة والرواسي الراسخة ، والنبت الموزون ، والرياح اللواقح ، والماء والسقيا ، والحياة والموت والحشر للجميع . . يلي ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين . . ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظرًا فيها إلى مصائر المكذبين ، وملحوظًا فيها أن مشركي العرب يعرفون الآثار الدارسة لهذه الأقوام ، وهم يَمرون عليها في طريقهم إلى الشام . ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى خمس جولات ، أو خمسة مقاطع ، يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا:

تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب . مبدوءة بذلك الإندار الضمني الملفع بالتهويل (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يرجون لقائلوا: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون !) . . وأنهم جميعا من طراز واحد (ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين)

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون: في السماء وفي الأرض وما بينهما . وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم (وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) .

أما الجولة الثالثة فتعرض قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصلية ، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين . وذلك في خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون والنفخ من روح الله في هذا الطين . ثم في غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح ، مبدوءة بقول الله (نبي عبادي أنا أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) ثم يتتابع القصص ، يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح . . ملحوظا في هذا القصص أنه يعرض على قريش مصارع أقوام يمرّون على أرضهم في طريقهم إلى الشام ويرون آثارهم (إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم)

أما الجولة الخامسة والأخيرة فتكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول ﷺ فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله ، وللبداء والمصير (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . .) إلى آخر السورة . .

(الرّتلك آيات الكتاب وقرآن مبين {1} ربّما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين {2} ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون {3} وما أهلكتنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم {4} ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون {5} وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون {6} لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين {7} ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين {8} إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون {9} ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين {10} وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون {11} كذلك نسلكه في قلوب المجرمين {12} لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين {13} ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون {14} لقالوا إنّا سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون {15}

هذا المقطع الأول في سياق السورة ، يتحدث عن طبيعة الكتاب الذي يكذب به المشركون . . ويهددهم بيوم يتمنون فيه لو كانوا مسلمين ! كما يكشف لهم عن سبب إرجاء هذا اليوم عنهم ، فهو موقوت بأجل معلوم . . ويذكر تحدياتهم واستهزاءهم وطلبهم الملائكة ، ثم يهددهم بأن نزول الملائكة يكون معه الهلاك والتدمير ! وأخيرا يكشف عن العلة الحقيقية للتكذيب . . إنها ليست نقص الدليل ولكنه العناد الأصيل ! (الف . لام . را . . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) هذه الأحرف ونظائرها هي الكتاب وهي القرآن . هذه الأحرف التي في متناول الجميع ، هي (تلك) الآيات العالية الأفق البعيدة المتناول ، المعجزة التنسيق . هذه الأحرف التي لا مدلول لها في ذاتها هي القرآن الواضح الكاشف المبين . فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز ويكذبون بهذا القرآن المبين فسياتي يوم يودون فيه لو كانوا غير ما كانوا ؛ ويتمنون فيه لو آمنوا واستقاموا (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ربما . . ولكن حيث لا ينفع التمني ولا تجدي الودادة . . ربما . . وفيها التهديد الخفي ، والاستهزاء الملقوف ؛ وفيها كذلك الحث على انتهاء الفرصة المعروضة للإسلام والنجاة قبل أن تضيع ، ويأتي اليوم الذي يودون فيه لو كانوا مسلمين ؛ فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون ! وتهديد آخر ملقوف (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم في تلك الدوامة: الأمل يلهي والمطامع تغر ، والعمر يمضي والفرصة تضيع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا في متاهة الأمل الغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع ، ويملي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود ، وأنهم محصلون ما يطعمون لا يرددهم عنه راد ، ولا يمنعهم منه مانع . وأن ليس وراءهم حسيب ؛ وأنهم ناجون في النهاية بما ينالون مما يطعمون ! وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية . فالأمل البراق ما يزال يخاليل لهذا الإنسان ، وهو يجري وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ؛ وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ، وحتى ينسى أن هنالك واجبا ، وأن هنالك محظورا ؛ بل حتى ينسى أن هنالك إله ، وأن هنالك موتا ، وأن هنالك نشورا . وهذا هو الأمل القاتل الذي يؤمر الرسول ﷺ أن يدعهم له (فسوف يعلمون) حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان وهو أمر فيه تهديد لهم ، وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلمهم يصحون من الأمل الخادع الذي يلهيهم عن المصير المحتوم . وإن سنة الله لماضية لا تتخلف ؛ وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها ؛ مترتب على سلوكها الذي تنفذ به سنة الله ومشيئته (وما أهلكتنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الوقت ، فإنما هي سنة الله تمضي في طريقها المعلوم . ولسوف يعلمون . وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم ، يمنحه الله للقرى والأمم ، لتعمل ، وعلى حسب العمل يكون المصير . فإذا هي أمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت مد الله في أجلها ، حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها ، ولا تبقى فيها بقية من خير يرجى ، عندئذ تبلغ أجلها ، وينتهي وجودها ، إما نهائيا بالهلاك والنشور ، وإما وقتيا بالضعف والذبول . ولقد يقال: إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهي مع ذلك

قوية ثرية باقية . وهذا وهم . فلا بد من بقية من خير في هذه الأمم . ولو كان هو خير العمارة للأرض ، وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادي والإحسان المحدود بحدودها . فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها فلا تبقى فيها من الخير بقية . ثم تنتهي حتما إلى المصير المعلوم . إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) ويحكى السياق سوء أديهم مع الرسول ﷺ وقد جاءهم بالكتاب والقرآن المبين ، يوقظهم من الأمل الملهي ، ويذكرهم بسنة الله ، فإذا هم يسخرون منه ويتوقحون (وقالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين !) وتبدو السخرية في ندائهم (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) فهم ينكرون الوحي والرسالة ؛ ولكنهم يتكلمون على الرسول الكريم بهذا الذي يقولون . ويبدو سوء الأدب في وصفهم للرسول الأمين (إنك لمجنون) جزء على دعوته لهم بالقرآن المبين . وهم يتمحكون فيطلبون الملائكة مصدقين (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين !) وطلب نزول الملائكة يتكرر في هذه السورة وفي غيرها ، مع الرسول [ص] ومع غيره من الرسل قبله: وهو كما قلنا ظاهرة من ظواهر الجهل ببقية هذا الكائن الإنساني الذي كرمه الله ، فجعل النبوة في جنسه ، ممثلة في أفراد المختارين . والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل هو ذكر القاعدة التي تشهد بها مصارع السالفين: أن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهي الأجل المعلوم ؛ وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل (ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين) فهل هو ما يريدون وما يتطلبون؟! ثم يردهم السياق إلى الهدى والتبر . . إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق ، ليحقوه وينفذوه . والحق عند التكذيب هو الهلاك . فهم يستحقونه فيحق عليهم . فهو حق تنزل به الملائكة لتنفذه بلا تأخير . وقد أراد الله لهم خيرا مما يريدون بأنفسهم ، فنزل لهم الذكر يتدبرونه ويهدون به ، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير ! لو كانوا يفقهون (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) فخير لهم أن يقبلوا عليه . فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل . ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه ، إن كانوا يريدون الحق ، وإن كانوا يطلبون الملائكة للثبوت . . إن الله لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة ، لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ ، لا ملائكة الهلاك والتدمير . وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر ؛ فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب - إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة - ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا لا تتبدل فيه كلمة ، ولا تحرف فيه جملة ، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر ، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل ، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل ، وتصونه من العبث والتحريف . لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق ، وكثر فيه النزاع ، وطمت فيه الفتن ، وتماوجت فيه الأحداث . وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود - خاصة - ثم من " القوميين " دعاة " القومية " الذين تسموا بالشعوبيين ! ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله ﷺ ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله ﷺ وغربلتها وتفتيتها من كل دخیل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين . كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية ، وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات . ولكنها عجزت جميعا - وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا - أن تحدث حدثا واحدا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ ؛ وبقيت نصوصه كما أنزلها الله ؛ حجة باقية على كل محرف وكل مؤول ؛ وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ . ثم جاء على المسلمين زمان - ما نزال نعانيه - ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم ، وعن حماية عقيدتهم ، وعن حماية نظامهم ، وعن حماية أرضهم ، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم . وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم ! وغير عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم ، وأحلوا مكانه كل منكر فيهم . كل منكر من العقائد والتصورات ، ومن القيم والموازين ، ومن الأخلاق والعبادات ، ومن الأنظمة والقوانين . وزينوا لهم الانحلال والفساد والتفوق والتعري من كل خصائص " الإنسان " وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان . . وأحيانا إلى حياة يشتمز منها الحيوان . . ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عناوات براقية من " التقدم " و " التطور " و " العلمانية " و " العلمية " و " الانطلاق " و " التحرر " و " تحطيم الأغلال " و " الثورية " و " التجديد " إلى آخر تلك الشعارات والعناوين . وأصبح " المسلمون " بالأسماء وحدها مسلمين . ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير . وبتاتوا غناء كغناء السيل لا يمنع ولا يدفع ، ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقودا للنار . . وهو وقود هزيل ! ولكن أعداء هذا الدين - بعد هذا كله - لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها . ولم يكونوا في هذا من الزاهدين . فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدى لو كان يبلغ ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال ! ولقد بذل أعداء هذا الدين - وفي مقدمتهم اليهود - رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله . وقبروا على أشياء كثيرة . . قدروا على الدس في سنة رسول الله ﷺ

لفطرة السوية بمجرد تلقي إبقاعات هذا الكون وإيحاءاته . قبل جميع البحوث العلمية التي لم تجيء إلا أخيرا ! إن الكون لا يملك أن يخلق ذاته ، ثم يخلق في الوقت نفسه قوانينه التي تصرف وجوده . كما أن نشأة الحياة لا يفسرها وجود الكون الخالي من الحياة . وتفسير نشأة الكون ونشأة الحياة بدون وجود خالق مبرر تفسير متعسف ترفضه الفطرة كما يرفضه العقل أيضا . . كما أخذ يرفضه العلم المادي نفسه أخيرا :

يقول عالم الأحياء والنبات "رسل تشارلز إرنست" الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا: "لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بالفشل وخذلان ذريعتين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها .

"إنني اعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً"

وهذا الذي يكتب هذا التقرير لم يبدأ بحثه من التقريرات الدينية عن نشأة الحياة . إنما بدأ بحثه من النظر الموضوعي לנוواميس الحياة . والمنطق السائد في بحثه هو منطق "العلم الحديث" - بكل خصائصه - لا منطق الإلهام الفطري ، ولا منطق الحس الديني . ومع ذلك فقد انتهى إلى الحقيقة التي يقرها الإلهام الفطري ، كما يقرها الحس الديني . ذلك أن الحقيقة متى كان لها وجود ، اعترض وجودها كل سالك إليها من أي طريق يسلكه إليها ؛ أما الذين لا يجدون هذه الحقيقة فهم الذين تعطلت فيهم أجهزة الإدراك جميعا !

والذين يجادلون في الله - مخالفين عن منطق الفطرة وعن منطق العقل ، وعن منطق الكون . . أولئك كأنات تعطلت فيها أجهزة الاستقبال والتلقي جميعا . . إنهم العمي الذين يقول الله تعالى فيهم (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) وإذا كانت هذه حقيقتهم ؛ فإن ما ينشئونه من مذاهب "علمية ! " اجتماعية وسياسية واقتصادية ؛ وما ينشئون من نظريات عن الكون والحياة والإنسان والحياة الإنسانية والتاريخ الإنساني ؛ يجب أن ينظر إليها المسلم كما ينظر إلى كل تخبط ، صادر عن أعمى ، معطل الحواس الأخرى ، محجوبا عن الرؤية وعن الحس وعن الإدراك جميعا - على الأقل فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وتفسيرها وتنظيمها . وما ينبغي لمسلم أن يتلقى عن هؤلاء شيئا ؛ فضلا على أن يكيف نظريته ، ويقوم منهج حياته ، على شيء مقتبس من أولئك العمي أصلا ! إن هذه قضية إيمانية اعتقادية ، وليست قضية رأي وفكر ! إن الذي يقيم تفكيره ، ويقوم مذهبه في الحياة ، ويقوم نظام حياته كذلك ، على أساس أن هذا الكون المادي هو منشىء ذاته ، ومنشىء الإنسان أيضا . . إنما يخطيء في قاعدة الفكر والمذهب والنظام ؛ فكل التشكيلات والتنظيمات والإجراءات القائمة على هذه القاعدة لا يمكن أن تجيء بخير ؛ ولا يمكن أن تلتحم في جزئية واحدة مع حياة مسلم ، يقيم اعتقاده وتصوره ، ويجب أن يقيم نظامه وحياته على قاعدة ألوهية الله للكون وخلقها وتدبيره . ومن ثم يصبح القول بأن ما يسمى "الاشتراكية العلمية" منهج مستقل عن المذهب المادي مجرد جهالة أو هراء ! ويصبح الأخذ بما يسمى "الاشتراكية العلمية" - تلك قاعدتها ونشأتها ومنهج تفكيرها وبناء أنظمتها - عدولا جذريا عن الإسلام: اعتقادا وتصورا ثم منهجا ونظاما . . حيث لا يمكن الجمع بين الأخذ بتلك "الاشتراكية العلمية" واحترام العقيدة في الله بناتا . ومحاولة الجمع بينهما هي محاولة الجمع بين الكفر والإسلام . . وهذه هي الحقيقة التي لا محيص عنها . إن الناس في أي أرض وفي أي زمان ؛ إما أن يتخذوا الإسلام دينا ، وإما أن يتخذوا المادية دينا . فإذا اتخذوا الإسلام دينا امتنع عليهم أن يتخذوا "الاشتراكية العلمية" المنبثقة من "الفلسفة المادية" ، والتي لا يمكن فصلها عن الأصل الذي انبثقت منه ، ونظاما . وعلى الناس أن تختار . إما الإسلام ، وإما المادية ، منذ الأبداء ؛ إن الإسلام ليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمير . إنما هو نظام قائم على عقيدة . . كما أن "الاشتراكية العلمية" - بهذا الاصطلاح - ليست قائمة على هواء ، إنما هي منبثقة انبثاقا طبيعيا من "المذهب المادي" الذي يقوم بدوره على قاعدة مادية الكون وإنكار وجود الخالق المبرر أصلا ، ولا يمكن الفصل بين هذا التركيب العضوي . . ومن ثم ذلك

التناقض الجذري بين الإسلام وما يسمى "الاشتراكية العلمية" بكل تطبيقاتها! ولا بد من الاختيار بينهما . . . ولكل أن يختار وأن يتحمل عند الله تبعه ما يختار !!!

(لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ {16} وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ {17})
أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ {18} وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُمَوَّزُونَ {19} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ {20} وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ {21} وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاجِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ {22} وَأَنَا لَنَحْنُ خَيْرُ الْبَرِّ {23} وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمَسْتَأْخِرِينَ {24} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {25}

من مشهد المكابرة . وكان ميدانه السماء . إلى معرض الآيات الكونية مبدؤا بمشهد السماء . فمشهد الأرض . فمشهد الرياح اللوواح بالماء . فمشهد الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . . . كل أولئك آيات يكابر فيها من لو فتح عليهم باب من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا: إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون . فلنعرضها مشهدا مشهدا كما هي في السياق (ولقد جعلنا في السماء بروجا . وزيناها للنظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع ، فاتبعه شهاب مبين) إنه الخط الأول في اللوحة العريضة . . لوحة الكون العجيبة ، التي تنطق بآيات القدرة المبدعة ، وتشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ؛ وتكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما تكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير . والبروج قد تكون هي النجوم والكواكب بضخامتها . وقد تكون هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها . وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة ، وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل (وزيناها للنظرين) وهي لفتة هنا إلى جمال الكون - وبخاصة تلك السماء - تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون . فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعا ، وينشأ من تناسقها جميعا . وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة ، وقد انتشرت فيها الكواكب والنجوم ، توصوص بنورها ثم يبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد . . . ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبرد حالم ، والكون من حوله مهوم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد ! إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني ، وعمق هذا الجمال في تكوينه ؛ ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة (وزيناها للنظرين) ومع الزينة الحفظ والطهارة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) لا ينالها ولا يدنسها ؛ ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها . أما السماء - وهي رمز للسمو والارتفاع - فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها . إلا محاولة منه ترد كلما حاولها (إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين) وما الشيطان ؛ وكيف يحاول استراق السمع ؛ وأي شيء يسترق ؛ . . كل هذا غيب من غيب الله ، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص . ولا جدوى في الخوض فيه ، لأنه لا يزيد شيئا في العقيدة ؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشري بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقي في هذه الحياة . ثم لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقة جديدة . فلنعلم أن لا سبيل في السماء للشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ما ترمز إليه من سمو وعلي مصون لا يناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، إلا طورد فطرد وحيل بينه وبين ما يريد . ولا ننسى جمال الحركة في المشهد في رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض ، فهي من بدائع التصوير في هذا الكتاب الجميل . والخط الثاني في اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخطو والسير ؛ وما فيها من رواس ، وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) إن ظل الضخامة واضح في السياق . فالإشارة في السماء إلى البروج الضخمة - تبدو ضخامتها حتى في جرس كلمة (بروج) وحتى الشهاب المتحرك وصف من قبل بأنه (مبين) . . والإشارة في الأرض إلى الرواسي - ويتجسم ثقلها في التعبير بقوله: (وألقينا فيها رواسي) وإلى النبات موصوفا بأنه (موزون) وهي كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير . . ويشترك في ظل التضخيم جمع (معايش) وتكبيرها ، وكذلك (ومن لستم له برازقين) من كل ما في الأرض من أحياء على وجه الإجمال والإبهام . فكلها تخلع ظل الضخامة الذي يحلل المشهد المرسوم . والآية الكونية هنا تتجاوز الأفاق إلى الأنفس . فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ؛ وهذه الرواسي الملقاة على الأرض ، تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ؛ ومنه إلى المعايش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض . وهي الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها . وهي كثيرة شتى ، يجملها السياق هنا ويبهما لتلقي ظل الضخامة كما أسلفنا . جعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لكم كذلك (من لستم له برازقين) فهم يعيشون على أرزاق الله التي جعلها لهم في الأرض . وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم

التي لا تحصى . أمة لا ترزق سواها إنما الله يرزقها ويرزق سواها ، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ومتاعها وخدمتها أمة أخرى تعيش من رزق الله ، ولا تكلفها شيئاً . هذه الأرزاق - ككل شيء - مقدره في علم الله ، تابعة لأمره ومشيتته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، في الوقت الذي يريده حسب سنته التي ارتضاها ، وأجراها في الناس والأرزاق (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئاً ، إنما خزائن كل شيء - مصادره وموارده - عند الله . في علاه . ينزله على الخلق في عوالمهم (بقدر معلوم) فليس من شيء ينزل جزافاً ، وليس من شيء يتم اعتباطاً . ومدلول هذا النص المحكم (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان في المعرفة ، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه . ومدلول (خزائنه) يتجلى في صورة أقرب بعدما كشف الإنسان طبيعة العناصر التي يتألف منها الكون المادي ؛ وطبيعة تركيبها وتحليلها - إلى حد ما - وعرف مثلاً أن خزائن الماء الأساسية هي ذرات الأيدروجين والأكسوجين ! وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك الأزوت الذي في الهواء ! وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب في ثاني أكسيد الكربون ! وتلك الأشعة التي ترسل بها الشمس أيضاً ! ومثل هذا كثير يوضح دلالة خزائن الله التي توصل الإنسان إلى معرفة شيء منها . . وهو شيء على كثرته قليل قليل . ومما يرسله الله بقدر معلوم الرياح والماء (وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . وما أنتم له بخازنين) أرسلنا الرياح لواقح بالماء ، كما تلقح الناقة بالنتاج ؛ فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح ، فأسقيناكموه فعضتم به (وما أنتم له بخازنين) فما من خزائنكم جاء ، إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم والرياح تتطلق وفق نوااميس كونية ، وتحمل الماء وفقاً لهذه النوااميس

عليه في هذه الظلال يبعد كل البعد عن هذه المحاولة ! وقرى لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظات لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة في مصارع الغابرين . وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المفتحة المستعدة للتلقي والتدبر واليقين (إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين) وهكذا صدق التنير ، وكان نزول الملائكة إيذاناً بعذاب الله الذي لا يرد ولا يمهل ولا يهين كذلك كان الحال مع قوم شعيب - أصحاب الأيكة - ومع قوم صالح - أصحاب الحجر (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم . وإنهما لبإمام مبين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ؛ وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ؛ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه أهل مدين وأصحاب الأيكة في مواضع أخرى . فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقاً لنبا العذاب ، في هذا الشوط ، ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد في مطالع السورة . ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا (وإنهما لبإمام مبين . .) قد تعني مدين والأيكة ، فهما في طريق واضح غير مندثر ، وقد تعني قرى لوط السالفة الذكر وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام . ووقوع القرى الدائرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة ، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي . والحياة تجري من حولها وهي دائرة كان لم تكن يوماً عامرة . والحياة لا تحفلها وهي ماضية في الطريق ! أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) وهم لم يكدنوا سوى رسولهم صالح . ولكن صالحاً ليس إلا ممثلاً للرسول أجمعين ؛ فلما كذبه قومه قيل: إنهم كذبوا المرسلين . توحيداً للرسالة وللرسول وللمكذبين . في كل أعصار التاريخ ، وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام (وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) وأية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات في هذا الكون كثير . والآيات في هذه الأنفس كثير . وكلها معروضة للأنظار والأفكار . وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله . وقد عرضوا عن آيات الله كلها ، ولم يفتحوا لها عيناً ولا قلباً ، ولم يستشعروها فيهم عقل ولا ضمير (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وهذه اللمة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف . . هذه اللمة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة . فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور . وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع . . وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون . فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين موهون . . فما شيء من هنا كله بواقينهم من الصيحة . وهي فرقة ريح أو صاعقة ، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين . وهكذا تنتهي تلك الحلقات الخاطفة من القصص في السورة ، محققة سنة الله في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم . فتتناقص

نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة في تحقيق سنة الله التي لا ترد ، ولا تتخلف ، ولا تحيد .

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ {85} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ {86} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ {87} لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا عَنْهُمْ أَصْفَحًا مِنْهُمْ وَإِنَّا لَآلِيمُونَ {88} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ {89} كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ {90} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ {91} فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {93} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ {95} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {96} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ {98} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ {99}

يعقب السياق في ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر ، الذي يتجلى في طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها . وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول ﷺ وقد حملها الرسل قبله . ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذي يربطها ويتجلى فيها ؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق ، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود (إن ربك هو الخلاق العليم) فليمض الحق الأكبر في طريقه ، ولتمض الدعوة المستندة إلى الحق الأكبر في طريقها ، وليمض الداعية إلى الحق لا يبالي المشركين المستهزئين (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وسنة الله ماضية في طريقها لا تتخلف . والحق الأكبر من ورائها متلبسا بالدعوة وبالساعة وبخلق السماوات والأرض ، وبكل ما في الوجود الصادر عن الخلاق العليم . . إنها لفئة ضخمة تختتم بها السورة . لفئة إلى الحق الأكبر الذي يقوم به هذا الوجود (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية . فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم) إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذي تقوم به السماوات والأرض ، والذي به كان خلقهما وما بينهما ، لتعقيب عظيم الدلالة ، عميق المعنى ، عجيب التعبير . فماذا يشير إليه هذا القول: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ؛ إنه يوحي بأن الحق عميق في تصميم هذا الوجود: عميق في تكوينه . عميق في تدبيره . عميق في مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه . . عميق في تصميم هذا الوجود . فهو لم يخلق عبثا ، ولم يكن جزافا ، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل . والباطل طارئ عليه ليس عنصرا من عناصر تصميمه . عميق في تكوينه . فقوامه من العناصر التي يتألف منها حق لا وهم ولا خداع . والنواميس التي تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يتزعزع ولا يضطرب ولا يتبدل . ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف . عميق في تدبيره . فبالحق يدبر ويصرف ، وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التي لا تتبع هوى ولا نزوة ، إنما تتبع الحق والعدل . عميق في مصيره . فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة ؛ وكل تغيير يقع في السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق . وكل جزء يرتب يتبع الحق الذي لا يحابي . ومن هنا يتصل الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما ، بالساعة الآتية لا ريب فيها . فهي آتية لا تتخلف . وهي جزء من الحق الذي قام به الوجود . فهي في ذاتها حقيقة ، وقد جاءت لتحقق الحق (فاصفح الصفح الجميل) ولا تشغل قلبك بالحنق والحقد ، فالحق لا بد أن يحق (إن ربك هو الخلاق العليم) الذي خلق ويعلم ما خلق ومن خلق . والخلق كله من إبداعه فلا بد أن يكون الحق أصيلا فيه ، ولا بد أن ينتهي كل شيء فيه إلى الحق الذي بدأ منه وقام عليه . فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارئ يذهب ، فلا يبقى إلا ذلك الحق الكبير الشامل المستقر في ضمير الوجود يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التي جاء بها الرسول . وذلك القرآن الذي أوتيه (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) والمثاني الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع - كما ورد في الأثر - فهي تتلى وتكرر في الصلاة ، أو يثنى فيها على الله . والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق والساعة الآتية لا ريب فيها ، يشي بالاتصال بين هذا القرآن والحق الأصيل الذي يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها ، ويكشف آياته في الأنفس والأفاق ويستجيش القلوب لإدراكها ، ويكشف أسباب الهدى والضلال ، ومصير الحق والباطل ، والخير والشر والصلاح والطلاح . فهو من مادة ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبينه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذي خلقت به السماوات والأرض . ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمرا عارضا ولا ذاهبا . إنما يبقى مؤثرا في توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزئ المستهزئون ، ويحاول المبطلون ، الذين يعتمدون على الباطل ، وهو عنصر طارئ زائل في هذا الوجود . ومن ثم فإن من أوتي هذه المثاني وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ،

المتصل بالحق الأكبر . . لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشيء زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل . ولا يحفل مصير أهل الضلال ، ولا يهمه شأنهم في كثير ولا قليل . إنما يمضي في طريقه مع الحق الأصيل (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم) والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أي يتوجه . ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهي صورة طريقة حين يتصورها المتخيل . والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول ﷺ ذلك المتاع الذي آتاه الله لبعض الناس رجالاً ونساء - امتحاناً وابتلاء - ولا يلقى إليه نظرة اهتمام . أو نظرة استحسان . أو نظرة تمن . فهو شيء زائل وشيء باطل ؛ ومعناه هو الحق الباقي من المثاني والقرآن العظيم . وهذه اللفتة كافية للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي مع الرسول ، والمتاع الصغير الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل . يليها توجيه الرسول ﷺ إلى إهمال القوم المتمتعين ، والعناية بالمؤمنين ، فهؤلاء هم أتباع الحق الذي جاء به ، والذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارئ على صميم الوجود (ولا تحزن عليهم) ولا تهتم لمصيرهم السيء الذي تعلم أن عدل الله يقتضيه ، وأن الحق في الساعة يقتضيه . ودعهم لمصيرهم الحق (وأخفض جناحك للمؤمنين) والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويري ، يمثل لطف الرعاية وحسن المعاملة ورقة الجانب في صورة محسوسة على طريقة القرآن الفنية في التعبير (وقل:إني أنا النذير المبين) . فذلك هو طريق الدعوة الأصيل . . ويفرد الإنذار هنا دون التبشير لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون ، ويتمتعون ذلك المتاع البراق ، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذي تقوم عليه الدعوة ، وتقوم عليه الساعة ، ويقوم عليه الكون الكبير .

(وقل:إني أنا النذير المبين) تلك القولة التي قالها كل رسول لقومه ؛ ومنهم بقايا الأقوام التي جاءها أولئك الرسل بتلك النذارة البينة التي جئت بها قومك . . وكان منهم في الجزيرة العربية اليهود والنصارى . . ولكن هذه البقايا لم تكن تتلقى هذا القرآن بالتسليم الكامل ، إنما كانت تقبل بعضه وترفض بعضه ، وفق الهوى ووفق التعصب وهؤلاء هم الذين يسميهم الله هنا (المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين) (كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وهذه السورة مكية . ولكن الخطاب بالقرآن كان عاماً للبشر . ومن البشر هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين [والعضة:الجزء . من عضى الشاة أي فصل بين أعضائها] . . وهم مسؤولون عن هذه التفرقة . وقد جاءهم القرآن بالنذارة البينة ، كما جاءتهم كتبهم من قبل . ولم يكن أمر القرآن ولا أمر النبي بدعا لا عهد لهم به . فقد أنزل الله عليهم مثله ، فكان أولى أن يستقبلوا الجديد من كتاب الله بالقبول والتسليم ، وحين يصل السياق إلى هذا الحد ، يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ أن يمضي في طريقه . يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمى هذا الجهر صدعا - أي شفا - دلالة على القوة والنفذ . لا يقعه عن الجهر والمضي شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم . ولا استهزاء مستهزئ فقد كفاه الله شر المستهزئين فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ؛ إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون) والرسول ﷺ بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق . فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك . لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم . ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذي ما بعده يقين . . الأجل . . فيمضي إلى جوار ربه الكريم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ويكون هذا ختام السورة . . الأعراض عن الكافرين واللواذ بجوار الله الكريم . أولئك الكافرين الذين سيأتي يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين . . إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة ؛ والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها . ضرورة في الحركة بهذه الدعوة ؛ فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة الغافية ؛ ويوقظ المشاعر المتبلدة ؛ ويقيم الحجة على الناس (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) أما التمسس الناعم بهذه العقيدة ؛ وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا ، لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية . والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعنى الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة ! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعنى التمسس الناعم ، وكتمان جانب من حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب ، وجعل القرآن عضين . . لا هذه ولا تلك . . إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة ؛ في وضوح جلي ، وفي حكمة كذلك في الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير . " وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان . . لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ؛ ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل . . فالجاهلية هي الجاهلية ، والإسلام هو الإسلام . . الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد والقيم والموازين ، من مصدر آخر غير المصدر الإلهي . . والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام" . وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هي التي يجب أن يصدع بها أصحاب الدعوة الإسلامية ، ولا يخفوا منها شيئا ؛ وأن

يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتململ الجماهير. فأخرج منها فأنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) جزاء العصيان والشرود . عندئذ تتبدى خليفة الحقد وخليفة الشر (قال:رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال:فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم . ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده . يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير) ! قال:رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين (وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة . إنها الأرض (لأزينن لهم في الأرض) وحدد عدته فيها إنه التزيين . تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزِينته المصطنعة على ارتكابه . وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزيينه وتجمله ، وتظهره في غير حقيقته وردائه . فليفتن الناس إلى عدة الشيطان ؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينا ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتها . ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك . إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان - بشرطه هو - على عباد الله المخلصين من سبيل (ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ، ويجردها له وحده ، ويعبده كأنه يراه . وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان . هذا الشرط الذي قرره إبليس - اللعين - قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله . . أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه . . ومن ثم كان الجواب (هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . إلا من أتبعك من الغاوين) هذا صراط . هذا ناموس . هذه سنة . وهي السنة التي ارتضتها الإرادة قانونا وحكما في الهدى والضلال (إن عبادي) المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك في حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله . إنما سلطانك على من أتبعك من الغاوين الضالين . فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءا من عباد الله المخلصين . إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع . فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع . ورحمة الله أوسع ولو تخلفوا فإنهم يثوبون من قريب ! فأما العقابة . عاقبة الغاوين . فهي معلنة في الساحة منذ البدء (وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) فهؤلاء الغاؤون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال . ولكل باب منهم جزء مقسوم ، بحسب ما يكونون وما يعملون . وينتهي المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة . ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس . وكيف تغلب خصائص الطين في الإنسان على خصائص النفخة . فأما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان . وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين (إن المتقين في جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ولعل العيون في الجنات تقابل في المشهد تلك الأبواب في جهنم . وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين في مقابل الخوف والفرع هناك . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، في مقابل الحقد الذي يغلي به صير إبليس فيما سلف من السياق . لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا . جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الله الكريم

تعقيب علي قصة آدم في السورة

وبعد ، فإن قصة البشرية الكبرى - كما تعرض في هذا السياق القرآني - تستحق تعقيبات مفصلة لا نملك أن نستطرد فيها - في ظلال القرآن - فنكتفي أن نلم بها إلاما ، على قدر المناسبة:

إن دلالتها واضحة على طبيعة تكوين هذا الخلق المسمى بالإنسان . فهو تكوين خاص متفرد ، يزيد على مجرد التركيب العضوي الحيوي ، الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء . وأيا كانت نشأة الحياة ، ونشأة الأحياء ؛ فإن الخلق الإنساني يتفرد بخاصية أخرى هي التي ورد بها النص القرآني . . خاصية الروح الإلهي المودع فيه . . وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنسانا ، يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى . وهي قطعا ليست مجرد الحياة . فهو يشترك في "الحياة" مع سائر الأحياء . ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة . هذه الخاصية - كما يلهم النص القرآني - لم تجيء للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته - كما تزعم الدارونية - ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته . فلم يجيء على هذا الكائن الإنساني زمان كان فيه مجرد حي من الأحياء - بلا روح إنساني خاص - ثم دخلته هذه الروح ، فصار بها هو هذا الإنسان ! ولقد اضطرت الدارونية الحديثة - على يد جوليان هاكسلي - أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة ؛ وهي تقرر "تفرد الإنسان" من الناحية الحيوية والوظيفية . ومن ثم تفرده من الناحية العقلية ، وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية . . ولكنها ظلت تزعم أن هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان ! والتوفيق عسير

بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان ، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية - قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان - ولكن الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرين على ذلك الاندفاع - غير العلمي - الذي صبغوه بصيغة العلم ، في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة ! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته ، وإضفاء الصبغة العلمية عليه لغرض في نفوسهم ؛ ولغاية في مخططاتهم ! وعلى أية حال ، فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام ، وفي نشأة الجنس البشري ، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحبا لخلقه . وأن الترفي "الإنساني" كان ترفيها في بروز هذه الخصائص ، ونموها ، وتدريبها ، واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترفيها في "وجود" الإنسان . . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان . . كما تقول الداروينية . ووجود أنواع مترقية من الحيوان تتبع ترتيبا زمنيا - بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية "ظنية" وليست "يقينية" لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظنا ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها ! "على أنه - على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود "أنواع" من الحيوان ، في أزمان متوالية ، بعضها أرقى من بعض ، بفعل الظروف السائدة في الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة في حياتها . ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة [وظهور أنواع أخرى أكثر ملاءمة للظروف السائدة] . . ولكن هذا لا "يحتم" أن يكون بعضها "متطورا" من بعض . . وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا ، لا تستطيع أن تثبت - في يقين مقطوع به - أن هذا النوع تطور تطورا عضويا من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها - ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعا أرقى من النوع الذي قبله زمنيا . . وهذا يمكن تعديله بما قلنا من أن الظروف السائدة في الأرض كان بما فيها ما يسمونه هناك: "الاشتراكية العلمية" فإن هو إلا إفراس خبيث من إفراسات المادية الحقيرة المحقرة للإنسان الذي كرمه الله . والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض تركز ابتداء إلى استئراج الشيطان للإنسان بعيدا عن منهج الله ؛ والتزيين له فيما عداه . استئراجه إلى الخروج من عبادة الله - أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور ، وشريعة ونسك ، وشريعة ونظام - فأما الذين يدينون له وحده - أي عبودونه وحده - فليس للشيطان عليهم من سلطان (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التي وعد بها المتقون ؛ وبين الاتجاه إلى جهنم التي وعد بها الغاؤون ، هو الدينونة لله وحده - التي يعبر عنها في القرآن دائما بالعبادة - أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة . والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه ، ولا صفاته . . أي إنه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة ! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله . . وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين . إن الدينونة لله وحده هي مناط الإسلام . فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام . وسواء كان هذا الحكم خاصا بالاعتقاد والتصور . أو خاصا بالشعائر والمناسك . أو خاصا بالشرائع والقوانين . أو خاصا بالقيم والموازين . . فهو سواء . . الدينونة فيه لله هي الإسلام . والدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان . ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة ؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع . فالدينونة لله كل لا يتجزأ . وهي العبادة لله في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء . . وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان !

وأخيرا نقف أمام اللفتة الصادقة العميقة في قوله تعالى عن المتقين (إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) إن هذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر في هذه الأرض ؛ ولا تحويلهم خلقا آخر . ومن ثم يعترف لهم بأنه كان في صدورهم غل في الدنيا ؛ وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التي لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها ؛ ولكنه يعالجها فقط لتخف حدتها ، ويتسامى بها لتتنصرف إلى الحب في الله والكره في الله - وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ولكنهم في الجنة - وقد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها في الحياة الدنيا - ينزع أصل الإحساس بالغل من صدورهم ؛ ولا تكون إلا الاخوة الصافية الودود . إنها درجة أهل الجنة . . فمن وجدها في نفسه غالبية في هذه الأرض ، فليستبشر بأنه من أهلها ، مادام ذلك وهو مؤمن ، فهذا هو الشرط الذي لا تقوم بغيره الأعمال

(نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ} 49{ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} 50{ وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} 51{ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ} 52{ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 53{ قَالَ أَيَسَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِي الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ} 54{ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْفَانِطِينَ} 55{ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} 56{ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا

الْمُرْسَلُونَ {57} قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ {58} إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ {59} إِلَّا
 أَمْرَاتَهُ قَبَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ {60} فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ {61} قَالَ إِبْرَاهِيمُ قَوْمٌ
 مُّكَرِّوْنَ {62} قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ {63} وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {64}
 فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَهْلَكَ وَمَنْ أَجِدْ مِنْكُمْ آجِدْ وَمَنْصُورًا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ {65}
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ {66} وَجَاء أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُنْبُورٍ {67} قَالَ
 إِنَّ هُوَلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَقْضِحُون {68} وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُون {69} قَالُوا أَوْلَمْ يَأْتِكُمْ نَبِيُّكُمْ
 الْعَالَمِينَ {70} قَالَ هُوَلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {71} لَعْمَرِكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ بِعَمَهُونَ {72}
 فَأَخَذْنَاهُمُ الصُّبْحَةَ مُشْرِقِينَ {73} فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ {74} إِنْ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ {75} وَإِنهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ {76} إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ {77} وَإِنْ كَانَ
 أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ {78} فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِأْسٍ مُّبِينٍ {79} وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ
 الْمُرْسَلِينَ {80} وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ {81} وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
 آمِنِينَ {82} فَأَخَذْنَاهُمُ الصُّبْحَةَ مُصْبِحِينَ {83} فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {84}

يتضمن هذا الدرس نماذج من رحمة الله وعذابه ، ممثلة في قصص إبراهيم وبشارته على الكبر
 بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر
 وما حل بهم من عذاب أليم . هذا القصص يساق بعد مقدمة: نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن
 عذابي هو العذاب الأليم فيجىء بعضه مصداقا لنبا الرحمة ، ويجيء بعضه مصداقا لنبا العذاب . .
 كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة ، فيصدق ما جاء فيها من نذير (زهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم
 الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما
 يستأخرون) فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل . .
 وكذلك يصدق هذا القصص ما جاء في مطالع السورة في شأن الملائكة حين يرسلون (وقالوا: يا أيها
 الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل
 الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين) فتبدو السورة وحدة متناسقة ، يظهر بعضها بعضا . .
 وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادرا ، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن
 تنزل متتالية تواليها في المصحف . ولكن ترتيب هذه الآيات في السور ترتيب توقيفي ، فلا بد من
 حكمة في ترتيبها على هذا النسق . وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور
 التي عرضناها في تماسك بنیان السور ، واتحاد الجو والظلال في كل سورة . . والعلم بعد ذلك لله .
 إنما هو اجتهاد . والله الموفق إلى الصواب (نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو
 العذاب الأليم) يجىء هذا الأمر للرسول ﷺ بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين في سياق السورة .
 والمناسبة بينهما ظاهرة في السياق . ويقدم الله نبا الغفران والرحمة على نبا العذاب . جريا على
 الأصل الذي ارتضت مشيئته . فقد كتب على نفسه الرحمة . وإنما يذكر العذاب وحده أحيانا أو يقدم
 في النص لحكمة خاصة في السياق تقتضي إفراده بالذكر أو تقديمه . ثم تجيء قصة إبراهيم مع
 الملائكة المرسلين إلى قوم لوط . . وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط في مواضع
 متعددة بأشكال متنوعة ، تناسب السياق الذي وردت فيه . ووردت قصة لوط وحده في مواضع أخرى .
 وقد مرت بنا حلقة من قصة لوط في الأعراف ، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط في هود . . فأما في
 الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتية قومه من الفاحشة ، وجواب قومه (أخرجوهم من
 قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) وإنجاءه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وذلك دون ذكر
 لمجىء الملائكة إليه وإتمام قومه بهم . . وأما في الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم
 ولوط مع اختلاف في طريقة العرض . فهناك تفصيل في الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيريه وامراته
 قائمة ، وجداله مع الملائكة عن لوط وقومه . وهو ما لم يذكر هنا . وكذلك يختلف ترتيب
 الحوادث في القسم الخاص بلوط في السورتين . . ففي سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا
 بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه وهو يرجوهم في ضيفه فلا يقبلون رجاءه ، حتى ضاق بهم ذرعا وقال
 قولته الأسيفة (لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد !) وأما هنا فقدم الكشف عن طبيعة
 الملائكة منذ اللحظة الأولى ، وأخر حكاية القوم وانتمارهم بضيف لوط . لأن المقصود هنا ليس
 هو القصة بترتيبها الذي وقعت به ، ولكن تصديق النذير ، وأن الملائكة حين ينزلون فإنما ينزلون
 للعذاب فلا ينظر القوم ولا يمهلون (ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاما . قال: إنا
 منكم وجلون . قالوا: لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال: أبشروني على أن مسني الكبر ؟ فبم
 تبشرون ؟ قالوا: بشرنك بالحق فلا تكن من القانطين . قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)
 قالوا: سلاما . قال: إنا منكم وجلون . . ولم يذكر هنا سب قوله ، ولم يذكر أنه جاءهم بعجل حنيد
 (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) . . كما جاء في سورة هود . ذلك أن

المجال هنا هو مجال تصديق الرحمة التي ينبيء الله بها عباده على لسان رسوله ، لا مجال تفصيلات قصة إبراهيم (قالوا: لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) وهكذا عجلوا له البشري ، وعجل بها السياق دون تفصيل كذلك يثبت هنا رد إبراهيم ولا يدخل امرأته وحوارها في هذه الحلقة (قال: أبشرتموني على أن مسني الكبر ؟ فبم تبشرون ؟) فقد استبعد إبراهيم في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر [وزوجته كذلك عجوز عقيم كما جاء في مجال آخر] فرده الملائكة إلى اليقين (قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أي من اليائسين . فأب إبراهيم سريعا ، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله (قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟) وبرزت كلمة "الرحمة" في حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة في هذا السياق ؛ وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته . فأما القلب الندي بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا يأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر . . فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتمدين . وقدرة الله تنشيء الأسباب كما تنشيء النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود . وهنا - وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة ، وثابت نفسه واطمأن للبشري - راح يستطلع سبب مجيئهم وغايتهم (قال: فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) ولا يعرض السياق لجidal إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له في سورة هود . بل يصل إخبار الملائكة له ، بالنبا كله . ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله ، وعذابه لامراته وقومه . وينتهي بذلك دورهم مع إبراهيم ، ويمضون لعملهم مع قوم لوط (فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال: إنكم قوم منكرون . قالوا: بل جنتنا بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر باهلك بقطع من الليل ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة ، جاءوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون ، تصديقا لوعده الله ، وتوكيدا لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء (قال: إنكم قوم منكرون) قالها ضيق النفس بهم ، وهو يعرف قومه ، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء ، وهو بين قومه غريب ، وهم فجرة فاحشون . . إنكم قوم منكرون أن تجينوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون ! (قالوا: بل جنتنا بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه . وهو في حيرة بين واجبه لضيافته وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه . فجاءه التوكيد بعد التوكيد ، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه (فأسر باهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون) والسرى سير الليل ، والقطع من الليل جزؤه . وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح ، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحدا منهم يتخلف أو يتلصق أو يتلفظ إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون إليها ويتلصقون . وكان الموعد هو الصبح والصبح قريب (وقضينا إليك ذلك الأمر: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير: أن آخر هؤلاء القوم - وهو دابرهم - مقطوع في الصباح . وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم ؛ والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التي لا تبقى أحدا . فلا بد من الحرص واليقظة كي لا يتخلف أحد ولا يتلفت ، فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين . قدم السياق هذه الواقعة في القصة لأنها الأنسب لموضوع السورة كله . ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها . لقد تسامعوا بأن في بيت لوط شبانا صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيدا (وجاء أهل المدينة يستبشرون) والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة . يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية . هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر ذاته - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع . فقد بشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطالع عليه الناس . وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية . بل حين تكون شرعية . وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك . . بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ، ويتجمعون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظر . فأما لوط فوقف مكروبا يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه . وقف يستشير النخوة الأدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوى لله . وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله ، ويعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش . ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع (قال: إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون) وبدلا من أن يثير هذا في نفوسهم روايب المروءة والحياة ، إذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطا على استضافة أحد من الرجال . كأنما هو الجاني الذي هيا لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعا ! (قالوا: أو لم ننهك عن العالمين ؟) ويمضي لوط في محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليم إلى الجنس

الأخر . إلى الإنث اللواتي جعلهن الله لتلبية هذا الدافع العميق في نظام الحياة ؛ ليكون النسل الذي تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معا - في الحالات الطبيعية - ليكون هذا ضمانا لامتداد الحياة ، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة . . يمضي لوط في محاولته هذه (قال:هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) ولوط النبي لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا . إنما هو يلوح لهم بالطريق الطبيعي الذي ترضاه الفطرة السليمة ، لينبه فيهم هذه الفطرة . وهو يعلم أنهم إن تابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحا . فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة في نفوسهم لعلها تستيقظ على هذا العرض الذي هم عنه معرضون وبينما هذا المشهد معروض . القوم في سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون . ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ، ويستجيش وجدانهم ، ويحرك دواعي الفطرة السليمة فيهم ، وهم في سعارهم مندفعون . . بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطابا لمن يشهد ذلك المشهد ، على طريقة العرب في كلامهم بالقسم (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) لتصوير حالتهم الأصلية الدائمة التي لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة . ثم تكون الخاتمة وتحق عليهم كلمة الله وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطباع المقلوبة (فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وقد خسف بقرى لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحيانا ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح في الأرض . ويقال:إن بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث ، بعد انقلاب عمورة وسدوم في باطن الأرض ، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء . ولكننا لا نعلم ما وقع لهم بأنه كان زلزالا أو بركانا عابرا مما يقع في كل حين . فالمنهج الإيماني الذي نحرص عليه في هذه الظلال يبعد كل البعد عن هذه المحاولة ! وقرى لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظام لمن يتقرس ويتأمل ، ويجد العبرة في مصارع الغابرين . وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة للمستعدة للتلقى والتدبر واليقين (إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين) وهكذا صدق النذير ، وكان نزول الملائكة إيدانا بعذاب الله الذي لا يرد ولا يمهل ولا يهين كذلك كان الحال مع قوم شعيب - أصحاب الأيكة - ومع قوم صالح - أصحاب الحجر (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم . وإنهما لبإمام مبين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ؛ وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ؛ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه:أهل مدين وأصحاب الأيكة في مواضع أخرى . فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقا لنبا العذاب ، في هذا الشوط ، وإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد في مطالع السورة . ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا (وإنهما لبإمام مبين . .) قد تعني مدين والأيكة ، فهما في طريق واضح غير مندثر ، وقد تعني قرى لوط السالفة الذكر وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام . ووقوع القرى الداثرة على الطريق المطروق أدى إلى العبرة ، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي . والحياة تجري من حولها وهي داثرة كان لم تكن يوما عامرة . والحياة لا تحفلها وهي ماضية في الطريق ! أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح . ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسول أجمعين ؛ فلما كذبه قومه قيل:إنهم كذبوا المرسلين . توحيدا للرسالة وللرسول وللمكذبين . في كل أعصار التاريخ ، وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام (وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) وآية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات في هذا الكون كثير . والآيات في هذه الأنفس كثير . وكلها معروضة للأنظار والأفكار . وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله . وقد عرضوا عن آيات الله كلها ، ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ، ولم يستشعروها فيهم عقل ولا ضمير (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئا يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف . . هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة . فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور . وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع . . وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون . فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين موهون . . فما شيء من هنا كله بواقينهم من الصيحة . وهي فرقة ريح أو صاعقة ، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين . وهكذا تنتهي تلك الحلقات الخاطفة من القصص في السورة ، محققة سنة الله في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم . فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة في تحقيق سنة الله التي لا ترد ، ولا تتخلف ، ولا تحيد .

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ {85} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ {86} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ {87} لَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ {88} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ {89} كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ {90} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ {91} فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {93} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ {95} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {96} وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يُضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ {98} وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) {99}

يعقب السياق في ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر ، الذي يتجلى في طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها . وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول ﷺ وقد حملها الرسل قبله . ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذي يربطها ويتجلى فيها ؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق ، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود (إن ربك هو الخلاق العليم) فليمض الحق الأكبر في طريقه ، ولتمض الدعوة المستندة إلى الحق الأكبر في طريقها ، وليمض الداعية إلى الحق لا يبالي المشركين المستهزئين (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وسنة الله ماضية في طريقها لا تتخلف . والحق الأكبر من ورائها متلبسا بالدعوة وبالساعة وبخلق السماوات والأرض ، وبكل ما في الوجود الصادر عن الخلاق العليم . . إنها لفئة ضخمة تختتم بها السورة . لفئة إلى الحق الأكبر الذي يقوم به هذا الوجود (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية . فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم) إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذي تقوم به السماوات والأرض ، والذي به كان خلقهما وما بينهما ، لتعقيب عظيم الدلالة ، عميق المعنى ، عجيب التعبير . فماذا يشير إليه هذا القول: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)؛ إنه يوحي بأن الحق عميق في تصميم هذا الوجود: عميق في تكوينه . عميق في تدبيره . عميق في مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه . . عميق في تصميم هذا الوجود . فهو لم يخلق عبثا ، ولم يكن جزافا ، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل . والباطل طارئ عليه ليس عنصرا من عناصر تصميمه . عميق في تكوينه . فقوامه من العناصر التي يتألف منها حق لا وهم ولا خداع . والنواميس التي تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يتزعزع ولا يضطرب ولا يتبدل . ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف . عميق في تدبيره . فبالحق يدبر ويصرف ، وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التي لا تتبع هوى ولا نزوة ، إنما تتبع الحق والعدل . عميق في مصيره . فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة ؛ وكل تغيير يقع في السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق . وكل جزء يرتب يتبع الحق الذي لا يجابي . ومن هنا يتصل الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما ، بالساعة الآتية لا ريب فيها . فهي آتية لا تتخلف . وهي جزء من الحق الذي قام به الوجود . فهي في ذاتها حقيقة ، وقد جاءت لتحقق الحق (فاصفح الصفح الجميل) ولا تشغل قلبك بالحق والحقد ، فالحق لا بد أن يحق (إن ربك هو الخلاق العليم) الذي خلق ويعلم ما خلق ومن خلق . والخلق كله من إبداعه فلا بد أن يكون الحق أصيلا فيه ، ولا بد أن ينتهي كل شيء فيه إلى الحق الذي بدأ منه وقام عليه . فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارئ يذهب ، فلا يبقى إلا ذلك الحق الكبير الشامل المستقر في ضمير الوجود يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التي جاء بها الرسول . وذلك القرآن الذي أوتيه (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) والمثاني الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع - كما ورد في الأثر - فهي تتنى وتكرر في الصلاة ، أو ينثى فيها على الله . والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق والساعة الآتية لا ريب فيها ، يشي بالاتصال بين هذا القرآن والحق الأصيل الذي يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها ، ويكشف آياته في الأنفس والأفاق ويستجيش القلوب لإدراكها ، ويكشف أسباب الهدى والضلال ، ومصير الحق والباطل ، والخير والشر والصلاح والطلاح . فهو من مادة ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبينه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذي خلقت به السماوات والأرض . ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمرا عارضا ولا ذاهبا . إنما يبقى مؤثرا في توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزئ المستهزئون ، ويحاول المبطلون ، الذين يعتمدون على الباطل ، وهو عنصر طارئ زائل في هذا الوجود . ومن ثم فإن من أوتي هذه المثاني وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ، المتصل بالحق الأكبر . . لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشيء زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل . ولا يحفل بمصير أهل الضلال ، ولا يههم شأنهم في كثير ولا قليل . إنما يمضي في طريقه مع الحق الأصيل (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر

أي يتوجه . ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهي صورة طريفة حين يتصورها المتخيل . والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول ﷺ ذلك المتاع الذي آتاه الله لبعض الناس رجلا ونساء - امتحانا وابتلاء - ولا يلقى إليه نظرة اهتمام . أو نظرة استحسان . أو نظرة تمن . فهو شيء زائل وشيء باطل ؛ ومعه هو الحق الباقي من المثاني والقرآن العظيم . وهذه اللفتة كافية للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي مع الرسول ، والتمتع الصغير الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل . يليها توجيه الرسول ﷺ إلى إهمال القوم المتمتعين ، والعناية بالمؤمنين ، فهؤلاء هم أتباع الحق الذي جاء به ، والذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطاريء على صميم الوجود (ولا تحزن عليهم) ولا تهتم لمصيرهم السيء الذي تعلم أن عدل الله يقتضيه ، وأن الحق في الساعة يقتضيه . ودعهم لمصيرهم الحق (واخفض جناحك للمؤمنين) والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويري ، يمثل لطف الرعاية وحسن المعاملة ورقة الجانب في صورة محسوسة على طريقة القرآن الفنية في التعبير (وقل:إني أنا النذير المبين) . فذلك هو طريق الدعوة الأصيل . . ويفرد الإنذار هنا دون التبشير لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون ، ويتمتعون ذلك المتاع البراق ، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذي تقوم عليه الدعوة ، وتقوم عليه الساعة ، ويقوم عليه الكون الكبير .

(وقل:إني أنا النذير المبين) تلك القولة التي قالها كل رسول لقومه ؛ ومنهم بقايا الأقسام التي جاءها أولئك الرسل بتلك النذارة البينة التي جئت بها قومك . . وكان منهم في الجزيرة العربية اليهود والنصارى . . ولكن هذه البقايا لم تكن تتلقى هذا القرآن بالتسليم الكامل ، إنما كانت تقبل بعضه وترفض بعضه ، وفق الهوى ووفق التعصب وهؤلاء هم الذين يسميهم الله هنا (المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين) (كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وهذه السورة مكية . ولكن الخطاب بالقرآن كان عاما للبشر . ومن البشر هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين [والعضة:الجزء . من عضى الشاة أي فصل بين أعضائها] . . وهم مسؤولون عن هذه التفرقة . وقد جاءهم القرآن بالنذارة البينة ، كما جاءتهم كتبهم من قبل . ولم يكن أمر القرآن ولا أمر النبي بدعا لا عهد لهم به . فقد أنزل الله عليهم مثله ، فكان أولى أن يستقبلوا الحديد من كتاب الله بالقبول والتسليم . وحين يصل السياق إلى هذا الحد ، يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ أن يمضي في طريقه . يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمى هذا الجهر صدعا - أي شفا - دلالة على القوة والتفاد . لا يقعه عن الجهر والمضي شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم . ولا استهزاء مستهزيء فقد كفاه الله شر المستهزئين فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ؛ إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) والرسول ﷺ بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق . فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك . لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم . ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذي ما بعده يقين . . الأجل . . فيمضي إلى جوار ربه الكريم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ويكون هذا ختام السورة . . الإعراض عن الكافرين واللواذ بجوار الله الكريم . أولئك الكافرين الذين سيأتي يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين . . إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة ؛ والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها . ضرورة في الحركة بهذه الدعوة ؛ فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة العافية ؛ ويوقظ المشاعر المتبلدة ؛ ويقيم الحجة على الناس (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) أما التدسس الناعم بهذه العقيدة ؛ وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا ، لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية . والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعني الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة ! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني التدسس الناعم ، وكرمان جانب من حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب ، وجعل القرآن عضين . . لا هذه ولا تلك . . إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة ؛ في وضوح جلي ، وفي حكمة كذلك في الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير . " وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان . . لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ؛ ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل . . فالجاهلية هي الجاهلية ، والإسلام هو الإسلام . . الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد والقيم والموازين ، من مصدر آخر غير المصدر الإلهي . . والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام" . وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هي التي يجب أن يصدع بها أصحاب الدعوة الإسلامية ، ولا يخفوا منها شيئا ؛ وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتململ الجماهير.

سورة الأنعام مكية وآياتها (165)

هذه السورة مكية . . من القرآن المكي . . القرآن الذي ظل ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما كاملة ، يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة ، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان ، وأنها استقرت استقرارا مكيانا ثابتا في قلوب العصابة المختارة من بني الإنسان ، التي قرر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها ؛ وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين .

- حكمة البدء بالعقيدة وليس بالقومية أو الإجتماعية أو الأخلاقية

وأصحاب الدعوة إلى دين الله ، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ؛ خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة ، ظاهرة تصدى القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما . . لتقرير هذه العقيدة ؛ ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها ؛ لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة ، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ؛ وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق ، ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه - في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب - هي أيسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله" ، كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا ، وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله - سبحانه - بها ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله إلى الله . . السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة . . السلطان في المال ، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الأرواح والأبدان . . كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي ، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ؛ وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم ياذن بها الله ، ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيدا ، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: "لا إله إلا الله" - ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - أو هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام . . فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ؛ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟ لقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب ، إنما هي في يد غيرهم من الأجناس ! بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم ، يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان . وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس ، وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحاري القاحلة ، التي تنتثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك ! وكان في استطاعة محمد ﷺ وهو الصادق الأمين ؛ الذي حكمه أشرف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود ، وارتضوا حكمه ، منذ خمسة عشر عاما ؛ والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسبا . . كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف جميع قبائل العرب ، التي أكلتها الثارات ، ومزقتها النزاعات ، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة ؛ الرومان في الشمال والفرس في الجنوب وإعلاء راية العربية والعروبة ؛ وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة ، ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة - على الأرجح - بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة ! وربما قيل إن محمدا ﷺ كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ؛ وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ؛ وبعد استجماع أسلطان في يديه والمجد فوق مفرقه . أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله وأن يحتمل هو والقللة التي تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ لأن الله - سبحانه - لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه . . إنما هو - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق . . ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي ، إلى يد طاغوت عربي ، فالطاغوت كله طاغوت ! . . إن الأرض لله ، ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية: "لا إله إلا الله إن الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبدا لله وحده إلا أن ترتفع راية: "لا إله إلا الله" . . "لا إله إلا الله" كما كان يدرها العربي العارف بمدلولات لغته لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله . . ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة ، التي يتساوي فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق . .

وبعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . قلة قليلة تملك المال والتجارة ؛ وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ؛ وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يرفعها راية اجتماعية ؛ وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف . وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء ! ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربي صفيين:الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة ، في وجه طغيان المال والشرف . بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه: "لا إله إلا الله" التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفاذ من الناس . وربما قيل: إن محمدا ﷺ كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ؛ وتوليه قيادها ؛ فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها . . أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربه بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجه هذا التوجيه . . لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن هذا ليس هو الطريق . . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ؛ يرد الأمر كله لله ؛ ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضى به الله من عدالة في التوزيع ، ومن تكافل بين الجميع ؛ ويستقر معه في قلب الأخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ؛ ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلئ قلوب بالطمع ، ولا تمتلئ قلوب بالحق ؛ ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ؛ وبالتخويف والإرهاب ! ولا تقسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ؛ كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير: "لا إله إلا الله" . . وبعث رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في البرك الأسفل في جوانب منه شتى - إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية . كان التظالم فاشيا في المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر: زهير بن أبى سلمى:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

ويعبر عنه القول المتعارف: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" . وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخرة كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملمته . . كالذي يقوله طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من زينة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشرية كميتم متى ما تعل بالماء تزبد !

وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا التجمع . . كالذي روته عائشة رضي الله عنها:

"إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:فنكاح منها نكاح الناس اليوم:يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا ظهرت من طمئتها - أرسلني إلى فلان فاستبضع منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر:يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم:قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع

ممن جاءها - وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن - فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا القافة ، ثم الحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ، ودعي ابنه لا يتمتع من ذلك" . . . [أخرجه البخاري في كتاب النكاح] .

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يعلنها دعوة إصلاحية ، تتناول تقويم الأخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتركية النفوس ، وتعديل القيم والموازين ، وكان واجدا وقيما - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوسا طيبة ، يؤذيها هذا الدنس ؛ وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير . وربما قال قائل إنه لو صنع رسول الله ﷺ ذلك فاستجابت له - في أول الأمر - جمهرة صالحة ؛ تتطهر أخلاقها ، وتزكو أرواحها ، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها . بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ إلى مثل هذا الطريق . . لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم ؛ كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتمزين والمخالفين . وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة ؛ وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ؛ بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلما تقرر العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة ، لما عرف الناس ربهم وعبودهم وحده ، لما تحرر الناس من سلطان العبيد ، ومن سلطان الشهوات سواء ، لما تقرر في القلوب: "لا إله إلا الله" . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . تطهرت الأرض من الرومان والفرس . . لا ليتقرر فيها سلطان العرب ، ولكن ليتقرر فيها سلطان الله . لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء . وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجمليته . وقام النظام الإسلامي يعدل بعديل الله ، ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ؛ ويسمبها راية الإسلام ، لا يقرن إليها اسما آخر ؛ ويكتب عليها: "لا إله إلا الله" ! وتطهرت النفوس والأخلاق ، وزكت القلوب والأرواح ؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر ؛ ولأن الطمع في رضى الله وثوابه ، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات . وارتفعت البشرية في نظامها ، وفي أخلاقها ، وفي حياتها كلها ، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط ؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام . . ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ؛ كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان ، في كل زمان وفي كل مكان ، وهو: "لا إله إلا الله" ! فلما أن ابتلاههم الله فصبروا ؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كأننا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم ، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض . ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت . . لما علم الله منهم ذلك كله ، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى . أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر ، وفي الأرواح والأموال ، وفي الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها ، وعلى عدل الله يقيمونه ، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم . إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته ، لأنهم يعلمون أنه من الله ، هو الذي أتاهم إياه . ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء ، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا إله إلا الله . . ولا ترفع معها سواها . . وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهرها ؛ المبارك الميسر في حقيقته .

- لماذا بدأ القرآن بالعقيدة ثم بالتشريعات ؟

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . . وكما أن الشجرة الضخمة لباسقة الوارفة المدية الظلال المتشابكة الأغصان ، الضاربة في الهواء . . لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة ، وفي مساحات واسعة ؛ تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء . . فكذلك هذا الدين . . إن نظامه يتناول الحياة كلها ؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ؛ وينظم حياة الإنسان لا

في هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن كذلك في الدار الآخرة ؛ ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها ؛ ولا في المعاملات الظاهرة المادية ، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا . . . فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية . . . ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا . . . هنا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ؛ يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . . ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء ، والضارب من جذورها في الأعماق ، وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم . . . إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد . . . جاء ليحكم الحياة في واقعها ؛ ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره . . . يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه . . . ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا ، في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده . إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ؛ إنه منهج يتعامل مع الواقع ؛ فلا بد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة أن لا إله إلا الله ، وأن الحاكمية ليست إلا لله ؛ ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ؛ ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة . . . وحين يقوم هذا المجتمع فعلا ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج إلى تنظيم ، وإلى تشريع . . . وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع . . . لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع ، رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع . . . والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله . . . ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ؛ وإنما نزل لهم عقيدة ، وخلقاً منبثقا من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة . . . فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ؛ وتقرر لهم النظام ؛ الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ؛ والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدي والنفاذ . . . ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ، ليختزنوها جاهزة ، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ؛ إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ؛ إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ؛ إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا . . . إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قالبه الخاص ، وفق حجمه وشكله وملابساته . . . والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام ، وأن يصوغ تشريعات حياة . . . بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها ، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يركون طبيعة هذا الدين ، ولا كيف يعمل في الحياة ؛ كما يريد له الله . . . إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية ، ومناهج بشرية . ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة . . . إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض ، تواجه مستقبلًا غير موجود . . . والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراد . . . عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاها لا يخضع الناس إلا لله ، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم ، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك . كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية ، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة - حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ؛ وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون - يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بملولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم . . . إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم . ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة . . . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عامًا كاملة . . . وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه ؛ كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية ، في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي . . . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد . . .

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الرباني القويم ، المؤسس على حكمه العليم الحكيم ، وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة . . . أن عرض أسس النظام الإسلامي - بل التشريعات الإسلامية كذلك - على الناس مما يسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس في هذا الدين ؛ وهذا وهم تنشئه العجلة ؛ وهم كالذي كان يقترحه المقترحون: أن تقوم دعوة رسول الله ﷺ - في أولها تحت راية قومية ، أو اجتماعية ، أو أخلاقية ، تيسيرا للطريق ؛ إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله ، وتعلن عبوديتها له ، بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره . . . من ناحية المبدأ . . . قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه

- منهج القرآن في عرض العقيدة

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما . . إنه لم يعرضها في صورة "نظرية" ! ولم يعرضها في صورة "لاهوت" ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله فيما بعد ما سمي بـ "علم التوحيد" أو "علم الكلام" ! كلا . . لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده وبما في الوجود من حوله من دلائل وإحشاءات . . كان يستنقذ فطرته من الركام ؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها . . والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وستحدث عن خصائصها بعد قليل . . كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية . . كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة . . في نفوس آدمية حاضرة واقعية . . ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقائيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه - في العصور المتأخرة - علم التوحيد ، هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا بكل ملامساته الحية ؛ ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع . . وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة ، إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ؛ ولا تقع في الزاوية الضيقة التي تقع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية ! كان القرآن وهو بيتي العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ؛ كما يخوض بها معركة ضخمة مع روااسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعتها . . ومن هذه الملامسات ظهر بناء العقيدة ، لا في صورة نظرية ، ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي . . ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة ، ممثلا في الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي ، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور ، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي ، وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك . . وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية ، والبناء الواقعي للجماعة المسلمة . لم تكن مرحلة تلقي "النظرية" ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معا . . وهكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة ؛ وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبت . . وهكذا ينبغي ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ؛ ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية ، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ؛ ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ؛ ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ؛ لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا في خضم المعركة . وخطأ أي خطأ - بالقياس إلى الإسلام - أن تبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية . . المعرفة الثقافية . . بل خطر أي خطر كذلك . . إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى . . كلا ! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ؛ ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية" ! ولكن الله - سبحانه - كان يريد أمرا آخر . كان يريد منها معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد . كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي ، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . . وكان الله - سبحانه - يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة . . فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة . . حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج . . هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ؛ ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة ، وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود ، كما أخرجها الله أول مرة . . يجب أن ندرك خطأ المحاولة ، وخطرها معا ، في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع تام حي متحرك ، إلى "نظرية" للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه "النظريات" البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية ! إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية ، وفي تنظيم واقعي ، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها - بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتتزعجها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله "النظرية" ؛ وتشمل - فيما تشمل - مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها . إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان ، تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي

إيجابي . وهو يكره - بطبيعته - أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل في أناسي ، وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية . . وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية ؛ حتى يكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً ؛ ولا ينفصل في صورة نظرية ؛ بل يظل ممثلاً في الصورة الواقعية . .

ونمضي بعد ذلك مع السورة .

- موضوع سورة الأنعام وطريقتها في عرضه

هذه السورة - وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الضلال - نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة ؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه ، في موضوعها الأساسي ، وفي منهج تناولها وفي طريقة العرض سواء . . ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة ؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة . فكل سورة شخصيتها ، وملاحمها ، ومحورها ، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي ؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ والصور والضلال والجو الذي يظللها ؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها ؛ وتكون أشبه بالوالم المطردة فيها . . حتى وهي تتناول موضوعاً واحداً أو موضوعات متقاربة . فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة ؛ ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها ! وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة . . إنها في كل لحظة منها وفي كل موقف ، وفي كل مشهد ، تمثل "الروعة الباهرة" . . الروعة التي تبده النفس ، وتشده الحس ، وتبهر النفس أيضاً ؛ وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعها وموحياتها مبهوراً ! نعم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدتها وإيقاعاتها . . وما أظن بشراً ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذي أجد . . إن الروعة فيها تبلغ فعلاً حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهوراً مبهوداً ! إنها - في جملتها - تعرض "حقيقة الألوهية" . . تعرضها في مجال الكون والحياة ، كما تعرضها في مجال النفس والضمير ، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود ، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون . . وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الإنسانية ، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون ، وتواجه الأحداث ، وتواجه النعماء والضراء ، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة ، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة . . وأخيراً تعرضها في مشاهد القيامة ، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق . . إن موضوعها الذي تعالجه من منبئها إلى منتهائها هو موضوع العقيدة ، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية ، وتطوف بها في الوجود كله ، وراء بناييع العقيدة وموحياتها المستترة والظاهرة في هذا الوجود الكبير . . إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض ، تلاحظ فيها الظلمات والنور ، وترقب الشمس والقمر والنجوم . وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات ، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها ؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية ، وأثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر ، وأسرار الغيب والنفس ، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي ؛ والحببة المستكنة في ظلمات الأرض ، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس ، والطير والوحش ، والأولين والأخريين ، والموتى والأحياء ، والحفظة على النفس بالليل والنهار . . إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس ، وأقطار الحس . . ثم إنها اللمساة المبدعة المحيية ، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال . . وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر ، جديد نابض ، كأنما تتلقاه النفس أول مرة ؛ وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان ! وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والضلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، متشابكة معها ؛ في المجرى المتصل المتدفق ! وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة ، تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي وصفنا - مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين - وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة ، وبالحيوية الدافقة ، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة ! ونحن - سلفاً - على يقين أننا لسنا ببالغين شيئاً في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي ، وإيقاعها الذاتي ، إلى هذا القلب . . لسنا ببالغين شيئاً بالوصف البشري والأسلوب البشري . . ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن - بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن - وبين هذا القرآن !

والحياة في جو القرآن لا تعني مدارس القرآن ؛ وقراءته والاطلاع على علومه . . إن هذا ليس "جو القرآن" الذي نعنيه . . إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن هو أن يعيش الإنسان في جو ، وفي

ظروف ، وفي حركة ، وفي معاناة ، وفي صراع ، وفي اهتمامات . . . كالتى كان يتنزل فيها هذا القرآن . . . أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التى تعمر وجه الأرض اليوم ، وفي قلبه ، وفي همه ، وفي حركته ، أن "ينشئ" الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس ، وفي حياته وفي حياة الناس ، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية . بكل تصوراتها ، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها ، وكل واقعها العملي ؛ وكل ضغطها كذلك عليه ، وحربتها له ، ومناهضتها لعقيديها الربانية ، ومنهجها الرباني ؛ وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة ؛ بعد الكفاح والجهاد والإصرار . . . هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان ؛ فيتذوق هذا القرآن . . . فهو في مثل هذا الجو نزل ، وفي مثل هذا الخضم عمل . . . والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه . . . والمحاولة التى نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن ، ليست بالغة شيئا ، إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة ؛ ويصلوا إلى المنطقة الأخرى ؛ ويحاولوا أن يعيشوا في "جو القرآن" حقا بالعمل والحركة . وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن ؛ ويتمتعون بهذه النعمة التى ينعم الله بها على من يشاء . . .

- مجالات عرض الألوهية والعبودية والحاكمية في الأنعام

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية . . . قضية الألوهية والعبودية . . . تعالجها بتعريف العباد برب العباد . . . من هو ؟ ما مصدر هذا الوجود ؟ ماذا وراءه من أسرار ؟ من هم العباد ؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود ؟ من أنشأهم ؟ من يطعمهم ؟ من يكفلهم ؟ من يدير أمرهم ؟ من يقبل أفتنتهم وأبصارهم ؟ من يقبل ليلهم ونهارهم ؟ من يبذلهم ثم يعيدهم ؟ لأي شيء خلقهم ؟ ولأي أجل أجلهم ؟ ولأي مصير يسلمهم ؟ . . . هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك . . . من بثها في هذا الموت ؟ . . . هذا الماء الهاطل . هذا البرعم النابغ . هذا الحب المترابك . هذا النجم الثاقب . هذا الصبح البازغ . هذا الليل السادل . هذا الفلك الدوار . . . هذا كله من وراءه ؟ وماذا وراءه من أسرار ، ومن أخبار ؟ . . . هذه الأمم ، وهذه القرون ، التى تذهب وتجيء ، وتهلك وتستخلف . . . من ذا يستخلفها ؟ ومن ذا يهلكها ؟ لماذا تستخلف ؟ ولماذا يدركها البوار ؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء ؟ ؟ هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الأماد والأفاق ، وفي هذه الأعوار والأعماق . . . ولكنها تمضي في هذه كله على منهج القرآن المكي . . . الذى أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة - وعلى منهج القرآن كله . . . إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار . . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق . تعبيد ضمائرهم وأرواحهم ، وتعبيد سعيهم وحركتهم ، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم ، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد . . . سلطان الله الذى لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء . . . ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد . . . من أولها إلى آخرها . . . فالله هو الخالق . والله هو الرازق . والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذى يقبل القلوب والأبصار كما يقبل الليل والنهار . . . وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ؛ وألا يكون لغيره نهى ولا أمر ، ولا شرع ولا حكم ، ولا تحليل ولا تحريم . فهذا كله من خصائص الألوهية ، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله ، لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا يحيى ولا يميت ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يمتنع ولا يمنع ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا في الدنيا ولا في الآخرة . . . وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والأيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ؛ والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية ، من كل درب ومن كل باب ؛ والقضية الكبيرة التى تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض . في محيطها الواسع ، وفي مجالها الشامل . . . ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك ، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة ، هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم ، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد . . . وهي المناسبة التى تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون . . .) [121]

- 118 (وجعلوا لله مما نرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فنرهم وما يفترون . وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما

كانوا يفترون . وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن مية فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ؛ وحرمو ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين . [140 - 136] والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات ، وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبايح والنذور - وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها - قضية الألوهية والعبودية - وجعلها مسألة إيمان أو كفر ، ومسألة إسلام أو جاهلية . كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر - جل أم حقر ، كبر أم صغر - وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين . وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض ، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك . إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام والثمار ، والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات منوعة . بعضها مباشر ، لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر ، وبعضها للربط بين مزاوله البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى ، وليبان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم ، الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين . على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة:

وكذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل في الأنعام والنذور في الأنعام والثمار ، وفي الأولاد - على ما كان متبعاً في الجاهلية - يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة: بالهدى والضلال . واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان ، وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحدانية الله أو عدل غيرها به . واتباع صراطه مستقيماً أو التفرق عنه . ويستخدم نفس التعبيرات التي استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى في محيطها الشامل وهو ما تتعرض له الآيات 153 - 141 [كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموحيات - في هذا الموضع وحده - مشهد الخلق والإحياء في الجنات المعروشات وغير المعروشات . ومشهد النخل والزرع مختلفاً ألوانه والزيتون والرمان مثابها وغير مثابه . وموقف الإشهاد والمفاصلة . وموقف البأس والتدمير على المشركين . وهي ذات المشاهد التي حشدها السياق في السورة كلها من قبل ، وهو يتناول قضية العقيدة بجمليتها ، قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التي تتمثل فيها . ولكل هذا دلالة التي لا تخطى على طبيعة هذا الدين ، ونظرتة لقضية الحاكمية والتشريع في الكثير والقليل .

ولعلنا قد سبقنا سياق السورة ؛ ونحن نبين منهجها الموضوعي وهي تتناول قضية العقيدة بجمليتها ، في مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية . وهي المناسبة التي لا نقول: إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات في سياق السورة كله ، وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية في مجالها الواسع الشامل . ولكننا نقول: إنها المناسبة التي ربطت في سياق السورة بهذا كله ؛ فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين ؛ ونظرتة لقضية التشريع والحاكمية في الكبير والصغير ، وفي الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا . . كما أسلفنا .

فالآن نمضي في التعريف المجمع بالسورة وخصائصها وملامحها ، على النحو الذي ألفناه في هذه الظلال ، قبل الدخول في الاستعراض المفصل للسياق:

- مكة الأنعام ورد القول بمدينة بعض آياتها

في روايات عن ابن عباس ، وعن أسماء بنت يزيد ، وعن جابر ، وعن أنس بن مالك وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنهم جميعاً - أن هذه السورة مكية ، وأنها نزلت كلها جملة واحدة .

وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ؛ وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي . . وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر ؛ وتكون هي السورة الخامسة والخمسين . . ولكننا - كما بينا من قبل ، لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور . فالمعول عليه عندهم - في الغالب - في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها - لا جمليتها - وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة . إذ المعول في الترتيب على أوائل السورة . . أما في سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة . ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها . غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة . . ربما الخامسة أو السادسة . . ولا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ؛ ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها ، والتوسع في عرضها على هذا النحو ، الذي يشي بأن الدعوة والجدل مع المشركين ، وطول الإعراض عنهم والتكذيب لرسول الله ، أصبح

يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ؛ كما يقتضي تسليية رسول الله ﷺ عن طول الصد والإعراض والتكذيب . . وفي رواية عن ابن عباس وقتادة: أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة . قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبؤكم ، قل: الله ، ثم زههم في خوضهم يلعبون) . وهي الآية: 91 . نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وهي الآية 141 ، نزلت في ثابت بن قيس شماس الأنصاري . . وقال ابن جريج والماوردي نزلت في معاذ ابن جبل . وإنما الذي جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى: (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) . . واعتبارهم هذا الأمر يعني الزكاة . والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلا في المدينة . . ولكن هذا المعنى ليس متعينا في الآية . إذ أن هناك أقوالا مأثورة في تفسيرها بأنها تعني الصدقات ، أو بأنها تعني الإطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جني الثمار ؛ أو لفرابتهم . . وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر . . وعلى هذا تكون الآية مكية .

- عرض سورة الأنعام لموضوعاتها في موجات متداققة وأمثلة على ذلك

أما موضوع السورة الأساسي وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما في مطلع الحديث عنها . ولكن لا بد من شيء من التفصيل في هذا التعريف . .

روى أبو بكر بن مردويه - بإسناده - عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ " نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسيح ، والأرض بهم ترتج " . ورسول الله يقول: " سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم . . " . هذا الموكب ، وهذا الارتجاج ، واضح ظلهما في السورة ! . . إنها هي ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس ، ويرتج له الكون ! . . إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات ! . . وهي - كما قلنا من قبل - تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجه التالية ملاحقة لها ، ومتشابكة معها ، في المجرى المتصل المتدفق ! والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل ؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع ، كل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع . . إنما هي موجات . . وكل موجة تنفق مع التي قبلها وتكملها . ومن ثم فلن نحاول عرض الموضوعات التي تحتويها السورة في هذا التعريف ؛ وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها:

تبدأ السورة بمواجهة المشركين ، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ، بينما دلالات التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الأفق وفي انفسهم . . تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله ؛ وتشمل وجودهم كله . . تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون . وهو الله في السماوات وفي الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون) ثلاث آيات تنزع الوجود الكوني كله في الآية الأولى ، وتنزع الوجود الانساني كله في الآية الثانية . . ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة ! أي إعجاز ! وأية روعة ! وأي شمول ! وأية إحاطة ! وفي هذه اللحظة تبدأ الموجه التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبتوثة في الكون والحياة ؛ ومع عرض الموقف المنكر الغريب ، يجيء التهديد ، وتعرض مصارع الغابرين ، ويتجلى السلطان الفاهر الذي تدل عليه هذه المصارع ، وهذه القوارع . فيبدو عجيبا منكرًا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين ؛ ويبدو أن المنكرين ليس الذي ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية ، وتفتح القلب للدليل (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا: لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسل من قبلك ؛ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل: سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ومن هنا تبدأ موجة ثالثة في

التعريف بحقيقة الألوهية ، متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض ، ولما سكن بالليل والنهار . ومتجلية في كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره . الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده . وهو الذي يعذب العواصي في الآخرة . وهو الذي يملك الضر والخير . وهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير . . وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله ، في الإشهاد والمفاصلة بين الرسول ﷺ وبين القوم ، وإندارهم والتبرؤ من شركهم ، وإعلان التوحيد في مواجهتهم ، في رنة عالية فاصلة جازمة (لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل:الله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ، قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بنبي وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما تشركون) ثم تبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذي يكذب به المشركون ؛ وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ؛ وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ؛ وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة ، لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب ، وقلوبهم محجوبة لا تدرك دلائل الإيمان ، وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأولين ؛ وتقول لهم:إنهم يهلكون أنفسهم وهم ينهون غيرهم عن الهدى ، ويناؤون عنه . ثم تصور حالهم وهم موقوفون على النار يقولون:يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهم إلى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد . ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم ، وهم يسألون عن هذا الإنكار ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتنتهي الموجة بتقرير خسارة المكذبين بقاء الله ، وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون (الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب آياته ؛ إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا . ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاؤوك بجادلونك يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه ويناؤون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقالوا:إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال:أليس هذا بالحق ؟ قالوا:بلى وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسروا الذين كذبوا بقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزررون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون) ثم تبدأ موجة خامسة ، يلتفت فيها السياق إلى رسول الله ﷺ يسليه ويسري عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم به من عند الله . ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله . ويقرر أن سنة الله لا تتبدل ، ولكنها كذلك لا تستعجل ! فإن كان ﷺ لا يصبر على إعراضهم ، فليبدل جهده البشري في إتيانهم بخارفة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . إنما اقتضت مشيئته في خلقه - وهو وحده صاحب الأمر المتصرف - أن يستجيب الذين لا تعطل أجهزتهم الفطرية عن التلقي . والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون . والله يبعثهم ، وهم إليه يرجعون (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يعيثرهم الله ، ثم إليه يرجعون)

- حقيقة الألوهية في مواقف ومشاهد مختارة من الأنعام

ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة ، إذ أنها في كل لمحة منها وفي كل موقف وفي كل مشهد ، تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي تبده النفس وتشده الحس ، وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعاتها وموحياتها . فالآن ندع نصوصا من السورة ذاتها تصور هذه الحقيقة بأسلوبها القرآني . ذلك أن الوصف مهما بلغ ، لا يبلغ شيئا في نقل هذه الحقيقة إلى القلب

البشري ! إن تقرير حقيقة الألوهية ، وتعريف الناس بربهم الحق ، وتعبيدهم له وحده ، هو الموضوع الأساسي للسورة . فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهذه الحقيقة في مواقف منه شتى . في موقف الإشهاد والمفاضلة ، حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها ؛ وحيث يواجه بها المخالفين ، ويصعد بها في قوة وفي يقين (قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ! قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونون من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ؟ قل:الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما تشركون) وفي موقف التهديد ، حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ؛ وتتعى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام ، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتتسى الآلهة الزائفة ، أمام الهول ، وأمام مصارع المكذبين (قل:أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتتسبون ما تشركون . ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين:قل:أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف تصرف الآيات ، ثم هم يصدفون . قل:أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار ، والانفاس والأعمار ، مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر ، والنهار والليل ، والدينا والآخرة ، والحياة والممات) وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه لتقتضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) وفي موقف شهادة الفطرة ، واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق ، بمجرد فتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون ، التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناما آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال:هذا ربي ؛ فلما أفل قال:لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال:هذا ربي ، فلما أفل قال:لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال:هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال:يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال :أتحاجوني في الله وقد هدى ؟ ولا أخاف ما تشركون به - إلا أن يشاء ربي شيئا - وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وفي مشهد الحياة النابضة في الفضائل والأنواع ، ومشهد الإصباح والإمساء ، ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر ، ومشهد الماء الهاطل ، والزرع النامي ، والثمر البانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك ، المبدع بلا شبيه ، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسابنا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم . تلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) وأخيرا في موقف الابتهاال والإجابة إلى الله الواحد بلا شريك ، والتجرد له صلاة ونسكا ، ومحيا ومماتا ، واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء ، ورد الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء ، وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء ، حيث تختم السورة بهذا الابتهاال الخاشع المنيب (قل:إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم:دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ،

وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما أتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) . . . وليست هذه النماذج الستة التي اخترناها إلا نماذج تصور حد "الروعة الباهرة" الذي يبلغه سياق السورة ، في كل موقف ، وفي كل مشهد ، وفي كل إيقاع ، وفي كل إحياء . . . إن السياق يعرض المشاهد والمواقف متنوعة ؛ ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة . . . إنه في كل مشهد أو موقف ، كأنما يأخذ السامع ليقفه أمام المشهد يتملاه ، وأمام المواقف يتدبره . . . يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون ، يراهم السامع في وقتهم ، والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم ! ففي مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) () ويوم نحشهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؛ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) - حكمة البدء بالعقيدة وليس بالقومية أو الإجتماعية أو الأخلاقية

وأصحاب الدعوة إلى دين الله ، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ؛ خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة ، ظاهرة تصدى القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما . . . لتقرير هذه العقيدة ؛ ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها . لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة ، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ؛ وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق ، ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه - في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب - هي أسير السبل إلى قلوب العرب ! فالقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله" ، كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا ، وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله - سبحانه - بها ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، وردده كله إلى الله . . . السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة . . . السلطان في المال ، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الأرواح والأبدان . . . كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي ، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ؛ وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله ، ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيدا ، ويعرفون الملل الحقيقى لدعوة: "لا إله إلا الله" - ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - أو هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام . . . فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟ لقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب ، إنما هي في يد غيرهم من الأجناس ! بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم ، يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان . وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس ، وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحارى القاحلة ، التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك ! وكان في استطاعة محمد ﷺ وهو الصادق الأمين ؛ الذي حكمه أشرف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود ، وارتضوا حكمه ، منذ خمسة عشر عاما ؛ والذي هو في النزابة من بني هاشم أعلى قريش نسبا . . . كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف جميع قبائل العرب ، التي أكلتها الآثار ، ومزقتها النزاعات ، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة ؛ الرومان في الشمال والفرس في الجنوب وإعلاء راية العربية والعروبة ؛ وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة ، ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة لاستجاب له العرب قاطبة - على الأرجح - بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة ! وربما قيل إن محمدا ﷺ كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ؛ وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ؛ وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه ، أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانهم ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصعد بلا إله إلا الله وأن يحتمل هو والقلّة التي تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ لأن الله - سبحانه - لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه . . . إنما هو - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق . . . ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي ، إلى يد

طاغوت عربي ، فالطاغوت كله طاغوت ! . . إن الأرض لله ، ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية: "لا إله إلا الله إن الله إن الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبدا لله وحده إلا أن ترتفع راية: "لا إله إلا الله" . . "لا إله إلا الله" كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله . . ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة ، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفرسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق . .

وبعث رسول الله ﷺ بهذا الدين ، والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . قلة قليلة تملك المال والتجارة ؛ وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ؛ وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يرفعها راية اجتماعية ؛ وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف . وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء ! ولو دعا يومها رسول الله ﷺ هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربي صفتين: الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة ، في وجه طغيان المال والشرف . بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه: "لا إله إلا الله" التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفاذ من الناس . وربما قيل: إن محمدا ﷺ كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ؛ وتوليه قيادها ؛ فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها . . أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربه بعد أن عبدهم لسلطانه ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجه هذا التوجيه . . لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن هذا ليس هو الطريق . . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ؛ يرد الأمر كله لله ؛ ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع ، ومن تكافل بين الجميع ؛ ويستقر معه في قلب الأخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ؛ ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسن في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلئ قلوب بالطمع ، ولا تمتلئ قلوب بالحق ؛ ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ؛ وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ؛ كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير: "لا إله إلا الله" . . وبعث رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في البرك الأسفل في جوانب منه شتى - إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية . كان التظالم فاشيا في المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر: زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يند عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

ويعبر عنه القول المتعارف: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" . وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخرة كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته . . كالذي يقوله طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من زينة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشرية كमित متى ما تعل بالماء تزيد !

وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا التجمع . . كالذي روته عائشة رضي الله عنها:

"إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخاطب الرجل إلى الرجل ولبته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمئتها - أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن -

فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك" . . . [أخرج البخاري في كتاب النكاح] .

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يعلنها دعوة إصلاحية ، تتناول تقويم الأخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتركية النفوس ، وتعديل القيم والموازين ، وكان واجدا وقيما - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوسا طيبة ، يؤنبها هذا الدنس ؛ وتأخذها الأريحية والنخوة لتبليية دعوة الإصلاح والتطهير . و ربما قال قائل إنه لو صنع رسول الله ﷺ ذلك فاستجاب له - في أول الأمر - جمهرة صالحة ؛ تتطهر أخلاقها ، وتزكو أرواحها ، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها . بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق ! ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ﷺ إلى مثل هذا الطريق . . لقد كان الله - سبحانه - يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم ؛ كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة ؛ وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ؛ بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلما تقرر العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة . لما عرف الناس ربهم وعبده وحده . لما تحرر الناس من سلطان العبيد ، ومن سلطان الشهوات سواء . لما تقرر في القلوب: "لا إله إلا الله" . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . تطهرت الأرض من الرومان والفرس . . لا ليتقرر فيها سلطان العرب ، ولكن ليتقرر فيها سلطان الله . لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء . وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته . وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله ، ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ؛ ويسميتها راية الإسلام ، لا يقرن إليها اسما آخر ؛ ويكتب عليها: "لا إله إلا الله" ! وتطهرت النفوس والأخلاق ، وزكت القلوب والأرواح ؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر ؛ ولأن الطمع في رضى الله وثوابه ، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات . وأرتفعت البشرية في نظامها ، وفي أخلاقها ، وفي حياتها كلها ، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط ؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام . . ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ؛ كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك . وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان ، في كل زمان وفي كل مكان ، وهو: "لا إله إلا الله" ! فلما أن ابتلاههم الله فصبروا ؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائن ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم ، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض . ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت . . لما علم الله منهم ذلك كله ، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى . أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمة في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر ، وفي الأرواح والأموال ، وفي الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها ، وعلى عدل الله يقيمونه ، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم . إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته ، لأنهم يعلمون أنه من الله ، هو الذي آتاهم إياه . ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء ، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا إله إلا الله . . ولا ترفع معها سواها . . وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهرها ؛ المبارك الميسر في حقيقته .

- لماذا بدأ القرآن بالعقيدة ثم بالتشريعات ؟

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . . وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المدينة الظلال المتشابكة الأغصان ، الضاربة في الهواء . . لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة ، وفي مساحات واسعة ؛ تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء . . فكذلك هذا الدين . . إن نظامه يتناول الحياة كلها ؛ ويتولى شؤون البشرية كبرها وصغيرها ؛ وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن كذلك في الدار الآخرة ؛ ولا في عالم الشهادة وحده ولكن

كذلك في عالم الغيب المكون عنها ؛ ولا في المعاملات الظاهرة المادية ، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا . . فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية . . ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا . . هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ؛ يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء ، والضارب من جذورها في الأعماق ، وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم . . إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد . . جاء ليحكم الحياة في واقعها ؛ ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره . . يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه . . ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا ، في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده . إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ؛ إنه منهج يتعامل مع الواقع ؛ فلا بد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة أن لا إله إلا الله ، وأن الحاكمية ليست إلا لله ؛ ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ؛ ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة . . وحين يقوم هذا المجتمع فعلا ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع . . وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع . . لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع ، رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع . . والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظموها بشريعة الله . . ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ؛ وإنما نزل لهم عقيدة ، وخلقاً منبثقا من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة . . فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ؛ وتقرر لهم النظام ؛ الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ؛ والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجديدة والنفاذ . . ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ، ليخترنوها جاهزة ، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ؛ إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ؛ إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ؛ إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا . . إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قالبه الخاص ، وفق حجمه وشكله وملابساته . . والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام ، وأن يصوغ تشريعات حياة . . بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها ، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يركون طبيعة هذا الدين ، ولا كيف يعمل في الحياة ؛ كما يريد له الله . . إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية ، ومناهج بشرية . ويحاولون أن يستجلبوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة . . إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض ، تواجهه مستقبلا غير موجود . . والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراد . . عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاها لا يخضع الناس إلا لله ، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم ، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك . كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية ، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة - حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ؛ وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون - يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله ببدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم . . إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم . ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة . . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة . . وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه ؛ كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية ، في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي . . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد . .

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الرباني القويم ، المؤسس على حكمه العليم الحكيم ، وعلمه بطائع البشر وحاجات الحياة . . أن عرض أسس النظام الإسلامي - بل التشريعات الإسلامية كذلك - على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس في هذا الدين ؛ وهذا وهم تنشئه العجلة ؛ وهم كالذي كان يقترحه المقترحون: أن تقوم دعوة رسول الله ﷺ - في أولها تحت راية قومية ، أو اجتماعية ، أو أخلاقية ، تيسيرا للطريق ؛ إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله ، وتعلن عبوديتها له ، بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره . . من ناحية المبدأ . . قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه

- منهج القرآن في عرض العقيدة

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما . . إنه لم يعرضها في صورة "نظرية" ! ولم يعرضها في صورة "لاهوت" ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله فيما بعد ما سمي بـ "علم التوحيد" أو "علم الكلام" ! كلا . . لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده وبما في الوجود من حوله من دلائل وإحباطات . . كان يستنقذ فطرته من الركام ؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها . . والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وستحدث عن خصائصها بعد قليل . . كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية . . كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة . . في نفوس آدمية حاضرة واقعة . . ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقائيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه - في العصور المتأخرة - علم التوحيد ، هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا بكل ملامساته الحية ؛ ويخاطب الكينونة البشرية بجمليتها في خضم هذا الواقع . . وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة ، إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ؛ ولا تقع في الزاوية الضيقة التي تقع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية ! كان القرآن وهو بيتي العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ؛ كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها . . ومن هذه الملامسات ظهر بناء العقيدة ، لا في صورة نظرية ، ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي . . ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة ، ممثلا في الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي ، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور ، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي ، وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك . . وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية ، والبناء الواقعي للجماعة المسلمة . لم تكن مرحلة تلقي "النظرية" ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معا . . وهكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة ؛ وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبت . . وهكذا ينبغي ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ؛ ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية ، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ؛ ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ؛ ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ؛ لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا في خضم المعركة . وخطأ أي خطأ - بالقياس إلى الإسلام - أن تبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية . . المعرفة الثقافية . . بل خطر أي خطر كذلك . . إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى . . كلا ! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ؛ ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية" ! ولكن الله - سبحانه - كان يريد أمرا آخر . كان يريد منها معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد . كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي ، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . . وكان الله - سبحانه - يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة . . فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة . . حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج . . هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ؛ ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة ، وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود ، كما أخرجها الله أول مرة . . يجب أن ندرك خطأ المحاولة ، وخطرها معا ، في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع تام حي متحرك ، إلى "نظرية" للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه "النظريات" البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية ! إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية ، وفي تنظيم واقعي ، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها - بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتتزعجها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله "النظرية" ؛ وتشمل - فيما تشمل - مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها . إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان ، تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي

إيجابي . وهو يكره - بطبيعته - أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل في أناسي ، وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية . . وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية ؛ حتى يكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً ؛ ولا ينفصل في صورة نظرية ؛ بل يظل ممثلاً في الصورة الواقعية . .

وفي مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذي لا يرد ، يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعابونونه (قل:أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ؛ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؛ بل إياه تدعون ، فكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون) . . وفي تمثيل حالة الضلال بعد الهدى ، والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه ، يرسم مشهداً شاخصاً يقف السامع أمامه يتملاه ، ولو لم يكن في اللفظ أمر بالنظر أو إشارة إلى الوقوف (قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ؛ أنتنا .) كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة في الجنات التي تتمثل فيها الحياة ، والتي تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار (وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وحنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . .

لون آخر من ألوان التناسق ، يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك . . مواقف الإشهاد . إن مشاهد القيامة في السورة تعرض كأنما هي مواقف إشهاد على ما كان من المشركين والمكذبين ؛ ومواقف تشهير بهم ؛ وتوجيه للأناظر إلى هذه المواقف . . وقد سبق عرض نماذج منها . . وفي كل منها (ولو ترى . .)

وتلتقي بها مواقف الإشهاد على العقيدة ، ومواقف الإشهاد على الشريعة . . كلتاهما سواء . في أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل يجيء هذا الموقف (قل:أي شيء أكبر شهادة ؛ قل:الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أنتم لتشهدون أن مع الله الهة أخرى ؛ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون) حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة في السورة ، المتعلقة بالعقيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهداً آخر ، ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة ، كالإشهاد على تلك القضية العامة ، للدلالة على أنها هي من ناحية الموضوع ؛ ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون) . . لون ثالث من ألوان التناسق ؛ هو التناسق التعبيري الذي يقتضيه التقرير الموضوعي . والذي يتمثل في تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبير عن حقيقة واحدة في صور متعددة . وهذا كالتعبير في أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله غيره بأنهم بربهم يعدلون . ثم التعبير كذلك في أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون . على النحو التالي (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون) ففي الآية الأولى هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به . . وفي الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به كذلك . ممثلاً هذا الشرك في ادعاء حق الألوهية في التشريع . . ولهذا دلالة الموضوعية ، وجماله التعبيري أيضا . . كذلك يكرر كلمة الصراط ، وهو يعبر عن الإسلام جملة ؛ وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيماً . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحراث ، والحلال والحرام في نهاية السورة كما جاء في مقدمة التعريف بالسورة يقول (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله:ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فيدل على أن هذه القضية هي قضية العقيدة . وأن الالتزام فيها هو المضي على صراط الله ، وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط . . وأنها قضية إيمان أو كفر ، وجاهلية أو إسلام . . كما فصلنا ذلك في مطلع الكلام !

وإلى هنا يحسن أن نكتفي في التعريف المجمل ، لنواجه نصوص السورة في سياقها القرآني بعون الله . . ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة - فهذه الطريقة في العرض أدنى إلى طبيعة السورة ؛ وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظلالها كذلك . .

وبالله التوفيق . .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ {1})
هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون {2} وهو الله في
السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ {3} وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ
رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ {4} فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ {5} أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يَمُكِّنْ لَكُمْ
وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
قَرْنًا آخَرِينَ {6} وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُبِينٌ {7} وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلِكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقَضَى الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ {8} وَلَوْ
جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبِئْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبِّسُونَ {9} وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ
سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {10} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكذِّبِينَ {11} قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {12} وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {13} قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَلْتَأْخِذُوا بِاللَّهِ أَلْتَأْخِذُوا بِاللَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ
إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {14} قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {15} مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ {16} وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ
بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بُخَيْرًا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {17} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {18} قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا
الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَسْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ آخَرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ
وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ {19}

إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة ؛ والإيقاعات المديدة في مطلع السورة . وهي ترسم القاعدة
الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات
والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) إنها اللمسات الأولى . . تبدأ بالحمد لله . ثناء عليه ،
وتسبيحا له ، واعترافا بأحقيقته للحمد والثناء ، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإشياء . . بذلك
تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى . . الخلق . . وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود .
. السماوات والأرض . . ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود
. . الظلمات والنور . . فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور ،
والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك . . لتعجب من
قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره
الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون ؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم
به ويساؤونه (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) فبها للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون ،
وأثارها الضائعة في النفس ! يا للمفارقة التي تعدل الأجرام الضخمة ، والمسافات الشاسعة ، والظواهر
الشاملة . . بل تزيد . . واللمسة الثانية (هو الذي خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى
عنده ، ثم أنتم تمترون) إنها لمسة الوجود الإنساني ، التالي في وجوده للوجود الكوني . ولظاهرتي
الظلمات والنور . لمسة الحياة الإنسانية في هذا الكون الخامد . لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين
المظلم إلى نور الحياة البهيج ؛ تناسق تناسقا فنيا جميلا مع "الظلمات والنور" . . وإلى جانبها لمسة
أخرى متداخلة:لمسة الأجل الأول المقضى للموت ، والأجل الثاني المسمى للبعث . . لمستان متقابلتان
في الهمود والحركة كتقابل الطين الهامد والخلق الحي في النشأة . (هو الذي خلقكم من طين ، ثم
قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرركم
وجهركم ويعلم ما تكسبون) وبين كل متقابلين مسافة هائلة في الكنه والزمن . . وكان من
شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله ، واليقين بلقائه . ولكن المخاطبين
بالسورة يشكون في هذا ولا يستيقنون (ثم أنتم تمترون) واللمسة الثالثة تضم للمستئين الأوليين
في إطار واحد ؛ وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء (وهو الله في السماوات وفي
الأرض ، يعلم سرركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون) إن الذي خلق السماوات والأرض هو الله في
السماوات وفي الأرض . هو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء . وكل مقتضيات الألوهية متحققة
عليهما ، من خضوع للناموس الذي سنه الله لهما ، وانتمار بأمره وحده . وكذلك ينبغي أن يكون
الشان في حياة الإنسان . فلقد خلقه الله كما خلق السماوات والأرض ؛ وهو في تكوينه الأول من
طين هذه الأرض ؛ وما رزقه من خصائص جعلت منه إنسانا رزقه إياه الله ؛ وهو خاضع من ناحية
كيانه الجسمي للناموس الذي سنه الله له - رضي أم كره - يعطى وجوده وخلق ابتداء بمشيئة الله ،

لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه: والله - سبحانه - يعلم سره وجهره . ويعلم ما يكسب في حياته في سره وجهره . إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة ، إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل "الخلق" ودليل "الحياة" ممثلين في الأفاق وفي الأنفس . . ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطابا جديدا ، لاهوتيا أو فلسفيا ! ولكن خطابا موحيا موقظا للفطرة ، حيث يواجها بحركة الخلق والإحياء ؛ وحركة التدبير والهيمنة ؛ في صورة التقرير لا في صورة الجدل ؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية يصدق هذا التقرير فيما تراه .

ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجدون الله البتة ؛ بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه ، وبأنه الخالق الرازق ، المالك ، المحيي المميت . . إلى كثير من الصفات - كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم ، وفي حكاية أقوالهم - ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذلك: من تحكيم الله - سبحانه - في أمرهم كله ؛ ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم ؛ واتخاذ شريعته وحدها قانونا ، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة . ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة لتقرير الوحداية ، ولتقرير الحاكمية ، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله . . والحقيقة أن هناك شكا كثيرا فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم ! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة ؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية ، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم - كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون - ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم ، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة ! واليهود - مهما بلغ من كيدهم ومكرهم - لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية ، التي تجد في قراراتها الإيمان بوجود إله - وإن كانت تضل فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحق ؛ كما أنها تخرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها ، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس - ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها ، وتتعلل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله فيها . ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة في مجموع البشر في كل زمان . . والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض اليوم لا يتجاوزون بضعة ملايين في روسيا والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم الملحدون بالحديد والنار ؛ على الرغم من الجهد الناصب خلال أربعين عاما في نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام ! إنما يفلح اليهود في حقل آخر . وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر . وطرده من واقع الحياة . وإيهام المعتندين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله ؛ مع أن هناك أربابا أخرى هي التي تشرع لحياتهم من دون الله ! ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلا ، حتى مع وهمها أنها لا تزال تؤمن بالله . وهم يستهدفون الإسلام - قبل كل دين آخر - لأنهم يعرفون من تاريخهم كله ، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة . وأنهم غالبوا أهله طالما أهله لا يحكمونه في حياتهم ؛ مع توهمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله ! فهذا التخدير بوجود الدين - وهو غير موجود في حياة الناس - ضروري لتنجح المؤامرة . . أو يأذن الله فيصحو الناس ! ثم تأتي الموجة التالية في افتتاح السورة ؛ حيث يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية في ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكرا قبيحا ، حتى في حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة في الجولة الأولى . يكسبها في أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين ! وهو يعرض في هذه الموجة صورة العناد والمكابرة ؛ ويواجهها بالتهديد مرة ؛ ويتوجيه القلوب إلى مصارع المكذبين من قبل مرة ؛ ويحشد فيها عدة مؤثرات وموحيات . بعد الهزة الأولى التي مضت بها تلك الموجة العريضة (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا واصرارا . فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها . . ليس هذا هو الذي ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر ، وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمدا ومقصودا - مع توافر الأدلة ، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق - فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم . فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون) إنه الحق هذا الذي جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وخالق الإنسان من طين ، وإله في السماوات وفي الأرض الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون . . إنه الحق وقد كذبوا به . . فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين

عما كانوا به يستهزئون ! ويتركهم أمام هذا التهديد المحمل ، الذي لا يعرفون نوعه ولا مواعده . . . يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول ! وفي موقف التهديد يلفت أعناقهم وانظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال ، كما كانوا يمرون بقري لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب (ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم . فأهلكتناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكنهم الله في الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق . . ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء ؛ إنما عمرها جيل آخر ؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان ؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء ! وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ، ليلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبودية له وحده ، والتلقي منه وحده - بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه - أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدعى حقوق الألوهية وخصائصها ؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف . وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، ممكنا له في الأرض ، غير مأخوذ من الله . . ولكن الناس إنما يستعجلون . . إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ؛ ولا يرون نهاية الطريق . . ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث . . والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية الطريق ؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق ! إن هذا النص في القرآن (فأهلكتناهم بذنوبهم) وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة (ويقرر سنة ، ويقرر طرفا من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ . . إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المنذبن بذنوبهم ؛ وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يرها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تقشو فيها الذنوب ؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب . . كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ: فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال ؛ من عوامله ، فعل الذنوب في جسم الأمم ؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار ؛ إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التاريخ القديم - وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي ، الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة الذنوب ! وأمامنا في التاريخ القريب - نسبياً - الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي ، والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهي بالنعيم . . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض . إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداءً هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها . . ولكن هذا التفسير يضطر إلى محاكمات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية . والتفسير الإسلامي - بشموله وجديته وصدقها وواقعيتها - لا يغفل أثر العناصر المادية - التي يجعلها التفسير . المادي هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود . . يبرز قدر الله من وراء كل شيء ؛ ويبرز التغيير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي ثم يمضي ليقدم صوراً طبيعية العناد ، التي ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجاً عجيباً من النفوس البشرية . . ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان في كل عصر وفي كل بيئة وفي كل جيل . . نموذج النفس المكابرة ، التي يخرق الحق عينها ولا تراه ! والتي تتكبر ما لا ينكر لأنه من الواضح بحيث يخجل المخالف أن ينكره ! على الأقل من باب الحياء . . . والقرآن يرسم هذا النموذج شاخصاً في كلمات قلائل ، على طريقة التعبير القرآني المبدعة المعجزة في التعبير والتصوير (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين) إنه ليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات الله ، أن البرهان على صدقها ضعيف ، أو غامض ، أو تختلف فيه العقول . إنما الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً ! ولو أن الله - سبحانه - نزل على رسول الله ﷺ هذا القرآن ، لا عن طريق الوحي الذي لا يروونه ؛

ولكن في ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم - لا سماعا عن غيرهم ، ولا مجرد رؤية بعيونهم - ما سلموا بهذا الذي يروونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين (إن هذا إلا سحر مبين) وهي صورة صفيقة ، منكرة ، تثير الأشمزاز ، وتستعدي من يراها عليها ! صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها ! حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل ! وتصويرها على هذا النحو - وهي صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة - يؤدي غرضين أو عدة أغراض: إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض ؛ كالذي يرفع المرأة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة ، ليرى نفسه في هذه المرأة ، ويخجل منها ! وهو في الوقت ذاته يستجيب ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ؛ ويثبت قلوبهم على الحق ، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء . كذلك هو يوحي بحلم الله الذي لا يعجل على هؤلاء المعارضين المكذبين ، وهم في مثل هذا العناد المنكر الصفيق . وكلها أسلحة وحركة في المعركة التي كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن في مواجهة المشركين . بعد ذلك يحكي نموذجا من اقتراحات المشركين ، التي يملبها التملح والعناد ، كما يملبها الجهل وسوء التصور . ذلك إذ يقترحون أن ينزل الله - سبحانه - على الرسول ﷺ ملكا يصاحبه في تبليغ الدعوة ؛ ويصدق في أنه مرسل من عند الله . . ثم يبين لهم ما في هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة ، وبسنة الله في إرسالهم ، كما يبين لهم رحمة الله بهم في أن لا يستجيب لهم فيما يقترحون (وقالوا: لو أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون) وهذا الاقتراح الذي كان المشركون يقترحونه ؛ والذي اقترحه من قبلهم أقوام كثيرون على رسالهم - كما يحكي القرآن الكريم في قصصهم - والرد القرآني عليه في هذا الموضوع . . هذا وذاك يثيران جملة حقائق نلم بها هنا بقدر الإمكان:

الحقيقة الأولى: أن أولئك المشركين من العرب لم يكونوا يجحدون الله ؛ ولكنهم كانوا يريدون برهانا على أن الرسول ﷺ مرسل من عنده ؛ وأن هذا الكتاب الذي يتلوه عليه منزل من عند الله حقا . ويقترحون برهانا معينا: هو أن ينزل الله عليه ملكا يصاحبه في الدعوة ويصدق دعواه . . ولم يكن هذا إلا اقتراحا من اقتراحات كثيرة من مثله ، واقتراحات من نوعه تدل كلها على التعنت الذي وصفته الآية

والحقيقة الثانية: أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ؛ وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يدعو معه ويصدق . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا يعلمها إلا الله ؛ وكانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق ؛ وفي نوع علاقته بربه ؛ ونوع علاقته بالأرض وأهلها . . وقد حكى القرآن الكريم كثيرا من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة ؛ وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم ؛ وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلأق . وكان الإسلام - من هذا الجانب - منهجا لتقويم العقل والشعور ، كما كان منهجا لتقويم القلب والضمير ، ومنهجا لتقويم الأوضاع والأحوال سواء . . وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالاتهم في جاهليتهم ، أنهم كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله ! سبحانه وتعالى عما يصفون ! وأنهم - من ثم - لهم شفاعة عند الله لا ترد ! والراجح أن بعض كبار الأصنام كانت رموزا للملائكة ! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكا ليصدق في دعواه . . وقد صحح لهم القرآن ضلالهم الأولى في مواضع منه شتى . كما صحح لهم ضلالهم الثانية في تصورهم لطبيعة الملائكة في هاتين الآيتين في هذه السورة وفي مواضع أخرى كثيرة (وقالوا: لو أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) . . وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله . . إنهم يقترحون أن ينزل الله ملكا . ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة - حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم - أن ينزلوا للتدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار . ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكا ، لقضى الأمر ، وتم التدمير ، ولم ينظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل ! فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله في عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ! . . هكذا يقفهم السياق وجها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ؛ وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله في تنزيل الملائكة . . وهم بهذا الجهل الذي يكاد يدمر عليهم حياتهم ، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون في طلب الدليل ! والجانب الثاني من التعريف بهذا الخلق من عباد الله تتضمنه الآية الثانية (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون)

إنهم يقترحون أن ينزل الله - سبحانه - ملكا على رسوله ﷺ يصدق في دعواه . . ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني . خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله . وهم - كما يقول الله عنهم ، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم - لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم التي خلقهم الله عليها ؛ لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب ؛ ولكن لهم - مع ذلك - من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم في حياة البشر ؛ كتبليغ

الرسالة ؛ أو التدمير على من يريد الله أن يدمر عليهم من المكذبين ؛ أو تثبيت المؤمنين ، أو قتال أعدائهم وقتلهم . . إلى آخر الوظائف التي يقص القرآن الكريم أنهم يكلفون بها من ربهم ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فلو شاء الله أن يرسل ملكا يصدق رسوله ، لتبدى للناس في صورة رجل - لا في صورته الملائكية - وعندئذ يلبس عليهم الأمر مرة أخرى ! وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد ﷺ يقول لهم: أنا محمد الذي تعرفونه أرسلني الله إليكم لأنركم وأبشركم . . ، فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - في صورة رجل لا يعرفونه - يقول لهم: أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله . . بينما هم يرونه رجلا كأي منهم؟! إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة . فلو أرسل الله ملكا لجعله رجلاً وللبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها ؛ ولما اهتموا قط إلى يقين ! وهكذا يكشف الله - سبحانه - جهلهم بطبيعة خلأقه ، كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته . . وذلك بالإضافة إلى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر ، وبلا معرفة ، وبلا دليل ! والحقيقة الثالثة التي يثيرها النص القرآني في الفكر: هي طبيعة التصور ... لقد تضمن التصور الإسلامي عن عالم الغيب ، أن هناك خلقا من عباد الله اسمهم الملائكة . واخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم ، يكفي لهذا التصور ، ويكفي للتعامل معهم في حدوده .

وتنتهي هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسول . ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم ، والسير في الأرض لرؤية هذه المصارع ؛ الناطقة بسنة الله في المستهزئين المكذبين: (ولقد استهزئ برسول من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل: سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) إن هذه اللفتة - بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعنتاً ؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنق وجاهالة ؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم - لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول: تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ؛ وتطمين قلبه ﷺ إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين لمستهزئين بالرسول ؛ وتأسسته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا في تاريخ الدعوة إلى الحق . فقد لقي مثله الرسل قبله ؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف . .

والثاني: لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين: وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب . وقد أخذ الله - من قبلهم - قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا في الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة ؛ التي ترج القلوب رجاء بهذه رجا بهذه اللفظات الواقعية المخيفة . ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني (قل: سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ؛ ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث ، والوقائع ؛ مسجلة في الآثار الشاخصة ، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها . . السير على هذا النحو ، لمثل هذا الهدف ، وبمثل هذا الوعي . . أمور كلها كانت جديدة على العرب ؛ تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر والمعرفة . لقد كانوا يسبرون في الأرض ، وينقلون في أرجائها للتجارة والعيش ، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي . . أما أن يسبروا وفق منهج معرفي تربوي . . فهذا كان جديدا عليهم . وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به .

هذه الموجة الجديدة ذات المد العالي والإيقاع الرهيب ، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء ؛ وما ختم به هذا الحديث وما تخلله من التهديد المخيف ؛ مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين. هذه الموجة الجديدة قستهدف كذلك إبراز حقيقة الألوهية ، ممثلة في الملك والفاعلية ، وفي الرزق والكفالة ؛ وفي القدرة والقهر ؛ وفي النفع والضر . . كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه ؛ وتوحيد الاستسلام والعبودية . . واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية . فإذا أمر رسول الله ﷺ أن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا ؛ بين أن هذا الاستنكار قائم أولا على أن الله يطعم ولا يطعم ؛ وقائم ثانيا على أن تولي غير الله نقض لما أمر به من الإسلام وعدم الشرك أيضا . . ويصاحب عرض حقيقة الألوهية ، في هذه الصورة ولهذا الغرض ، جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب . تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء . وحقيقة أن الله هو الذي يطعم ولا يطعم . وعرض العذاب الرعب الذي يعد مجرد صرفه رحمة من

الله وفوزا عظيما . وعرض القدرة على الضر والخير . وعرض الاستعلاء والقهر . وعرض الحكمة والخبرة . . ثم الإبضاع الرهيب المزلزل ، المتمثل في الأمر العلوي الهائل: قل . قل . قل: فإذا تم هذا العرض بكل مؤثراته العميقة ، جاء الختام بالإبضاع العالي المجلجل ، إيقاع الإشهاد على التوحيد ، وإنكار الشرك ، والمفاصلة الحاسمة ؛ مصحوبا كذلك بالأمر العلوي في كل فاصلة (قل: أي شيء أكبر شهادة؟) . . (قل: الله) . . (قل: لا أشهد) . . (قل: إنما هو إله واحد) . . مما يضيء على الجو كله رهبة غامرة ؛ ويضيء على الأمر كله طابع جد مرهوب ! (قل: لمن ما في السماوات والأرض؟ قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم) إنه موقف المواجهة للبيان والتقدير ، ثم المفاصلة . . ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول ﷺ لهذه المواجهة . مواجهة المشركين - الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم - مواجهتهم بالسؤال عن الملكية - بعد الخلق - لكل ما في السماوات والأرض ، مسقويا بهذا السؤال حدود الملكية في المكان (قل لمن ما في السماوات والأرض) . . مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادلون فيها ؛ والتي حكى القرآن في مواضع إقرارهم الكامل بها (قل: لمن ما في السماوات والأرض؟ قل: لله) ولقد كان العرب في جاهليتهم - على كل ما في هذه الجاهلية من ضلال في التصور ينشأ عنه انحطاط في الحياة - أرقى - في هذا الجانب - من الجاهلية "العلمية" الحديثة ، التي لا تعرف هذه الحقيقة ، والتي تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة ! كانوا يعرفون ويقررون أن الله ما في السماوات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية ؛ بإفراد الله سبحانه بالحاكمة فيما يملك ، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه . . وبهذا اعتبروا مشركين ، وسميت حياتهم بالجاهلية ! فكيف بمن يخرجون الحاكمة في أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه ؛ ويزاولونها هم بأنفسهم؟! بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم؟ لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك . . فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه . . أيا كانت دعواهم في الإسلام وأيا كانت الصفة التي تعطونها لهم شهادات الميلاد! ونعود إلى الآية . لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله - سبحانه - لا ما في السماوات وما في الأرض ، أنه - سبحانه (كتب على نفسه الرحمة) فهو سبحانه المالك ، لا ينازعه منازع ، ولكنّه - فضلا منه ومنة - كتب على نفسه الرحمة . كتبها بإرادته ومشيئته ؛ لا يوجبها عليه موجب ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتض - إلا إرادته الطليقة والإا ربوبيته الكريمة - وهي - الرحمة - قاعدة قضائه في خلقه ، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة . وإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشئ في حسه وفي حياته وفي خلقه آثارا عميقة ؛ يصعب كذلك تقصيصها ؛ ولا بد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها ، كي لا نخرج من نطاق الضلال القرآنية ، إلى قضية مستقلة ! ومن مواضع رحمة الله التي تقررها الآية الكريمة: أن الله كتب ليجمعنكم إلى يوم القيامة (قل لمن ما في السماوات والأرض؟ قل: لله) . كتب على نفسه الرحمة . ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . . (ولقد كان العرب في جاهليتهم - قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين ويرفعهم إلى مستواه الكريم - يكدون بيوم القيامة - شأنهم في هذا شأن أهل الجاهلية "العلمية" الحديثة !! لذلك جاء التعبير في هذه الصيغة المؤكدة بشتى التوكيدات ، لمواجهة ذلك التكذيب (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) ولن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا . . وهؤلاء لن يخسروا شيئا ويكسبوا شيئا . . هؤلاء خسروا كل شيء . . فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئا . أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب؟ ولمن يكسب؟! (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . . لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن ! . . وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة . . إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين - مع عمق نداءه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله - هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ! لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية في كيانهم معطلة مخربة ؛ أو محجوبة مغلفة . فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون . . إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون . . وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم . . وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم . وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم ! بعد ذلك يمضى السياق يستقصي الخلائق في الزمان - كما استقصاها في الآية السابقة في المكان - ليقرر تفرد الله - سبحانه - بملكيتها ؛ وعلمه - سبحانه - وسمعه المحيطين بها (وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم) وأقرب تأويل لقوله تعالى (ما سكن) أنه من السكنى - كما ذكر الزمخشري في الكشاف - وهو بهذا يعني كل ما اتخذ الليل والنهار سكنا ؛ فهو يعني جميع الخلائق ؛ ويقرر ملكيتها لله وحده . كما قرر من قبل ملكية الخلائق كلها له سبحانه . غير أنه في الآية الأولى: (قل: لمن ما في السماوات والأرض؟ قل: لله) قد استقصى الخلائق من ناحية المكان . وفي هذه الآية الثانية: (وله ما سكن في الليل والنهار) . . قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان . . ومثله معروف في التعبير القرآني حين يتجه إلى الاستقصاء . . وهذا هو التأويل الذي نطمئن إليه في الآيتين من بين شتى التأويلات . والتعقيب بصفتي السمع والعلم يفيد الإحاطة بهذه الخلائق ، وبكل

ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذي يواجههم هذا النص . . . ولقد كانوا مع إقرارهم بوحداية الخالق المالك ، يجعلون لأربابهم المزعومة جزءا من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد . فهو يأخذ عليهم الإقرار هنا بملكية كل شيء ؛ ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير إذن من الله . كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخالصة لما سيلي في هذه الفقرة من ولاية لله وحده ، بما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شيء . في كل مكان وفي كل زمان ، الذي يحيط سمعه وعلمه بكل شيء ، وبكل ما يقال عن كل شيء كذلك !

والآن ، وقد تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك . . . يجيء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله . ويتقر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام . وتذكر من صفات الله سبحانه: أنه فاطر السماوات والأرض ، وأنه الرازق المطعم ، وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر . كما يذكر العذاب المخوف المرهوب . . . فتجلل الموقف كله ظلال الجلال والرهبة ، في إيقاع مدو عميق (قل: أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل: إنني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونون من المشركين . قل: إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) إن هذه القضية . . . قضية اتخاذ الله وحده وليا . بكل معاني كلمة "الولي" . أي اتخاذه وحده ربا ومولى معبودا يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ؛ ويدين له بالعبادة له شعائرها وحده . واتخاذه وحده ناصرا يستنصر به ويعتمد عليه ، ويتوجه إليه في الملمات . . . إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها . فإما إخلاص الولاء لله - بهذه المعاني كلها - فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه في أي منها ، فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام ! (قل: أغير الله أتخذ وليا) . . . وهذه صفاته سبحانه . . . أي منطوق يسمح بأن يتخذ غير الله وليا ؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه ، فالله هو فاطر السماوات والأرض ، فله السلطان في السماوات والأرض . وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه ، فالله هو الرازق المطعم لمن في السماوات ومن في الأرض . ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق ؟ ثم (قل: إنني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونون من المشركين) . . . والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين ألا يتخذ غير الله وليا . فاتخاذ غير الله وليا - بأي معنى - هو الشرك . ولن يكون الشرك إسلاما (قل: إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين) إنه تصوير لحقيقة مشاعر الرسول ﷺ تجاه أمر ربه له ؛ وتجسيم لخوفه من عذابه . العذاب الذي يعتبر مجرد صرفه عن العبد رحمه من الله وفوزا مبينا . ولكنه في الوقت ذاته حملة منزلة على قلوب المشركين في ذلك الزمان ، وقلوب المشركين بالله في كل زمان . حملة منزلة تصور العذاب في ذلك اليوم العظيم ؛ يطلب الفريسة ، ويحلق عليها ، ويهجم ليأخذها . فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التي تأخذ بخطامه فتلويه عنها ! وإن أنفاس القاريء لهذا التصوير لتحتبس - وهو يتمثل المشهد - في انتظار هذه اللقطة الأخيرة ! ثم إنه لماذا يتخذ غير الله وليا ، ويعرض نفسه للشرك الذي نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذي أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعب ؟ . . . ألع ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضرر في هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له في الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ . . . إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب ؛ وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعتاء (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر ؛ وتنبع مكامن الرغائب والمخافات ؛ ومطارح الظنون والشبهات وتجليه هذا كله بنور العقيدة ، وفرقان الإيمان ، ووضوح التصور ، وصدق المعرفة بحقيقة الألوهية ، وأخيرا تجيء قمة المد في هذه الموجة ؛ ويجيء الإيقاع المدوي العميق ؛ في موقف الإشهاد والإنذار والمفاضلة والتبرؤ من المشاركة في الشرك . . . كل ذلك في رنة عالية ، وفي حسم رهيب (قل: أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد ، قل: إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون) فهذا هو ذا رسول الله ﷺ يؤمر من ربه هذا الأمر . . . ثم ها هو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ؛ يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله ؛ ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه ؛ والذي لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان ، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلما لله ؛ بينما هو يتلقى من غير الله في شؤون الحياة ؛ وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله ، ويتولى غير الله ! وها هو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلني المفتوح المكشوف (قل: أي شيء أكبر شهادة ؟) أي شاهد في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أي شاهد تعلق شهادته كل شهادة ؟ أي شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة ؟ وكما يؤمر رسول الله ﷺ

بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب . ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم . ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع ... نعم ! فالله - سبحانه وتعالى - هو أكبر شهادة . هو الذي يقص الحق وهو خير الفاضلين . . هو الذي لا شهادة بعد شهادته ، ولا قول بعد قوله . فإذا قال فقد أنتهى القول ، وقد قضى الأمر . فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه - سبحانه - هو الشهيد بينه وبينهم في القضية (شهيد بيني وبينكم) فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية ؛ التي تقوم عليها الدنيا والآخرة ، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنا (وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) فكل من بلغه هذا القرآن من الناس ، بلغة يفهمها ، ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ، وبلغه الإنذار ، وحق عليه العذاب ، إن كذب بعد البلاغ . . [فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه ، فلا تقوم عليه الحجة به ؛ ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذا الشهادة . . هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته] فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله - سبحانه - متضمنة في هذا القرآن ، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم ، المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه . وعالمتهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد (أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد ، قل: إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما تشركون)

الوحدة الرابعة: 20 - 32 مواجهة المشركين بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به

مقدمة الوحدة - الرابعة من سورة الأنعام هذه الجولة - أو هذه الموجه - عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم ، المكذبين بالبعث والآخرة . . ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم ؛ ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم - كما سبق في سياق السورة - إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به ؛ وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها . . تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة . . تواجههم به وهم محشورون جميعا ، مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب ، وسؤال التشهير والتعجيب: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ وهم في رعب وفزع ، وفي تضعضع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالرؤية: (والله ربنا ما كنا مشركين)!. . وتواجههم به وهم موقوفون على النار ، محبوسون عليها ، وهم في رعب وفزع ، وفي ندم وحسرة يقولون: (يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين)! . . وتواجههم به وهم موقوفون على ربهم ، وهم يتناوبون من الخجل والندم ، ومن الروع والهول ؛ وهو - جل جلاله - يسألهم سبحانه: (اليس هذا بالحق) فيجيبون في استخزاء وتذابوب: (بلى وربنا). فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئا: (قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون). . ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم وخسروا كل شيء إذن ؛ وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم ؛ وهم يجارون بالحسرة على تضريطهم في الآخرة ، وأخذهم للصفقة الخاسرة!

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {20} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {21} وَيَوْمَ نَجْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شِرْكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ {22} ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ {23} انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {24} وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا أَنْبَأَهُمْ بِهَا جَاءُوا إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {25} وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {26} وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {27} بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {28} وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ {29} وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {30} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ {31} وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {32}

ذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه ، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم ؛ وإذا كانت أكثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون . شأنهم في هذا شأن المشركين ، الذين خسروا أنفسهم ، فلم يدخلوا في هذا الدين ! والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين . مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل في التعريف بالسورة . وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير (الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) . . على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقا ؛ أو على أن النبي ﷺ رسول من عند الله حقا ، يوحى إليه بهذا القرآن . . وهذا جانب من مدلول النص فعلا ولكننا نلمح - باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه - أن هناك جانبا آخر من مدلول النص ؛ لعل الله - سبحانه - أراد أن يعلمه للجماعة المسلمة ، ليستقر في وعيها على مدار التاريخ ، وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين ، إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون - من ثم - ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها ؛ وبالأخلاق التي تثبتق منها ؛ وبالنظام الذي يقوم عليها . ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين ! . . إنهم يعرفون ما فيه من حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل . . ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهاندنها هذا الدين ، أو يبقى عليها . . وأنها - من ثم - معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ، ويستعلي هذا الدين ، ويكون الدين كله لله . . أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها . وبذلك وحده يكون الدين كله لله . . إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة في هذا الدين . . ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم . . وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة ؛ وينقبون عن أسرار قوته ؛ وعن مداخلة إلي النفوس ومساربه فيها ؛ ويبحثون بجدة: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين ؛ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله ؛ كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه ؛ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به ؛ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان ، وتجعل الدين كله لله . . إلى حركة ثقافية بارده ، وإلى بحوث نظرية ميتة ، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ ؛ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له ، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة ؟! كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى ، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة !! إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة ؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقية - كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين ! - ولا لينصفوا هذا الدين وأصله - كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين ! - كلا ! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة ، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها ! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها ! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس لينبأ على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها ! وهم من أجل هذه الأهداف والملاسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ! ومن واجبا نحن أن نعرف ذلك . . وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبائنا ! إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة . . هي هذه الحقيقة التي يقرها القرآن الكريم في هذه الآية: (الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة . . إن البحوث التي تكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع ؛ بلغة من اللغات الأجنبية . . وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه ، ومصادر قوته ، ووسائل مقاومته ، وطرق إفساد توجيهه ! ومعظمهم - بطبيعة الحال - لا يفصح عن نيته هذه ؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة ؛ وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين - الممثل في الاستعمار - إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية ؛ وأن استمرار الهجوم على الإسلام - ولو في الصورة الفكرية - سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة ! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبت . . يلجأ إلى إزفاء الثناء لهذا الدين ، حتى ينوم المشاعر المتوقفة ، ويخدر الحماسة العظيمة ، وينال ثقة القارئ واطمئنانه . ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة . . هذا الدين نعم عظيم . ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجاري الحضارة "الإنسانية" الحديثة ! وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع ، وفي أشكال الحكم ، وفي قيم الأخلاق ! وينبغي - في النهاية - أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب ، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة "الإنسانية" الحديثة ! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب . . وبذلك يظل ديننا عظيما . . !!) ومن أظلم ممن افتري على الله كذبا أو كذب بآياته ؛ إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؛ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما

كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) هذا استطرده في مواجهة المشركين بحقيقة ما يزاولونه ، ووصف موقفهم وعملهم في تقدير الله سبحانه . . . مواجهة تبدأ باستفهام تفريري لظلمهم بافتراء الكذب على الله ؛ وذلك فيما كانوا يدعونهم من أنهم على دينه الذي جاء به إبراهيم عليه السلام ؛ ومن زعمهم أن ما يلحونه وما يحرمونهم من الأنعام والمطاعم والشعائر - كالذي سيجيء في آخر السورة مشفوعا بقوله تعالى (بزعمهم) - هو من أمر الله . . . وليس من أمره . وذلك كالذي يزعمه بعض من يدعون اليوم أنهم على دين الله الذي جاء به محمد ﷺ ويقولون عن أنفسهم إنهم "مسلمون" ! وهو من الكذب المفترى على الله . ذلك أنهم يصرون أحكاما وينشئون أوضاعا ، ويبتدعون قيما من عند أنفسهم يفتصبون فيها سلطان الله ويدعونهم لأنفسهم ، ويزعمون أنها هي دين الله ؛ ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مثنوى في دركات الجحيم ، أنه هو دين الله ! . . . وباستنكار تكذيبهم كذلك بايات الله ، التي جاءهم بها النبي ﷺ فردوها وعارضوها وجحدوها . وقالوا: إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله ! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم . . . حنوك النعل بالنعل . . . يواجههم باستنكار هذا كله ؛ ووصفه بأنه أظلم الظلم (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب باياته !) والظلم هنا كناية عن الشرك . في صورة التفضيح له والتبجيل . وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه . ذلك أن الشرك ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله - سبحانه - في أن يوحد ويعبد بلا شريك . واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق ، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء . . . ومن ثم فالشرك ظلم عظيم ، كما يقول عنه رب العالمين . ولن يفلح الشرك ولا المشركون (إنه لا يفلح الظالمون) والله - سبحانه - يقرر الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين - أو للظلم والظالمين - فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، في الأمد القريب ، فلاحا ونجاحا . . . فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار . . . ومن أصدق من الله حديثا ؟ . . . وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب ، في هذا المشهد الحي الشاخص الموحى (ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) إن الشرك ألوان ، والشركاء ألوان ، والمشركين ألوان . . . وليست الصورة الساذجة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين: من أن هناك ناسا كانوا يعبدون أصناما أو أحجارا ، أو أشجارا ، أو نجوما ، أو نارا . . . الخ . . . هي الصورة الوحيدة للشرك ! إن الشرك في صميمه هو الاعتراف بغير الله - سبحانه - بإحدى خصائص الألوهية . . . سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات . أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبديّة والنذور وما إليها . أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة . . . كلها ألوان من الشرك ، يزاولها ألوان من المشركين ، يتخذون ألوانا من الشركاء ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعا: كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله ، لها مشاركة - عن طريق الشفاعة الملمزة عندالله - في تسيير الأحداث والأقدار . كالملائكة . أو عن طريق قدرتها على الأذى - كالجن بنواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم - أو عن طريق هذه وتلك - كأرواح الآباء والأجداد - وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التي تعمرها أرواح هذه الكائنات ؛ ويستنطقها الكهان ؛ فتحل لهم ما تحل ، وتحرم عليهم ما تحرم . . . وإنما هم الكهان في الحقيقة . هم الشركاء ! وكانوا يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام ؛ وتقديم قربان لها والنذور - وفي الحقيقة للكهان - كما أن بعضهم - نقلا عن الفرس - كانوا يعتقدون في الكواكب ومشاركتها في تسيير الأحداث - عن طريق المشاركة لله - ويتقدمون لها كذلك بالشعائر [وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم - عن طريق الكهان والشيوخ - شرائع وقيما وتقاليد ، لم يأذن بها الله . . . وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله ! وفي هذا المشهد - مشهد الحشر والمواجهة - يواجه المشركين - كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك - بسؤالهم عن الشركاء - كل أصناف الشركاء - أين هم ؟ فإنه لا يبدو لهم أثر ؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب (ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) والمشهد شاخص ، والحشر واقع ، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم . . . الأليم) (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) وهنا يفعل الهول فعلة . . . هنا تتعري الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا . . . هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة - كما هو منعدم في الواقع والحقيقة - وجود الشركاء ؛ فيشعرون أنه لم يكن شرك ، ولم يكن شركاء . . . لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع . . . هنا "يفتتون فيذهب الخبث ، ويسقط الركام - من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين) لذلك يقرر الله سبحانه ، معجبا رسوله ﷺ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في

الحقيقة . وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء (انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) فالكذب منهم كان على أنفسهم ؛ فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكا ، وأفتروا على الله هذا الافتراء . وقد ظل عنهم ما كانوا يفترون وغاب ، في يوم الحشر والحساب ! ويمضى السياق يصور حال فريق من المشركين ؛ ويقرر مصيرهم في مشهد من مشاهد القيامة . . يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلى الإدراك ، مطموسى الفطرة ، معاندين مكابرين ، يجادلون رسول الله ﷺ وهم على هذا النحو من الاستغلاق والعناد ، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين ؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضا . . يصور حالهم هكذا في الدنيا في صفحة ، وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهدا كئيبا مكروبا ؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهي تواجههم بهول المصير الرعب ؛ وهم بتهافتون متخالدين ؛ ويتهاوون متحسرين ؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير (ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاؤوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون) إنهما صفتان متقابلتان: صفحة في الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض ؛ و صفحة في الآخرة يرتسم فيها الندم والحسرة . . يرسمها السياق القرآني ، ويعرضهما هذا العرض المؤثر الموحى ؛ ويخاطب بهما الفطر الجاسية ؛ ويهز بها هذه الفطر هذا ، لعل الركاب الذي ران عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تفتح ، ولعلها تضيء إلى تبهر هذا القرآن قبل فوات الأوان (ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) والأكنة هي الأغلفة التي تحول دون أن تفتح هذه القلوب فتفقه ؛ والوقر هو الصمم الذي يحول دون هذه الأذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع وهذه النماذج البشرية التي تستمع ؛ ولكنها لا تفقه ، كان ليس لها قلوب تترك ؛ وكان ليس لها أذان تسمع . . نماذج مكرورة في البشرية في كل جيل وفي كل قبيل ، في كل زمان وفي كل مكان . . إنهم أناسي من بني آدم . . ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعون . كان آذانهم صماء لا تؤدي وظيفتها . وكان إدراكهم في غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الأذان ! (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . حتى إذا جاؤوك يجادلونك . يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين) فأعينهم ترى كذلك . ولكن كانها لا تبصر . أو كان ما تبصره لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم ! فما الذي أصاب القوم يا ترى ؟ ما الذي يحول بينهم وبين التلقي والاستجابة . بينما لهم آذان ولهم عيون ولهم عقول ؟ يقول الله - سبحانه (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) وهذا يعبر عن قضاء الله فيهم بالأ يتلقى إدراكهم هذا الحق ولا يفقهه ؛ وبألا تؤدي أسماعهم وظيفتها فتنتقل إلى إدراكهم ما تسمع من هذا الحق فتستجيب له ، مهما يروا من دلائل الهدى وموحيات الإيمان . غير أنه يبقى أن نلتمس سنة الله في هذا القضاء . . إنه سبحانه يقول: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . . والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، وإرادة العبد وكسبه . . ليجعلوا منها مباحث لاهوتية ، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التفريرية البسيطة ؛ التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ؛ وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها ، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ؛ وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وأثار في الدنيا والآخرة يجرى بها قدر الله أيضا ، فتكون . . وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله . . ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به . . وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء ! (حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين) والأساطير جمع أسطورة . وكانوا يطلقونها على الحكايات التي تتضمن الخوارق المتعلقة بالألهة والأبطال في قصص الوثنيات . وأقربها إليهم كانت الوثنية الفارسية وأساطيرها . وهم كانوا يعلمون جيدا أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين . ولكنهم إنما كانوا يجادلون ؛ ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب ؛ ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة . . وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصا عن الرسل وأقوامهم ؛ وعن مصارع الغابرين من المكذبين . فمن باب التمثل والتماس أوهى الأسباب ، قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله: (إن هذا إلا أساطير الأولين) ! وإمعانا في صبر الناس عن الاستماع لهذا القرآن ، وتثبيت هذه الفرية . . فرية أن هذا القرآن إن هو إلا أساطير الأولين . . كان مالك بن النضر ، وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين ، يجلس مجلسا قريبا من رسول الله ﷺ وهو يتلو القرآن . فيقول للناس: إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين ، فعندي أحسن منها ! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير ، ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم ! ولقد كانوا كذلك ينهون الناس عن الاستماع إليه - وهم كباراؤهم - وينأون هم عن الاستماع خشية التأثير

والاستجابة (وهم ينهون عنه ، وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) لقد كانوا علي يقين من أنه ليس أساطير الأولين . وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تحدي لو ترك الناس يسمعون ! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم . وهذا الجهد كله الذي كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن ؛ ومن التأثير والاستجابة له . . هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه في الحقيقة لإهلاك أنفسهم - كما يقرر الله - سبحانه (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) وهل يهلك إلا نفسه من يجاهد نفسه ويجاهد غيره دون الهدى والصلاح والنجاة ، في الدنيا والآخرة ؟ إنهم مساكين أولئك الذين يجعلون همهم كله في الحيلولة بين أنفسهم والناس معهم وبين هدى الله ! مساكين ! ولو تبدوا في ثياب الجبايرة وزى الطواغيت ! مساكين فهم لا يهلكون إلا أنفسهم في الدنيا والآخرة . وإن بدا لهم حيناً من الدهر وبدا للمخدوعين بالزبد أنهم رابحون مفلحون . ومن شاء أن يرى فلينظر في الصفحة الأخرى المواجهة لهذه الصفحة الأولى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ، ولا نكذب آيات ربنا ، ونكون من المؤمنين)

إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا . . مشهد الاستخزاء والندامة والخزي والحسرة . في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض ! (ولو ترى إذ وقفوا على النار) . لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة ! لو ترى لرأيت ما يهول ! ولرأيتهم يقولون ولكنها ليست سوى الأمانى التي لا تكون ! على أنهم إنما يجهلون جبلتهم . فهي جبلة لا تؤمن . وقولهم هذا عن أنفسهم: إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين ، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل ! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه ، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون ، وأنهم ناجون ، وأنهم مفلحون (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وأنهم لكانبون) إن الله يعلم طبيعتهم ؛ ويعلم إضراهم على باطلهم ؛ ويعلم أن رجفة الموقف الرعب على النار هي التي أنطقت أسنتهم بهذه الأمانى وهذه الوعود . . (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكانبون) ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس ، وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب ! يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك ؛ ويرسم لهما مشهدين متقابلين: أحدهما في الدنيا وهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء . وثانيهما في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه: (ليس هذا بالحق ؟) . . السؤال الذي يزلزل ويذيب . . فيجيبون إجابة المهين الذليل: (بلى ! وربنا) . . فيجبهون عندئذ بالجزء الأليم بما كانوا يكفرون . . ثم يمضي السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة ، بعدما كذبوا بقاء الله ، فتنتابهم الحسرة ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة في ميزان الله الصحيح: (وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال: أليس هذا بالحق ؟ قالوا: بلى وربنا . قال: فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . . قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟) وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية ، التي جاء بها الإسلام ؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصورا ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً - إلا عليها . . وبها . . إن إنساناً يعيش في هذا المدى المتطاوّل من الزمان والمكان والعوالم والمداقات ، غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ، وبصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض عما يفوته ، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به . . إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس ! والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ؛ وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ؛ وإلى تركها للطفة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة . . الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة - كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة - وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم . . فالدنيا - في التصور الإسلامي - هي مزرعة الآخرة . والجهد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ورفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً . . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى . .

وكان العرب في جاهليتهم - وبسبب من هذه الجاهلية - لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ؛ ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر: ولا في امتداد الذات الإنسانية إلى آفاق وأفاق وأعماق غير هذه الأماد المحسوسة . . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصورات . . شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . . "العلمية" كما يصر أهلها على تسميتها ! (وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) . .

وكان الله - سبحانه - يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظل حياة إنسانية رفيعة كريمة . . هذه الأفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلتصق الإنسان بالأرض ، وتلتصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة . . وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كبح ، ولا هدنة ، ولا أمل في عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ! . . وهذه الأنظمة والأوضاع ، التي تنشأ في الأرض منطلورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان . إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضا ، وتصارع الطبقات بعضها بعضا ، وتصارع الأجناس بعضها بعضا . وينطلق الكل في الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهد اليوم في عالم "الحضارة" . . في كل مكان . .

كان الله - سبحانه - يعلم هذا كله ؛ ويعلم أن الأمة التي قدر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية . . أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمتها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الأفاق والاماد الواسعة . . من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . . ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة . . أولا لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانيا لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان: تصورا واعتقادا ، وخالقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما . ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في هذه الموجة من نهر السورة المتدفق . . الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ؛ فتفتح نوافذها ، وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقى والاستجابة . . ذلك كله فضلا على أنها تمثل الحقيقة (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال: أليس هذا بالحق؟ قالوا: بلى وربنا . قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بلفائه ، لا يبرحون الموقف . وكأنما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب (قال: أليس هذا بالحق؟) . . وهو سؤال يخزي وينيب ! (قالوا: بلى وربنا) الآن . وهم موقوفون على ربهم . في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون ! وفي اختصار يناسب جلال الموقف ، ورهبة المشهد ، وهول المصير ، بجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير: قال: (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وهو مصير يتفق مع الخلائق التي آتت على نفسها سعة التصور الإنساني وأثرت عليه جحر التصور الحسي ! والتي آتت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم ، وأخذت إلى الأرض ، وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل ! لقد ارتكست هذه الخلائق حتى أهلت نفسها لهذا العذاب ؛ الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ؛ الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ؛ بذلك التصور الهابط الهزيل ! ويستكمل السياق المشهد الذي ختمه هناك بهذا القضاء العلوي تنسيقا له مع الجلال والروع والهول . . يستكملة بتقرير حقيقته (قد خسر الذين كذبوا بلاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها !) فهي الخسارة المحققة المطلقة . . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى . . وخسارة الآخرة على النحو الذي رأينا . . والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حسابا (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها !) ثم مشهدهم كالذواب الموقرة بالأحمال (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) بل الذواب أحسن حالا . فهي تحمل أوزارها من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزارها من الأثام ! والذواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح . هؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم . مشيعين بالتأثيم (ألا ساء ما يزررون !) . وفي ظلال هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياح ، بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة . . بجيء الإنقاع الأخير في هذا القطع ؛ بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة في ميزان الله ؛ وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة في هذا الميزان الصحيح (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون) هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة . . وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار ، على هذا الكوكب الصغير ، إلا على هذا النحو ، حين توازن بذلك الأبد الأبد في ذلك الملك العريض . وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة إلا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم ، والآخرة غيب . فالإيمان بها سعة في التصور . وارتقاء في العقل . والعمل لها خير للمتقين يعرفه الذين يعقلون (وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ {33})
ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله
ولقد جاءك من نبي المرسلين {34} وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استبطعت أن تبغني نفقا في
الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من
الجاهلين {35} إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون {36} وقالوا لولا

نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {37} وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أَمِمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ {38} وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صَمٌّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنَ نِشَاءِ اللَّهِ يَضَلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {39}

في هذه الموجة من موجات السياق المتدفق في السورة ؛ يتجه الحديث إلى رسول الله ﷺ يطيب الله - سبحانه - خاطره في أوله ، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين ، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصررون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لامر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التي لا تتبدل . . حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، انفتحت إلى النبي ﷺ يقرر له الحقيقة الكبرى في شأن هذه الدعوة . . إنها تجري بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان . . إن الله هو الذي يتصرف في الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضي وفق هذا الأمر ، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئا . حتى ولو كان هو النبي الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين - ولا الناس عامة - في منهج الدعوة ، ولا في اقتراح براهين وآيات معينة عليه . . والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون ، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

وهم يطلبون آية خارقة على نحو ما كان يقع للأقوام من قبلهم ، والله قادر على أن ينزل آية . ولكنه سبحانه لا يريد - لحكمة يراها - فإذا كبر على الرسول إعراضهم فليحاول هو إذن بجهده البشري أن يأتيهم بآية ! . . إن الله - سبحانه - هو خالق الخلائق جميعا ، وعنده أسرار خلقهم ، وحكمة اختلاف خصائصهم وطباعهم . وهو يترك المكذبين من البشر صما وبكما في الظلمات ، ويضل من يشاء ويهدي من يشاء وفق ما يعلمه من حكمة الخلق والتنويع

إن مشركي العرب في جاهليتهم - وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدى للدعوة من قريش - لم يكونوا يشكون في صدق محمد ﷺ فلقد عرفوه صادقا آمينا ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة ، كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته ، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله . ولكنهم - على الرغم من ذلك - كانوا يرفضون إظهار التصديق ، ويرفضون الدخول في الدين الجديد ! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي ﷺ ولكن لأن في دعوته خطرا على نفوذهم ومكانتهم . . وهذا هو السبب الذي من أجله قرروا الجحود بآيات الله ، والبقاء على الشرك الذي كانوا فيه (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والظالمون في هذا الموضع هم المشركون . كما يغلب في التعبير القرآني الكريم . ويستطرد من تطيب خاطر الرسول ﷺ وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته ، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به . . يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله - وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن - ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق ، حتى جاءهم نصر الله . ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل ، ولا يغير منها اقتراحات المقترحين ، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق (ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين) إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب . . مستقيم الخطي ، ثابت الأقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومونه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . . والموكب في طريقه لا ينحني ولا يثنى ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة هي العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . إن نصر الله دائما في نهاية الطريق (ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين) كلمات بقولها الله - سبحانه - لرسوله ﷺ كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية . . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحا ، ودورهم محددًا ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق ، إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة . كما أنها كذلك وحدة . وحدة لا تتجزأ . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . ولكنها تجيء في موعدها . لا يجعلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب ، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقبرون على أذى المخلصين . ثم يبلغ الجد الصارم مده ، في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول الله ﷺ من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى

الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون . وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين ، والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق . وهي رغبة بشرية طبيعية . ولكن في صد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم (وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض ، أو سلما في السماء ، فاتتهم بأية ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون) وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة . . وما يملك الإنسان إن يترك حقيقة هذا الأمر ، إلا حين يستحضر في كيانه كله أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم . . النبي الصابر من أولي العزم من الرسل . . الذي لقي ما لقي من قومه صابرا محتسبا ، لم يدع عليهم دعوة نوح - عليه السلام - وقد لقي منهم سنوات طويلة ، ما يذهب بحلم الحليم ! تلك سنتنا - يا محمد - فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب في إتيانهم بأية . . إذن . . فإن استطعت فابتغ لك نفقا في الأرض أو سلما في السماء ، فاتهم بأية ! إن هدامهم لا يتوقف على أن تأتيهم بأية . فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول . . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى - كالملائكة - وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه . وإما باظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعا . وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها . ولكنه سبحانه - لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله - خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان ، لوظيفة معينة ، تقتضي - في تدبيره العلوي الشامل - أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة . من بينها التنوع في الاستعدادات ، والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات . في حدود من القبرة على الاتجاه ، بالقدر الذي يكون عدلا معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده ، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف . فاعلم ذلك ولا تكن مما يجهلون (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين) يا لهول الكلمة ! ويا لحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه ، وبعد ذلك بيان للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ولموافقهم المختلفة في مواجهة الهدى ، الذي لا تنقصه البينة ولا ينقصه الدليل (إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون) إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان:

فريق حي ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة . . وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه ، فتستجيب له (إنما يستجيب الذين يسمعون)

وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب . . ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله - فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وحدث فيها مصداقه ، فاستجابت إليه حتما - إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي ! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ، ولا مجال معهم للبرهان . إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله . إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتا بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة (والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون)

هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة ! تكشف حقيقة الموقف كله ، وتحدد واجب الرسول وعمله ، وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد .

(وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {37}) وما من دأية في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم بما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون {38} والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم {39} قل أرأييكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تبعون إن كنتم صادقين {40} بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتسنون ما تشركون {41} ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون {42} فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون {43} فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرجوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبسوتون {44} فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين {45} قل أرأييكم إن أخذ الله

سَمِعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ آلِهِ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِكُمْ بِهِ أَنْظُرْ، كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ {46} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {47} لَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {47} وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {48} وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ {49} قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزَانٌ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ {50}

ومن خطاب رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الإقتراح الذي في أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانباً من دقة التدبير الإلهي وإحاطته بالأحياء جميعاً ، يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعاً . وينتهي بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجري بها مشيئة الله طليقة . لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التي صاحبته الرسالات السابقة ، ولا يقنعون بأية القرآن الباقية ، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقى ؛ والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة المادية ؛ بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري باعجازها إلى يوم القيامة . وكانوا يطلبون خارقة ، ولا يقطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة ، وإهلاكهم في الدنيا . ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيحجودون بها بعد وقوعها - كما وقع في الأقوام قبلهم - فيحرق عليهم الهالك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن . فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم في إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذي لا يعلمون جرائره ! والقرآن يذكر اقتراحهم هذا ، ويعقب عليه بأن أكثرهم لا يعلمون ما وراءه ولا يعلمون حكمه الله في عدم الاستجابة ، ويقرر قدرة الله على تنزيل الآية ، ولكن حكمته هي التي تقتضي ، ورحمته التي كتبها على نفسه هي التي تمنع البلاء (وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه ! قل: إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون) . ويأخذ السياق القرآني طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف . ويوقف فيها قوى الملاحظة والتدبر لما في الوجود حولهم من دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، لو تدبروه وعقلوه (وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون) إن الناس ليسوا وحدهم في هذا الكون ، حتى يكون وجودهم مصادفة ، وحتى تكون حياتهم سدى ! إن حولهم أحياء أخرى ، كلها ذات أمر منتظم ، يوحى بالقصد والتدبير والحكمة ، ويوحى كذلك بوحدة الخالق ، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله . إنه ما من دابة تدب على الأرض - وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات - وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة . . ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة ، ذات خصائص واحدة ، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك . . شأنها في هذا شأن أمة الناس . . ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير بشمله ، وعلم يحصيه . . وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها . . فيقضي في أمرها بما يشاء . . وتختتم هذه الجولة - أو هذه الموجة - بتقرير ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسننه ، وما يدلان عليه من فطرة الناس في حالات الهدى وحالات الضلال (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضللّه ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وهو إعادة لتقرير الحقيقة التي مضت في هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون . ولكن في صورة أخرى ومشهد آخر . . إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبتوثة في صفحات الوجود ، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن ، إنما كذبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة . . إنهم صم لا يسمعون ، بكلم لا يتكلمون ، غارقون في الظلمات لا يبصرون ! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي . فإن لهم عيوناً وأذاناً وأفواها . . ولكن إدراكهم معطل ، فكانما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ! .

هنا - في هذه الموجة - يواجه السياق القرآني فطرة المشركين ببأس الله . بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله . . حين تتعري من الركام في مواجهة الهول ، وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك الركام ! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة ؛ وتتجه من فوراً إلى ربها الذي تعرفه في قراراتها تسأله وحده الخلاص والنجاة ! ثم يأخذ بأيديهم ليقضهم على مصارع الغابرين من أسلافهم وفي الطريق يريهم كيف تجري سنة الله ، وكيف يعمل قدر الله . ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استرجاع الله لهم ، بعد تكذيبهم برسول الله ، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء - الابتلاء بالبأساء والضراء ، ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء - وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة ، لينتهبوا من الغفلة ، حتى إذا استنفدوا الفرض كلها ، وغرتهم النعمة بعد أن لم توقفهم الشدة . جرى قدر الله ، وفق

سبته الجارية وجاءهم العذاب بغتة (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وما يكاد هذا المشهد الذي يهز القلوب هزا يتواري ، حتى يجيء في أعقابيه مشهد آخر وهم يتعرضون لباس الله أيضا ، فيأخذ سمعهم وأبصارهم ، ويختم على قلوبهم ، ثم لا يجدون لها غير الله يرد عليهم سمعهم وأبصارهم وإدراكهم . وفي مواجهة هذين المشهدين الرائعين الهائلين يتحدث إليهم عن وظيفة الرسل . . إنها البشارة والندارة . . ليس وراء ذلك شيء . . ليس لهم أن يأتوا بالخوارق ، ولا أن يستجيبوا لمقترحات المقترحين ! إنما هم يبلغون . يبشرون وينذرون . ثم يؤمن فريق من الناس ويعمل صالحا فيأمن الخوف وينجو من الحزن . ويكذب فريق ويعرض فيمسه العذاب بهذا الإعراض والتكذيب . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . فهذا هو المصير . (قُلْ:أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ . . أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ . . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول . . عذاب الله في الدنيا عذاب الهلاك والدمار ؛ أو مجيء الساعة على غير انتظار . و يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من أسنتهم ؛ ليكون تعبيراً عن الصدق في فطرتهم (أغير الله تدعون . . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق ، المطابق لما في فطرتهم بالفعل ، ولو لم تنطق به أسنتهم (بل إياه تدعون . . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء . . وتسنون ما تشركون) بل تدعونه وحده ؛ وتسنون شرككم كله ! . ومع كل هذا الجهد الناصب ، المتمثل في محاولة "الشيوعية" - وهي إحدى المنظمات اليهودية - لنشر الإلحاد ، خلال أكثر من نصف قرن ، بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة ، فإن الشعب الروسي نفسه لم يزل في أعماق فطرتة الحنين إلى عقيدة في الله . . ولقد اضطر "ستالين" الوحشي - كما يصوره خلفه خروشوف ! - أن يهادن الكنسية ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأن يفرج عن كبير الأساقفة ، لأن ضغط الحرب كان يلوي عنقه للاعتراف للعقيدة في الله بأصلاتها في فطرة الناس . . مهما يكن رأيه ورأي القليلين من الملحدين من ذوي السلطان حوله (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالأساء والضراء لعلمهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخي . نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لباس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الضراء ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالأساء والضراء لعلمهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريا أن يفعلوا . لم يلجأوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم . وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد (ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) . . والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة ، التي تنبه القلوب الحية للتلقى والاستجابة . والشدة ابتلاء من الله للعبد ؛ فمن كان حيا أيقظته ، وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه ؛ وكانت رحمته له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه . . ومن كان ميتا حسبت عليه ، ولم تقده شيئا . فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء . . والتعبير القرآني (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) . . يصور الأرزاق والخيرات ، والمتاع ، والسلطان . . متدفقة كالسيول ؛ بلا حواجز ولا قيود ! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة ! إنه مشهد عجيب ؛ يرسم حالة في حركة ؛ على طريقة التصوير القرآني العجيب (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع . وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ وجر هذا وذلك إلى نتائج الطبيعية من فساد الحياة كلها . . عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل (أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون) فكان أخذهم على غرة ؛ وهم في سهوة وسكرة . فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفسير في أي اتجاه . وأذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أي يجيء على أديبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى ! . . و (الذين ظلموا) تعني هنا الذين أشركوا . . كما هو التعبير القرآني في أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين (والحمد لله رب العالمين) بعد ذلك يقف السياق القرآني المشركين بالله ، أمام بأس الله ، في ذوات انفسهم ، في أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك لها غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم (قُلْ:أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ !) وهو مشهد تصويري يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله في موقف الجد من جانب . ولكن هذا

المشهد يهزهم من الأعماق (انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون !) وهو تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف ! المعروف عند العرب ، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف ! فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف ! وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد ، ليس على الله بعيد ، يريهم فيه مصارعهم - وهم الظالمون: أي المشركون - وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون (قل: أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وهو توقع يعرضه السياق عليهم ليتقوه ، ويتقوا أسبابه قبل أن يجيء . والله - سبحانه - يعلم أن عرض هذا التوقع في هذا المشهد يخاطب الكينونة البشرية خطابا تعرفه في قراراتها ، وتعرف ما وراءه من حقيقة ترجف لها القلوب ! وحين تبلغ الموجة أقصى مداها ، يعرض هذه المشاهد المتوالية ، والتعقيبات الموحية ، والإيقاعات التي تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر . . تختم ببيان وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، مبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون ، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض . وبيان محكم عن الرسول ووظيفته وحدود عمله في هذا الدين . . تصور يفرد الله سبحانه بالالوهية وخصائصها ؛ ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله ، ويجعل للإنسان - منخلال ذلك - حرية اتجاهه وتبعية هذا الاتجاه ، ويبين مصائر الطائعين لله والعصاة بيانا حاسما ؛ وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله ، مما كان سائدا في الجاهليات . . وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلي ؛ دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية ، والجدل اللاهوتي ، الذي استنفذ طاقة الإدراك البشري أجيالا بعد أجيال !!!

وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق حوانب من حقيقة الألوهية ، وعلاقة الرسول بها ، وعلاقة الناس جميعا - الطائعين منهم والعصاة - ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة . فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى . والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تابوا منها وأصلحوا بعدها . وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين ، فيؤمن من يؤمن عن بيعة ، ويضل من يضل عن بيعة ، ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون (قل: لا أقول لكم: عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم: إنني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل: هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون) لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله ﷺ بآية من الخوارق يصدقونه بها - وهم كانوا كما أسلفنا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه - وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهباً ! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح مكانهما خصباً مخضراً بالزررع والثمار ! وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة ! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه ! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب في قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء . . إلى آخر هذه المطالب التي يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم ! ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة وصورة النبي في الجاهليات من حولهم ، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة ، بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسالتهم من الحق الواضح في هذه الأمور . ثم إن أتباع الوحي وحده هداية وبصر ، والمتروك بغير هذا الهادي متروك أعمى . . هذا ما تقرره هذه الآية في وضوح وصرامة . . فما شأن العقل البشري في هذا المجال ؟ سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط . . إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي ، وإدراك مدلولاته . . وهذه وظيفته . . ثم هذه هي فرصته في النور والهداية ؛ وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف ، وسوء الرؤية ، ونقص الرؤية ، وسوء التقدير ، وسوء التدبير . والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي ، باعتبار أن كليهما - العقل والوحي - من صنع الله فلا بد أن يتطابقا . . هؤلاء إنما يستندون إلى تفريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر ، ولم يقل بها الله سبحانه ! والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي - حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر - إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله . . فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري ، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة ، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي ، وهو النور والبصيرة . والذي يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين ؛ أو أن العلم - وهو من منتجات العقل - يغني البشرية عن هدى الله ؛ إنما يقولون قولاً لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك . . فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم ، هي أبأس حياة يشقى فيها "الإنسان" مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ؛ ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ؛ ومهما تيسرت أسباب

الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق . . وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية ! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون ! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبيه الذاتي ، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات . ثم يقيم له الأسس ، ويضع له القواعد ، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة ؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها - وفق شريعة الله - فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك ! والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبترك وحي الله وهداه أعمى ، واقتران الحديث عن تلقي الرسول ﷺ من الوحي وحده ، بالإشارة إلى العمى والبصر ، بالسؤال التحضيضي على التفكير: إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل: هل يستوي الأعمى والبصير: أفلا تتفكرون ؟ . . اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو في السياق ، أمر ذو دلالة في التعبير القرآني . . فالتفكير مطلوب ، والحض عليه منهج قرآني ؛ ولكنه التفكير المضبوط بضابط الوحي ، الذي يمضي معه مبصرا في النور ؛ لا مطلق التفكير الذي يخط في الظلام أعمى ، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير . . والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق ، إنما يتحرك في مجال واسع جدا . . يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله ، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا ؛ كما يحتوي أغوار النفس ومجالي الأحداث ، ومجالات الحياة جميعا . . فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج ، وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات ! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا . فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان . . العقل . . إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني . . فلا تفضل إذن ولا تطغى . .

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {51})
 وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ {52} وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ {53} وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مِنْ عَمَلِكُمْ سَوْءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {54} وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتُسَبِّحَنَ سُبْحَانَ الْمَجْرَمِينَ {55} قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ {56} قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقِضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ {57} قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ إِنبِيَّ وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ {58} وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ {59} وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {60} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ {61} ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ إِلَّا لِمَنْ أَهْلَ الْحُكْمِ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ {62} قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنَ ظِلْمَاتِ الْبُرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِن أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ {63} قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ {64} قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) {65}

إنها عزة هذه العقيدة ، واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة ، وتخلصها من الاعتبارات البشرية الصغيرة . . لقد أمر رسول الله ﷺ أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء ؛ ودون إطماع في شيء من قيم الأرض ولا إغراء . . كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة ، وأن يؤوي إليه الذين يتلقونها مخلصين ؛ ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه ؛ وألا يقيم وزنا بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلي الزائفة ؛ ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ، لعلمهم يتقون) وأنذر به هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، حالة أن ليس من دونه ولي ينصرهم ولا شفيع يخلصهم . ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه ، وهو لا يشفع يومئذ - بعد الإذن - إلا لمن ارتضى الله أن يشفع عند الله فيهم . . فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذي ليس فيه - من دون الله - ولي ولا شفيع ، أحق بالإنذار ، وأسمع له ، وأكثر انتفاعا به . . لعلمهم أن يتوقوا في حياتهم الدنيا وما يعرضهم لعذاب الله في الآخرة . فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح . بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه ، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقى والحذر ؛ فلا يقعون فيما نهوا عنه بعدما تبين لهم (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله ؛ فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء ؛ يريدون وجهه سبحانه ! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه

. . وهي صورة للتجرد ، والحب ، والأدب . . فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء . وهو لا يبغى وجه الله ، إلا إذا تجرد . وهو لا يبغى وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب . وهو لا يفرد الله - سبحانه - بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب ، وصار ربانيا يعيش لله وبالله . . ولقد كان أصل القصة أن جماعة من "أشراف" العرب ، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام ؛ لأن محمداً ﷺ يؤوي إليه الفقراء الضعاف ، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود . . ومن إليهم . . وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفرهم ؛ ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد ! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله ﷺ أن يطردهم عنه . . فأبى . . فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسا ويخصص للأشراف مجلسا آخر ، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف ، كي يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي ! فهم ﷺ رغبة في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه . فجاءه أمر ربه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) ولقد تقول أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف ، الذين يخصصهم رسول الله ﷺ بمجلسه وبعنايته ؛ وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول الله ﷺ من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام . . ففضى الله سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل ؛ ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضا (ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين) فإن حسابهم على أنفسهم ، وحسابك على نفسك . وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله ، لا شأن لك به . كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به . ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه . فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله ، ولا تقوم بقيمة . . فكنت من الظالمين . . وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون من الظالمين ! وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله ﷺ وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه . وأستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره الله . . عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه ! وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها الله لهؤلاء المتعالمين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطالع بها على البشرية ، مشرقة الأفاق ، مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة ؛ (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) ويرد السياق القرآني على هذا الاستفهام الاستنكاري الذي يطلقه الكبراء (أليس الله بأعلم بالشاكرين) ويمضي السياق يأمر رسول الله ﷺ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسغ عليهم فضل سبقه بالإسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! . . أن يبدأهم بالسلام . . وأن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلاً في معرفته لمن عمل منهم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل: سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فإنه غفور رحيم) وهو التكريم - بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب ، والرحمة في الجزاء ، حتى يجعل الله - سبحانه - الرحمة كتاباً على نفسه للذين آمنوا بآياته ؛ وبأمر رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه . وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعده وأصلحوا - إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملاً لكل سوء يعمله صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح . ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب - أيا كان - والإصلاح بعده ، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة (وكذلك تفصل الآيات ، ولتستبين سبيل المجرمين) ختام هذه الفقرة التي قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول في هذه النصاعة الواضحة . كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف ؛ وفصلت الاعتبارات والقيم التي جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية ؛ والاعتبارات والقيم التي جاءت لتقررها (وكذلك تفصل الآيات) بمثل هذا المنهج ، وبمثل هذه الطريقة ؛ وبمثل هذا البيان والتفصيل . . تفصل الآيات ، التي لا تدع في هذا الحق ريباً ؛ ولا تدع في هذا الأمر غموضاً ؛ ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق ؛ فالحق واضح ، والأمر بين ، وبمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج . . أما ختام هذه الآية القصيرة (ولتستبين سبيل المجرمين) فهو شأن عجيب ! . . إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إن هذا المنهج لا يعني بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعني كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخطب الفاصل يرسم عند مفروق الطريق ! . . (قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) هذه الموجة عودة إلى "حقيقة الألوهية" بعد بيان "حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول" في الموجة السابقة لها في السياق المتلاحم ؛ وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين - كما ذكرنا ذلك في

نهاية الفقرة السابقة . وحقيقة الألوهية في هذه الموجة تتجلى في مجالات شتى ؛ نجملها هنا - قبل تفصيلها في استعراض النصوص القرآنية:

تتجلى في قلب رسول الله ﷺ وهو يجد في نفسه بيئة من ربه ، هو منها على يقين ، لا يزعرعه تكذيب المكذبين . ومن ثم يخلص نفسه لربه ، ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه (قل:إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . قل:إني على بيئة من ربي وكذبتم به . ما عندي ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين).

وتتجلى في حلم الله على المكذبين ، وعدم استجابته لافتراحتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها - كما جرت سنته تعالى - وهو قادر عليه . ولو كان رسول الله ﷺ لا يملك هذا الذي يستعجلون به ، ما أمسكه عنهم ، ولضاق بشريته بهم وبتكذيبهم . فإمهلهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته ، كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته (قل:لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين) .

وتتجلى في علم الله بالغيب ؛ وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع في هذا الوجود ؛ في صورة لا تكون إلا لله ؛ ولا يصورها هكذا إلا الله: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

وتتجلى في هيمنة الله على الناس وقهره للعباد في كل حالة من حالاتهم ، في النوم والصحو ، في الموت والحياة ، في الدنيا والآخرة: (وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين).

وتتجلى في فطرة المكذبين أنفسهم ، حين يواجهون الهول ؛ فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم . . ثم هم مع ذلك يشركون ، وينسون أن الله ، الذي يدعوهم لكشف الضر ، قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد: (قل:من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية:لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل:الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل:هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصراف الآيات لعلمهم يفقهون

(قل:إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . . قل:إني على بيئة من ربي - وكذبتم به - ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله يقص الحق ، وهو خير الفاصلين . قل:لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين) . . تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية ، التي تتمثل في شتى الإيقاعات التي تواجه القلب البشري بحقيقة الألوهية في شتى مجالها . . ومن بين هذه المؤثرات العميقة ، ذلك الإيقاع المتكرر: " قل . . قل . . قل . . " خطابا لرسول الله ﷺ ليلبع عن ربه ، ما يوحيه إليه ؛ وما لا يملك غيره ؛ ولا يتبع غيره ؛ ولا يستوحى غيره (قل:إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذا ، وما أنا من المهتدين) يأمر الله - سبحانه - رسوله ﷺ أن يواجه المشركين بأنه منهي من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا لله . . ذلك أنه منهي عن اتباع أهوائهم - وهم إنما يدعون الذين يدعون من دون الله عن هوى لا عن علم ، ولا عن حق - وأنه إن يتبع أهواءهم هذه يضل ولا يهتدي . فما تقوده أهواؤهم وما تقودهم إلا إلى الضلال . يأمر الله - سبحانه - نبيه ﷺ أن يواجه المشركين هذه المواجهة ، وأن يفصلهم هذه المفاصلة ، كما أمره من قبل في السورة بمثل هذا وهو يقول (أنكم لتشهدون أن مع الله الهة أخرى ؟ قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ، ولقد كان المشركون يدعون رسول الله ﷺ أن يوافقهم على دينهم ، فيوافقوه على دينه ! وأن يسجد لآلهتهم فيسجدوا لإلهه ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكان الشرك والإسلام يجتمعان في قلب ! وكان العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لآلهة ! وهو أمر لا يكون أبدا . فالله أغنى الشركاء عن الشرك وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية ؛ ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره . . في قليل أو كثير . . ومع أن المقصود في الآية أن يواجههم رسول الله ﷺ بأنه منهي عن عبادة أي مما يدعون ويسمون من دون الله ، فإن التعبير ب (الذين) في قوله تعالى (قل:إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يستوقف النظر . فكلمة الذين تطلق على العقلاء . ولو كان المقصود هي الأوثان ، والأصنام ، وما

إليها لعبر ب"ما" بدل (الذين) . فلا بد أن يكون المقصود بالذين نوعا آخر - مع الأصنام والأوثان وما إليها - نوعا من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول (الذين) فغلب العقلاء ، ووصف الجميع بوصف العقلاء . . وهذا الفهم يتفق مع الواقع من جهة ؛ ومع المصطلحات الإسلامية في هذا المقام من جهة ، فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها . ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس . . وهم ما كانوا يشركون الناس إلا في أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد . حيث يسنون لهم السنن ، ويضعون لهم التقاليد ؛ ويحكمون بينهم في منازعاتهم وفق العرف والرأي . . وهنا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية . . فالإسلام يعتبر هذا شركا ؛ ويعتبر أن تحكيم الناس في أمور الناس تأليه لهم ؛ وجعلهم أندادا من دون الله . . وينهى الله عنه نهيه عن السجود للأصنام والأوثان ؛ فكلاهما في عرف الإسلام سواء . . شرك بالله ، ودعوة أنداد من دون الله ! ثم يجيء الإيقاع الثاني موصولا بالإيقاع الأول ومتمما له: (قل:إني على بينة من ربي ؛ وكذبتم به ، ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله ، يقص الحق ، وهو خير الفاصلين وهو أمر من الله - سبحانه - لنبيه ﷺ أن يجهر في مواجهة المشركين المكذبين بربهم - بما يجده في نفسه من اليقين الواضح الراسخ ، والدليل الداخلي البين ، والإحساس الوجداني العميق ، بربه . . ووجوده ، ووحدانيته ، ووحية إليه . وهو الشعور الذي وجده الرسل من ربهم ، وعبروا عنه مثل هذا التعبير أو قريبا منه: قالها نوح - عليه السلام (قال:يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ؟ أنزل مكموها وأنتم لها كارهون ؟) وقالها صالح - عليه السلام قال:يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصبته ؟ فما تزيدوني غير تخسير . وقالها إبراهيم - عليه السلام :- (وحاجه قومه . قال:أتحاجوني في الله وقد هدان ؟) وقالها يعقوب - عليه السلام - لنبيه (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال ألم أقل لكم:إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) . . فهي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب أوليائه ؛ ممن يتجلى الله لهم في قلوبهم ؛ فيجدونه - سبحانه - حاضرا فيها ؛ ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك في أعماقهم تسكب في قلوبهم اليقين بها . وهي الحقيقة التي يأمر الله نبيه أن يجهر بها في مواجهة المشركين المكذبين ؛ الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ما جاءهم به من حقيقة ربه ، الحقيقة التي يجدها هو كاملة واضحة عميقة في قلبه (قل إني على بينة من ربي ، وكذبتم به) كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب ، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله . . وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وأن يفرق فرقانا كاملا بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ وإن يجهر، بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه ؛ فالذي يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إله ، إنما هو رسول (قل لو أن عندي ما تنزلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين) إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء ؛ ولله وحده الحكم والقضاء . فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به ؛ وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به . وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه . وبذلك يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده . فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها ، وهو بشر يوحى إليه ، ليلغ وينذر ؛ لا لينزل قضاء ويفصل . وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به ؛ فهو كذلك الذي يقضي في الأمر ويفصل فيه . . وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله - سبحانه - وخصائصه ، عن نوات العبيد ، ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله ، ومتروك لمشية الله . فلو أن أمر الخوارق - بما فيها إنزال العذاب - في مقدوره - وهو بشر - ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم ، وهم يلحفون هذا الإلحاف . ولكن لأن الأمر بيد الله وحده ، فهو يحلم عليهم ؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر ، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم (قل:لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين) وصدق الله العظيم . . فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر ، وتبلغ منه الروح الحلقوم . . ثم ينظر فيجد الله - سبحانه - يسعهم في ملكه ، ويطعمهم ، ويسقيهم ، ويغلق أحيانا عليهم ، ويفتح عليهم أبواب كل شيء . . وما يجد الإنسان إلا أن يقول قوله أبي بكر - رضي الله عنه - والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ ، حتى ما يعرف له أنف من عين: "رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! " . . فإنما هو حلم الله وحده . . وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ! (والله أعلم بالظالمين) فهو يمهلهم عن علم ، ويملي لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيئهم إلى ما يقترحون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم . . وبمناسبة علم الله - سبحانه - بالظالمين ؛ واستطرادا في بيان حقيقة الألوهية ؛ يحلي هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة . . مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ؛ ويرسل سهامها بعيدة المدى تشير إلى أماده وأفاقه من بعيد (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا في كتاب مبين) إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حي وميت ويابس ورطب . ولكن أين هذا الذي نقوله نحن - بأسلوبنا البشري المعهود -

من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحى؟ إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود. . . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد. وهو يرتاد - أو يحاول أن يرتاد - أستار الغيوب المحتومة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ البعيدة الأمد والآفاق والأغوار. . . مفاتيحها كلها عند الله؛ لا يعلمها إلا هو. . . ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله. ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط. . . إنها جولة تدبر الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آمد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول. . . جولة بعيدة موعلة مترامية الأطراف، يعبا بتصور أمادها الخيال. . . وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات. . . ألا إنه الإعجاز! وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو. . . آمد وآفاق وأغوار في "المجهول" المطلق. في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان. . . (ويعلم ما في البر والبحر). . . آمد وآفاق وأغوار في "المنظور"، على استواء وسعة وشمول. . . تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الأمد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب) وما تسقط من ورقة إلا يعلمها. . . حركة الموت والفناء؛ وحركة السقوط والانحدار، من علو إلى سفلى، ومن حياة إلى اندثار (ولا حبة في ظلمات الأرض) حركة البزوغ والنماء، المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين). . . التعميم الشامل، الذي يشمل الحياة والموت، والأزدهار والذبول؛ في كل حي على الإطلاق. . . فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق؟ ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال؟. . . من ذا الذي يبدع هذا كله، وذلك كله، في مثل هذا النص القصير. . . من؟ ومن علم الله الشامل بمفاتيح الغيب، وبما يجري في جنبات الكون، ينتقل السياق إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل، في ذوات البشر، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية، بعد العلم المحيط (وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى، ثم إليه مرجعكم، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) بضع كلمات أخرى، كالتي رسمت آفاق الغيب وأماده وأغواره، وأشارت إلى مدى العلم الإلهي وشموله في الآية السابقة. . . بضع كلمات أخرى تضم حياة البشرية كلها في قبضة الله - سبحانه - وفي علمه وقدره وتدبيره. . . صحوهم ومنامهم. . . موتهم وبعثهم. حشرهم وحسابهم. . . ولكن على "طريقة القرآن" المعجزة في الإحياء والتشخيص، وفي لمس المشاعر واستجاشتها، مع كل صورة وكل مشهد وكل حركة يرسمها تعبيره العجيب (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فهي الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس؛ هي الوفاة في صورة من صورها بما يعترى الحاس من غفلة، وما يعترى الحس من سهوة، وما يعترى العقل من سكون، وما يعترى الوعي من سبات - أي انقطاع - وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث؛ وإن عرفوا ظواهره. فما أضعف البشر في قبضة الله! (ويعلم ما جرحتم بالنهار) فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك، إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر. . . وهؤلاء هم البشر مراقبين في الحركات والسكنات؛ لا يند عن علم الله منهم شيء، مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار! (ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى) أي يوقظكم في النهار من سباتكم وانقطاعكم؛ لتتم آجالكم التي قضاه الله. . . وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذي قدره الله. لا مهرب لهم منه، ولا منتهى لهم سواه! (ثم إليه مرجعكم) فهي الأوبة إلى الراعي بعد انقضاء المراح! (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) وهكذا تشمل الآية الواحدة، ذات الكلمات المعدودة، ذلك الشريط الحافل بالصور والمشاهد، والمقررات والحقائق، والإحياءات والظلال. . . فمن ذا الذي يملك أن يصنع ذلك؟ وكيف تكون الآيات الخوارق، إن لم تكن هي هذه؛ التي يغفل عنها المكذبون، ويطلبون الخوارق المادية وما يتبعها من العذاب الأليم! . . . ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية. . . لمسة القوة القاهرة فوق العباد. والرقابة الدائمة التي لا تغفل. والقدر الجاري الذي لا يتقدم ولا يتأخر، والمصير المحتوم الذي لا مفر منه ولا مهرب. والحساب الأخير الذي لا ينسى ولا يمهل. . . وكله من الغيب الذي يلف البشر ويحيط بالناس (وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون. ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) (وهو القاهر فوق عباده) فهو صاحب السلطان القاهر؛ وهم تحت سيطرته وقهره. هم ضعاف في قبضة هذا السلطان؛ لا قوة لهم ولا ناصر. هم عباد. والقهر فوقهم. وهم خاضعون له مقهورون. . . وهذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة. . . وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس - مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا، ومن العلم ليعرفوا، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة - إن كل نفس من أنفاسهم بقدر؛ وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه. وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة! (ويرسل عليكم حفظة) لا يذكر النص هنا ما نوعهم. . . وفي مواضع أخرى أنهم ملائكة يحصون على كل إنسان كل ما يصدر عنه. . . أما هنا

فالمقصود الظاهر هو إلقاء ظل الرقابة المباشرة على كل نفس . ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نامة ؛ ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء . . وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري ؛ وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) الظل نفسه ، في صورة أخرى . . فكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه - فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه - بينما هو مرسوم محدد في علم الله ، لا يتقدم ولا يتأخر . وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغلغل ولا يهمل - فهو حفيظ من الحفظة - وهو رسول من الملائكة - فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة - والنفس غافلة مشغولة - أدى الحفيظ مهمته ، وقام الرسول برسالته . . وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري ؛ وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ؛ ويعرف أنه في كل لحظة قد يقبض ، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) مولاهم الحق من دون الألهة المدعاة . . مولاهم الذي أنشأهم ، والذي أطلقهم للحياة ما شاء . . في رقابته التي لا تغفل ولا تفرط . . ثم ردهم إليه عندما شاء ؛ ليقضي فيهم بحكمه بلا معقب (ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين) فهو وحده يحكم ، وهو وحده يحاسب . وهو لا يبطل في الحكم ، ولا يمهل في الجزاء . ولنذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري . فهو ليس متروكا ولو إلى مهلة في الحساب ؛ ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية ؛ وتلتجىء إلى إلهها الحق في ساعة الشدة ؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها في اليسر والرخاء . . في مشهد قصير سريع ، ولكنه واضح حاسم ، وموح مؤثر . إن الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائض ليس مؤجلا دائما إلى يوم الحشر والحساب . فهم يصادفون الهول في ظلمات البر والبحر . فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله . . ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء (قل: من ينجيكم من الكرب إلا الله . . ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء من الشاكرين . قل: الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون) إن تصور الخطر ، وتذكر الهول ، قد يردان النفوس الجامحة ، ويرققان القلوب الغليظة ، ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة ؛ كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر وتدعونه تضربا وخفية: لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة ، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق . . وظلمات البر والبحر كثيرة . وليس من الضروري أن يكون الليل لتتحقق الظلمات . فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب . . وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين . . إن الفطرة تتعري حينئذ من الركام ؛ فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها . . حقيقة الألوهية الواحدة . . وتتجه إلى الله الحق بلا شريك ؛ لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك ، وتترك انعدام الشريك ؛ ويبذل المكروبون الوعود (لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) والله - سبحانه - يقول لرسوله □ ليذكركم بحقيقة الأمر (قل: الله ينجيكم منها ومن كل كرب) . فليس هنالك غيره يستجيب ، ويقدر على دفع الكرب ثم ليذكركم بتصرفهم المنكر العجيب (ثم أنتم تشركون) . . وهنا يواجههم ببأس الله الذي قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هي مرة وتنتهي ، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون (قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) وتصور العذاب الغامر من فوق ، أو النابع من تحت ، أشد وقعا في النفس من تصوره أتيا عن يمين أو شمال . فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال ! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق ، أو يأخذه من تحت ، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل ، لا مقاومة له ولا ثبات معه ! والتعبير الموحى يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه ، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء . ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة الله ؛ والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء ؛ لونا آخر بطينا طويلا ؛ لا ينهي أمرهم كله في لحظة ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار (أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض) . . وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذي يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم ؛ إذ يجعلهم شيعا وأحزابا ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفصل بعضها بعضا ، فهي أبدا في جدال وصراع ، وفي خصومة ونزاع ، وفي بلاء يصبه هذا الفريق على ذلك . وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهد رسل الله جميعا ، صلوات الله عليهم وسلامه (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) والله نسال أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون .

(وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67))
 وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وما على الذين يتقون من حسابهم من

شَيْءٌ وَلَكِنْ ذَكَرْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {69} وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُمْ وَعِزَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرُوا بِهِ أَنْ تَسْبُلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعَ وَإِنْ تَعْلَبْ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُوْخِذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُسْلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {70} قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُورٌ عَلَيْنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىِ إِنَّهُ هُوَ الْهُدَىِ وَأَمْرُنَا لِنَسْلُمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {71} وَإِنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ يَجْسُرُونَ {72} وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {73}

إنها جولة لتقرير المفصلة التي انتهت بها الموجة السابقة ؛ فقوم النبي ﷺ هم الذين كذبوا بما جاءهم به - وهو الحق - ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبت ؛ وأمر أن يفصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ، وأنه يتركهم لمصيرهم الذي لا بد أت ، وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون في الدين ، ويتخذونه لعبا ولهو ، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين ، وأمر - مع ذلك - أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم ، ولكن على أنه وإياهم - وهم قومه - فريقان مختلفان ، وأمتان متميزتان . . فلا قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام . . إنما هو الدين الذي يربط ما بين الناس أو يفصم . . وإنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق . . وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى . . وحين تنفصم هذه العروة تنفصم الروابط والصلات . . وهذه هي الخلاصة المحملة لهذه الموجة من السياق . . والخطاب لرسول الله ﷺ يعطيه ، ويعطي المؤمنين من ورائه ، الثقة التي تملأ القلب بالطمأنينة . . الثقة بالحق - ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب - فما هم بالحكم في هذا الأمر ، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . . وهو يقرر أنه الحق . . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم ! ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبرأ من قومه ، وينفض منهم يده ، وأن يعلنهم بهذه المفصلة ، ويعلمهم أنه لا يملك لهم شيئا ؛ وأنه ليس حارسا عليهم ولا موكلا بهم بعد البلاغ ، ولا مكلفا أن يهدي قلوبهم - فليس هذا من شأن الرسول - ومتى أبلغهم ما معه من الحق ، فقد انتهى بينه وبينهم الأمر ؛ وأنه يخلي بينهم وبين المصير الذي لا بد أن ينتهي إليه أمرهم . . فإن لكل نبأ مستقرا ينتهي إليه ويستقر عنده . . وعندئذ يعلمون ما سيكون ! (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) . . وفي هذا الإجمال من التهديد ما يزلزل القلوب . . إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ؛ الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين في الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير . . فإذا أنهى إليهم هذا البلاغ ، وإذا واجه تكذبيهم بهذه المفصلة . . فإنه ﷺ مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم - حتى للبلاغ والتذكير - إذا رآهم يخوضون في آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغي للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الدين موضعا للعب واللهو ؛ بالقول أو بالفعل ؛ حتى لا تكون مجالسته لهم - وهم على مثل هذه الحال - موافقة ضمنية على ما هم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذي لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه . . فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من قوره وفارق مجلسهم (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره . . وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)

ولقد كان هذا الأمر للرسول ﷺ ويمكن في حدود النص أن يكون أمرا لمن ورائه من المسلمين . . كان هذا الأمر في مكة . . حيث كان عمل الرسول ﷺ يقف عند حدود الدعوة . . وحيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التي أرادها الله في هذه الفترة . . وحيث كان الاتجاه واضحا لعدم الاصطدام بالمشركين ما أمكن . . فكان هذا الأمر بالأمر بالجلوس للنبي ﷺ في مجالس المشركين ؛ متى رآهم يخوضون في آيات الله ويذكرون دينه بغير توقير ، والمسارعة إلى ترك هذه المجالس - لو أنساه الشيطان - بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه . . وكان المسلمون كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . . والقوم الظالمون ، المقصود بهم هنا القوم المشركون . . كما هو التعبير الغالب في القرآن الكريم) وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون (فأما بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة ، فكان للنبي ﷺ شأن آخر مع المشركين . . وكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . حيث لا يجترىء أحد على الخوض في آيات الله ! ثم يكرر السياق المفصلة بين المؤمنين والمشركين ، كما قررها من قبل بين الرسول [ص] وبين المشركين . . ويقرر اختلاف التبعة واختلاف المصير (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون) . .

فليست هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين . . فهما أمتان مختلفتان - وإن اتحدتا في الجنس والقوم فهذه لا وزن لها في ميزان الله ، ولا في اعتبار الإسلام . . إنما المتقون أمة ، والظالمون [أي المشركون] أمة ، وليس على المتقين شيء من تبعة الظالمين وحسابهم . . ولكنهم

إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم . . وإلا فلا مشاركة في شيء ، إذا لم تكن مشاركة في عقيدة ! هذا دين الله وقوله . . ولمن شاء أن يقول غيره . ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول ! ويستمر السياق في تقرير هذه المفصلة ؛ وفي بيان الحدود التي تكون فيها المعاملة (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرثهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها . أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ونقف من الآية أمام عدة أمور:

أولها: أن الرسول ﷺ وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا . . وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل . . فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذ قاعدة حياته اعتقادا وعبادة ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة وقانونا ، إنما يتخذ دينه لعبا ولهوا . . والذي يتحدث عن مبادئ هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافا تدعو إلى اللعب واللهو . كالذين يتحدثون عن "الغيب" - وهو أصل من أصول العقيدة - حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن "الزكاة" وهي ركن من أركان الدين حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة - وهي من مبادئ هذا الدين - بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية ، أو الإقطاعية ، أو "البرجوازية" الزائلة ! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار أو استنكار . والذين يصفون الضمانات التي جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها "أغلال" . . وقبل كل شيء وبعد كل شيء . . الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية . . السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . ويقولون: إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله . . أولئك جميعا من المعنيين في هذه الآيات بأنهم يتخذون دينهم لعبا ولهوا . وبأن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وبأنهم الظالمون - أي المشركون - والكافرون الذين أسبلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم لما كانوا يكفرون . .

وثانيها: أن الرسول ﷺ وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرثهم الحياة الدنيا - أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتعن نفوسهم بما كسبوا ، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولي ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

وللتعبير القرآني جماله وعمقه وهو يقول (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) فكل نفس على حدة تبسل [أي ترتعن وتؤخذ] بما كسبت ، حالة أن ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ولا يقبل منها عدل تفتدى به وتفك الربقة ! فأما أولئك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرثهم الحياة الدنيا فهؤلاء قد ارتهنوا بما كسبوا ؛ وحق عليهم ما سبق في الآية ؛ وكتب عليهم هذا المصير (أولئك الذين أسبلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم: شراب ساخن يشوي الحلق والبطون ؛ وعذاب أليم بسبب كفرهم ، الذي دل عليه استهزاؤهم بدينهم . .

وثالثها: قول الله تعالى في المشركين: (الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) . . فهل هو دينهم ؟ . . إن النص ينطبق على من دخل في الإسلام ، ثم اتخذ دينه هذا لعبا ولهوا . . وقد وجد هذا الصنف من الناس وعرف باسم المنافقين . . ولكن هذا كان في المدينة . . هل هو ينطبق على المشركين الذين لم يدخلوا في الإسلام ؛ إن الإسلام هو الدين . . هو دين البشرية جميعا . . سواء من آمن به ومن لم يؤمن . . فالذي رفضه إنما رفض دينه . . باعتبار أنه الدين الوحيد الذي يعده الله دينا ويقبله من الناس بعد بعثة خاتم النبيين . ولهذا الأضافة دلالتها في قوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) . . فهي - والله أعلم - إشارة إلى هذا المعنى الذي أسلفناه ، من اعتبار الإسلام دينا للبشرية كافة . فمن اتخذ لعبا ولهوا ، فإنما يتخذ دينه كذلك . . ولو كان من المشركين . .

ورابعها: حدود مجالسة الظالمين - أي المشركين - والذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا . . وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير . فليست لشيء وراء ذلك - متى سمع الخوض في آيات الله ؛ أو ظهر اتخاذها لعبا ولهوا بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أو مثلها . .

وقد جاء في قول القرطبي في كتابه: الجامع لأحكام القرآن بصدده هذه الآية:

"في هذه الآية رد من كتاب الله عز وجل ، علي من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم ، لهم أن يخالطوا الفاسقين ، ويصوبوا آراءهم تقية . . ونحن نقول: إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي بينها . أما مخالطة

الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور . لأنه - في ظاهرة - إقرار للباطل ، وشهادة ضد الحق . وفيه تلبيس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة .

هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها ؛ وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ؛ وبمشهد الذي يرجع القهقري مرتداً عن دين الله ؛ وحيرته في التيه بلا اتجاه ؛ وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى . . هذا الإيقاع يختم برنة عالية عميقة مدوية . عن سلطان الله المطلق ، في الأمر والخلق ؛ وعن انكشاف هذا السلطان وتفرد بالظهور - حتى للمنكرين المطموسين - (يوم ينفخ في الصور) ويبعث من في القبور ؛ ويستيقن من لم يكن يستيقن أن الملك لله وحده ، وأن إليه المصير (قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذي استهوته الشياطين في الأرض ، حيران ، له أصحاب يدعوونه إلى الهدى . أنتنا . قل:إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه) (قل) الإيقاع القوي المتكرر في السورة ؛ الذي يوحى بأن هذا الأمر لله وحده ، وأن الرسول ﷺ إنما هو منذر ومبلغ ؛ والذي يوحى بجلال هذا الأمر وعلويته ورهيبته ؛ وأن الرسول ﷺ إنما هو مأمور به من ربه . (قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ؟) قل لهم يا محمد ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا . سواء كان ما يدعوونه وثنا أو صنما ، حجرا أو شجرا ، روحا أم ملكا ، شيطانا أم إنسانا . . فكلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئا ولا يضررون . فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجري بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور . قل لهم مستنكرا دعوة غير الله ، وعبادة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله . وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه . . وسواء كان ذلك ردا على ما كان يقترحه المشركون على النبي ﷺ من مشاركتهم عبادة الألهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكارا مبتدأ لما عليه المشركون ، وإعلانا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبي ﷺ والمؤمنين . . فإن المؤدى في النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذي يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض له في النور ؛ بعيدا عن الموروثات الراسية ، وبعيدا كذلك عن العرف السائد في البيئة ؛ ولتجسيم السخف وتضخيم الاستنكار يعرض هذه المعتقدات في ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذة وحده إلهها ، والديونته له وحده بلا شريك. 1 (قل:أندعوا من

دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ؟ فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراثة ؛ بعد التقدم والارتقاء . ثم هذا المشهد الشاخص المتحرك الموحى المثير (كالذي استهوته الشياطين في الأرض) (. . حيران . . له أصحاب يدعوونه إلى الهدى:أنتنا) . . إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب في التيه . . إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس: (الذي استهوته الشياطين في الأرض) - ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله - ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه ، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد - ولو في طريق الضلال ! - ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعوونه إلى الهدى ، وينادونه (أنتنا) - وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء (حيران) لا يدري أين يتجه ، ولا أي الفريقين يجب ! إنه العذاب النفسي يرتسم ويتحرك ، حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير ! ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هذا النص . . ولكن مجرد تصور . . حتى رأيت حالات حقيقية ، يتمثل فيها هذا الموقف ، ويفيض منها هذا العذاب . . حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه - أي كانت درجة هذه المعرفة وهذا التدقيق - ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة ، تحت قهر الخوف والطمع . . ثم إذا هم في مثل هذا البؤس المرير . . وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة ، وماذا يعني هذا التعبير ! وبينما ظل المشهد الحي الشاخص المتحرك الموحى ، يغمر النفس بالوجل من هذا المصير التعيس . . يأتي التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم (قل:إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه) إنه التقرير الحاسم في الطرف النفسي المناسب ، فالنفس التي ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية ، والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار ، تكون أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم . ثم إنه الحق في ذلك التقرير الحاسم (قل:إن هدى الله هو الهدى) هو وحدة الهدى - كما يفيد التركيب البياني للجملة - وإنه كذلك عن يقين . . وإن البشرية لتخبط في التيه ، كلما تركت هذا الهدى ، أو انحرفت عن شيء منه واستبدلت به شيئا من تصوراتها هي ومقولاتها ، وأنظمتها وأوضاعها ، وشرائعها وقوانينها ، وقيمها وموازينها ، بغير (علم) ولا (هدى) ولا (كتاب منير) . . ومن ثم يستطرد السياق في الآية ليقرر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه: (وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه) قل يا محمد وأعلن أن هدى الله هو الهدى ؛ وأنا - من ثم - أمرنا أن نسلم لرب العالمين . فهو وحده الذي يستسلم له العالمون . فالعالم كلها مستسلمة له ، فماذا الذي يجعل الإنسان وحده - من بين العالمين - يشذ عن الاستسلام لهذه الربوبية

الشاملة التي تستسلم لها العوالم في السماوات والأرضين ؟ إن ذكر الربوبية للعالمين هنا له موضعه . إنه يقرر الحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها وهي استسلام الوجود كله ، وما فيه من عوالم مشهودة ومغيبية ، للنواميس التي وضعها الله لها ؛ وهي لا تملك الخروج عليها ، والإنسان - من ناحية تركيبيه العضوي - يستسلم كذلك لهذه النواميس كرها ، ولا يملك الخروج عليها . فلا يبقى إلا أن يستسلم في الجانب الذي ترك له الخيار فيه لبيتلي فيه ، وهو جانب الاختيار . اختيار الهدى أو الضلال . ولو استسلم فيه استسلام كيانه العضوي ، لاستقام أمره ، وتناسق تكوينه وسلوكه ، وجسمه وروحه ، ودينه وأخرته . وفي إعلان الرسول ﷺ والمسلمين معه ، أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا ، إحياء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقى والاستجابة على مدى الزمان . وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجيء التكاليف التعبدية والشعورية (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين ، وسلطانه وتربيته وتقويمه . ثم تجيء العبادات الشعائرية ؛ وتجيء الرياضات النفسية . . . لتقوم على قاعدة الاستسلام . . . فإنها لا تقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء . وفي الإيقاع الأخير في الفقرة يحشد السياق المؤثرات من الحقائق الأساسية في العقيدة: حقيقة الحشر . وحقيقة الخلق . وحقيقة السلطان . وحقيقة العلم بالغيب والشهادة . وحقيقة الحكمة والخبرة . . . من خصائص الألوهية ، التي هي الموضوع الرئيسي في هذه السورة (وهو الذي إليه تحشرون . وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق . ويوم يقول: كن فيكون . قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ في الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير) (وهو الذي إليه تحشرون إن الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب . . . فهو الذي إليه تحشرون الخلائق . . . فأولى لهم أن يقدموا بين يدي الحشر - الحتمي - ما ينجيهم ؛ وأولى لهم أن يستسلموا اليوم له استسلام العالمين ؛ قبل أن يقفوا أمامه مسؤولين . . . وكذلك يصبح تصور هذه الحقيقة - حقيقة الحشر - موحيا بالاستسلام في المبدأ ، ما دام أنه لا مفر من الاستسلام في المصير !) وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق) وهذه حقيقة أخرى تحشد كمؤثر آخر . . . فالله الذي يؤمرون بالاستسلام له هو الذي خلق السماوات والأرض - والذي يخلق يملك ويحكم ويقضي ويتصرف - ولقد خلق السماوات والأرض (بالحق) . فالحق قوام هذا الخلق . . . فضلا عما يقرره هذا النص من نفي الأوهام التي عرفتها الفلسفة عن هذا الكون - وبخاصة الأفلاطونية والمثالية - من أن هذا العالم المحسوس وهم لا وجود له على الحقيقة ! - فضلا على تصحيح مثل هذه التصورات ، فإن النص يوحي بأن الحق أصيل في بنية هذا الكون ، وفي مآلاته كذلك . فالحق الذي يلوذ به الناس يستند إلى الحق الكامن في فطرة الوجود وطبيعته ، فيؤلف قوة هائلة ، لا يقف لها الباطل ، الذي لا جنور له في بنية الكون ، وإنما هو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . وكالزبد يذهب جفاء ، إذ لا أصالة له في بناء الكون . . . كالحق . . . وهذه حقيقة ضخمة ، ومؤثر كذلك عميق . . . إن المؤمن الذي يشعر أن الحق الذي معه - هو شخصيا وفي حدود ذاته - إنما يتصل بالحق الكبير في كيان هذا الوجود . [وفي الآية الأخرى: (ذلك بأن الله هو الحق)] فيتصل الحق الكبير الذي في الوجود بالحق المطلق في الله سبحانه . . . إن المؤمن الذي يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل ، لا يرى في الباطل - مهما تضخم وانتفخ وطغى وتجبر وقدر على الأذى المقدر - إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود ؛ لا جذور لها ولا مدد ؛ تنفثى من قريب ، وتذهب كأن لم تكن في هذا الوجود (وله الملك يوم ينفخ في الصور)

ففي هذا اليوم يوم الحشر . . . يوم ينفخ في الصور [هو القرن المجوف كالبوبق] وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ؛ بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهي من غيب الله الذي احتفظ به . والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له ، والروايات المأثورة ؛ تقول: هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور ، حيث يهبون للنشور - وهذه هي النفخة الثانية - أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض - إلا من شاء الله - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) . وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا - عن يقين - أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه . . . وهو من ثم غيب من غيب الله . . . نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا يقين . إنما هي الظنون ! في هذا اليوم الذي ينفخ فيه في الصور يبرز - حتى للمنكرين - ويظهر - حتى للمطموسين - أن الملك لله وحده ، وأنه لا سلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته . . . فأولى لمن يابون الاستسلام له في الدنيا طانعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور (عالم الغيب والشهادة) الذي يعلم ذلك الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود . والذي لا تحفي عليه خافية من أمر العباد ، ولا يند عنه شأن من شؤونهم . . . فأولى لهم أن يسلموا له ويعبدوه ويتقوه . وهكذا تذكر هذه الحقيقة لذاتها ، وتتخذ مؤثرا موحيا في مواجهة المكذبين والمعارضين (وهو الحكيم الخبير) يصرف أمور الكون الذي خلقه ، وأمور العباد الذين يملكهم في الدنيا والآخرة بالحكمة والخبرة . . . فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه ،

ويسعدوا بأثار حكمته وخبرته . ويفيئوا إلى هداه وحده . ويخرجوا من التيه ، ومن الحيرة ، إلى ظلال الحكمة والخبرة ، وإلى كنف الهدى والبصيرة . .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أُنْتَخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {74} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {75} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ {76} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {77} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ {78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {79} وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ {80} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {81} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {82} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {83} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدِينَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذَرَيْتَهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {84} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ {85} وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {86} وَمَنْ أَبَاتْنَاهُمْ وَذَرَيْنَاهُمْ وَخَوَّانَهُمْ وَاجْتَنَبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {87} ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {88} أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ {89} أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ آفَقْتَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {90} وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلْبَاسِ لِيَجْعَلُوهُ قِرْطَاسٍ يُنَادُونَهَا لِقَافُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {91} وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنِ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ {92} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَحَرَّى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تكفون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون {93} ولقد جتثمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم تزعمون) {94}

هذا الدرس بطوله لحمه واحدة ؛ يتناول موضوعا متصل الفقرات . . إنه يعالج الموضوع الأساسي في السورة - وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وما بينهما من ارتباطات - ولكنه يعالجه في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة . . يعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه . . مع استصحاب المؤثرات الموحية التي تزخر بها السورة ؛ ومنها مشهد الاحتضار الكامل السمات ؛ وذلك كله في نفس طويل رتيب يتوسط الموجات المتلاحقة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . . والدرس - في جملة - يعرض موكب الإيمان المتواصل منذ نوح - عليه السلام ، إلى محمد ﷺ وفي مطلع هذا الموكب يستعرض حقيقة الألوهية - كما تتجلى في فطرة عبد من عباد الله الصالحين - إبراهيم عليه السلام - ويرسم مشهدا رائعا حقا للظفرة السليمة ، وهي تبحث عن إلهها الحق ، الذي تجده في أعماقها ، بينما هي تصطم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها . إلى أن يخلص لها تصور حق ، يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ما تحده في أطوائها من برهان داخلي هو أقوى وأثبت من المشهود المحسوس ! ذلك حين يحكي السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق ، واطمئنانه إلى ما وجده في قلبه منه (وحاجه قومه . قال:أتحاجوني في الله وقد هدان . ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، أفلا تتذكرون ؛ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟) ثم يمضي السياق مع موكب الإيمان المتواصل ؛ يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور ؛ حيث يبدو شرك المشركين وتكذيب المكذبين لغوا لا وزن له ، يتناثر على جانبي الموكب الجليل ، الماضي في طريقه المتواصل . وحيث يلنح مع أوله ؛ فيؤلف الأمة الواحدة ، يقتي آخرها بالهدى الذي أهدى به أولها ، دون اعتبار لزمان أو مكان ؛ ودون اعتبار لجنس أو

قوم ، ودون اعتبار لنسب أو لون . . فالحبل الموصول بين الجميع هو هذا الدين الواحد الذي يحمله ذلك الرهط الكريم . إنه مشهد رائع كذلك ؛ يبدو من خلال قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد استعراض الموكب العظيم: (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبها هم آقده . قل: لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى للعالمين) وبعد استعراض هذا الموكب الجليل يجيء التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلا ، ولم ينزل على بشر كتابا . . إنهم لم يقدروا الله حق قدره . فما قبر الله حق قبره من يقول: إنه - سبحانه - تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور . فما يليق هذا بالوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته . . إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلا ، وأن ينزل على بعض الرسل كتابا ، ليحاولوا جميعا هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاد فطرتها من الركام الذي يرين عليها ، ويغلق منافذها ، ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها ويضرب مثلا الكتاب الذي أنزل على موسى . وهذا الكتاب الذي يصدق ما بين يديه من الكتب جميعا . وينتهي الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفترى على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله . . وهي الدعاوى التي كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحي وفيهم من ادعى النبوة . وفي الختام يجيء مشهد الاحتضار المكروب (للمشركين) ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون ! (وهو مشهد كئيب مكروب رعب ؛ يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب . جزاء الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر: أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك في ضلال مبين . . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين . . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال: هذا ربي ، فلما أفل قال: لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي ، فلما أفل قال: لنن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال: يا قوم إنى بري مما تشركون . إنى وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين (إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يرسمه السياق القرآني في هذه الآيات . . مشهد الفطرة وهي - للوهلة الأولى - تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها . وهي تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة في شوق عميق دافق تبحث عن إلها الحق ، الذي تجده في ضميرها ، ولكنها لا تتبينه في وعيها وإدراكها . وهي تتعلق في لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله ! حتى إذا اختبرته وجدته زائفا ، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته . . ثم وهي تجد الحقيقة تشرق فيها وتتجلي لها . وهي تنطلق بالفرحة الكبرى ، والامتلاء الجياش ، بهذه الحقيقة ، وهي تعلن في جيشان اللغيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت إليها بوعيتها للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها ! . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يتجلى في قلب إبراهيم - عليه السلام - والسياق يعرض التجربة الكبرى التي اجتازها في هذه الآيات القصار . . إنها قصة الفطرة مع الحق والباطل . وقصة العقيدة كذلك يصدع بها المؤمن ولا يخشى فيها لومة لائم ؛ ولا يجامل على حسابها أبا ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوما . . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الحاسمة الصريحة (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر: أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك في ضلال مبين) إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم . إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه - إلى إلهة - ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة - وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم - فالإله الذي يعبد ، والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء ، والذي خلق الناس والأحياء . . هذا الإله في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما من حجر ، أو وثنا من خشب . . وإذا لم تكن هذه الأصنام هي التي تخلق وترزق وتسمع وتستجيب - وهذا ظاهر من حالها للعيان - فما هي بالتي تستحق أن تعبد ؛ وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد ! وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم - عليه السلام - للوهلة الأولى . وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها . . ثم هي النموذج الكامل للفطرة وهي تواجه الضلال البين ، فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع ، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة (أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك في ضلال مبين) كلمة يقولها إبراهيم - عليه السلام - لأبيه . وهو الأواه الحليم الرضي الخلق السمح اللين ، كما ترد أوصافه في القرآن الكريم . ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق روابط الأبوة والنبوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا . . وكذلك استحق إبراهيم - عليه السلام - بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون ، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين) بمثل هذه الفطرة السليمة ، وهذه البصيرة المفتوحة ؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق ، ومن إنكار الباطل في قوة . نرى إبراهيم حقيقة هذا الملك . . ملك السماوات والأرض . . ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون ، ونكشف له عن الآيات المبتوثة في صحائف الوجود ، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب . لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة ، إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال: هذا ربي ، فلما أفل قال: لا أحب الأفلين) إنها صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك - بل الإنكار الجازم - لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام . وقد باتت قضية العقيدة هي التي تشغل باله ، وتزحم عالمه . . صورة يزيد بها التعبير شخوصا بقوله: (فلما جن عليه الليل) . . كأنما الليل يحتويه وحده ، وكأنما يعزله عن الناس حوله ، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته ، ومع همه الحديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال: هذا ربي) وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم - كما أسلفنا - فلما أن يئس من أن يكون إله الحق - الذي يجده في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية - صنما من تلك الأصنام ، فأعله رجا أن يجده في شيء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة ! وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم . وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكبا . . ولكن الكوكب - الليلة - ينطق له بما لم ينطق من قبل ، ويوحى إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله ، ويزحم عليه عالمه: (قال: هذا ربي) فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب - من الأصنام - إلى أن يكون ربا ! . . ولكن لا ! إنه يكذب ظنه: (فلما أفل قال: لا أحب الأفلين) إنه يغيب . . يغيب عن هذه الخلائق . فمن ذا برعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها . . إذا كان الرب يغيب ! لا ، إنه ليس ربا ، فالرب لا يغيب ! إنه منطق الفطرة البديهي القريب . . لا يستشير القضايا المنطقية والفروض الجدلية ، إنما ينطلق مباشرة في بسر وجزم . لأن الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق (لا أحب الأفلين) فالصلة بين الفطرة والهها هي صلة الحب ؛ والأصرة هي أصرة القلب . . وفطرة إبراهيم "لا تحب" الأفلين ، ولا تتخذ منهم إلهًا . إن الإله الذي تحبه الفطرة . . لا يغيب . . ! (فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي . فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين) إن التجربة تتكرر . وكان إبراهيم لم ير القمر قط ؛ ولم يعرف أن أهله وقومه يعبدونه ! فهو الليلة في نظره جديد (قال: هذا ربي) بنوره الذي ينسكب في الوجود ؛ وتقرده في السماء بنوره الحبيب . . ولكنه يغيب ! . . والرب - كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه - لا يغيب ! هنا يحس إبراهيم أنه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته . ربه الذي يحبه ، ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه . . ويحس أنه ضال مضيع إن لم يدرکه ربه بهدایته . إن لم يمد إليه يده . ويكشف له عن طريقه: (قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين) (فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي . هذا أكبر . فلما أفلت قال: يا قوم إنني بريء مما تشركون . إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين) إنها التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءا وحرارة . . الشمس . . والشمس تطلع كل يوم وتغيب . ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنها خلق جديد . إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به ويطمئن إليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل (قال: هذا ربي . هذا أكبر) ولكنها كذلك تغيب . هنا يقع التماس ، وتنطلق الشرارة ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعي . . هنا يجد إبراهيم إلهه . . يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره . . هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري المكون والتصور العقلي الواضح . . وهنا يجد إبراهيم إلهه . ولكنه لا يجده في كوكب يلمع ، ولا في قمر يطلع ، ولا في شمس تسطع . . ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس . . إنه يجده في قلبه وفطرته ، وفي عقله ووعيه ، وفي الوجود كله من حوله . . إنه يجده خالقا لكل ما تراه العين ، ويحسه الحس ، وتدرکه العقول . وعندئذ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة ؛ ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك - وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ؛ ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة - وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك) قال: يا قوم إنني بريء مما تشركون . إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . . فهو الاتجاه إلى فاطر السماوات والأرض . الاتجاه الحنيف الذي لا ينحرف إلى الشرك . وهي الكلمة الفاصلة ، واليقين الجازم ، والاتجاه الأخير . . فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التي في الضمير . . ومرة أخرى نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر . . مشهد العقيدة وقد استعلنت في النفس ، واستولت على القلب ، بعدما وضحت وضوحها الكامل وانجلى عنها الغبش . . نشهدها وقد ملأت الكيان الإنساني ، فلم يعد وراءها شيء . وقد سكبت فيه الطمأنينة الواثقة بربه الذي وجدته في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله . . وهو مشهد يتجلى بكل روعته وبهائه في الفقرة التالية في السياق . لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله - سبحانه - في ضميره وعقله وفي الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله . وقد أحس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق . . والان يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح

له صدره من توحيد ؛ وليخوفوه ألتهم التي تنكر لها أن تنزل به سوء . . وهو يواجههم في يقينه الجازم ؛ وفي إيمانه الراسخ ؛ وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذي هداه (وحاجه قومه ، قال:أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما . أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟) إن الفطرة حين تتحرف تضل ؛ ثم تتمادى في ضلالها ، وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء ، حتى ليصعب عليها أن تثوب . . وهؤلاء قوم إبراهيم - عليه السلام - يعبدون أصناما وكواكب ونجوما . فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التي تمت في نفس إبراهيم . ولم يكن هذا داعيا لهم لمجرد التفكير والتدبر . بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه . وهم على هذا الوهن الظاهر في تصوراتهم وفي ضلال مبين . ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله في قلبه وعقله وفي الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكرا في طمأنينة ويقين (قال:أتحاجوني في الله وقد هدان ؟) أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي ، ويفتح بصيرتي ، ويهديني إليه ، ويعرفني به . . لقد أخذ بيدي وقادني فهو موجود - وهذا هو في نفسي دليل الوجود - لقد رأيته في ضميري وفي وعيي ، كما رأيته في الكون من حولي . فما جدالكُم في أمر أنا أجده في نفسي ولا أطلب عليه الدليل . فهديته لي إليه هي الدليل ؟! (ولا أخاف ما تشركون به) وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة - غير قوة الله - هزيلة وكل سلطان - غير سلطان الله - لا يخاف ؟! ولكن إبراهيم في عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكنا إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل (إلا أن يشاء ربي شيئا . وسع ربي كل شيء علما) . فهو بكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته ؛ ويعلم أنه لا يخاف من ألتهم شيئا ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله ، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء (وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟).

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قميننا بالخوف فليس هو إبراهيم - وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق - وكيف يخاف آلهة عاجزة - كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتي تتبدى أحيانا في صورة جبارين في الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون ! - كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطانا ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأي الفريقين أحق بالأمن ؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء ؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ؟ أي الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شيء من العلم والفهم ؟! هنا يتنزل الجواب من الملائكة الأعلى ؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركا في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه . هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) . . ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدهض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه . ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه . . وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه ، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة . . لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجتهم ، وعلت حجته ، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة . . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات . متصرفا في هذا بحكمته وعلمه (إن ربك حكيم عليم)

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82)) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِن يُكْفَرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِكَافِرِينَ (89)) وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبيا رسولا - غير نوح وإبراهيم - وإشارة إلى آخرين (من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) والتعقيبات على هذا الموكب: (وكذلك نجزي المحسنين) وكلا فضلنا على العالمين . . (واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) . . وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهديته إلى الطريق المستقيم . وذكر هذا الرهط على هذا النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة ،

كله تمهيد للتقريرات التي تليه (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وهذا تقرير لينايع الهدى في هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذي يجب أتباعه ، في هذا المصدر الواحد ، الذي يقرر الله - سبحانه - أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده . . ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداية ، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقى ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي ان يذهب ضياعا ، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نباتا مسموما فتنتفخ ثم تموت . . وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط ! (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) . .

وهذا هو التقرير الثاني . . فقرر في الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل . وقرر في الثاني أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة - (والحكم) يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك - وكلا المعنيين محتمل في الآية . فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى ، والزبور مع داود ، والإنجيل مع عيسى . وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان - وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله ، وأن الدين الذي جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور . فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط ، كما جاء في الآيات الأخرى . وكلهم أوتي الحكمة وأوتي النبوة . . وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ، ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه . . فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب (هؤلاء) فإن دين الله غني عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين ! . . إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ؛ ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول ؛ وأمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية ؛ بما يعلمه من استحقاقه للهداية ! . . وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، وفي قلوب العصابة المسلمة - أيا كان عددها - إن هذه العصابة ليست وحدها . ليست مقطوعة من شجرة ! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وحلقة في موكب جليل موصول ، موصولة أسبابه بالله وهداه . . إن المؤمن الفرد ، في أي أرض وفي أي جبل ، قوي قوي ، وكبير كبير ، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الأنساني ، وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل: لا أسألكم عليه أجرا . إن هو إلا ذكرى للعالمين) وهو التقرير الثالث . . فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله . وهداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به . فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه . وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به . . قائلا لمن يدعوهم (لا أسألكم عليه أجرا) (إن هو إلا ذكرى للعالمين) للعالمين . . لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد ، إنه هدى الله لتذكير البشر كافة . ومن ثم فلا أجر عليه بتقاضاه . وإنما أجره على الله ! ثم يمضي السياق يندد بمنكري النبوات والرسالات ، ويصمهم بأنهم لا يقدرون الله قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله . وقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجري على سنة الرسالات قبلها ؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب . . مما يتفق مع ظل الموكب الذي سبق عرضه ويتناسق (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء . قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبؤكم ؟ قل: الله . ثم ذرهم في حوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون) لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون: إن الله لم يرسل رسولا من البشر ؛ ولم ينزل كتابا يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ؛ ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى - عليه السلام - إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا برسالة محمد ﷺ لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: ما أنزل الله على بشر من شيء ؛ كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء) وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم ، بقوله أمثالهم في كل زمان ؛ ومنهم الذين يقولونه الآن ؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم . لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم ، كالوثنيات كلها قديما وحديثا ، ترتقي وتتحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم ، ولكنها تظل خارج دين الله كله . وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى ؛ جاء بها كل رسول ؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها ، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد ، بذات الدين الواحد الموصول . وهذا القول يقوله - قديما أو حديثا - من لا يقدر الله حق قدره ؛ ومن لا يعرف

كرم الله وفضله ، ورحمته وعدله . . إنهم يقولون: إن الله لا يرسل من البشر رسولا ولو شاء لأنزل ملائكة ! كما كان العرب يقولون . أو يقولون: إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعني بالإنسان "الضئيل" في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض ! بحيث يرسل له الرسل ؛ وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير ! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث ! أو يقولون: إنه ليس هناك من إله من وحي ولا من رسل . . إنما هي أوهام الناس أو خبايا بعضهم لبعض باسم الدين ! كما يقول الماديون الملحدون ! وكله جهل بقدر الله - سبحانه - فالله الكريم العظيم العادل الرحيم ، العليم الحكيم . . لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده ، وهو خلقه ، وهو يعلم سره وجهره ، وطاقاته وقواه ، ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره ، وأقواله وأعماله ، وأوضاعه ونظامه ، ليرى إن كانت صوابا وصلاحا ، أو كانت خطأ وفسادا . . ويعلم - سبحانه - أن العقل الذي أعطاه له ، يتعرض لضغوط كثيرة من شهوته ونزواته ومطامعه ورغباته ، فضلا على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلا بتصور الوجود تصورا مطلقا ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة . فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله ؛ فتنشئ له تصورا سليما للوجود والحياة . . ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده ، ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة لدنية بربها الحق ، وشوق إليه ، وليأذ به في الشدائد . . فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخلية وخارجية ، وبسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجن والإنس ، بكل ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير . . إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفاتها ، وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها . . وهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله ، ورحمته وعدله ، وحكمته وعلمه . . فما كان ليخلق البشر ، ثم يتركهم سدى . . ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . . فتقدير الله حق قدره يقتضي الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستقذون فطرتهم من الركام ، ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط ، والانطلاق للنظر الخالص والتبصر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله ، وأنزل على بعضهم كتابا تبقى بعدهم في قومهم إلى حين - ككتب موسى وداود وعيسى - أو تبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن . ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب في الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحي ؛ بتلك الحقيقة (قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا - وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) فبيدوا منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع ، والتلاعب بالاحكام والفرائض ؛ ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة ! مما كان العرب يعلمون بعضه وما أخبرهم الله به في هذا القرآن من فعل اليهود . . فهذا خبر عن اليهود معترض في سياق الآية لا خطابا لهم . . والآية على هذا مكية لا مدنية . . ونحن نختار ما اختاره ابن جرير . فقل لهم يا محمد: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكرية ! كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعملون ؛ فكان حقا عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه . ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله ﷺ أن يحسم القول معهم في هذا الشأن ؛ ألا يجعله مجالا لجدل لا يثيره إلا اللجاج (قل: الله . ثم نرهم في خوضهم يلعبون) قل: الله أنزله . . ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم ، ودعهم يخوضون لاهين لاعبين . وفي هذا من التهديد ، قدر ما فيه من الاستهانة ، قدر ما فيه من الحق والجد ؛ فحين يبلغ العبت أن يقول الناس مثل ذلك الكلام ، يحسن احترام القول وحسم الجدل وتوفير الكلام ! ويمضي السياق يحكي شيئا عن الكتاب الجديد ، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله . فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعا من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والذين يؤمنون بالأخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون) إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الله عليهم الكتب . وهذا الكتاب الجديد ، الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك . . وصدق الله . . فإنه والله لمبارك . . مبارك بكل معاني البركة . . إنه مبارك في أصله . باركه الله وهو ينزله من عنده . ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل . . قلب محمد الطاهر الكريم الكبير . . ومبارك في حجمه ومحتواه . فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر ؛ ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه ! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر ؛ وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات ، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير ، أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية . وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز - ولا في أضعاف أضعافه -

عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات ! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئا متفردا لا نظير له في كلام البشر . . . وإنه لمبارك في أثره . وهو يخاطب الفطرة والكيونة البشرية بجمليتها خطابا مباشرا عجيبا لطيف المدخل ؛ ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل . ذلك أن به من الله سلطانا . وليس في قول القائلين من سلطان ! (مصداق الذي بين يديه) فهو يصدق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله - في صورتها التي لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت: إنه من عند الله - هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة . أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، في حدود العقيدة الكبرى في الله . والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون: إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء . . . وهم يقصدون الثناء على الإسلام ! . . . هؤلاء لا يقرؤون القرآن ! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يقرر أن جميع رسله - صلوات الله عليهم وسلامه - جاءت بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صورته . . . وأنهم جميعا أخبروا الناس بحقيقة الرسول ، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا يعلم غيبا ، ولا يبسط أو يقبض رزقا . . . وأنهم جميعا أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء . . . وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاءت بها كل رسول . . . وصدق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله . . . إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوروبية . التي تزعم أن أصول العقيدة - بما فيها العقائد السماوية - قد تطورت وترقت ، بتطور الأقوام وترقيتها ! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن ! فليحذر الكتاب والقارئون هذا المزلق الخطير !!! فاما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكي ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة - أم القرى - وما حولها (ولتندر أم القرى ومن حولها) وسميت مكة أم القرى ، لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك ؛ وجعله مثابة أمن للناس وللأحياء جميعا ؛ ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض ؛ ولم تكن دعوة عامة من قبل ؛ وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة ، ليعودوا إلى البيت الذي خرجت منه الدعوة ! وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها . فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمدا ﷺ ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها . وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه ؛ فتوسع في الجزيرة كلها ، ثم هم أن يتخطاها . . . لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة ، وقيام دولته بها ! . . . وكذبوا . . . ففي القرآن المكي ، وفي أوائل الدعوة ، قال الله سبحانه لرسوله ﷺ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء: 107] . . . (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) [سبأ: 28] ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء) ! والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلواتهم يحافظون) فالذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحسابا وجزاء ، يؤمنون بأن الله لا بد مرسل للناس رسولا يوحى إليه ؛ ولا يجنون في نفوسهم مشقة في التصديق به ؛ بل إنهم ليجدون داعيا يدعوهم إلى هذا التصديق . كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلواتهم ، ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله ؛ وليقوموا بطاعته ممثلة في الصلاة . . . فهي طبيعة نفس . . . متى صدقت بالآخرة واستيقنتها ، صدقت بهذا الكتاب وتنزيله ، وحرصت على الصلة بالله وطاعته . . . وملاحظة نماذج النفوس البشرية تصدق في الواقع هذا الكلام الصادق بذاته . ويختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد حي شاخص متحرك مكروب رعيب . . . مشهد الظالمين . . . [رأي المشركين] الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له . أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . . مشهد هؤلاء الظالمين - الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا ظلم - وهم في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم . والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شيء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال: أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ، ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم: أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد قطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون) والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين [أي المشركين] مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته - ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب - والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم: أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون) وجزاء الاستكبار العذاب المهين ، وجزاء الكذب على الله هذا

التأنيب الفاضح . . وكله مما يضي على المشهد ظلالاتا مكروبة ، تأخذ بالخنق من الهول والكآبة والضييق ! ثم في النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذي كذبوا عليه ، وها هم أولاء بين يديه ، يواجههم في موقف الكربة والضييق (ولقد جنتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة)! فما معكم إلا ذواتكم مجردة ؛ ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفرادا لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفرادا ، ينزل أحداكم من بطن أمة فردا عريان مجرد غلبان ! ولقد ند عنكم كل شيء ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عنتم تقدرتون على شيء مما ملككم الله إياه ؛ (وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم) . . تركتم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ، ولا تقدرتون منه على قليل أو كثير ! (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) . . هؤلاء الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم في الشدائد ، وكنتم تشركونهم في حياتكم وأموالكم ، وتقولون: إنهم سيكونون عند الله شفعاءكم [كالذين كانوا يقولون: (ما تعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى!)] سواء كانوا ناسا من البشر كهانا أو ذوي سلطان ؛ أو كانوا تماثيل من الحجر ، أو أوثانا ، أو جنا أو ملائكة ، أو كواكب أو غيرها مما يرمزون به إلى الآلهة الزائفة ، ويجعلون له شركا في حياتهم وأموالهم وأولادهم كما سيجيء في السورة فأين ؟ أين ذهب الشركاء والشفعاء ؟ (لقد تقطع بينكم) تقطع كل شيء . كل ما كان موصولا . كل سبب وكل حبل ! (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وغاب عنكم كل ما كنتم تدعون من شتى الدعاوى . ومنها أولئك الشركاء ، وما لهم من شفاعنة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب ! إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هذا عنيفا . وهو يشخص ويتحرك ؛ ويلقي ظلالة على النفس ، ويسكب إحياءاته في القلب ، ظلالة الرعيبة المكروبة ، وإحياءاته العنيفة المرهوبة . . إنه القرآن . . إنه القرآن . .

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَى تَوْفِكُونَ {95} فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حِسَابًا ذَلِكِ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {96} وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرَ قَدْ فُضِّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {97} وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فُضِّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ {98} وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {99} وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ تَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ {100} بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {101} ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {102} لَا تَدْرِكُهُ الْبَصِيرَةُ وَهُوَ بِرُكِّ الْإِبْصَارِ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {103} قَدْ جَاءَكُمْ بُصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ {104} وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {105} اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ {106} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ {107} وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {108} وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ {109} وَنَقَلِبْ أَعْيُنَهُمْ وَابْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرَهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {110} وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ } {111}

وبعد فنحن - في هذا الدرس - أمام كتاب الكون المفتوح ، الذي يمر به الغافلون في كل لحظة . فلا يقفون أمام خوارقه وآياته ، ويمر به المطموسون فلا تتفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه . . وها هو ذا النسق القرآني العجيب يرتاد بنا هذا الوجود ، كأنما نهبط إليه للحظة ، فيقفنا أمام معالمه العجيبة ، ويفتح أعيننا على مشاهد الباهرة ، ويثير تطلعننا إلى بدائعه التي يمر عليها الغافلون غافلين ! والجمال هو السمة البارزة هنا . . الجمال الذي يبلغ حد الروعة الباهرة . . المشاهد منتقاة وملنقطة من الزاوية الجمالية . والعبارات كذلك في بنائها اللفظي الإيقاعي ، وفي دلالتها . والمدلولات أيضا - على كل ما تزخر به الحقيقة الأصيلة في هذه العقيدة - تتناول هذه الحقيقة من الزاوية الجمالية . . فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنما تتلأأ في بهاء !

ها هو ذا يقفنا أمام الخارقة المعجزة التي تقع في كل لحظة من الليل والنهار . . خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذا الموات الهامد . . لا ندري كيف انبثقت ، ولا ندري من أين جاءت - إلا أنها جاءت من عند الله وانبثقت بقدر من الله . لا يقدر بشر على إدراك كنهها بله ابتداعها !

وها هو ذا يقف بنا أمام دورة الفلك العجيبة . . الدورة الهائلة الدائبة الدقيقة . . وهي خارقة لا يعدلها شيء مما يطلبه الناس من الخوارق . . وهي تتم في كل يوم وليلة . بل تتم في كل ثانية ولحظة . .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة البشرية . . من نفس واحدة . . وأمام تكاثرها بتلك الطريقة .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة في النبات . . وأمام مشاهد الأمطار الهاطلة ، والزرع النامية ، والثمار البانعة . وهي حشد من الحيوانات والمشاهد ، ومجال للتأمل والريادة . لو نشاهدها بالحس المتوفّر وألّقت القلب المتفتح .

وها هو ذا الوجود كله ، جديدا كأنما نراه أول مرة . حيا يعاطفنا ونعاطفه ، متحركا تدب الحركة في أوصاله ، عجيبا يشده الحواس والمشاعر . ناطقا بذاته عن خالقه . دالا بآياته على تفرده وقدرته . .

وعندئذ يبدو الشرك بالله - والسباق بواجه الشرك والمشركين بهذا الاستعراض - غريبا غريبا على فطرة هذا الوجود وطبيعته . وشأنها شأنها في ضمير من يشاهد هذا الوجود الحافل بدلائل الهدى ويتأمله . وتسقط حجة الشرك والمشركين ، في مواجهة هذا الإيمان الغامر في مجالي الوجود العجيب . .

والمناهج القرآني - في خطاب الكينونة البشرية بحقيقة الألوهية ؛ وفي بيانه لموقف العبودية منها ؛ يجعل حقيقة الخلق والإنشاء للكون ، وحقيقة الخلق والإنشاء للحياة ، وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذي ييسره لها الله في ملكه ، وحقيقة السلطان الذي يخلق ويرزق ويتصرف في عالم الأسباب بلا شريك . . يجعل من هذه الحقائق مؤثرا موحيا . وبرهانا قويا على ضرورة ما يدعو إليه البشر: من العبودية لله وحده ، وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحده . . وكذلك يجيء في السياق - بعد استعراض صفحة الوجود ؛ وانكشاف حقيقة الخلق والإنشاء والرزق والكفالة والسلطان - الدعوة إلى عبادة الله وحده ، أي إلى إفراده سبحانه بالألوهية وخصائصها ، في حياة العباد كلها ؛ وجعل الحاكمية والتحاكم إليه وحده في شؤون الحياة كافة ، واستنكار ادعاء الألوهية أو إحدى خصائصها .

وكذلك نجد في هذا الدرس قوله تعالى: (ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل) . . نموذجا للمنهج القرآني في ربط العبادة الخالصة ، بإفراد الألوهية لله وحده ، مع تقرير أنه - سبحانه - (خالق كل شيء) (وهو على كل شيء وكيل)

وفي نهاية الدرس - وبعد عرض هذه الآيات في صفحة الوجود كله - يكشف عن تفاهة طلب الخوارق ، كما يكشف عن طبيعة المكذبين المعاندة ، التي لا تتخلف عن الإيمان لنقص في الآيات والدلائل ؛ ولكن لطبع فيها

(إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله فأنى توفكون ؟) إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد ؛ فضلا على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة نشأة وحركة . . وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية ، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة في الحبة والنواة ، النامية في النبتة والشجرة ، سر مكنون ، لا يعلم حقيقته إلا الله ؛ ولا يعلم مصدره إلا الله . . وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية في طريقها . والمعجزة تقع في كل لحظة !!! ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت . فقد كان هذا الكون - أو على الأقل كانت هذه الأرض - ولم يكن هناك حياة . . ثم كانت الحياة . . أخرجها الله من الموات . كيف ؟ لا ندري ! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة - عن طريق الأحياء - إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية ؛ وتتحول - وأصلها ذرات ميتة - إلى خلايا حية . . والعكس كذلك . . ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة ؛ إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة ! (يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي) ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك . . لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموات . ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة . . في دورة لم يعلم أحد يقينا بعد متى بدأت ، ولا

كيف تتم . . وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات !!! لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة ، على غير أساس أنها من خلق الله . . ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوروبا . . (كانهم حمر مستنرفة فرت من قسورة!) . . وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة ، بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله . . ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً . . ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مباحكات تدل على العناد ، ولا تدل على الإخلاص ! وأقوال "علمائهم" الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله ، تصور حقيقة موقف "علمهم" نفسه من هذه القضية . ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يفتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين ، عازفين عن هذا الدين ، لأنه ثبت "الغيب" وهم "علميون" لا "غيبيون" . . ونختار لهم هؤلاء العلماء من "أمريكا" !!! يقول "فرانك اللن" . [ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنيل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا] في مقال: نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ؟ من كتاب: "الله يتجلى في عصر العلم" . . ترجمة الدكتور: الدمرداش عبد المجيد سرحان .

. . "إذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق ، فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟" إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق . وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب - مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم - ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً ، حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر ، التي نقول: إنها تحدث بالمصادفة ، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى [مثل كذف الزهر في لعبة النرد] . وقد صرنا بفضل التقدم هذه الدراسات تقاديرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريقة المصادفة ، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نسب احتمال حدوث ظاهرة في الظواهر في مدى معين من الزمان . . ولنبنظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة: إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية . وهي تتكون من خمسة عناصر ؛ هي: الكربون ، والأدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت . . ويبلغ عدد الذرات في الجزيء الواحد 40 000 ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة 92 عنصراً ، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة ، لكي تكون جزئياً من جزيئات البروتين ، يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ؛ ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

"وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً ، فوجد أن الفرصة لا تتهاى عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد ، إلا بنسبة 1 إلى 160 10 ، أي بنسبة 1 إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه 160 مرة . وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . . وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات . . ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها - عن طريق المصادفة - بلايين لا تحصى من السنوات ، قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين [10 243 سنة] .

"إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية . فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى ، غير التي تتألف بها ، تصير غير صالحة للحياة . بل تصير في بعض الأحيان سموماً ، وقد حسب العالم الإنجليزي: ج . ب . سيثر . . الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين [10 48] وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئنا بروتينيا واحداً .

"ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب ، الذي لا ندري من كنهه شيئاً ، إنه العقل اللانهائي . وهو الله وحده ، الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته ، أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة ، فبناه وصوره ، وأغدق عليه سر الحياة . .

مبدع هذه المعجزة المتكررة المعجبة السر . . هو الله . . وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده . . بالعبودية والخضوع والاتباع (فأني تؤفكون ؟) فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون ! إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيراً في القرآن الكريم - كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء - في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية ، وأثارها الدالة على

وحدة الخالق ، لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود ، الذي يدين له العباد ؛ بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده ، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله ، والدينونة لشريعته كذلك وحدها . . وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية ! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية . إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر - بإعطائهم العقيدة الصحيحة - لينتهي إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة . ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة (ذلكم الله فاتى توفكون) ذلكم الله الذي يستحق الربوبية فيكم . . والرب هو المربي والموجه والسيد والحاكم ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله (فائق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسابنا . ذلك تقدير العزيز العليم) إن فائق الحب والنوى هو فائق الإصباح أيضا ، وهو الذي جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدره دوراتهما . . مقدر ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء ، ويعلمه الذي يحيط بكل شيء . وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة . وأنبثاق النور في تلك الحركة ، كانبثاق البرعم في هذه الحركة . . وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة ، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك . . وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى . . إن الإصباح والإمساء ، والحركة والسكون ، في هذا الكون - أو في هذه الأرض - ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة . إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ؛ وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض ؛ وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة . . هي تقديرات من (العزيز) ذي السلطان القادر (العليم) ذي العلم الشامل . . ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو ، ولما انبثقت النبت والشجر ، من الحب والنوى . . إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة ، ودرجة هذه الحياة ، ونوع هذه الحياة . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه - وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب . . والذين يقولون: إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون . وأن الكون لا يحفلها . بل يبدو أنه يعاديتها . وأن ضالة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحى بهذا كله . بل يقول بعضهم: إن هذه الضالة توحى بأنه لو كان الكون إله ما عنى نفسه بهذه الحياة ! . . إلى آخر ذلك اللغو ، الذي يسمونه أحيانا "علما ! " ويسمونه أحيانا "فلسفة " ! وهو لا يستأهل حتى مناقشته ! إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة في نفوسهم ؛ ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التي تفرض نفسها عليهم ! ويقروا لهم الإنسان فيجد كأنما هم هاربون من مواجهة حقيقة قرروا سلفا ألا يواجهوها ! . . إنهم هاربون من الله الذي تواجههم دلائل وجوده ووحدانيتها وقدرته المطلقة في كل اتجاه ! وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله في نهايتها ، فعادوا في زعر إلى سكة أخرى . لبواجهاوا الله - سبحانه - في نهايتها كذلك ! إنهم مساكين ! بأسون إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا . . فإلى أين الضرار ؟ . .

يقول "فرائك أللن" العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عن نشأة الحياة: (إن الأدلة "العلمية" تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا عن تعليل نشأة الحياة ، بما يلزم لهذه النشأة - وللنمو والبقاء والتنوع بعدها - من موافقات لا تحصى في تصميم الكون . . منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق ، ووراءها من نوعها كثير . فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم . الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والذي خلق كل شيء فقدره تقديرا) (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) . . تنمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه . تنمة لعرض المشهد الكوني الهائل الرائع مرتبطا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم: (لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) متاهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم . . كانوا كذلك وما يزالون . . تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة . . وتبقى القاعدة ثابتة: قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام في ظلمات البر والبحر . . سواء في ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر . ويبقى النص القرآني الجامع يخاطب البشرية في مدارجها الأولى بهذه الحقيقة ، فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله . ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار في الأنفس والأفاق . فتجدها كذلك مصداق قوله في واقع حياتها الذي تزاوله . لذلك يعقب على آية النجوم التي جعلها الله للناس ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر هذا التعقيب الموحى (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها . . كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم) وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) إنها اللمسة المباشرة في هذه المرة . . اللمسة في ذات النفس البشرية . النفس البشرية الواحدة الموحدة الكنة والحقيقة في الذكر والأنثى . تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفس هي مستودع لهذه الخلية في صلب الرجل ، ونفس هي مستقر لها في رحم الأنثى . . ثم تأخذ الحياة في

النمو والانتشار . فإذا أجناس وألوان ؛ وإذا شبات ولغات ؛ وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التي لا تحصى ، والأنماط التي ما تزال تتنوع ما دامت الحياة (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) فالفقعة هنا ضروري لإدراك صنع الله في هذه النفس الواحدة ، التي تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلافح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث - في عالم الإنسان - لتتم عملية التزاوج التي قير الله أن تكون هي وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفال في ظروف تحفظ "إنسانيتهم" وتجعلهم أكفاء للحياة "الإنسانية" ! وهذه الموازنة الدائمة تكفي وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره . . . ولكن لقوم يفقهون: (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أما المطموسون المحجوبون . . . وفي أولهم أصحاب "العلمية" الذين يسخرون من "الغيبية" . فإنهم يمرّون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين: "وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها" . ثم يمضي السياق إلى مشاهد الحياة المفتحة في جنيات الأرض . تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب . وترى فيها بدائع صنع الله . . . والسياق يعرضها - كما هي في صفحة الكون - ويلفت إليها النظر في شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ، وشتى أنواعها ؛ ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية ، ودلالة على القدرة التي تبعد الحياة ؛ كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال (وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبتها وغير متشابهه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم آيات لقوم يؤمنون) والماء كثيرا ما يذكر في القرآن في صدد ذكر الحياة والإنبات (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) ودور الماء الظاهر في إنبات كل شيء دور واضح يعلمه البدائي والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم . . . ولكن دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة . فقد شارك الماء ابتداء - بتقدير الله - في جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات [إذا صحت النظريات التي تفترض أن سطح الأرض كان في فترة ملتبها ، ثم صلبا لا توجد فيه التربة التي تثبت الزرع ، ثم تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة] ثم ظل الماء يشارك في إخصاب هذه التربة ، وذلك بإسقاط [النتروجين - الأزوت] من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية ، التي تقع في الجو ، النتروجين الصالح للذوبان في الماء ويسقط مع المطر ، ليعيد الخصوبة إلى الأرض . . . وهو السماد الذي قلد الإنسان القوانين الكونية في صنعه ، فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التي يخلو وجه الأرض من النبات لو نفذت من التربة ! (فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجات من أعناب . والزيتون والرمان مشتبتها وغير متشابهه)

وكل نبت يبدأ أخضر . واللفظ (خضر) أرق ضلا ، وأعمق ألفة من لفظ "أخضر" . . . هذا النبت الخضر (يخرج منه حبا متراكبا) . . . كالسنايل وأمثالها . (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) . . . وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير . وفي النخلة هو العنق الذي يحمل الثمر . ولفظة (قنوان) ووصفها (دانية) يشتركان في إلقاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . . (وجات من أعناب) . . . (والزيتون والرمان) . هذا النبات كله بفصائله وسلالاته (مشتبتها وغير متشابهه) - (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) . . . انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ . . . انظروا إليه في ازدهاره ، وازدهائه ، عند كمال نضجه . انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . . لا يقول هنا ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، ولكن يقول: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر في آيات الله ، وبدائع صنعه في مجال الحياة (إن في ذلكم آيات لقوم يؤمنون) . فالإيمان هو الذي يفتح القلب ، وينير البصيرة ، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة ، ويصل الكائن الإنساني بالوجود ، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع . . . وإلا فإن هناك قلوبا مغلقة ، وبصائر مطموسة ، وفطرا منتكسة ، تمر بهذا الإبداع كله ، وبهذه الآيات كلها ، فلا تحس بها ولا تستجيب . . . (إنما يستجيب الذين يسمعون)، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون ! وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشري صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحديته ، وقدرته ، وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية ، وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض في كل حي ، الناطق ببديع صنع الخلاق . . . عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب غريب في هذا الجو المؤمن الموصول بمدع الوجود . ويعرض أوهام المشركين فإذا هي سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعات ما يعقب عليها بالاستتكار . والجو كله مهيا للاستتكار (وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) وقد كان بعض مشركي العرب يعبدون الجن . . . وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انسافت في انحرافها إلى أي مدى ؛ وانفجرت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التي بدأت صغيرة لا تكاد تلاحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل . . . دين التوحيد

الذي جاء به إبراهيم عليه السلام في هذه المنطقة . . ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد . . ولا بد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرا . . ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع . . الذي يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله . . وهم من خلقه سبحانه (وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم) ولقد عرفت الوثنيات المتعددة في الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة - تشبه فكرة الشياطين - وخافوا هذه الكائنات - سواء كانت أرواحا شريرة أو ذوات شريرة - وقدموا لها القرابين انقاء لشربها ؛ ثم عبدوها ! والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التي وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، في صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله . . سبحانه . . والسياق القرآني يواجههم بسخف هذا الاعتقاد . . يواجههم بكلمة واحدة (وخلقهم) وهي لفظة واحدة ، ولكنها تكفي للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذي (خلقهم) فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية ؟! ولم تكن تلك وحدها دعواهم . فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف . بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) و"خرقوا أي: اختلقوا . . وفي لفظها جرس خاص وظل خاص ؛ يرسم مشهد الطلوع بالقرية التي تحرق وتشق ! خرقوا له بنين: عند اليهود: عزير . وعند النصارى: المسيح؛ وخرقوا له بنات . عند المشركين: الملائكة . وقد زعموا أنهم إناث . . ولا يدرى أحد طبعاً لماذا هم إناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم . . فكلمها (بغير علم) (سبحانه وتعالى عما يصفون) ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم في هذه التصورات بما يكشف عما فيها من لهللة (بديع السماوات والأرض . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة . وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم) إن الذي يبديع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق ؟! والخلف إنما هو امتداد الفانين ، وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبديعون ! ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر . . أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه . . فكيف يكون لله ولد - وليست له صاحبة - وهو - سبحانه - مفرد أحد ، ليس كمثلته شيء . فأنى يكون النسل بلا تزواج ؟! وهي حقيقة ، ولكنها تواجه مستواهم التصوري ؛ وتخطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم ! ويتكىء السياق - في مواجهتهم - على حقيقة "الخلق" لنفي كل ظل للشرك . فالمخلوق لا يكون أبداً شريكاً للخالق . وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق: كما يواجههم بعلم الله المطلق الذي لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون (وخلق كل شيء) (وهو بكل شيء عليم) وكما واجههم السياق القرآني بحقيقة أن الله (خلق كل شيء) ، ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن لله - سبحانه - بنين وبنات ، أو أن له شركاء الجن - وهو خلقهم - فإنه يتكىء على هذه الحقيقة مرة أخرى . لتقرير أن الذي يعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء ، فلا إله إلا هو ، ولا رب إلا هو (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ؛ فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل) إن تفرد الله سبحانه بالخلق ، يفرد سبحانه بالملك . والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق . فهو خالق خلقه ومالكهم ، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه . فكل ما يقاتته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله . . فإذا تقررت هذه الحقائق . . الخلق والملك والرزق . . تقرر معها - ضرورة وحتماً - أن تكون الربوبية له سبحانه . فتكون له وحده خصائص الربوبية - وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يخضع له ويطاع ، والنظام الذي يتجمع عليه العباد - وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها . ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام . ولم يكن العرب - في جاهليتهم - ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون ، وخالق الناس ، ورازقهم كذلك من ملكه ، الذي ليس وراءه ملك تقنات منه العباد . . وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق - على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق ! - ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التي تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الإغريق . . لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لألثة - مع الله - على سبيل الزلفى والقربى من الله ! - وإلا الانحراف في تلقى الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس . . أي أنه لم يكن يواجه الإلحاد في وجود الله - سبحانه - كما يقول اليوم "ناس" ! أو كما يتبحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منبر ! والحق أن هؤلاء الذين يجادلون في وجود الله اليوم قلة . وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية . وهو تلقى الشرائع في شؤون الحياة من غير الله . . وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضاً ! والقلة الشاذة التي تجادل في وجود الله اليوم لا تعتمد على "العلم" وإن كانت هذه دعواها . فالعلم البشري ذاته لا يملك أن يقرر هذا الإلحاد ولا يجد عليه دليلاً لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون . . إنما هي لوثة سببها الأول الشرود من الكنييسة وألهاها الذي كانت تستدل به الرقاب من غير أصل من الدين . . ثم نقص في التكوين الفطري لهؤلاء المحادلين ، ينشأ عنه تعطل في الوظائف الأساسية للكينونة البشرية . . كما يقع للأسماخ من المخلوقات . . ! ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه - كحقيقة انبثاق الحياة أيضاً - لم تكن تساق في القرآن لإثبات وجود الله - إذ كان الجدل في وجوده تعالى سخفاً لا يستحق من جدية القرآن العناية به - إنما كانت تساق لرد الناس إلى الرشاد ، كي ينفذوا في حياتهم ما تقتضيه تلك الحقيقة من ضرورة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمة في حياتهم كلها ؛ وعبادته وحده بلا شريك . . مع هذا فإن حقيقة الخلق والتقدير فيه - كحقيقة انبثاق

الحياة أيضا - تقذف في وجوه الذين يجادلون في الله - سبحانه - بالحجة الدامغة التي لا يملكون بازائها إلا المرء . وإلا التبجح الذي يصل إلى حد الاستهتار في كثير من الأحيان !

"جوليان هاكسلي" مؤلف كتاب: "الإنسان يقوم وحده" وكتاب "الإنسان في العالم الحديث" من هؤلاء المتبجحين المستهترين ؛ وهو يقذف بالمقررات التي لا سند لها إلا هواه وهو يقول في كتاب "الإنسان في العالم الحديث" ؛ في فصل: "الدين كمسألة موضوعية" ذلك الكلام !

"ولقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضا عديم الفائدة ، وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا ، حتى اختفى كحاكم مدبر للكون ، وأصبح مجرد "أول سبب" أو أساسا عاما غامضا .

و"ول ديورانت" مؤلف كتاب "مباهج الفلسفة" يقول: إن الفلسفة تبحث عن الله ، ولكنه ليس "إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة . بل إله الفلاسفة ؛ وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيبته" . . وهو كلام لا تستطيع إمساكه ! ولكنه كلام يقال !

ونحن لا نحاكم هؤلاء الخابطين في الظلام إلى قرآنا ، ولا نحاكمهم كذلك إلى عقولنا المنضبطة بهدى هذا القرآن . إنما نكلهم إلى أندايم من "العلماء" وإلى العلم البشري الذي يواجه هذه القضية بشيء من الجد والتعقل . .

يقول جون كليفلاند كوتران: [من علماء الكيمياء والرياضة . دكتوراه من جامعة كورنيل . رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث] . من مقال: "النتيجة الحتمية" من كتاب: "الله يتجلى في عصر العلم":

"فهل يتصور عاقل ، أو يفكر ، أو يعتقد ، أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ، ثم فرضته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا . بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة . والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة التي وجدت قبلها . وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ؛ ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية . إذ أن لها بداية . وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد . وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقا . وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان . فإذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدره كائن غير مادي . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي - كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجي - دون أن يكون هنالك إرادة . ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويديره ؛ ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله ، خالق هذا الكون وموجهه -

"أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم ، بما فيه من مادة وطاقة ، قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقة سخفا وحمافة ؛ ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضوعا للنظر أو المناقشة .

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية ، إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون - وذلك في عنصر واحد هو الأزلية - وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت ، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق ، وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر . ولكن قوانين "الديناميكا الحرارية" تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض ، هي الصفر المطلق ؛ ويومئذ تنعدم الطاقة ، وتستحيل الحياة . ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق ، بمضي الوقت . أما الشمس المستعرة ، والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من

الأحداث . . ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوي ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه " .

الله - سبحانه - خالق كل شيء . لا إله إلا هو . . هذه هي القاعدة التي يقيم عليها السياق القرآني هنا وجوب عبادة الله وحده . ووجوب ربوبيته وحده - بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة (ذلكم الله ربكم . لا إله إلا هو: خالق كل شيء . فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل) فهي القوامة لا على البشر وحدهم ، ولكن على كل شيء كذلك . بما أنه هو خالق كل شيء . . . وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التي لم يكن المشركون - في جاهليتهم - يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها . وهو: الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك . .

ثم تعبير عن صفة الله سبحانه ، يغشى الجوانح والحنايا بظلال ما أحسب أن لغة البشر تملك لها وصفا ، فلندعها تلقي ظلالها في شفافية ولين ؛ وترسم المشهد الذي يغلف فيه ما يهول ويروع من صفة الله ، بما يطمئن ويروح ، ويشف شفافية النور (لا تدرکه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) إن الذين كانوا يطلبون في سداجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون في سماجة دليلا ماديا على الله ! هؤلاء وهؤلاء لا يدركون ماذا يقولون ! إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك . . كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون ، والقيام بالخلافة في الأرض . . وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق . . فأما ذات الله - سبحانه - فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها . لأنه لا طاقة للحادث الفاني أن يرى الأزلي الأبدى . فضلا على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض . وهي الوظيفة التي هم معانئون عليها وموهوبون ما يلزم لها . . وقد يفهم الإنسان سداجة الأولين . ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين ! إن هؤلاء يتحدثون عن "الذرة" وعن "الكهرب" وعن "البروتون" وعن "النيوترون" . . وواحد منهم لم ير ذرة ولا كهريا ولا بروتونا ولا نيوترونا في حياته قط . فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذي يضبط هذه الكائنات . . ولكنها مسلمة من هؤلاء كفرض ، ومصداق هذا الفرض أن يقدرُوا آثارا معينة تقع لوجود هذه الكائنات . فإذا وقعت هذه الآثار [جزموا] بوجود الكائنات التي أحدثتها ! بينما قصارى ما تصل إليه هذه التجربة هو "احتمال" وجود هذه الكائنات على الصفة التي افترضوها ! . . ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله - سبحانه - عن طريق آثار هذا الوجود التي تفرض نفسها فرضا على العقول ! يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويطلبون دليلا ماديا تراه الأعين . . كأن هذا الوجود بجملته ، وكان هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفي لتكون هذا الدليل ! وكذلك يعقب السياق القرآني على ما عرضه من آيات في صفحة الوجود وفي مكنونات النفوس . وعلى تقريره عن ذات الله سبحانه بأنه (لا تدرکه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) ثم يعقب السياق على هذا الوصف الذي لا تملك لغة البشر أن تشرحه أو تصفه . . بقوله (قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ) فهذا الذي جاء من عند الله . . بصائر . . والبصائر تهتدي وتهدي . . وهذا بذاته . . بصائر . . تهدي فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور . وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . . معطل الحواس . مغلق المشاعر . مطموس الضمير . ويوجه النبي ﷺ أن يعلن براءته من أمرهم ومغيبته (وما أنا عليكم بحفيظ) بعد ذلك يلتفت السياق إلى الرسول ﷺ فيتحدث عن تصريف الآيات على هذا المستوى ، الذي لا يتناسب مع أمية النبي ﷺ وبيئته ؛ والذي يدل بذاته على مصدره الرباني - لمن تتفتح بصيرته - ولكن المشركين ما كانوا يريدون الافتناع بالآيات . ومن ثم كانوا يقولون: إن محمدا درس هذه القضايا العقيدية والكونية مع أحد أهل الكتاب ! وما دروا أن أهل الكتاب ما كانوا يعلمون شيئا على هذا المستوى الذي يحدثهم محمد فيه ؛ وما كان أهل الأرض جميعا - وما يزالون - يبلغون شيئا من هذا المستوى السامق على كل ما عرف البشر وما يعرفون . ومن ثم يوجه الرسول ﷺ إلى اتباع ما أوحى إليه والإعراض عن المشركين (وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا: درست ، ولنبينه لقوم يعلمون . أتبع ما أوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل) إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذي لا عهد للعرب به ؛ لأنه ليس نابعا من بيئتهم - كما أنه ليس نابعا من البيئة البشرية على العموم - فينتهي هذا التصريف إلى نتيجتين متقابلتين في البيئة . فأما الذين لا يريدون الهدى ، ولا يرغبون في العلم ، ولا يجاهدون ليلبغوا الحقيقة . فهؤلاء سيحاولون أن يجدوا تعليلا لهذا المستوى الذي يخاطبهم به محمد - وهو منهم - وسيختلقون ما يعلمون أنه لم يقع . فما كان شيء من حياة محمد خافيا عليهم قبل الرسالة ولا بعدها . . ولكنهم يقولون: درست هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلمته منهم ! وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شيئا على هذا المستوى . وهذه كتب أهل الكتاب التي كانت بين أيديهم يومذاك ما تزال بين أيدينا . والمسافة شاسعة شاسعة بين هذا الذي في أيديهم وهذا القرآن الكريم . . إن ما بين أيديهم إن هو إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك مشوبة بأساطير وخرافات من صنع أشخاص مجهولين - هذا فيما

يختص بالعهد القديم - فأما العهد الجديد - وهو الأنجيل - فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ المسيح - عليه السلام - بعد عشرات السنين ؛ وتداولتها المجامع بالتحريف والتبديل والتعديل على ممر السنين . وحتى المواعظ الخلقية والتوجيهات الروحية لم تسلم من التحريف والإضافة والنسيان . . وهذا هو الذي كان بين أيدي أهل الكتاب حينذاك ، وما يزال . . فأين هذا كله من القرآن الكريم؟! ولكن المشركين - في جاهليتهم - كانوا يقولون هذا ؛ وأعجب العجب أن جاهليين في هذا العصر من "المستشرقين" و "المتسلمين" ! يقولون هذا القول فيسمى الآن "علما" و "بحثا" و "تحقيقا" لا يبلغه إلا المستشرقون ! فأما الذين (يعلمون) حقا ، فإن تصريف الآيات على هذا النحو يؤدي إلى بيان الحق لهم فيعرفونه (ولنبينه لقوم يعلمون) ثم تقع المفاصلة بين قوم مبصرين يعلمون ، وقوم عمي لا يعلمون ! ويصدر الأمر العلوي للنبي الكريم ، وقد صرف الله الآيات ، فافترق الناس في مواجهتها فريقين . . يصدر الأمر العلوي للنبي ﷺ أن يتبع ما أوحى إليه ، وأن يعرض عن المشركين ، فلا يحفلهم ولا يحفل ما يقولون من قول متهافت ، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم . فإنما سبيله أن يتبع ما أوحى إليه من ربه ؛ فيصوغ حياته كلها على أساسه ؛ ويصوغ نفوس أتباعه كذلك . ولا عليه من المشركين ؛ فإنما هو يتبع وحي الله ، الذي لا إله إلا هو ، فماذا عليه من العبيد؟! (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين)

ولو شاء الله أن يلزمهم الهدى لألزمهم ، ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لا يعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم . ولكنه سبحانه خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى وللضلال ، وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار - في حدود المشيئة المطلقة التي لا يقع في الكون إلا ما تجري به ، ولكنها لا ترغم إنسانا على الهدى أو الضلال - وخلق على هذا النحو لحكمة يعلمها ؛ وليؤدي دوره في هذا الوجود كما قدره الله له . باستعداداته هذه وتصرفاته (ولو شاء الله ما أشركوا) وليس الرسول ﷺ مسؤولا عن عملهم ، وهو لم يوكل بقلوبهم فالوكيل عليها هو الله (وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل) وهذا التوجيه لرسول الله ﷺ يحدد المجال الذي يتناوله اهتمام الرسول ﷺ وعمله ، كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه في كل أرض وفي كل جيل . .

ومع أمر الرسول ﷺ بالإعراض عن المشركين ، فقد وجه المؤمنين إلى أن يكون هذا الإعراض في أدب ، وفي وقار ، وفي ترفع ، يليق بالمؤمنين . . لقد أمروا ألا يسبوا آله المشركين مخافة أن يحمل هذا أولئك المشركين على سب الله سبحانه - وهم لا يعلمون جلال قبره وعظيم مقامه - فيكون سب المؤمنين لألتهن المهينة الحقيمة ذريعة لسب الله الجليل العظيم (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم) من يعمل الصالحات استحسنا ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسنا ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسنا ، وإن كان على الضلال رآه حسنا كذلك ! فهذه طبيعة في الإنسان . . وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء . مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق . . ولكن إذا سب المسلمون ألتهن هؤلاء اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهية الله ، دفاعا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ! فليدعهم المؤمنون لما هم فيه (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) وهو أدب يليق بالمؤمن ، المطمئن لدينه ، الواثق من الحق الذي هو عليه . الهاديء القلب ، الذي لا يدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور . فإن سب ألتهن لا يؤدي بهم إلى الهدى ولا يزيدهم إلا عنادا . فما للمؤمنين وهذا الذي لا جدوى وراءه . وإنما قد يحرهم إلى سماع ما يكرهون . من سب المشركين لربهم الجليل العظيم؟! وأخيرا يختم هذه الموجة التي استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق ، في كل لحظة من ليل أو نهار . . يختمه بأن هؤلاء المشركين يقسمون بالله جهد إيمانهم أن لو جاءتهم أية - أي خارقة مادية كخوارق الرسل السابقة - ليؤمنن بها! (وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنسب جاءتهم أية ليؤمنن بها . قل: إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ؟) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا - إلا أن يشاء الله - ولكن أكثرهم يجهلون) إن القلب الذي لا يؤمن بآيات الله المبتوتة في هذا الوجود - بعد توجيهه إليها على هذا النحو العجيب الذي تفضل به هذا الكتاب العجيب - ولا توحى آيات الله المبتوتة في الأنفس والأفاق إليه أن يبادر إلى ربه ، ويثوب إلى كنفه . . إن هذا القلب هو قلب مقلوب . . والذي علق هؤلاء عن الإيمان في أول الأمر ، ما الذي يدري المسلمين الذين يقترحون إجابة طلبهم ، أن يعوقهم عن الإيمان بعد ظهور الخارقة؟! إن الله هو الذي يعلم حقيقة هذه القلوب . . وهو يذر المكذبين في طغيانهم يعمهون ، لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ؛ كما يعلم عنهم أنهم لا يستجيبيون . . لا يستجيبيون ولو نزل إليهم الملائكة كما يقترحون! ولو بعث لهم الموتى يكلمونهم - كما اقترحوا كذلك! - ولو حشر الله عليهم كل شيء في هذا الوجود يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان! . . إنهم لا يؤمنون - إلا أن يشاء الله - والله سبحانه لا يشاء ، لأنهم هم لا يجاهدون في الله ليهديهم الله إليه . . وهذه هي الحقيقة التي يجهلها أكثر الناس عن طبائع

القلوب . . إنه ليس الذي ينقص الذين يلجون في الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين . . إنما الذي ينقصهم أفة في القلب ، وعطل في الفطرة ، وانطماس في الضمير وإن الهدى جزاء لا يستحقه إلا الذين يتجهون إليه ، والذين يجاهدون فيه . .

.....

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } 112 { وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } 113 { أَفَغَيِّرُ اللَّهُ آتِنَا حِكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } 114 { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 115 { وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } 116 { إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } 117 { فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ } 118 { وَمَا لَكُمْ إِنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } 119 { وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } 120 { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أُطِغْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } 121 { أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَآخِيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيَّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 122 { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } 123 { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } 124 { فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } 125 { وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } 126 { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 127 { وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْفَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } 128 { وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } 129 { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } 130 { ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَى الضَّالِمِينَ وَبِظُلْمِ أَهْلِهَا غَافِلُونَ } 131 { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } 132 {

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: كذلك . . كالذي قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يعلقون إيمانهم بمجيء الخوارق ، ويعرضون عن دلائل الهدى وموحياته في الكون والنفس ، لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية . . كذلك الذي قدرناه في شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبي عدوهم شياطين الإنس والجن . وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ؛ ومن الضلال والفساد في الأرض . . كل ذلك إنما جرى بقدر الله ؛ وفق مشيئته . ولو شاء ربك ما فعلوه . ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجري قدره بغير هذا الذي كان . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة . وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة فإذا تقرر أن هذا الذي يجري في الأرض من المعركة الناشئة التي لا تهدأ بين الرسل والحق الذي معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم . . إذا تقرر أن هذا الذي يجري في الأرض إنما يجري بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغي أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض ؛ بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري والقدرة التي وراءه (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) بإرادتنا وتقديرنا ، جعلنا لكل نبي عدوا . . هذا العدو هو شياطين الإنس والجن . . والشيطنة وهي التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن . وكما أن الذي يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطانا ؛ فكذلك الذي يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية . . وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضا إذا

شرس وتمرد واستشري أذاه ! وقد ورد: "الكلب الأسود شيطان" . هؤلاء الشياطين - من الإنس والجن - الذين قدر الله أن يكونوا عدوا لكل نبي ، يخدع بعضهم بعضا بالقول المزخرف ، الذي يوحيه بعضهم إلى بعض - ومن معاني الوحي التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر - ويغفر بعضهم بعضا ، ويحرض بعضهم بعضا على التمرد والغواية والشر والمعصية . . وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا في هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبي ، وللحق الذي معه ، وللمؤمنين به ، معروفة يملك أن يراها الناس في كل زمان . فأما شياطين الجن - والجن كله - فهم غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . . ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء . . نقول من ناحية المبدأ ونحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره في الحدود التي قررها . فأما أولئك الذين يتترسون "بالعلم" لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن ، فلا ندري علام يرتكبون ؟ إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، في هذا الكوكب الأرضي ! كما أن علمهم هذا لا "يعلم" ماذا في الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن "يفترضه" أن نوع الحياة الموجودة في الأرض يمكن أو لا يمكن أن يوجد في بعض الكواكب والنجوم . . وهذا لا يمكن أن ينفي - حتى لو تأكدت الفروض - أن أنواعا أخرى من الحياة وأجناسا أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا "العلم" عنها شيئا ! فمن التحكم والتبجح أن ينفي أحد باسم "العلم" وجود هذه العوالم الحية الأخرى . وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ؛ والذي يتشيطان بعضه ويتمحض للشر والغواية - كابليس وزرئته - كما يتشيطان بعض الإنس . . من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم عنه إلا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله - سبحانه - وعن رسول الله ﷺ ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار . وأنه مزود بالقدرة على الحياة في الأرض وفي باطن الأرض وفي خارج الأرض أيضا . وأنه يملك الحركة في هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر . وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين . وأنه يرى بني آدم وبني آدم لا يرويه - في هيئته الأصلية - وهم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بني الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها . وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى ، وإذا غفل برز فوسوس له ! وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف . وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ؛ وبحاسب ؛ ويجازى بالجنة وبالنار كالجنس الإنساني . وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبهون خلقا ضعيفا لا حول له ولا قوة ! وفي هذه الآية نعرفه أن الله سبحانه قد جعل لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن . . ولقد كان الله - سبحانه - قادرا - لو شاء - ألا يفعلوا شيئا من هذا . . ألا يتمردوا ؛ وألا يتمحضوا للشر ؛ وألا يعادوا الأنبياء ؛ وألا يؤذوا المؤمنين ؛ وألا يضلوا الناس عن سبيل الله . . كان الله سبحانه قادرا أن يقهرهم قهراً على الهدى ؛ أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ؛ أو أن يعجزهم عن التصدي للأنبياء والحق والمؤمنين به . . ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار . وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله - بالقدر الذي تقضى به مشيئته ويجري به قدره - وقدر أن يبتلى أولياءه بأذى أعدائه ؛ كما يبتلى أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذي أعطاهم إياه . فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدره الله (ولو شاء الله ما فعلوه)

فما الذي يخلص لنا من هذه التقريرات ؟

يخلص لنا ابتداء: أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء . . هم "شياطين" ! . شياطين من الإنس ومن الجن . . وأنهم يؤذون جميعا - شياطين الإنس والجن - وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضا ويضله كذلك مع قيامهم جميعا بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله . .

ويخلص لنا ثانيا: أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئا من هذا كله ، ولا يقدرّون على شيء من عداة الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم . إنما هم في قبضة الله . وهو يبتلى بهم أولياءه لأمر يريده من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء . فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء . وكف عنهم هؤلاء الأعداء . وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله . وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ؛ وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم

(ولو شاء الله ما فعلوه)

ويخلص لنا ثالثا: أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا - فهو إنما يبتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار والقدرة - وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان - فهو إنما يبتلى أولياءه كذلك لينظروا: أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم

من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم وبيعونها ببيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء . وفي المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادرا على ألا يكون شيء من هذا الذي كان !

ويخلص لنا رابعا: هو أن الشياطين من الإنس والجن ، وهو أن كيدهم وأذاهم . فما يستطيعون بقوة ذاتية لهم ؟ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . . والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر ، وهو الذي يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعى . ومن هنا هذا التوجيه العلوي لرسول الله الكريم

(فذرهم وما يفترون) دعهم وافتراءهم . فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم .

وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين ، وابتلاء المؤمنين . . لقد قدر الله أن يكون هذا العداء ، وأن يكون هذا الإيحاء ، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع . . لحكمة أخرى (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقتروا ما هم مقترفون) أي لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . . فهؤلاء يحصرون همهم كله في الدنيا . وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي وينالون بالأذى أتباع كل نبي ويزين بعضهم لبعض القول والفعل فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد . في ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء . . وهذا أمر أراد الله كذلك وجري به قدره . لما وراءه من التمحيص والتجربة . ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ؛ ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس . ثم لتصلح الحياة بالدفع ؛ ويتميز الحق بالمفاضلة ؛ ويتمحض الخير بالصبر ؛ ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة . . وليجري الأمر كله وفق مشيئة الله . . أمر أعدائه وأمر أوليائه على السواء . . إنها مشيئة الله ، والله يفعل ما يشاء (ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون)

الآن نجيء إلى القضية التي تعالجها بقية السورة ؛ والتي كان التمهيد لها مطردا في سياق السورة كله ؛ وآخر هذا التمهيد ما ساقه من قضايا العقيدة الكبيرة ؛ ومن واقع المعركة العقيدية الطويلة في الآيتين السابقتين . ومن تقرير سلطان الله المطلق فيما يقع من المعركة بين شياطين الإنس والجن وكل نبي . ومن قواعد الهدى والضلال وسنة الله التي يجري وفقها الضلال والهدى . . إلى آخر ما استعرضناه في الصفحات السابقة

الآن نجيء إلى القضية التي جعلت هذه المقدمات كلها قاعدة لها . . قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . . وهي تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامي الأول: مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ؛ وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور . . وحين تكون القضية هي قضية هذا المبدأ فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدأ أو نقضه . . ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أولا يؤكل ؛ أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع . فهذه كتلك من ناحية المبدأ . وهذه كتلك تعني الاعتراف بالوهبة لله وحده ؛ أو تعني رفض هذه الألوهية . والمنهج القرآني يتكئ كثيرا جدا على هذا المبدأ لتقريره في كل مناسبة . ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسباته أمام كل تشريع للصغير وللكبير من الأمور . . ذلك أن هذا المبدأ هو العقيدة ، وهو الدين ، وهو الإسلام ؛ وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات . إن السياق يبدأ بتقرير جهة الحاكمية في أمر العباد كله - تمهيدا لتقرير جهة الحاكمية في التحليل والتحرير في الذبائح ، الأمر الذي يزاوله فيه المشركون حق الحاكمية افتراء على الله واعتداء على سلطانه - ويمهد لهذا الأمر تمهيدا طويلا كما نلاحظ من سياق الآيات في هذا الموضوع (أفعير الله أتبعي حكما ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفضلا ، والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) فلا تكون من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) هذا التمهيد كله يجيء قبل أن يدخل في الموضوع الواقع الحاضر الذي يمهده له هذا التمهيد ، ثم يربطه ربطا مباشرا بقضية الإيمان أو الكفر (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بأبائهم مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه) وقبل أن ينتهي من عرض قضية التحليل والتحرير - بعد ذلك التمهيد كله - يفصل بين فقرتين بتوجيهات وتعليقات أخرى ، تحوي مؤثرات قوية من الأمر والنهي والبيان والوعيد (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقتربون) ثم يستأنف الحديث في قضية التحليل والتحرير ؛ فيربطها مباشرة بقضية الإسلام والشرك (ولا تأكلوا

مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعموهم إنكم لمشركون) ثم يمضي بعد ذلك شوطاً آخر في الحديث عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . . شوطاً كأنه تعقيب على أمر التحليل والتحرير . ومن هذا التتابع ، وهذا الربط ، وهذا التوكيد ، تتمثل طبيعة نظرة الإسلام لقضية التشريع والحاكمة ، في شؤون الحياة اليومية (أفغير الله أبتغي حكماً ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكوننن من الممترين) إنه سؤال على لسان رسول الله ﷺ للاستنكار . استنكار أن يبتغي حكماً غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق . وتقدير لجهة الحاكمة في الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه . ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالبا حكمه في أمر الحياة كله (أفغير الله أبتغي حكماً ؟) ثم . . تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً . . إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتتمثل فيه حاكمية الله والوهيته . ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلاً ، محتويًا على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة . . وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة . . هذا ما يقرره الله - سبحانه - عن كتابه . فمن شاء أن يقول: إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل . . ولكن ليقبل معه . . إنه - والعياذ بالله - كافر بهذا الدين ، مكذب بقول رب العالمين ! ثم إن هناك من حولهم ملابس أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكماً في شأن من الشؤون أمراً مستنكراً غريباً . . إن الذين أوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله ، وهم اعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)

ولقد كانت هذه ملابس حاضرة في مكة وفي الجزيرة ، يخاطب الله بها المشركين . . سواء أقر أهل الكتاب بها وجهرها - كما وقع من بعضهم ممن شرح الله صدره للإسلام - أو كتموها وجحدوها - كما وقع من بعضهم فالأمر في الحالين واحد ؛ وهو إخبار الله سبحانه - وخبره هو الصدق - أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق . . فالحق محتواه ؛ كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله ، وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به ، ومن هذا الحق الذي يحتويه . وما يزالون - من أجل علمهم بهذا كله - يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حرباً لا تهدأ . . وأشد هذه الحرب وأنكأها ، هو تحويل الحاكمة عن شريعة هذا الكتاب ؛ إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكماً ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة الوهيات أخرى في البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده ؛ يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ؛ ولا تشاركها شريعة أخرى ، ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى ، تستمد منها أوضاع المجتمع ، وأصول التشريعات ، ويرجع إليها ويستشهد بفقرائها ، وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلاً ؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، يلتفت إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين به ؛ يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذي يجدونه من المشركين ؛ وشأن الكتمان والجحود الذي يجدونه من بعض أهل الكتاب (فلا تكوننن من الممترين) وما شك رسول الله ﷺ ولا امتى . ولقد ورد أنه ﷺ عندما أنزل الله عليه) فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكوننن من الممترين). . قال: " لا أشك ، ولا أسأل " . ولكن هذا التوجيه وأمثاله ؛ وهذا التثبيت على الحق ونظائره ؛ تدل على ضخامة ما كان يلقاه ﷺ والجماعة المسلمة معه من الكيد والغبت والتكذيب والجحود ؛ ورحمة الله - سبحانه - به وبهم بهذا التوجيه والتثبيت (ويمضي السياق في هذا الاتجاه ؛ يقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق ، بالغاً ما بلغ كيدهم) وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم) لقد تمت كلمة الله - سبحانه - صدقاً - فيما قال وقرر - وعدلاً - فيما شرع وحكم - فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان . ولم يبق بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم ، أو عادة أو تقليد . . ولا معقب لحكمه ولا مجبر عليه (وهو السميع العليم) الذي يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم . وإلى جانب تقرير أن "الحق" هو ما تضمنه الكتاب الذي أنزله الله ، يقرر أن ما يقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذي لا يقين فيه ؛ واتباعه لا ينتهي إلا إلى الضلال . وأن البشر لا يقولون الحق ولا يشيرون به إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ؛ ويحذر الرسول [ص] أن يطيع الناس في شيء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون) ولقد

كان أكثر من في الأرض - كما هو الحال اليوم بالضبط - من أهل الجاهلية . . لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله ، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله . ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم ، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه . . ومن ثم كانوا - كما هو الحال اليوم - في ضلالة الجاهلية ؛ لا يملكون أن يسيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه ؛ ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال . . كانوا - كما هم اليوم - يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس . . والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال . . وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كي لا يضلوا عن سبيل الله . . هكذا على وجه الإجمال . وإن كانت المناسبة الحاضرة حينذاك كانت هي مناسبة تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجيء في السياق . . ثم قرر أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده . لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد ، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم . لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله - كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن . . ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات ، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء . والله - سبحانه - يقرر هنا أنه هو - وحده - صاحب الحق في وضع هذا الميزان . وصاحب الحق في وزن الناس به ، وتقرير من هو المهتدي ، ومن هو الضال . إنه ليس "المجتمع" هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة . . ليس المجتمع الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية ، فتتغير قيمه وأحكامه . . حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي . . ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات ! بعد هذا التمهيد التقريري الطويل تجيء قضية الذبائح ، مبنية على القاعدة الأساسية التي أقامها ذلك التمهيد التقريري الطويل (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه - وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) إنه بامر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . والذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه . ويعلق إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين) ثم يسألهم: وما لهم في الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وقد جعله الله لهم حلالا ؟ وقد بين لهم الحرام الذي لا يأكلونه إلا اضطرارا ؟ فأنتهى بهذا البيان كل قول في حله وحرمة ، وفي الأكل منه أو تركه ؟ (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ؟) . . ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك في البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أهلها الله ؛ ويحلون ذبائح حرمها الله - ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! - فإن السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع ؛ ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم ، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاويلتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . . إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ويأمرهم بأن يتركوا الإثم كله - ظاهره وخافيه - ومنه هذا الذي يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم ؛ وحملهم على شرائع ليست من عند الله ، واقتراء أنها شريعة الله ! ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذي يقترفونه (وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) ثم ينهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التي كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو من الميتة التي كانوا يجادلون المسلمين في تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟! وهو تصور من تصورات الجاهلية التي لا حد لسخفها وتهافتها في جميع الجاهليات ! وهذا ما كانت الشياطين - من الإنس والجن - توسوس به لأوليائها ليجادلوا المسلمين فيه من أمر هذه الذبائح مما تشير إليه الآيات (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . .) . وأمام هذا التقرير الأخير نقف ، لننتبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والاتباع في هذا الدين . . بعد ذلك يجيء شوط كامل عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . وعن قدر الله في أن يجعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . وعن الكبر الذي يحيك في نفوس هؤلاء المجرمين الأكابر . ويمنعهم من الإسلام . ويختم الشوط بالتصوير الرائع الصادق لحالة الإيمان التي يشرح الله لها الصدر ، وحالة الكفر التي يجعل الصدر فيها ضيقا حرجا مكروب الأنفاس ! . . فيتصل هذا الشوط كله بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح اتصال الأصل القاعدي بالفرع التطبيقي ؛ وبدل على عمق هذا الفرع وشدة علاقته بالأصل

الكبير: (أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمضي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؛ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) إن هذه الآيات في تصوير طبيعة الهدى وطبيعة الإيمان إنما تعبر تعبيراً حقيقياً واقعياً عن حقيقة واقعية كذلك . إن ما يبدو فيها من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة في الصورة الموحية المؤثرة ؛ ولكن العبارة في ذاتها حقيقية .

إن نوع الحقيقة التي تعبر هذه الآيات عنها هو الذي يقتضي هذه الإيقاعات التصويرية . فهي حقيقة ، نعم . ولكنها حقيقة روحية وفكرية . حقيقة تذاق بالتجربة . ولا تملك العبارة إلا أن تستحضر مذاق التجربة ولكن لمن ذاقها فعلاً ! إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية ، التي لا تنفى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت . وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله . فهو موت . وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . فهو موت . والإيمان اتصال ، واستمداد ، واستجابة . فهو حياة . إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراق الاستشراق والاطلاع . فهو ظلمة . وختم على الجوارح والمشاعر . فهو ظلمة . وتيه في التيه وضلال . فهو ظلمة . والإيمان فتحة وروية ، وإدراك واستقامة . فهو نور بكل مقومات النور (وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) فليطمئن المؤمنون ! ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه . الكبر الذي يمنعهم من الإسلام ؛ خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع . ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له ، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للاتباع ، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمرهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . من أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغبية كذلك: لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله (وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) وقد قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنني أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً ! وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ! وواضح أن الكبر النفسي ، وما اعتاده الأكابر من الخصوصية بين الأتباع ، ومظهر هذه الخصوصية الأول هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع ! . واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر في نفوسهم ، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العدا . ويرد الله على قولتهم المنكرة الغبية . أولاً بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير . ويرد عليهم ثانياً بالتهديد والتحقير وسوء المصير (الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) إن الرسالة أمر هائل خطير . أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد . ويتصل فيه الملائ الأعلى بعالم الإنسان المحدود . وتتصل فيه السماء بالأرض ، والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلي ، والله وحده - سبحانه - هو الذي يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التي تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها: أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير . والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ؛ أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول . هم أولاً من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر . فهم يتخذون من ذاتهم محورا للوجود الكوني ! والرسول من طبيعة أخرى ، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً ، ويهب لها نفسه ، وينسى فيها ذاته ، ويؤتاها من غير تطالع ولا ارتقاب: (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ، إلا رحمة من ربك) . ثم هم بعد ذلك جهال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل ، ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح لذلك يجيبهم الرد الحاسم (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقد جعلها سبحانه حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم ، حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين . ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) والصغار عند الله يقابل الاستعلاء عند الأتباع ، والاستكبار عن الحق ، والتطاول إلى مقام رسل الله ! . والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد ، والعداء للرسول ، والأذى للمؤمنين . ثم تختم الجولة بتصوير حالة الهدى وحالة الإيمان في داخل القلوب والنفوس (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) من يقدر الله له الهداية - وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء (يشرح صدره للإسلام) فيتسع له ويستقبله في يسر ورغبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ؛ ويستروح به ويستريح له . ومن يقدر له الضلال - وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه . يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله ، (كأنما يصعد في السماء) . وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية ، من ضيق النفس ، وكربة الصدر ،

والرهق المضني في التصعد إلى السماء ! وبناء اللفظ ذاته يصعد - كما هو في قراءة حفص - فيه هذا العسر والقبض والجهد . وجرسه يخيل هذا كله ، فيتناسق المشهد الشاخص ، مع الحالة الواقعة ، مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد . وينتهي المشهد بهذا التعقيب المناسب (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) كذلك . . بمثل هذا الذي يجري به قدر الله من شرح صدر الذي يريد الله به الهدى ، ومن العسر والجهد والمشقة لمن يريد به الضلال . . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

ومن معاني الرجس العذاب . ومن معانيه كذلك الارتكاس - وكلاهما يلون هذا العذاب بمشهد الذي يرتكس في العذاب ويعود إليه ولا يفارقه ! وهو الظل المقصود !

على أنه تبقى في النفس بقية من الحديث عن قوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) . . إن تصور الحقيقة التي يقرها هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم من النصوص التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله - سبحانه - واتجاهات البشر ؛ وما يصيبهم من الهدى والضلال ، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب . . إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني ! وكل ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء في تاريخ الفكر الإسلامي ، وبخاصة بين المعتزلة وأهل السنة والمرجئة - أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة - وكل القضايا والتعبيرات عنها ، موسومة بطابع المنطق الذهني . إن تصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني . وكذلك يقتضي التعامل مع "الواقع الفعلي" لا مع "القضايا الذهنية" . فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكيئونة البشرية وفي الوجود الواقع ؛ وهذه الحقيقة بتراعى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله . في محيط لا يدرکه المنطق الذهني كله . فإذا قيل: إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضلال . . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية . وإذا قيل: إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله . . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك ! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة - وغيبية كذلك - بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل ، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي . بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم . . ولكن تصور الحقيقة "الفعلية" كما هي في واقعها هذا لا يمكن أن يتم في حدود المنطق الذهني . وفي شكل القضايا الذهنية والعبارة البشرية عنها . . إن نوع الحقيقة هو الذي يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها . . وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق الذهني ولا القضايا الجدلية . كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تنوq كامل في تجربة روحية وعقلية . . إن الذي تتجه فطرته إلى الإسلام يجد في صدره انشراحا له . . هو من صنع الله قطعاً . . فالانشراح حدث لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه . والذي تتجه فطرته إلى الضلال يجد في صدره ضيقاً وتقبضا وعسراً . . هو من صنع الله قطعاً . . لأنه حدث لا يتم وقوعه الفعلي إلا بقدر من الله يخلقه ويجري به كذلك . . وكلاهما من إرادة الله بالعبد . . ولكنها ليست إرادة القهر . إنما هي الإرادة التي أنشأت السنة الجارية النافذة من أن يتبلى هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة . وأن يجري قدر الله بإنشاء ما يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة في الاتجاه للهدى أو للضلال . وحين توضع قضية ذهنية في مواجهة قضية ذهنية . وحين يتم التعامل مع هذه القضايا ، بدون استصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة ، والتجربة الواقعية في التعامل معها ، فإنه لا يمكن أبداً أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة . . وهذا ما وقع في الجدل الإسلامي . . وفي غيره كذلك ! إنه لا بد من منهج آخر ومن تنوq مباشر للتعامل مع هذه الحقيقة الكبيرة .

(وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ {126} لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيَهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {127} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالِ الْنَّارُ مِثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {128} وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {129} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ {130} ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ {131} وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ {132} وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ {133} إِنْ مَا تَوَعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ {134} قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {135}

(وهذا صراط ربك مستقيماً . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) هذا هو الصراط . . صراط ربك . . بهذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة ؛ المبشرة بالنهاية . . هذه هي سنته في الهدى والضلال ؛ وتلك هي شريعته في الحل والحريم . كلاهما سواء في ميزان الله ، وكلاهما لحمية في سياق قرآنه . (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليهم) بعد ما بين مصير الذين يستقيمون على صراط الله - وهو من ناحية استطراد في قضية الإيمان والكفر التي تذكر في هذا الموضوع من السورة بمناسبة قضية الحاكمية والتشريع . وربط لهذه القضية الأخيرة بالحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية ؛ ومنها حقيقة الجزاء في الآخرة على الكسب في الدنيا - بعد النذارة والبشارة - وحقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم وبالناس جميعاً واستبدال غيرهم بهم ، وحقيقة ضعف البشر جملة أمام بأس الله . وكلها حقائق عقيدية تذكر في معرض الحديث عن التحليل والتحريم في الذبائح - قبلها ... لقد مضى في الحلقة السابقة حديث عن الذين يشرح الله صدورهم للإسلام ؛ فبقى قلوبهم ذكرة لاتغفل ؛ وأنهم ماضون إلى دار السلام ، منتهون إلى ولاية ربهم وكفالتهم . . فالآن يعرض الصفحة المقابلة في المشهد - على طريقة القرآن الغالبة في عرض "مشاهد القيامة" - يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وخداعاً وإضلالاً ؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبي ؛ ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين في ما شرعه الله لهم من الحلال والحرام . . يعرضهم في مشهد شاخص حي ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب ، فائض بالحياة التي تزخر بها مشاهد القيامة في القرآن (ويوم يحشرهم جميعاً: يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ! قال: النار مثواكم خالدين فيها - إلا ما شاء الله - إن ربك حكيم عليهم . . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . . يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا: شهدنا على أنفسنا ! وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) إن المشهد يبدأ معروضا في المستقبل ، يوم يحشرهم جميعاً . . ولكنه يستحيل واقعا للسامع يتراءى له مواجهة . وذلك بحذف لفظة واحدة في العبارة . فتقدير الكلام (ويوم يحشرهم جميعاً) - فيقول - (يا معشر الجن والإنس . .) ولكن حذف كلمة - يقول - ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ؛ ويحيل السياق من مستقبل ينتظر ، إلى واقع ينظر ! وذلك من خصائص التصوير القرآني العجيب . . فلنتابع المشهد الشاخص المعروض (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس !) استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحائكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم . . وهو إخبار لا يقصد به الإخبار فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة - جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذي نكاد نلمحه في المشهد المعروض ! - ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التي تتجمع قرآنها الحية في هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء . . ولكن الأعرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون (وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا (وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة في هؤلاء الأتباع ؛ كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم في دار الخداع . . لقد كانوا يستمعون باغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار ، ومن المكابرة والاستهتار ، ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأعرار الأغفال . . كانت تستهويهم وتعبث بهم ؛ وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس في عالم الإنس ! وهؤلاء الأعرار المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعاً متبادلاً ، وأنهم كانوا يمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون (ربنا استمتع بعضنا ببعض !) . . ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة ، حتى حان الأجل ، الذي يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذي أمهلهم إليه ؛ وأنهم كانوا في قبضته في أثناء ذلك المتاع (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا !) عند ذلك يجيء الحكم الفاصل ، بالجزاء العادل (قال: النار مثواكم خالدين فيها - إلا ما شاء الله -) فالنار مثابة ومأوى . والمثوى للإقامة . وهي إقامة الدوام . . (إلا ما شاء الله) لتبقى صورة المشينة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي . فطلاقة المشينة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور . والمشينة لا تنحبس ولا تتقيد . ولا في مقرراتها هي (إن ربك حكيم عليهم) يمضي قدره بالناس عن حكمة وعن علم ؛ يفرد بهما الحكيم العليم . . وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد ، يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهي (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) . . يمثل هذا الذي قام بين الجن والإنس من ولاء ؛ ويمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير . . يمثل ذلك ، وعلى قاعدته ، نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . . نجعل بعضهم أولياء بعض ؛ بحكم ما بينهم من تشابه في الطبع والحقيقة ؛ وبحكم ما بينهم من اتفاق في الوجهة والهدف ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة في المصير . . وإننا لنشهد في هذه الفترة - ومنذ قرون كثيرة - تجمعاً ضخماً لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين - على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها - ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى

سحق طلائع حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها . وهو تجمع رهيب فعلا ، تجتمع له خبرة عشرات القرون في حرب الإسلام ، مع القوى المادية والثقافية ، مع الأجهزة المسخرة في المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة . . وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) كما ينطبق عليه تضمين الله لئيبه □ (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) ولكن هذا التطمين يقتضي أن تكون هناك العصبة المؤمنة التي تسير على قدم رسول الله ﷺ وتعلم أنها تقوم مقامه في هذه المعركة المشبوبة على هذا الدين ، وعلى المؤمنين ، ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير (يا معشر الجن والإنس ، ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهو سؤال للتقرير والتسجيل . قاله - سبحانه - يعلم ما كان من أمرهم في الحياة الدنيا . والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء في الآخرة . . والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس . . فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر . ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به . كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا: انصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ...) فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة . . والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه ! وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه . إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ؛ كما أنه للتأنيب والتوبيخ ؛ فأخذوا في الاعتراف الكامل ؛ وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه (قالوا:شهدنا على أنفسنا) وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول (وغرتهم الحياة الدنيا ؛ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا . فقد غرتهم هذه الحياة ؛ وقادهم الغرور إلى الكفر . ثم ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ؛ حيث لا تجدي المكابرة والإنكار . . فاي مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المازق ، الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع ! وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار ؛ وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا . . ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار ؛ وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم [أي بشركهم] إلا بعد أن ينهوا من غفلتهم ؛ وتقص عليهم الآيات ، وينذرهم المنذرون (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى - بظلم - وأهلها غافلون) لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل ، على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها - فقد تضل هذه الفطر - وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك - فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات - وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات - فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشري . لقد ناط بالرسول والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام لا واستنقاذ العقل من الانحراف ، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس . وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار . ثم يقرر السياق حقيقة أخرى في شأن الجزاء . . للمؤمنين وللشياطين سواء (ولكل درجات مما عملوا . وما ربك بغافل عما يعملون) فالمؤمنين درجات: درجة فوق درجة . وللشياطين درجات: درجة تحت درجة ! وفق الأعمال . والأعمال مرصودة لا يغيب منها شيء: (وما ربك بغافل عما يعملون) إنها طرقات قوية وإيقاعات عنيفة على قلوب الظالمين من شياطين الإنس والجن الذين يمكرون ويتطاولون ، ويحرمون ويحللون ، ويجادلون في شرع الله بما يشرعون . . وهم هكذا في قبضة الله بيقينهم كيف شاء ، ويذهب بهم أنى شاء ، ويستخلف من بعدهم ما يشاء . . كما أنها إيقاعات من التثبيت والطمأنينة والثقة في قلوب العصبة المسلمة ، التي تلقى العنت من كيد الشياطين ومكرهم ؛ ومن أذى المجرمين وعدائهم . . فهؤلاء هم في قبضة الله ضعافا حتى وهم يتجربون في الأرض ويمكرون ! ثم إيقاع تهديدي آخر: (إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين) إنكم في يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين . . ويوم الحشر الذي شاهدتم (قل:يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون) إنه تهديد الواثق من الحق الذي معه ، والحق الذي وراءه ؛ ومن القوة التي في الحق ، والقوة التي وراء الحق . . التهديد من الرسول ﷺ بأنه نافض يديه من أمرهم ، واثق مما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، وواثق من مصيرهم الذي هم إليه منتهون (إنه لا يفلح الظالمون) فهذه هي القاعدة التي لا تتخلف . إنه لا يفلح المشركون ، الذين يتخذون من دون الله أولياء . وليس من دون الله ولي ولا نصير . والذين لا يتبعون هدى الله . وليس وراءه إلا الضلال البعيد وإلا الخسران المبين . .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ {136} وكذلك زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ {137} وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سِيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {138} وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سِيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {139} قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ {140} وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّبَانَ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مِثْلَهَا مِثْلَهَا كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا يَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ {141} وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ {142} ثَمَانِيَةٌ أَرْوَاحٌ مِنَ الضَّالِّينَ وَمِنَ الْمُعْزِئِينَ قُلِ الذِّكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ الْأَنْثِيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَيْنِ نَبَوِيُّنِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {143} وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذِّكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ الْأَنْثِيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَضَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {144} قُلِ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ لُغْمًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {145} وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُنْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {146} فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {147} سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَلْسًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُمْ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ {148} قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ {149} قُلْ هَلْ مِنْ شَهِدَاءَ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرْبِهِمْ يَعْبُدُونَ {150} قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِهْلَاقٌ تَحْنُ نُرْزِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا النِّسَاءَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَضَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {151} وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نَكْأَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَضَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {152} وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَضَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {153}

وقبل أن نمضي في مواجهة النصوص تفصيلا ، نحب أن نعيش في ظلال السياق القرآني بجملته . . لنرى محتوياته على وجه الإجمال . ولنرى دلالاته وإيحاءاته كذلك . . إنه يبدأ بعرض مجموعة التصورات والمزاعم الجاهلية حول ما كانوا يزاولونه في شأن الثمار والأنعام والأولاد - أي في شأن المال والاجتماع - في جاهليتهم . فنجد هذه التصورات والمزاعم تتمثل في:

1 - تقسيمهم ما رزقهم الله من رزق ، وأنشأ لهم من زروع وأنعام ، إلى قسمين: قسم يجعلونه لله - زاعمين أن هذا مما شرعه الله - وقسم يجعلونه لشركائهم - وهي الآلهة المدعاة التي يشركونها في أنفسهم وأموالهم وأولادهم من دون الله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرت والأنعام نصيبا . فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا)!

2 - أنهم بعد ذلك ، يجورون على النصيب الذي قسموه لله . فيأخذون جانبا منه ويضمونه إلى ما قسموه لشركائنا ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما قسموه للشركاء !: (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم)!

3 - أنهم يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء - وهم في هذه الحالة إنما هم الكهان والمشترعون فيهم - ممن يصنعون التقاليد التي يخضع لها الأفراد في المجتمع ، بحكم الضغط الاجتماعي من ناحية ، وحكم التأثير بالأساطير الدينية من ناحية - وكان هذا القتل يتناول البنات مخافة الفقر والعار . كما قد يتناول الذكور في الندور ، كالذي نذره عبد المطلب أن لو رزقه الله عشرة أبناء

يحمونه ليذبحن أحدهم للآلهة ! (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم)!

4 - أنهم كانوا يحجزون بعض الأنعام وبعض الزروع ؛ فيزعمون أنها لا تطعم إلا بإذن خاص من الله - هكذا يزعمون ! - كما كانوا يمنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب ، ويمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو الركوب أو لا يركبونها في الحج لأن فيه ذكر الله . مع الزعم بأن هذا كله قد أمر الله به .: (وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - !).

5 - وأنهم كانوا يسمون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم ، ويجعلونه محرماً على إناثهم . إلا أن ينزل الحمل ميتاً فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث ! مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله: (وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليهم) .

هذه هي مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التي كانت تصبغ وجه المجتمع العربي في الجاهلية ، والتي يتصدى هذا السياق القرآني الطويل - في سورة مكية - للقضاء عليها ، وتطهير النفوس والقلوب منها ، وإبطالها كذلك في الواقع الاجتماعي .

ولقد سلك السياق القرآني هذا المنهج في خطواته البطيئة الطويلة الدقيقة:

لقد قرر ابتداء خسران الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - وأعلن ضلالهم المطلق في هذه التصورات والمزاعم التي ينسبونها إلى الله بغير علم .

ثم لفت أنظارهم إلى أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها هذه التصرفات . . هو الذي أنشأ لهم جنات معروشات وغير معروشات . وهو الذي خلق لهم هذه الأنعام . . والذي يرزق هو وحده الذي يملك ، وهو وحده الذي يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال . . وفي هذه اللفتة استخدم حشداً من المؤثرات الموحية من مشاهد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات ، ومن نعمة الله عليهم في الأنعام التي جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرساً ، يؤكل لحمه ويفرش جلده وصوفه وشعره . . كما استخدم ذكرى العداة المتأصل بين بني آدم والشيطان . فكيف يتبعون خطوات الشيطان ، وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين !

بعد ذلك استعرض في تفصيل شديد سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام ، وخلوها من كل منطق ، وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى لتبدو تافهة مهلهلة متهافئة . . وفي نهاية هذا الاستعراض يسأل: علام ترتكون في هذه التشريعات الخالية من كل حجة ومنطق: (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟) فكان ذلك سرا تعلمونه أنتم ووصية خاصة بكم ! ويشنع بجريمة الافتراء على الله ، وإضلال الناس بغير علم . ويجعل

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون !).

يقرر السياق - وهو يصف تصورات الجاهلية وتقاليدها في الحرث والأنعام - أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء . . ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه سبحانه جزءاً ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءاً [وطبيعي أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهي إليهم هذا الجزء الأخير !] . ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذي جعلوه لله . على النحو الذي تقرر الآية !

عن ابن عباس قال: كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزماً ، جعلوا منه لله سهماً وسهما لألهتهم . وكانت إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لألهتهم إلى الذي جعلوه لله رده إلى الذي جعلوه لألهتهم . وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوها لله إلى الذي جعلوه لألهتهم ، أقروه ولم يردوه . فذلك قوله: (ساء ما يحكمون).

هذا هو ما كان شياطين الإنس والجن يوحون به إلى أوليائهم ليجادلوا به المؤمنين في الأنعام والزروع . وظاهر في هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين في هذا الذي يزينونه لأوليائهم . فأما مصلحة شياطين الإنس - من الكهنة والسدنة والرؤساء - فهي متمثلة أولاً في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء ، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات

باطلة وعقائد فاسدة ! ومتمثلة ثانيا في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ؛ وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة ! . . . وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجلح الإغواء والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم ، ويفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم ذللا إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة ! وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب ، وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى: للإغريق والفرس والرومان ، والتي ما تزال تقع في الهند وإفريقية وآسيا . . . هذه الصور كلها ليست إلا صورا من التصرف في المال لا تقتصر عليها الجاهلية ! فالجاهلية الحاضرة تتصرف كذلك في الأموال بما لم يأذن به الله . وعندئذ تلتقي في الشرك مع تلك الجاهليات القديمة . تلتقي في الأصل والقاعدة . فالجاهلية هي كل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله . ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف . . . فإن هي إلا أشكال . . . (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) .

يقول: وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم . وذلك ما كانوا يفعلونه من وآد البنات خشية الإملاق - أو خشية السبي والعار - ومن قتل بعض الأبناء في النذر للآلهة كالذي روي عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه ! وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية . العرف الذي وضعه الناس للناس . والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن . . . من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس ، ومن القراء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والموالة فيما بينهم ! والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين (ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم) ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح . . . فأما الهلاك فيتمثل ابتداء في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيرا في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها ، وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم ! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرا من الخضوع . لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتتشى ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس . ما لم تعتصم منه بدين واضح ؛ وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت . إنه فعل الشياطين . . . شياطين الإنس والجن . . . وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها . . . وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة . ومواجهة للواقع المنحرف دائما وورده إلى صراط الله المستقيم . . . ومع ضخامة الكيد ، وثقل الواقع ، فإن السياق القرآني يهون أمر الجاهلية ، ويكشف عن الحقيقة الكبرى التي قد يخدع عنها هذا الجانب الظاهر . . . إن هؤلاء الشياطين وأولياءهم لفي قبضة الله وسلطانه . وهم لا يفعلون ما يفعلونه بقدرة ذاتية فيهم . ولكن بترك الحبل ممدودا لهم قليلا ؛ بمشيئة الله وقدره ، تحقيقا لحكمة الله في ابتلاء عباده . ولو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه . ولكنه شاء للابتلاء . فلا على النبي ﷺ ولا على المؤمنين . فليمضوا في طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيبون (ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون) ولا بد أن نذكر أنهم ما كانوا يجرؤون على أن يقولوا: إن هذه التصورات والتصرفات من عند أنفسهم . إنما يفترون على الله ، فيزعمون أنه هو شرعها لهم . . . ينسبون لها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل - بزعمهم ! كذلك يفعل الشياطين اليوم في الجاهليات الحديثة . . . إن معظمهم لا يستطيع أن يتبجح بتبجح الشيوعيين الملحديين ؛ (وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون) قال أبو جعفر بن جرير الطبري: " وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن هؤلاء الجهلة من المشركين . إنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم ، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك . وهنا كذلك تبدو لنا أساليب الجاهلية ، التي تتكرر في معظم الجاهليات ، وذلك قبل أن يبلغ التبجح بناس من البشر أن يقولوا بمادية الوجود ! وقبل أن يبلغ التبجح ببعض من لا ينكرون الله البتة ، أن يجهروا بأن "الدين" مجرد "عقيدة" وليس نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا ، يهيمن على الحياة !

وإن كان ينبغي أن ندرك دائما أن أسلوب الجاهلية التي تقيم نظاما أرضيا ، الحاكمية فيه للبشر لا لله ، ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية . . . أن ندرك أن هذا الأسلوب هو أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق ! ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إلى هذا الأسلوب في المنطقة التي كانت يوما دار إسلام تحكم بشريعة الله . بعدما تبين لها فشل التجربة التركية التي قام بها البطل الذي صنعه هناك ! . . . لقد أدت لهم هذه التجربة دورا هاما في تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض ، ولكنها بعلمانيتها السافرة قد عجزت عن أن تكون نموذجا يؤثر في بقية المنطقة . لقد انخلعت من الدين ، فأصبحت أجنبية عن الجميع ، الذين ما يزال

الدين عاطفة غامضة في قرارات نفوسهم . . ومن ثم عمدت الصليبية العالمية والصهيونية في التجارب التالية ، التي تستهدف نفس الهدف ، أن تتدارك غلطة التجربة الكمالية التركية . فتضع على هذه التجارب ستارا من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضي عليه هذه الصفة ، سواء بالدعاية المباشرة ؛ أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ما عباها سليم ! وكان هذا من أخبث الكيد الذي تكديه شياطين الإنس والجن لهذا الدين . . على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التي تعمل بكل نقلها في هذه الفترة ، وبكل تضامنها وتجمعها ، وبكل تجاربها وخبرتها ، تحاول أن تسترد الغلطة في التجربة التركية ذاتها ، بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت حركة من حركات البعث الإسلامي ! وأننا يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها [علمانية] تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلا !

ويجهد المستشرقون [وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبي الصهيوني] في تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهدا كبيرا . . ذلك أن انكشاف إحادها جعلها تؤدي دورا محدودا . . وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض . . ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدي الدور الآخر - الذي تحاول أن تؤديه التجارب التالية في المنطقة - من تفريغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية في أوضاع وأشكال جاهلية ! ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصلية باسم الدين أيضا . ومن إلباس الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدي به دورها في كل البقاع التي ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ؛ وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية . . الأمر الذي عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مائة عام ، من الكيد للإسلام ! (سيجزيهم بما كانوا يفترون) (وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن مبيتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم) لقد استطردوا في أوهام التصورات والتصرفات ، النابعة من انحرافات الشرك والوثنية ، ومن ترك أمر التحليل والتحرير للرجال ؛ مع الادعاء بأن ما يشرعه الرجال هو الذي شرعه الله . استطردوا في هذه الأوهام فقالوا عن الأجنة التي في بطون بعض الأنعام - ولعلها تلك المسماة بالبحيرة والسائبة والوصيلة - إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج ، محرمة على الإناث ، إلا أن تكون مبيتة فيشارك فيها الإناث الذكور . . هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل ، إلا أهواء الرجال التي يصوغون منها دينا غامضا ملتبسا في الأفهام . ويعقب السياق القرآني تعقيب التهديد ؛ لمن صاغوا هذه الشرائع وكذبوا على الله فوصفوها بأنها من شرع الله (سيجزيهم وصفهم) . (إنه حكيم عليم) يعلم حقائق الأحوال ، ويتصرف فيها بحكمة ، لا كما يتصرف هؤلاء المشركون الجهال . ألا إنها الخسارة الفادحة - هنا في الدنيا قبل الآخرة - حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم ؛ وتتردى في حمأة الجاهلية ؛ وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد (قد خسر الذين قتلوا أولادهم - سفها بغير علم - وحرمو ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين) . . خسروا الخسارة المطلقة . خسروا في الدنيا والآخرة . خسروا أنفسهم وخسروا أولادهم . خسروا عقولهم وخسروا أرواحهم . خسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذي لا هداية فيه (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) بعد ذلك يردهم السياق إلى الحقيقة الأولية التي ضلوا عنها ، والتي أشار إليها إشارة في أول هذا الحديث بقوله: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) . . يردهم إلى مصدر الحرث والأنعام التي يتصرفون في شأنها هذه التصرفات ؛ ويتلقون في شأنها من شياطين الإنس والجن الذين لم يخلقوها لهم ولم ينشئوها . . إن الله هو الذي ذرأ الحرث والأنعام ، متاعا للناس ونعمة ؛ نراها لهم ليشكروا له ؛ ويعبدوه - وما به سبحانه من حاجة إلى شكرهم وعبادتهم ، فهو الغني ذو الرحمة ؛ إنما هو صلاح حالهم في دينهم وديانهم - فما بالهم يحكمون من لم يخلق شيئا ، فيما ذرأ الله من الحرث والأنعام ؛ وما بالهم يجعلون لله نصيبا ، ولأولئك نصيبا ، ثم لا يقفون عند هذا الحد فيتلاعبون - تحت استهواء أصحاب المصلحة من الشياطين - في النصيب الذي جعلوه لله !

إن الخالق الرازق هو الرب المالك . الذي لا يجوز أن يتصرف في هذا المال إلا بإذنه ممثلا في شرعه . وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعي الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله ! (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان ، متشابها وغير متشابهه . كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين) إن الله - سبحانه - هو الذي خلق هذه الجنات ابتداء - فهو الذي أخرج الحياة من الموت - وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التي يتعدها الإنسان بالعرانش والحوائط ؛ ومنها البريات التي تنبت بذاتها - بقدر الله - وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم . وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان ، منوع النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان ، منوع الصنوف متشابها وغير متشابهه ، وإنه - سبحانه - هو الذي خلق هذه الأنعام وجعل منها (حمولة)عالية

القوائم بعيدة في الأرض حمالة للأثقال . وجعل منها (فرشا) صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش . وعندما يذكر الزروع والثمار يقول (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذي جعل بعض الروايات تقول عن هذه الآية إنها مدنية . وقد قلنا في التقديم للسورة: إن الآية مكية ، لأن السياق في الجزء المكي من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية . فإن ما بعدها يتقطع عما قبلها لو كانت قد تأخرت حتى نزلت في المدينة . وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات في الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة . . أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حدثتها السنة بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة . وقوله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روي أنهم تباروا في العطاء حتى أسرفوا ، فقال الله سبحانه: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وعندما يذكر الأنعام يقول (كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين) ذلك ليذكركم أن هذا رزق الله وخلقته ، والشيطان لم يخلق شيئا . فما بالهم يتبعونه في رزق الله ؟ ثم ليذكركم أن الشيطان لهم عدو مبين . فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ! ثم يأخذ السياق في مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية ، ليلقي عليها الضوء ، ويستعرضها واحدا واحدا ، وجزئية جزئية ؛ فيكشف فيها عن السخف الذي لا يمكن تعليقه ولا الدفاع عنه ؛ والذي قد يخجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له في النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير (ثمانية أزواج: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل: الذكركين حرم أم الأنثيين ؟ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ! ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل: الذكركين حرم أم الأنثيين ؟ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين) فهذه الأنعام التي يدور حولها الجدل ؛ والتي ذكر في الآية السابقة أن الله خلقها لهم ، هي ثمانية أزواج - وكل من الذكر والأنثى يطلق عليه لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه - زوج من الضأن وزوج من المعز . فاي منها حرمه الله على أي من الناس ؟ أم إنه حرم أجنحتها في البطون (نبتوني بعلم إن كنتم صادقين) فهذه الشئون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم . وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى من البقر . فأيتها كذلك حرم ؟ أم أجنحتها هي التي حرّمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟) . . فحضرتهم وشهدتهم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم . فما ينبغي أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون . وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد . . وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذي شرع هذا الذي يشرعونه . لذلك يعاجلهم بالتحذير والتهديد (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم . إن الله لا يهدي القوم الظالمين) إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول: شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن . . أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى . وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . . والله لا يهدي القوم الظالمين . .

والآن وقد كشف لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحى شياطينهم وشركائهم ، بينما هؤلاء لم يخلقوا لهم ، إنما الذي خلقها لهم هو الله ، الذي يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد . .

الآن يقرر لهم ما حرّمه الله عليهم من هذا كله . ما حرّمه الله حقا عن بينة ووحى ، لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذي إذا حرم الشيء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ؛ بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع . . وبالمناسبة يذكر ما حرّمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله ! (قل: لا أجد فيما أوحى إليّ محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر - غير باغ ولا عاد - فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرما كل ذي ظفر . ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم بغيرهم وإنما لصادقون . فإن كذبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) قال أبو جعفر بن جرير الطبري (يقول - جل ثناؤه - لنبيه محمد ﷺ قل ، يا محمد ، لهؤلاء الذين جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، ولشركائهم من الآلهة والأنناد مثله . والقائلين: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشأ - بزعمهم - والمحرمين من أنعام آخر ظهورها ، والتاركين ذكر اسم الله على آخر منها . والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم ، ومحليه لذكورهم .

المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله ؛ وإضافة ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرمه عليهم: أجاكم من الله رسول بتحريمه ذلك عليكم ، فأثبتونا به ، أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له ، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه ؟ فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك ، ولا يمكنكم دعواه ، لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم . فإني لا أجد فيما أوجي إلى من كتابه وأي تنزيله شيئا محرما إذا أكل يأكله ، مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرم عليكم منها - بزعمكم - إلا أن يكون لحم خنزير (فإنه رجس) . (أو فسقا) يقول: أو إلا أن يكون فسقا ، يعني بذلك: أو إلا أن يكون مذبوحا ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وألته فذكر اسم وثنه . فإن ذلك الذبح فسق ، نهى الله عنه وحرمه ، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك لأنه ميتة . وهذا إعلام من الله - جل ثناؤه - للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوه به ، أن الذي جادلوه فيه من ذلك هو الحرام الذي حرمه الله ، وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله" . . . وقال في تأويل قوله تعالى: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) (أن معناه: فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ في أكله إياه تلذذا ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عاد في أكله بتجاوزه ما حده الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك . . . لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه . . . فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك . (فإن الله غفور) فيما فعل من ذلك ، فسأتر عليه ، بتركه عقوبته عليه . ولو شاء عقوبته عليه . (رحيم) بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه . ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه" أما حد الاضطرار الذي يباح فيه الأكل من هذه المحرمات ؛ والمقدار المباح منها فحولهما خلافات فقهية . . . فرأى أنه يباح ما يحفظ الحياة فقد عند خوف الهلاك لو امتنع . . . ورأى أنه يباح ما يحقق الكفاية والشع . . . ورأى أنه يباح فوق ذلك ما يدخر لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . . . ولا ندخل في تفصيلات الفروع . . . فهذا القدر منها يكفي في هذا الموضوع . فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذي ظفر من الحيوان - أي كل حيوان قدمه غير مشقوق ؛ وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط . وحرم كذلك شحم البقر والغنم - إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأعضاء ، أو ما اختلط منه بالعظم . . . وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه (وعلى الذين هادوا حرمانا كل ذي ظفر . ومن البقر والغنم حرمانا عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون) والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهو سبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق ، لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذي حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه . . . لقد كان هذا مباحا حلالا ليعقوب . ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا ، فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات (فإن كذبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمنا من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته - سبحانه - تسع المحسن والمسيء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلما منه ورحمة . فإن بعضهم قد يثوب إلى الله . . . ولكن بأسه شديد لا يرد عنه المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم . وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالباس . والله الذي خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذلك ؛ لعلها تهتز وتلتقى وتستجيب . وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضيق الخناق عليهم ، وسد النرائع في وجوههم ، يواجه مهربهم الأخير الذين يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم . . . إنهم يقولون: إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال . فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء:

(سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا ، ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل: فقله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) وقضية الجبر والاختيار أكثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة . . . وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هذا الجدل ، فتعقد تعقيدا لا تعرفه العقليّة الإسلامية الواضحة الواقعية . . . ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد ، ما اشتد هذا الجدل ، وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه . ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه ، فنجد قضية واضحة بسيطة محددة: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء) . . . فهم يحيلون شركهم هم وأباؤهم ، وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله ، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل . . . يحيلون هذا كله على مشيئة الله بهم . فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا . . . فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة ؟ لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا)

وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر ، وتوقظ من الغفلة ، وتوجه إلى العبرة . . واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر . . إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات . . وهذا ما يمكن أن يعلموه علما مستيقنا . . فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقينا فكيف يحيلون عليه (قل:هل عندكم من علم فخرجه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون). . إن لله أوامر ونواهي معلومة علما قطعيا ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه ؟ هذا هو فصل القول في هذه القضية . . إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ، ليكيفوا أنفسهم على حسبها . . وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . . وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذ - في واقعها العملي - بسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته ! إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى . أو يقذف بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته . . وجرت سنته بما شاء . . (قل: فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين). قضية واضحة ، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري . فأما المعاظلة فيها والمجادلة فهي غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي . . ولم ينته الجدل فيها في أية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة . لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها . . وأخيرا بوجه الله - سبحانه - رسوله ﷺ إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة: في أوائل السورة قال له) قل: أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهد بيني وبينكم ، وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؛ قل: لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون). . وهنا قال له (قل:هل شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون). . إنها مواجهة هائلة ، ومواجهة كذلك فاصلة . ودلالاتها على طبيعة هذا الدين غير خافية . . إن هذا الدين يسوي بين الشرك العلني الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله ؛ وبين الشرك الآخر الذي يتمثل في مزاوله حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله - دون اعتبار لما يدعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة الله ! - كما أنه يصم الذين يرتكبون هذه الفعلة بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون . . أي يجعلون له أندادا تعدله . . وهو ذات التعبير الذي جاء في أول آية في السورة وصفا للذين كفروا (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) هذا حكم الله على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس - دون اعتبار لدعواهم أن ما يشرعونه هو من شريعة الله ! - وليس بعد حكم الله رأي لأحد في هذه القضية الخطيرة . فإذا أردنا أن نفهم لماذا يقضي الله - سبحانه - بهذا الحكم ؟ ولماذا يعدهم مكذبين بآياته ؛ غير مؤمنين بالآخرة ، مشركين يعدلون بربهم غيره . . فإن لنا أن نحاول الفهم . فتدبر حكمة الله في شرعه وحكمه أمر مطلوب من المسلم . . وسنجد إلى جانب ما حرّمه بعض التكاليف الإيجابية التي لها مقابل محرم . وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول . . وهو الشرك بالله . . لأن هذه هي القاعدة الأولى التي يجب أن تتقرر ، لتقوم عليها المحرمات والنواهي ، لمن استسلم لها وأسلم (قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم:ألا تشركونا به شيئا . وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا تكلف نفسا إلا وسعها - وإذا قتلتم قاعدلوا - ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وننظر في هذه الوصايا - التي ترد في السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها - فإذا هي قوام هذا الدين كله . . إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجبالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدت بتوحيد الله . . وننظر في ختام هذه الوصايا ، فإذا الله - سبحانه وتعالى - يقرر أن هذا صراطه المستقيم ؛ وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل . . الوحيد . . إنه أمر هائل هذا الذي تتضمنه الآيات الثلاث . . أمر هائل يجيء في أعقاب قضية تبدو كأنها لمحة جانبية من الجاهلية ؛ ولكنها في الحقيقة هي قضية هذا الدين الأساسية ؛ بدلالة ربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية (قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم). قل:تعالوا أقص عليكم ما حرّمه عليكم ربكم - لا ما تدعون أنتم أنه حرّمه بزعمكم - ! لقد حرّمه عليكم (ربكم) الذي له وحده حق الربوبية - وهي القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية - وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه . فالذي يحرم هو "الرب" والله هو وحده الذي

يجب أن يكون ربا (ألا تشركوا به شيئا) . القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة ؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض ، وتستمد منها الحقوق والواجبات . القاعدة التي يجب أن تقوم أولا قبل الدخول في الأوامر والنواهي ؛ وقبل الدخول في التكاليف والفرائض ، وقبل الدخول في النظام والأوضاع ؛ وقبل الدخول في الشرائع والأحكام . يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم ؛ لا يشركون معه أحدا في ألوهيته ، ولا يشركون معه أحدا في ربوبيته كذلك . يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار ؛ ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ؛ ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء . إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة ، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد . إن الشرك - في كل صورته - هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم . وهو المنكر الأول الذي يجب حشدا لإنكار كله له ؛ حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله ، ولا رب لهم إلا الله ، ولا حاكم لهم إلا الله ، ولا مشرع لهم إلا الله . كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله . . وإن التوحيد - على إطلاقه - لهو القاعدة الأولى التي لا يغني عنها شيء آخر ، من عبادة أو خلق أو عمل . . من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة ألا تشركوا به شيئا . . وينبغي أن نلتفت إلى ما قبل هذه الوصايا ، لنعلم ماذا يراد بالشرك الذي ينهى عنه في مقدمة الوصايا - لقد كان السياق كله بصدد قضية معينة - قضية التشريع ومزاولة حق الحاكمية في إصداره - وقبل آية واحدة كان موقف الإشهاد الذي يحسن أن نعيد نصه (قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون) . . يجب أن نذكر هذه الآية ، وما قلناه عنها في الصفحات السابقة لنذكر ماذا يعني السياق القرآني هنا بالشرك الذي ينهى عنه ابتداء . . إنه الشرك في الاعتقاد ، كما أنه الشرك في الحاكمية . فالسياق حاضر ، والمناسبة فيه حاضرة . . إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا . في موضع من السياق القرآني يحدد المعنى بالشرك الذي تبدأ بالنهي عنه جميع الوصايا ! إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط ؛ وبالقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية . . فلا تظلم نهبها لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح مع الشهوات والنزوات (وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) إنها رابطة الأسرة باجبالها المتلاحقة - تقوم بعد الرابطة في الله ووحدة الاتجاه - ولقد علم الله - سبحانه - أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء . فأوصى الأبناء بالآباء ، وأوصى الآباء بالأبناء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المنفردة . وقال لهم: إنه هو الذي يكفل لهم الرزق ، فلا يضيّقوا بالتبعات تجاه الوالدين في كبرتهما ؛ ولا تجاه الأولاد في ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعا (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ولما وصاهم الله بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها - كما يقوم عليها المجتمع كله - وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها . . فهو نهي مرتبط تماما بالوصية السابقة عليها . . وبالوصية الأولى التي تقوم عليها كافة الوصايا . إنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تترزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش: كل ما أفحش - أي تجاوز الحد - وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص (الفواحش) هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهاك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والاستتارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستسر في الضمير ومنها البادي في الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف ! وكلها مما يحطم قوام الأسرة ، وينخر في جسم الجماعة ، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ، ويحقر من اهتماماتهم ، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد . . ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية ، كان التعبير: ولا تقربوا . . للنهي عن مجرد الاقتراب ، سدا للذرائع ، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة . . لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمدة - ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة . ولذلك كان التبرج - حتى بالتعطر في الطريق - حراما ، وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ، والإشارات المثيرة ، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا في المقاومة ! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح .

وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . . . وكذلك نعلم ما الذي يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة ، من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائر من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام ! (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) . . . ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك ، والزنا ، وقتل النفس . . . ذلك أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة ! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ؛ والثانية جريمة قتل للجماعة ، والثالثة جريمة قتل للنفس . ولقد سبق النهي عن قتل الأولاد من إملاق . فالآن ينهى عن قتل (النفس) عامة . فيوحي بأن كل قتل فردي إنما يقع على جنس (النفس) في عمومه . تؤيد هذا الفهم آية: (. . . أنه من قتل نفسا ، بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكانما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) . . . فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها ، وعلى النفس البشرية في عمومها . وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء . وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإسلام وأمنها ، وانطلاق كل فرد فيها للعمل وينتج أمنا على حياته ، لا يؤدي فيها إلا بالحق . والحق الذي تؤخذ به النفس بينه الله في شريعته ، ولم يتركه للتقدير والتأويل . ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة ، وأصبح لها من السلطان ما يكفل لها تنفيذ الشريعة ! وهذه اللبنة لها قيمتها في تعريفنا بطبيعة منهج هذا الدين في النشأة والحركة . فحتى هذه القواعد الأساسية في حياة المجتمع ، لم يفصلها القرآن إلا في مناسبتها العملية . وقبل أن يمضي السياق في بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذي يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) . وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآني في ربط كل أمر وكل نهى بالله . تقريراً لوحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس ، وربطاً للأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس ! كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل . فالعقل يقتضي أن تكون هذه السلطة وحدها هي التي تعبد الناس لشرعها . وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف في حياة الناس ! وهذا وذلك فوق ما في الطائفة الأولى من التجانس . وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس . فجعل هذه في آية ، وتلك في آية ، وبينهما هذا الإيقاع (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) واليتيم ضعيف في الجماعة ، يفقده الوالد الحامي والمربي . ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة - على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي - وكان اليتيم ضاعفاً في المجتمع العربي في الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة في القرآن وتنوعها وعنفها أحياناً تشي بما كان قاسياً في ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه ؛ حتى أتتبه الله يتيماً كريماً فيه ؛ فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة ، وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالاته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن لليتيم . فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده . أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمي ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً ؛ وسلمته حقه كاملاً . وهناك خلاف فقهي حول سن الرشد أو بلوغ الأشد . . عند عبد الرحمن بن زيد وعند مالك ، بلوغ الحلم . وعند أبي حنيفة خمسة وعشرون عاماً . وعند السدي ثلاثون ، وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معا بدون تحديد . (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا تكلف نفساً إلا وسعها) .

وهذه في المبادلات التجارية بين الناس في حدود طاقة التحري والإنصاف . والسياق يربطها بالعقيدة ؛ لأن المعاملات في هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة . والذي يوصي بها ويأمر هو الله . ومن هنا ترتبط بقضية الأكوهية والعبودية ، وتذكر في هذا المعرض الذي يبرز فيه شأن العقيدة ، وعلاقتها بكل جوانب الحياة . . . ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء ، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة ، للدلالة على طبيعة هذا الدين ، وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة والمعاملة ، في أنها كلها من مقومات هذا الدين ، المرتبطة كلها في كيانه الأصل (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . . . فهنا منزلة من مزلات الضعف البشري . الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ؛ وفي قوة القرابة سند لضعفه ؛ وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده ! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم ، أو القضاء بينهم وبين الناس . . . وهنا في هذه المنزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من جبل الوريد . . . لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التي قبله - مذكراً بعهد الله (وبعهد الله أوفوا) . . . ومن عهد الله قولته الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . . . وقبل ذلك كله . . . من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر ، المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها . ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) . . . والذكر ضد الغفلة . والقلب الناظر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد . . . هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومخومة بعهد الله ، وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع . . . هذه هي صراط الله المستقيم . . . صراطه الذي ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . . . وهكذا يختم القطاع الطويل من السورة الذي بدأ بقوله تعالى (أفغير الله أتبعي حكماً ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) وانتهى هذه النهاية ، بهذا الإيقاع العريض العميق . . .

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ {154}) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {155} } ، إِنَّ تَقُولُوا ، إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عِندَ رَبِّنَا لَمَّا كُنَّا بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ {156} } أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ . وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمِنَ الظُّلُمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنِّي آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ {157} } هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتظروا إِنَّا منتظرون {158} } ، إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ {159} } مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {160} } قُلِ إِنِّي هُدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {161} } ، قُلِ إِنَّ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {162} } لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ {163} } قُلِ أَغْيَرَ اللَّهُ رُبَّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {164} } وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } {165}

لم ينقطع تدفق السياق في الموضوع الأساسي الذي يعالجه شطر السورة الأخير - وهو موضوع الحاكمية والتشريع وعلاقتها بالدين والعقيدة - وهذا الشوط الجديد هو امتداد في العرض ، وامتداد في الحشد ، لتقرير هذه الحقيقة . وهو يتحدث عن المبادئ الأساسية في العقيدة - يصدد التشريع والحاكمية - كما كان الشطر الأول من السورة يتحدث عن هذه المبادئ في العقيدة - يصدد الدين والعقيدة . ذلك ليقرر أن قضية التشريع والحاكمية هي كذلك قضية الدين والعقيدة . وعلى ذات المستوى الذي يعرض به المنهج القرآني هذه الحقيقة . ومما يلاحظ أن السياق يستخدم في شطر السورة الثاني ذات المؤثرات والموجيات والمشاهد والتعبيرات التي حشدها في الشطر الأول منها: يتحدث عن الكتب والرسول والوحي والآيات التي يطلبونها . ويتحدث عن الدمار والهلاك الذي يعقب وقوع الآيات والتكذيب بها . ويتحدث عن الآخرة وقواعد الدينونة والجزاء فيها . ويتحدث عن المفصلة بين الرسول ﷺ وقومه الذين يعدلون بربهم ويتخذون من دونه أربابا يشرعون لهم . ويوجه الرسول ﷺ إلى إعلان حقيقة دينه جليلة واضحة حاسمة . ويتحدث عن الربوبية الواحدة للعالمين جميعا ، والتي لا يجوز أن يتخذ المؤمن من دونها ربوبية أخرى . ويتحدث عن ملكية رب العالمين لكل شيء ، وتصريفها لكل شيء ، وعن استخلاف الله للناس كيف شاء ، وقدرته على الذهاب بمن يشاء منهم عندما يشاء . وهذه هي ذاتها القضايا والحقائق ، والمؤثرات والموجيات التي حشدها في أول السورة عند عرض حقيقة العقيدة في محيطها الشامل . محيط الألوهية والعبودية وما بينهما من علائق . . . ولا ريب أن لهذا دلالة التي لا تخفى على من يتعامل مع القرآن الكريم ومع المنهج القرآني .

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى . . . وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم: (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم . وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام ؛ وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شيء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بقاء الله في الآخرة: (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ، وتفصيلا لكل شيء ، وهدى ورحمة ، لعلهم بقاء ربهم يؤمنون) . ويستمر

فيذكر الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها ، رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله في الدنيا والآخرة: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) . . . ولقد نزل هذا الكتاب قطعا لحجة العرب ، كي لا يقولوا: إنه لم ينزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكانا أهدى منهم ، فما هو ذا كتاب ينزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الآليم: (أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكانا أهدى منهم . . . فقد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب آيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) . . . لقد أنقطعت المحجة بنزول هذا الكتاب ؛ ولكنهم ما يزالون يشركون بالله ؛ ويشرعون من عند أنفسهم ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذي يفترونه . وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليلصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه . ولو جاءتهم الآيات التي يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيرا . قل: انتظروا إنا منتظرون) وعند هذا الحد يفصل الله - سبحانه - بين بينه ﷺ وسائر الملل المتفرقة التي لا تقوم على توحيد الله عقيدة وشريعة . ويقرر أن أمرهم إليه - سبحانه وتعالى - وأنه هو محاسبهم ومجازيهم وفق عدله ورحمته (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) . وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا القطاع - وهو الإيقاع الأخير في السورة - في تسيحة ندية رحية ، حازمة كذلك حاسمة ، تلخص أعماق الحقائق العقيدية في هذا الدين: التوحيد المطلق ، والعبودية الخالصة ، ووحدة الآخرة ، وفردية التبعة والابتلاء في دار الدنيا . وسلطان الله المتمثل في ربوبيته لكل شيء ؛ وفي استخلافه للعباد في ملكه كيف شاء بلا شريك ولا معقب . . . كما ترسم تلك التسيحة المدينة صورة باهرة لحقيقة الألوهية ، وهي تتجلى في أخلص قلب ، وأصفى قلب ، وأظهر قلب . . . قلب رسول الله ﷺ . . . وذلك في مستوى من التجلي لا يصوره إلى التعبير القرآني ذاته: قل: إني هداني ربي إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تخطفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلبوكم في ما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ، وتفصيلا لكل شيء ، وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون) . . . هذا الكلام معطوف بتم على ما قبله . . . وتأويله : (قل تعالوا آتوا حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا . . .) (وأن هذا صراطي مستقيما) . . . معطوفة على جملة (ألا تشركوا) (ثم آتينا موسى الكتاب . . .) معطوف عليهما كذلك باعتباره من القول الذي دعاهم ليقوله لهم ﷺ فالسياق مطرد كما أسلفنا . وقوله (تماما على الذي أحسن) . . . وتأويله - كما اختار ابن جرير آتينا موسى التوراة تماما لنعمنا عنده ، وإيادينا قبله ، تتم به كرامتنا عليه ، على إحسانه وطاعته ربه ، وقيامه بما كلفه من شرائع دينه ، وتبييننا لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم وقوله : (وتفصيلا لكل شيء) كما قال قتادة: فيه حلاله وحرامه . وهدى ورحمة لعل قومه يهتدون ويؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه . . . هذا الغرض الذي من أجله آتينا موسى الكتاب ، جاء من أجله كتابكم ، لعلكم تتألون به الهدى والرحمة (وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وإنه لكتاب مبارك حقا - كما فسرنا ذلك من قبل عند ورود هذا النص في السورة أول مرة وهو هنا يذكر بمناسبة الحديث عن الشريعة بنص مقارب ! ويؤمرون باتباعه ؛ وتناط رحمتهم من الله بهذا الاتباع . والكلام هنا بجملته في معرض الشريعة ، بعد ما تناولته أوائل السورة في معرض العقيدة . وقد بطلت حجتكم ، وسقطت معذرتكم ، بتنزيل هذا الكتاب المبارك إليكم ، تفصيلا لكل شيء . بحيث لا تحتاجون إلى مرجع آخر وراءه ؛ وبحيث لا يبقى جانب من جوانب الحياة لم يتناوله فتحتاجون أن تشرعوا له من عند أنفسكم (أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكانا أهدى منهم . . . فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . . . فمن أظلم ممن كذب آيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) لقد شاء الله سبحانه أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم . . . حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمدا خاتم النبيين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولا إليهم أجمعين . والله - سبحانه - يقطع الحجة على العرب أن يقولوا: إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما . ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام . ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا ، يخاطبنا ويندربنا لكانا أهدى من أهل الكتاب . . . فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم - وإن كان رسولا للناس أجمعين - وجاءهم بكتاب هو بينة في ذاته على صدقه . وهو يحمل إليهم حقائق بينة

كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما هم فيه من ضلالة ، ورحمة لهم في الدنيا والآخرة . . فإذا كان ذلك كذلك ، فمن أشد ظلما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهي تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟ من أشد ظلما لنفسه وللناس بصدده لنفسه وللناس عن هذا الخير العظيم ، وبإفساده في الأرض بتصورات الجاهلية وتشريعاتها . . إن الذين يعرضون عن هذا الحق في طبعهم أفة تميّلمهم عنه ؛ كالأفة التي تكون في خف البعير فجعّله يصدف - أي يميل - بجسمه ولا يستقيم ! وهم إنهم (يصدفون) عن الحق والاستقامة ، كما يصدف البعير المريض عن الاعتدال والاستقامة ! وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) إن التعبير القرآني يستخدم مثل هذا اللفظ ، المنقول في اللغة من حالة حسية إلى حالة معنوية ليستصح في الحس أصل المعنى . . فيستخدم هنا لفظ " يصدف " وقد عرفنا أنه من صدف البعير إذا مال بخفه ولم يعتدل لمرض فيه ! كذلك يستخدم لفظ (يصعر خده) وهو مأخوذ من داء الصعر الذي يصيب الإبل - كما يصب الناس - فتعرض صفحة خدها ، اضطرابا ، ولا تملك أن تحرك عنقها بيسر ، ومثله استخدام لفظ (حبطت أعمالهم) . . من حبطت الناقة إذا رعت نباتا مسموما فانتفخ بطنها ثم ماتت ! ومثلها كثير . . ويمضى في هذا التهديد خطوة أخرى ، للرد على ما كانوا يطلبونه من الآيات والخوارق حتى يصدقوا بهذا الكتاب . . وقد مضى مثل ذلك التهديد في أوائل السورة عند ما كانت المناسبة هناك مناسبة التكذيب بحقيقة الاعتقاد . وهو يتكرر هنا ، والمناسبة الحاضرة هي مناسبة الإعراض عن الاقباع والتقيد بشريعة الله : فقد جاء في أول السورة : (وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون) . . وجاء هنا في آخرها (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا : قل : انتظروا ! إنا منتظرون) . . إنه التهديد الواضح الحاسم . فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتما إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون . . والله سبحانه يقول لهم : إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضى عليهم بعده . . وإنه يوم تأتي بعض آيات الله تكون الخاتمة التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . . لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملا صالحا في إيمانها . فالعمل الصالح هو دائما قرين الإيمان وترجمته في ميزان الإسلام . بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة في الأرض - بما فيها ملة المشركين العرب (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء . إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون) . . إنه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل . . سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أهوام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعا وفرقا وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلا ومعسكرات ودولا . أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة إلى يوم الدين . إن رسول الله ﷺ ليس من هؤلاء كلهم في شيء . . إن دينه هو الإسلام وشريعته هي التي في كتاب الله ؛ ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ؛ ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات . . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام . . إسلامي . . وشيء آخر . . !! إن الإسلام إسلام فحسب . والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب . والنظام الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الإسلامي إسلامي فحسب . . ورسول الله ﷺ ليس في شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان !

إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمة فيه لله وحده - وبالتعبير الآخر : ليست الألوهية والربوبية فيه لله وحده - إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى . . قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهاة أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما في الإسلام ! إن الدين عند الله الإسلام . . ورسول الله ﷺ ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام . وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع . . ورسول الله ﷺ ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج الله منها ، وغير شريعة الله شرعا . . الأمر هكذا جملة . وللنظرة الأولى . بدون دخول في التفصيلات ! وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا ، وبرئ منهم رسول الله ﷺ بحكم من الله تعالى . . أمرهم بعد ذلك إلى الله ؛ وهو محاسبهم على ما كانوا يفعلون (إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون) وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده . فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن - فليس مع الكفر من حسنة ! - فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسينة فلا يجزى إلا مثلها ؛ لا يظلم ربك أحدا ولا يبخسه حقه (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسينة فلا يجزى إلا مثلها . وهم لا يظلمون وفي ختام السورة - وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمة - تجيء التسيحة الندية الرخية ، في إيقاع حبيب إلى النفس قريب ؛ وفي تقرير كذلك حاسم فاصل . . ويتكرر الإيقاع الموحى في كل آية : (قل) . . ويلمس في كل آية أعماق القلب البشري لمسات دقيقة عميقة في مكان التوحيد . . توحيد

الصراط والملة . توحيد المتجه والحركة . توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة . . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته (قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . قل:أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم . إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم) هذا التعقيب كله ، الذي يؤلف مع مطلع السورة لحنا رائعا باهرا متناسقا ، هو تعقيب ينتهي به الحديث عن قضية النباتح والنذور والثمار ، وما تزعمه الجاهلية بشأنها من شرائع ، تزعم أنها من شرع الله افتراء على الله . . فأية دلالة يعطيها هذا التعقيب ؟ إنها دلالة لا تحتاج بعده ما سبق من البيان إلى مزيد (قل:إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) . . إنه الإعلان الذي يوحى بالشكر ، ويشي بالثقة ، ويفيض باليقين . . اليقين في بناء العبادة اللفظي ودلالاتها المعنوية ، والثقة بالصلة الهادية . . صلة الربوبية الموجهة المهمة الراعية . . والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذي لا التواء فيه ولا عوج (دينا قيما) . . وهو دين الله القديم منذ إبراهيم . أبي هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب (ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين) (قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . . إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة . بالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . وبالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه .إنها تسبيحة "التوحيد" المطلق ، والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده . لله (رب العالمين) . . القوام المهيم المتصرف المرابي الموجه الحاكم للعالمين . . في "إسلام" كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعيدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئا في الضمير ولا في الواقع . . (وبذلك أمرت) . . فسمعت وأطعت (وأنا أول المسلمين) (قل:أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) . . كلمة تنقضى السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن ؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما جهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن في السر والعلانية . . ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن في هذا الكون الهائل ؛ وتعبيها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة . ثم تعجب في استنكار (أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ؟) أغير الله أبغي ربا يحكمني ويصرف أمري ويهيم علي ويقومني ويوجهني ؟ وأنا مأخوذ بنيتي وعملي ، محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟ أغير الله أبغي ربا . وهذا الكون كله في قبضته ؛ وأنا وأنتم في ربوبيته ؟ أغير الله أبغي ربا وكل فرد مجزي بذنبه لا يحمله عنه غيره ؟ (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى) . . أغير الله أبغي ربا وإليه مرجعكم جميعا فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ؛ أغير الله أبغي ربا ، وهو الذي استخلف الناس في الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في العقل والجسم والرزق ؛ ليبئليهم أشكرون أم يكفرون ؛ أغير الله أبغي ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟ أغير الله أبغي ربا ، فأجعل شرعه شرعا ، وأمره أمرا ، وحكمه حكما . وهذه الدلائل والموجيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟ ؛ إنها تسبيحة التوحيد الرخية الندية ؛ يتحلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هي في قلب رسول الله ﷺ وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآني الفريد . . إنه الإيقاع الأخير في السياق الذي استهدف قضية الحاكمية والشريعة ؛ يجيء متناسقا مع الإيقاعات الأولى في الصورة ، تلك التي استهدفت قضية العقيدة والإيمان ؛ من ذلك قوله تعالى:(قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم) قل:إنني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل:إنني أخاف إن عصبت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين) . . وغيرها في السورة كثير . .

خاتمة تفسير سورة الأنعام

ولا نحتاج أن نكرر ما قلناه مرارا من دلالة هذه المعاني التي تتردد في المطالع والختام . فهي صور متنوعة للحقيقة الواحدة . . الحقيقة التي تبدو مرة في صورة عقيدة في الضمير . وتبدو مرة في صورة منهج للحياة . . وكلتا صورتين تعنيان حقيقة واحدة في مفهوم هذا الدين . . ولكننا نتلفت الآن - وقد انتهى سياق السورة - على المدى المتطاوول ، والمساحة الشاسعة ، والأغوار البعيدة . . تلك التي تتراءى فيها أبعاد السورة - ما سبق منها في الجزء السابع وما نواجه منها في هذا الجزء - فإذا هو شيء هائل هائل . . وننظر إلى حجم السورة ، فإذا هي كذا صفحة ، وكذا آية ، وكذا عبارة . . ولو كان هذا في كلام البشر ما اتسعت هذه الرقعة لعشر معشار هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والمؤثرات والموجيات ؛ في مثل هذه المساحة المحدودة ! . . وذلك فضلا على المستوى المعجز الذي تبلغه هذه الحقائق بذاتها ، والذي يبلغه التعبير عنها كذلك . . ألا إنها رحلة شاسعة الاماد ، عميقة

الأغوار ، هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع السورة . . رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة . . رحلة تكفي وحدها لتحصيل "مقومات التصور الإسلامي" !

حقيقة الألوهية بروعتها وبهائنها وجلالها وجمالها . .

وحقيقة الكون والحياة وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون ، ومن قدر مجهول ، ومن مشيئة تمحو وتثبت ، وتنشئ وتعدم ، وتحيي وتميت ، وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء .

وحقيقة النفس الإنسانية ، بأغوارها وأعماقها ، ودروبها ومنحنياتها ، وظاهرها وخافيتها ، وأهوائها وشهواتها ، وهداها وضلالها ، وما يوسوس لها من شياطين الإنس والجن . وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال . .

ومشاهد قيامة ، ومواقف حشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار . ولقطات من تاريخ الإنسان في الأرض ؛ ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

وحشود وحشود من هذه المجالي التي لا نملك تلخيصها في هذه العجالة . والتي لا تعبر عنها إلا السورة نفسها ، في سياقها الفريد ، وفي أدائها العجيب .

إنه الكتاب "المبارك" . . وهذه - بلا شك - واحدة من بركاته الكثيرة . . والحمد لله رب العالمين .

الفهرس .

سورة الواقعة:	ص: 3
سورة الشعراء:	ص: 9
سورة النمل:	ص: 27
سورة الإسراء:	ص: 66
سورة يونس:	ص: 90
سورة هود:	ص: 118
سورة يوسف :	ص: 162
سورة الحجر :	ص: 200
سورة الأنعام :	ص: 217
الفهرس :	ص: 300



الأستاذ سيد قطب : أديب و كاتب و مفكر مصري مسلم

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون ؟ نعم ! ولكنها القدرة تتحدى تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدى فرعون وهامان وجنودهما . إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر . . . فما هي ذي القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين ! ها هي ذي تلقيه في أيديهم مجردا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستجد ! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهم الوالدات ! ثم ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية (ليكون لهم عدوا وحرنا) . ص: 50

إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمة فيه لله وحده - وبالتعبير الآخر: ليست الألوهية والربوبية فيه لله وحده - إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى . . قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهاة أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما في الإسلام ! إن الدين عند الله الإسلام . . ورسول الله ﷺ ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام ، وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع . . ورسول الله ﷺ ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج الله منهجا ، وغير شريعة الله شرعا . . الأمر هكذا جملة . وللنظرة الأولى . بدون دخول في التفصيلات ! . ص: 292

